

تدبر القرآن بقواعد علم الرحمان

القرآن بين القراءة والتلاوة

خليد بنعكراش

دار الوطن
للصحافة والطباعة والنشر

تدبر القرآن
بقواعد علم الرحمان

القرآن بين القراءة والتلاوة

خليد بنعكراش



الكتاب: **تدبر القرآن بقواعد علم الرحمان**

القرآن بين القراءة والتلاوة

الكاتب: خليد بنعكراش

الصنف: دراسة

الناشر: دار الوطن للصحافة والطباعة والنشر

رقم الإيداع القانوني: 2019MO4558

الترقيم الدولي: (ردمد) ISBN: 978-9954-648-54-4

الطبعة الأولى: 2019

الخدمات الفنية والطباعية:



7، رقم 1، زنقة الكوفة، شارع مولاي يوسف، الرباط 10000 - المغرب

تلفونات:

مكتب: 212537703936+

جوال: 212673420256+

البريد الإلكتروني:

daralwatan2018@gmail.com

الإخراج الداخلي والغلاف: خديجة آيت سعيد

السحب: مطبعة لامبريمور - سلا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ البقرة148

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ البقرة177

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ المائدة48

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ النحل92

﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ
114يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ آل عمران113

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة62

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ المائدة66

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ الجاثية6

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا محمد24

المقدمة

بسم الله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وبعد:

منذ أن حق علي الصيام ، وأنا أؤمن بأن هناك ليلة القدر في العشر الأواخر من شهر رمضان يستجاب فيها الدعاء، وكانت وإلى يومنا هذا، تُنقل لنا عبر شاشة التلفاز صلاة التراويح من بيت الله الحرام، ابتداءً من صلاة العشاء وإلى صلاة الفجر، وعند قضاء كل صلاة، يبدأ الإمام بالدعاء للمؤمنين أن يُعزهم الله تعالى وأن يحرر فلسطين، ثم يدعو على الكفار وخصوصا أمريكا وإسرائيل، أن يذلهم الله تعالى، ومرت السنين ومازالت تمر، فنلاحظ تقدم دولة إسرائيل واحتلالها لفلسطين، وتقدم اقتصاد أمريكا وسيطرتها على العالم.

فبدأت أفكر وأتساءل، أولم يقل الله تعالى في كتابه العزيز في سورة النمل62[**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ**]؟ وها نحن اضطررنا لدعاء ربنا في ليلة القدر، في بيته المحرم، في شهر رمضان المعظم، ومع ذلك لم يستجب تعالى لدعائنا.

أولم يقل كذلك في سورة البقرة186 [**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**]؟ وها نحن ندعوه في ليلة القدر من كل سنة، في بيته المحرم وفي جميع مساجد العالم، والملايين من المصلين يقولون آمين، وها هي الأمور لم تتغير، وهاهم المسلمون منهم من يقتل ويذبح بعضه بعضا، ويذكر اسم الله عليه كالأنعام، ويستحيي بعضهم نساء بعض، وأصبح بعضهم يستنجد بالذي كان يدعو الله بالأمس أن يُذلّه، ليحميه من الذي كان يدعو الله بالأمس أن يُعزّه.

فأخذت أبحث عن السبب لعدم استجابة الله تعالى لدعائنا، وذلك لمدة تزيد عن عشرين سنة حتى وجدته، وكان موجودا مند القرن السابع ميلادي، وجدته في كتاب الله عز وجل في سورةالفرقان27[**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا28يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا29لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا30وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**]

فالله تعالى قال هنا[اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا] ولم يقل - هجروا القرآن - لأننا نحن لم نهجر القرآن، بل نحفظه عن ظهر قلب، ونتفنن في ترتيله وتجويده ونفتخر بذلك وكلما حفظناه أصبحنا من الصالحين، وكان لنا شفيعا يوم القيامة، وهذا ما ورثناه عن آبائنا ولم ينزل الله به من سلطان، وأهملنا تدبر كتاب الله تعالى كما أمرنا سبحانه في سورة محمد24[أفلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا] وكأنّ الله تعالى أنزل كتابه لتلاوة آياته فقط، وليس لتدبرها لكي نفقه هدى ورحمة وعدل ما جاء به القرآن، والذي فصّل وبيّن فيه سبحانه كل شيء كما جاء في سورة يوسف111[مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] وكذلك في سورة النحل89[وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ] لكي لا نحتاج لأيّ كتاب آخر قد يضلنا عن ما جاءت به رسالة محمد ص وبالتالي تكون لنا على الله تعالى حجة يوم القيامة كما جاء في سورة النساء165[رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا]

كلنا نعلم ما عانه محمد ص في أول الرسالة، فقد كان هناك سببان رئيسيان لتلك المعانة، السبب الأول، نظرة الناس إلى شخصيته وليس إلى ما جاء به، فقالوا له كيف نؤمن لك وأنت بشر مثلنا، وكنت راعيا وليس لك أيّ مركز اجتماعي، كما جاء في سورة الفرقان7[وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا]

والسبب الثاني، عدم استطاعتهم الخروج من تلك الكينونة التي كانوا فيها، وكان سببها تقديس آبائهم كما جاء في سورة الزخرف22[بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ] وأحبارهم ورهبانهم كما جاء في سورة التوبة31[اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ]

وهذا هو حالنا إلى يومنا هذا، فنحن كذلك قدسنا آباءنا وأئمتنا وشيوخنا، فلم نعد ننظر إلى كتاب الله بعقولنا، ولكن بعقول أسلافنا، مما جعلنا نهجر تدبر القرآن، بدعوى أن آباءنا تدبروه، وما عقلوه آنذاك هو الحقيقة المطلقة، وأصبح من الواجب علينا اتباع ما وصلوا إليه من آراء وعدم مخالفتها، فنحن كذلك مازالت قلوبنا في أكنة وقوللة مما يقول ربنا.

وهكذا اعتمد فقهنا على الحفظ عن ظهر قلب لأقوال آبائنا، حتى أصبح النقل أساس الفقه حسب عرفهم آنذاك، وليس العقل كما أمرنا ربنا، فصار الفقيه ينعت بالحافظ

وأصبح واجب علينا كلّما أردنا أن نستنبط أحكاما شرعية، رجعنا إلى أقوال أئمتنا وشيوخنا دون الرجوع مباشرة إلى كتاب الله تعالى، ظنا منا أنهم لا يخطئون، وما عقلوه آنذاك هو من ثوابت الدين، فأصبح فهمهم وآراؤهم كقول الله تعالى ولا يمكننا مجادلته، وإذا تجرأ أحد على ذلك اتهم بالطعن في الدين، كما لو أنه طعن في كلام الله عز وجل، وهكذا صارت آراؤهم دينا وليس فقها، مما يجعلهم أندادا لله تعالى، وهذا الذي أدّى إلى بداية صراع دموي بين أتباع المذاهب الأربعة المشهورين ما بين القرن الخامس والسادس الهجري، وذلك لتعصبهم لأئمتهم، فكان المالكي يُكفّر الشافعي لأنه خالف رأي إمامه، والحنبلي يكفّر الحنفي لنفس الأمر.

ولهذا قال الله تعالى مخاطبا الذين أوتوا الكتاب من قبلنا في سورة الأنعام153[وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] وها نحن كذلك، أهملنا تدبر كتاب الله تعالى، واتّبعنا كتبا أخرى ففرقت بيننا وأصبح البعض منا يُكفّر البعض الآخر، ويحلّ بعضهم دم بعض، ويقول كل منهم قتلاه في الجنة وقتلى الآخر في النار، وهذا ما حذّر منه محمد ص كما جاء في الحديث النبوي الذي أخرجه الألباني في صحيح النسائي عن عبد الله بن مسعود قال: < لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، لا يُؤخذ الرجل بجريرة أبيه، ولا بجريرة أخيه> وكما جاء كذلك في الحديث النبوي الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن جندب بن عبد الله قال: < من قُتل تحت راية عِمّية يدعو عصبية، أو ينصر عصبية فقِتلةٌ جاهلية>

ولهذا أمر تعالى باتباع كتابه لكي لا يكون أيّ اختلاف بين المسلمين كما جاء في سورة الأنعام155[وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ] والذي سيحاسبون على ما جاء به يوم القيامة كما قال تعالى في سورة الجاثية29[هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ] ولن ينفعهم ما جاءت به الكتب البشرية.

فالله تعالى قال في سورة النساء166[لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا] وهنا كما نرى، قال تعالى[أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ] يعني أن كتاب الله تعالى هو من علمه سبحانه، وكما نعلم لكل علم قواعده، وكذلك علمه عز وجل، فهو عندما قال في سورة النساء82[أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ] تابع قائلا[وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا] وذلك لأن الله عز وجل وضع بداخل القرآن قواعد محددة كما هي جميع العلوم، وتخضع لها كل آيات الكتاب، وكلما التزم بها المرء إلاّ واستطاع الوصول إلى حقيقة ما جاء به محمد ص، ولهذا قال تعالى أربع مرات في

سورة القمر[وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ] ولن يحتاج لأيّ كتاب آخر، ولهذا قال تعالى في سورة النحل89 [وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ] وفي سورة يوسف111 [مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ]

فتصديقا لقوله تعالى وإيمانا بعلمه، انكببت على البحث داخل المصحف وليس خارجه على الشروط والقواعد التي وضع هو سبحانه وليس غيره، طبقا لقوله في سورة يوسف76 [وفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ] لمعرفة كل ما بيّنه وفصّله في كتابه لكي لا يحتاج المرء لأيّ فتوى أو كتب بشرية، إلى أن استطعت الوصول إلى أهمها، وبالتالي الطريقة التي أحكم بها تعالى آيات الكتاب.

فالله تعالى وضع شرطين أساسين، أولهما عدم اتباع الظن، أي عدم الأخذ بقول الآخر دون دليل من القرآن ولو كان من أرحامنا وخصوصا الوالدين كما جاء في سورة لقمان15 [وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا] وثانيهما استعمال العقل واجتناب النقل، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة170 [وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ] وذلك لأن عقل الإنسان يتطور حسب تطور العصور وتغيّر الآليات، وكل إنسان مسؤول على فهمه وليس فهم الآخر، ولهذا قال تعالى في سورة الملك10 [وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ]

ووضع تعالى قواعدَ عدة أحكم بها آيات الكتاب، منها ما هي أساسية وهي ستّ وتخضع لها كل الآيات، بيّنها تعالى في آيات سنذكرها في هذه المقدمة، وسنفصّل بعد ذلك كل واحدة على حدة، حتى يتبيّن للمرء كيف يستعملها لتدبر القرآن بنفسه، ولا يكون عبدا لأيّ شيخ أو إمام، وبالتالي يستطيع أن يُفرّق بنفسه بين الحق والباطل، وهي التي سنعتمد عليها في الآيات التي سنتدبرها نظرا لأهميتها، وما استنتج عنها من عواقب لعدم خضوعها للقواعد الربانية، وأما القواعد الأخرى فسيتبيّن بعضها حسب تدبر الآيات.

وهذه القواعد هي كالتالي:

- القاعدة الأولى في سورة الزخرف3 [إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ]

- القاعدة الثانية في سورة الشعراء129 [نزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ]

- القاعدة الثالثة في سورة ص29[كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ]

- القاعدة الرابعة في سورة الزمر27[وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ |28قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُون29ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ]

- القاعدة الخامسة في سورة الكهف54[وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا]

- القاعدة السادسة في سورة هود1[الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ]

وهناك كذلك قاعدة خاصة بطريقة الخطّ، والتي بينّاها في فقرة < كتّاب الوحي>

أنا لا أرغب في تفسير القرآن كله ولن أستطيع، وكل ما أريده هو إثبات بأن كل إنسان اعتمد على هذه القواعد التي وضعها الله تعالى في كتابه، إلاّ واستطاع تدبر القرآن حسب ذكائه والآليات التي يتوفر عليها، لأن الله سبحانه لا يحمّل الإنسان ما لا يستطيع كما جاء في سورة المؤمنون62[ولَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ] و يعفو عن الخطأ كما جاء في سورة الأحزاب5[وليْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا] لكنه لا يتجاوز عن الجهل واتباع الظن كما جاء في سورة البقرة78[وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ] ولهذا قال تعالى في سورة النجم28[وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا]

وكلما اتبع المرء القواعد التي وضعها تعالى لتدبر القرآن، إلاّ وعلم بأن الله عز وجل بريء ورسوله من كل نقطة دم باسمه سُفكت، ومن كل نفس في دينها أُكرِهت أو من ديارها أُخرِجت، ومن كل صغيرة عند طفولتها أُنكِحت، ومن كل أنثى من حريتها سُلبت، وفي البيوت سُجنت وفي الأسواق بيعت كما جاء في سورة التكوير8[وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ9بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ] وتيقّن بأن الله تعالى هو أرحم الراحمين، وأن رسوله على خلق عظيم، وأن كتابه لا يحثّ على الإكراه والكره والانتقام، وإنما على الحرية والمودة والغفران.

فكيف بإله يقول في سورة فصلت 34[وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ 35 وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا

إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ] وفي سورة النور22[وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ] وفي سورة آل عمران159[فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ]

ثم نجد من يُفتي بقتل القاتل! والله يقول في سورة البقرة178[يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى] وليس – القتلى بالقتلى -؟ وبتر يد السارق! والله يقول في سورة المائدة38[وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا] وليس – يديهما – أو بالأحرى – يمينهما - ؟ وقمع المرأة! والله يقول في سورة الإسراء70[وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ] وليس – كرمنا الرجل -؟ وقتل المرتد والكافر، والله يقول في سورة الكهف29[وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ] وكذلك في سورة يونس99[وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ] ونفس الشيء في سورة الشعراء3[لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ 4إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ] ونجد كذلك روايات تزعم بأن محمدا ص أمر بذبح أزيد من ثمانمائة من البشر لخيانتهم له بأمر من الله سبحانه لا وجود له في القرآن! والله يقول في القرآن في سورة النساء105[وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا] وليس – اقتل الخائنين – والله يقول كذلك في سورة الأنفال61 [وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ] وليس – إن جنحوا للسلم فلا تجنح لها - ؟ والأمثلة كثيرة في القرآن

فإن كان هناك تناقض بين ما أنزل الله تعالى على رسوله وما جاء به فقه آبائنا، فلابد أن يكون هناك خلل، ولا يمكن أن يكون بداخل كتاب الله العزيز ولكن خارجه، فحقّ علينا أن لا نستمر في اتخاذه مهجورا، وأن نرجع إليه ونتدبره بعقولنا، عقول القرن الواحد والعشرين الميلادي، ونتحمّل مسؤوليتنا لكي لا نصد الناس عن سبيل الله عز وجل و يتبرأ منا رسوله وآباؤنا يوم القيامة، ولهذا قال الله تعالى في سورة البقرة170 [وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ]

القاعدة الأولى (قرآن عربي)

إذا كانت القواعد التي وضعها الله تعالى في كتابه، هي آيات بيّنات، وجب علينا أن نتدبرها هي كذلك، حتى نعرف كيف نستعملها في تدبر كتابه سبحانه بطريقة صحيحة، ونتجنب الوقوع في الخطأ فلا يكون اختلاف في تفسير الآية ، وبالتالي اختلاف في أحكام الله سبحانه.

فأول قاعدة إذًا هي الآية التي جاءت في سورة الزخرف3[إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] والتي جاءت كذلك في سورة يوسف2[إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] فكما نرى، الآيتان معا تنتهيا بكلمة يعقلون، وذلك يعني أنه لا يمكن للمرء أن يعقل ما بداخل القرآن إلاّ إذا تدبره باللغة العربية، والتي تتكون من 28 حرفا، والكل يعلم بانه ليس كل كلمة تُكتب بالحروف العربية هي من اللسان العربي، ولهذا وضع الله تعالى القاعدة الثانية، وهي اللسان العربي. فنحن يمكننا أن نكتب كلمة أعجمية بحروف عربية ونقرأها باللغة العربية، لكنها لا تُعدّ من اللسان العربي ككلمة سينما مثلا، فهي ليس لها جذر لغوي على وزن فعل، وإنما هي دخيلة على اللغة العربية، فهي كُتبت بالحروف العربية ولكنها ليست من اللسان العربي الذي ينعت السينما بالخيالة، وانما صارت من لسان العرب، ولهذا عندما قال سبحانه[إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] وكذلك[إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] فهذا يعني أن الله تعالى أنزل كتابه، وجعله بقراءة عربية، فحروفه إذًا عربية، والكلمات التي كُتبت بها هي كذلك عربية، وهذا ينفي كل قول يدلّ على أن القرآن يتضمن كلمات أعجمية كالسريانية مثلا أو الحبشية، ولهذا قال سبحانه في سورة فصلت3[كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ] يعني أن الله تعالى فصّل آيات كتابه ليتدبرها المرء بقراءة عربية، ولا يمكن تدبرها بلغة أعجمية كما يقع في أيامنا هاته عبر المصاحف المترجمة، وهذا لا يصح.

فالقرآن إذًا جعله الله تعالى عربيا، يعني حروفه عربية، والكلمات التي كُتبت بهذه الحروف هي كذلك عربية، وكل من قال بأن القرآن يحتوي على حروف غير عربية كالحروف التي جاءت في بداية بعض السور، فهو قد ناقض قول الله تعالى، فالله تعالى لا يمكن أن يأمرنا بتدبر القرآن باللغة العربية، وبقراءة عربية، ثم يجعل بداخله

حروفا أو كلمات غير عربية، ولهذا وجب علينا الأخذ بهذه القاعدة، وعدم الخروج عنها حتى لا نزيغ عن فهم آيات كتاب الله تعالى.

الكل يعلم بأن كل لغة لها أصولها وقواعدها، وكذلك اللغة العربية، فكل كلمة لها جذرها اللغوي الذي لا يمكن أن يتجزأ، فمنها الثلاثي المجرد وهو الغالب، وبعضها رباعي مزيد، إلى آخره. لكن الأصل هو الثلاثي على وزن فعل، الذي يأتي بالمعنى الأصلي للكلمة، وهذا ما جاء به القرآن حتى نستطيع تحديد المعنى الحقيقي للكلمة، وسنأتي بأمثلة على ذلك:

قال الله تعالى في سورة الناس4[**مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاس5الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ**] ففعل وسوس له معاني كثيرة، ومنها تكلم بكلام خفيّ، ونقول وسوس الشيطان إليه أو له، بمعنى حدّثه بما لا مصلحة فيه. لكن إذا أخذناه على وزن فعل أي الفعل الثلاثي المجرد، فيكون ساس، فنقول ساس الحبّ، بمعنى وقع فيه السّاس أي العثّ، وهي الحشرات الصغيرة التي تقع في الحبوب والطعام والصوف فتسوّسها وتصير فاسدة، ومن هذا الفعل اشتُقّت كلمة السّوسة التي تصيب الأسنان، فهنا نرى بأن المعنى أصبح جدّ محددا، فنعلم بأن الوسواس هو كل فكر يصيب الإنسان فيزرع فيه الشك، ويجعله غير طبيعي كما تفعل السّوسة بالأسنان.

قال الله تعالى في سورة التكوير17[**وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ**] ففعل عسعس جذره اللغوي هو فعل عسّ، فنقول في اللغة العربية جاء الشيء من عسّه وبسّه، أي جاء من حيث كان ولم يكن، ونقول كذلك عسّ الخبر، أي تباطأ في المجيء، وهكذا نعلم بأن الليل أي الظلام، لم يكن موجودا فوُجد، لكنه لم يأت فجأة ودفعة واحدة، كما يأتي الظلام عندما تكون الغرفة مضيئة ثم ينطفئ النور، ولكن يأتي تدريجيا ومستمرا لا يتوقف، ولهذا استعمل الله تعالى كلمة عسعس، ليقول لنا بأن الفعل أي عسّ أخذ وقتا وتدرج في الوقوع، وهذا ما نعلمه، وهناك مثال آخر في سورة يوسف51[**قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ**] فالجذر اللغوي لكلمة حصحص هو فعل حصّ، فنقول في اللغة العربية، حصّ الشعر يعني تساقط، فالكل يعلم بأن براءة يوسف لم تأت جملة واحدة، ولكن كل مرة يتبيّن شيء من الحقيقة، فكان الفعل متداخلا ومتدرّجا، فاستعمل سبحانه فعل حصّ على هذا الشكل أي حصحص، وعندما نعرف هذه القاعدة، يمكننا تفسير وفهم معنى الآيات التي جاءت فيها أفعال على هذا الشكل، وعلى هذا الوزن مثل ما جاء في سورة الشمس14[**فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا**] من فعل دمّ، وكذلك في سورة طه106[**فَيَذَرُهَا قَاعًا**

صَفْصَفًا] من فعل صفّ، وفي سورة القمر19 [إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ] من فعل صرّ، إلى آخره.

ولهذا قال تعالى[إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] فكل كلمة في القرآن إلاّ ولها أصل في اللغة العربية على وزن فعل. فاللّه تعالى لم ينعت الأرض بالأرض هكذا، ولكن لأن الكلمة لها أصل في اللغة العربية، وهو فعل رضّ، فنقول رضّ الشيء، بمعنى دقّه وطحنه طحنا خشنا ليس كالدقيق، ولكن على شكل حبيبات صغيرة، وهذا هو شكل التراب، فهو يتكون من حبيبات صغيرة ومنه تتكون الأرض، وعندما نبحث عن كيفية تكوين الكرة الأرضية، والذي اكتشفه العلماء، سنعلم بأن لكل اسم خلق في القرآن دلالة معينة، وكذلك أسماء الأشخاص التي جاءت في القرآن، فكلها لها أصل في اللغة العربية، وبالتالي دلالة معينة، مثل كلمة لقمان فهي على وزن فعلان، وجذرها اللغوي هو فعل لقم، فنقول في اللغة العربية لقم الطعام، أي أكله بسرعة لقمة واحدة، ونقول رجل لهمٌ لقمٌ، أي يعلو خصومه في المحاورة والذكاء، فلقمان إذًا كان رجلا ذكيا وحكيما.

وكذلك اسم جالوت، فهو من فعل جلى، فنقول في اللغة العربية، جلاه عن بلده أي أخرجه منها، فجالوت كان جبارا، ويجلي الناس عن ديارهم. وأما طالوت فهو من فعل طلى، فنقول جميل الطّلى، أو قوي الطّلى، بمعنى جميل الهيئة، أو قوي الجسم فطالوت سُمي كذلك لقوة وضخامة جسمه، ولهذا قال سبحانه في سورة البقرة243 [وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ]

فعندما نتبع هذه القاعدة الأولى، سوف نفهم معاني كلمات القرآن ولا نختلف فيها فآباؤنا لم يعتمدوا في كل تفاسيرهم على هذه القاعدة، وكثيرا ما كانوا يعتمدون على لسان العرب، ولسان الشاعر، ولهذا اختلفوا في كثير من الأشياء، مثل كلمة العاديات التي جاءت في سورة العاديات1 [بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا] ففي تفسير الطبري مثلا، قال: قال ابن عباس، وعطاء بن رباح، ومجاهد، وعكرمة، وآخرون كثيرون بأنها الخيل العادية لغزو الكفار، لكن علي بن أبي طالب قال: هي الإبل في الحجّ تعدو من عرفة إلى المزدلفة، تمّ قول الطبري. وهكذا كما نرى، وقع الاختلاف بين علي بن أبي طالب، وابن عباس والآخرين.

وهناك كثير من الأمثلة، ككلمة الصافات، وكلمة الزاجرات، فجل المفسرين قالوا بأن الصافات هي الملائكة والزاجرات كذلك، وهذا لا يصح لغويا، فكلمة العاديات جذرها اللغوي هو فعل عدي، ومصدره عداوة، والصافات من فعل صفّ، وكذلك الزاجرات من فعل زجر، فآباؤنا كانوا كثيرا ما يعبرون القرآن ولا يفسرونه، فالرؤيا هي التي تُعبر، وهذا ما فعله يوسف عليه السلام، فهو عبر البقرة بالسنة ، لأن البقرة في المنام تعبر بالسنة في الحقيقة، وقد تُعبر بشيء آخر حسب الرائي والعرف، لكن كلمة البقرة في اللغة العربية، هي جنس من فصيلة البقريات يشمل الثور والجاموس، وهذا كل العرب يتفقون عليه.

ولهذا نحن إلى يومنا هذا نقول بأن المغضوب عليهم والضالين هم اليهود والنصارى، فهذا تعبير وليس تفسير باللغة العربية، فنحن تعصبنا للحديث الذي أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد، حيث سأل رجل رسول الله ص فقال:<من هؤلاء؟ فقال الرسول: هؤلاء هم المغضوب عليهم، فأشار إلى اليهود، ثم قال من هؤلاء؟ قال الضالين، يعني النصارى> فحتى لو كان رسول الله ص قاله فعلا، فهو كان يشير إلى الفئتين اللتين عادتاه، وكفرتا برسالته، وليس كل اليهود والنصارى، فأنا مثلا يمكن أن أكون من أحفاد أبي لهب أو أبي جهل، فهل سأكون حتميا من الذين لعنهم الله وغضب عليهم؟ أوليس هذا بظلم للعباد؟ أولم نقرأ في كتاب الله عز وجل في سورة المدثر38[**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**]؟ فكل واحد رهين بما كسبت أيديه، ولا علاقة له بما عمل آباؤه وأسلافه، فالذنوب والخطايا، والسيئات، وكذلك الأعمال الصالحة لا تُورّث. ولهذا وجب علينا أن لا نعبر كلمات القرآن، ولكن وجب علينا تدبرها وتفسيرها طبقا للغة العربية، حتى لا نزيغ عن فهم آيات كتاب الله تعالى.

والله هو العليم الحكيم الخبير.

القاعدة الثانية (اللسان العربي)

قال الله تعالى في سورة الشعراء192[وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ 193نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ194عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ195بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ] فكما نعلم، لكل لغة لسانها، وكذلك لغة القرآن لها لسانها، يعني سياقها بطريقة تركيب جملها، ولهذا قال تعالى في سورة القصص34[وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ] وهنا كما نرى، قال تعالى [أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا] يعني سياقا فصيحا يمكن للناس فهمه. فاللسان هو عبارة عن طريقة تركيب الجمل، وطريقة صياغة كلماتها، وتصريفها لكي لا يكون لها معاني كثيرة.

لكن آباءنا جعلوا القرآن يخضع للسان العرب، وليس للسان العربي، مع أن لسان العرب يخضع للتغيرات الجغرافية والزمنية، لكن اللسان العربي لا يخضع لكل هذا، ولكن يبقى على أصله، ولهذا عندما نتدبر القرآن، وجب علينا الاعتماد على اللسان العربي، وليس لسان العرب أو لسان الشاعر كما جاء في سورة الحاقة41[وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ]

فنحن مثلا عندما نريد أن نعبّر عن سرورنا بقدوم شخص ما نعزه، نعترف بفرحنا لقدومه، لكن في اللسان العربي الذي أنزل الله تعالى به كتابه، فعل فرح يعني شيئا آخرا كما جاء في سورة القصص76[إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ] فالفرح هنا هو الثقة المفرطة والإعجاب بالنفس، وليس السرور.

وهناك مثال آخر يبين جيدا الفرق بين اللسان العربي ولسان العرب، فقد قيل أن رجلا كان يقصّ حكاية في مجلس، فجاء شخص فوقف، فقال له الحاكي: اجلس، فرد عليه ذلك الشخص: ما أنا بمضجع حتى أجلس، ولكن قل أُقعد. ففي لسان العرب ولسان الشاعر لا فرق بين دلالة فعل جلس ودلالة فعل قعد، لكن في اللسان العربي، هناك فرق بينهما، لأن لكل كلمة دلالتها، فالجلوس دلالة على استقامة الإنسان على دبره وليس على رجليه، ولهذا قال تعالى في سورة المجادلة11[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ] أما دلالة كلمة القعود، فهي توقف الإنسان عن الحركة أو العمل، كما جاء في سورة النساء95[لَا يَسْتَوِي

الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا] فهنا كما نرى، فعل قعد يدل على عدم القدرة على الحركة أو العمل لسبب ما، وهذا ما جاء كذلك في سورة التوبة46[لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ] وهنا كذلك نفس الدلالة والأمثلة كثيرة في القرآن.

فعندما اعتمد آباؤنا على لسان العرب ولسان الشاعر، وقعوا في أخطاء عدّة في تفسيراتهم، فتغيرت مفاهيم كثير من الكلمات، مما أدّى إلى فهم خاطئ لكثير من الآيات، وسنأتي بمثال بسيط من تفسير ابن جرير الطبري، لكي نعي مدى أهمية الاعتماد على القواعد التي جاءت في القرآن.

فالله تعالى قال في سورة البقرة260[وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] فنحن سنختصر على جزء من هذه الآية، والذي أثّر فيه لسان العرب ولسان الشاعر، وهو قوله تعالى[فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا] فالطبري يقول: قال أبو جعفر: صرهن من قول القائل: صرت إلى هذا الأمر، إذا مِلت إليه، ومنه قول الشاعر: الله يعلم أن في تلفّتنا... يوم الفراق إلى أحبابنا صُور. وقول الشاعر أيضا: عفائِفُ إلاّ ذاكَ أو أن يصُورَها... هوى والهوى للعاشقين صَروعُ. يعني بقوله: (أو أن يصورَها هوىً) يميلها، فمعنى قوله تعالى:[فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ] أضممهن إليك ووجههن نحوك، فيكون معناه[فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ] ثم قطعهن[ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا] انتهى قول الطبري.

وعندما نتصفح كتب التفاسير الأخرى، سنجد اختلافات بسيطة بينهم، لكن الشيء الذي اتفقوا عليه، هو كلمة قطّعهن، والتي لا وجود لها في الآية، لكن تأثرهم بلسان العرب ولسان الشاعر، جعلهم يحتاجون لإضافة كلمة إلى الآية لكي يستطيعوا فهمها، لكن الله تعالى أحكم آيات الكتاب، وعندما نتدبره بدون قواعده، نضطرّ لزيادة أو نقصان كلمات، أو حروف، فيصير القرآن أمانينا نحن، وليس قول الله عز وجل.

فالله تعالى قال [قال إبراهيم ربي أرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى] ويجب أن نعلم، بأن الله تعالى هو الذي يحيي و يميت بطريقة مباشرة كما جاء في سورة غافر11[قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ] ولا يقتل، فإذًا هو لا يحيي

القتلى إلاّ بطريقة غير مباشرة، ولهذا أمر بني إسرائيل بذبح بقرة وأخذ قطعة منها ليضربوا بها المقتول، ولهذا عندما قال تعالى في سورة البقرة73 [**فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا**] تابع قائلا[**كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**] لكن إبراهيم عليه السلام، طلب من الله تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى وليس القتلى، أو المذبوحين. والموتى جمع ميت أو ميتة، والله تعالى قال في سورة المائدة3[**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**] فهنا ذكر تعالى نوعين من الموت، إما موت طبيعي كما قال[**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ**] أوغير طبيعي وهو الذي فصّله، فقال المنخنقة، وهي التي انقطع عنها الأوكسجين بأيّ طريقة، والموقوذة من فعل وقذ، فنقول وقذه الغمّ أو المرض أي أهلكه الغم أو المرض، أي يكون سبب موتها المرض مثلا، والمتردية من فعل ردى، فنقول رداه في البئر، بمعنى أسقطه فيه، أي يكون سبب موتها السقوط من مكان عال، والنطيحة من فعل نطح، فيكون سبب موتها النطح من طرف حيوان أو عربة مثلا.

فالله تعالى أمر إبراهيم بأخذ أربعة من الطير على قيد الحياة، فوجب أن يميتهن، لكن بأحد الطرق التي عرّفها تعالى في كتابه، فقال[**فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ**] وكلمة صرهن، جذرها اللغوي هو فعل أصر، فنقول أصر الشيء، يعني ضغط عليه وكبسه، وعندما نأصر الطير فهي تختنق ثم تموت، وهكذا تدخل في صنف المنخنقة. فقوله تعالى[**فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ**] يعني يأخذ أربعة من الطير، ويضمهن إليه لخنقهن فيمتن دون أن يُسفح دمهن، لكن التفسير الذي جاء به آباؤنا يعني، يأخذهن و يقطعهن، وهذا يكون عن ذبح، والله تعالى لم يأمر إبراهيم عليه السلام بذكر اسم الله عليهن.

وعندما قال الله تعالى[**ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا**] فهم آباؤنا كلمة جزء بلسان العرب، أي شيء من الوحدة، لكن عندما نتدبر كتاب الله تعالى بقواعده التي بداخله لا نقع في مثل هذه الأخطاء، فالله تعالى ضرب لنا الأمثال في القرآن حتى نعقل ما يقوله سبحانه. فعندما أراد أن يقول تعالى هذا المعنى، أي شيء من الوحدة، استعمل كلمة بعض، وليس كلمة جزء، كما جاء في سورة المؤمنون113[**قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ**] وهنا كما نرى، قال تعالى[**بَعْضَ يَوْمٍ**] أي مدة زمنية من اليوم، بمعنى شيء من الوحدة، وكذلك في سورة البقرة73[**فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي**

اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[**اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا]** يعني اضربوه بقطعة من البقرة، وهنا كذلك شيء من الوحدة، لكنه قال تعالى في سورة الحجر44[**لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ]** وهنا الله تعالى يتكلم عن أبواب جهنم، ولكل باب فرقة، أي مجموعة من الذين حق عليهم العذاب، يعني ستكون مجموعات أي وحدات، وكل وحدة من الوحدات لها بابها، فالجزء هو وحدة من الوحدات، وليس شيء من الوحدة.

فعندما قال تعالى[**ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا]** يعني جزءًا من الأربعة، أي طائرا من الأربعة طيور، وليس جزءًا من الطائر، بمعنى أن يضع على كل جبل طائرا من الأربعة طيور، وليس قطعة من كل طائر، فالله تعالى أمر إبراهيم بأن يأخذ أربعة من الطير، ويضمهن إليه حتي يختنقن فيمتن، ثم يضع على كل جبل واحدا من الأربعة، ثم يدعهن فيأتين سعيا. فهكذا نرى بأننا إذا تدبرنا كتاب الله بالقواعد التي جاءت بداخله وليس خارجه، لا نحتاج لإضافة أيّ كلمة.

وسوف نرى، كيف تغيرت معاني كثير من كلمات القرآن، باعتماد آبائنا على لسان العرب ولسان الشاعر، مما أدّى إلى تفسير خاطئ لكثير من الآيات، وهذا ما بيّناه في الفقرات التالية.

والله هو العليم الحكيم الخبير.

القاعدة الثالثة والرابعة (قرآنا غير ذي عوج)

قال الله تعالى في سورة ص29 [**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**] وهنا كما نرى، قال تعالى[**لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ**] يعني أن الله سبحانه، أنزل كتابه لنبحث في معاني آياته، وليس لحفظها عن ظهر قلب، حتى نستطيع فهم خطابه تعالى لنا فلا نكون عرضة لأهوائنا، ولا لأهواء الآخرين، ثم قال تعالى بعد ذلك[**وَلِيَتَذَكَّرَ**] وفعل يتذكر جذره اللغوي هو فعل ذكر، فنقول ذكر عيوب فلان، بمعنى أخبر عنها فأصبحت تعرف، فمعنى ذكر في كتاب الله تعالى، هو عَرَف، ولهذا جاء بهذا الفعل بعد فعل التدبر. فعندما نتدبر آيات الكتاب، نعرف معناها، وبالتالي نستوعب خطابه تعالى، ولهذا قال تعالى في سورة ق45 [**نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ**] فهنا يخاطب تعالى رسوله ليأمره بعدم إجبار الناس، وإنما التعريف بما جاء به القرآن فقط.

فعندما قال تعالى[**لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**] يعني ليحلّلوا قول الله تعالى الذي جاء به القرآن ليتعرفوا على معانيه، وهذا الفعل لا يقوم به إلاّ أولي الألباب فمنهم أولوا الألباب إذًا؟

الله تعالى ضرب لنا الأمثال في القرآن ، فقال مثلا في سورة النور44 [**يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ**] وقال تعالى في سورة الأعراف 195 [**أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا**] وكما نعلم، نحن ليس لنا أبصار وإنما أعين نبصر بها، فأولوا الأبصار إذًا، تعني الذين يبصرون وليس الذين لهم أبصار، فأولوا الألباب ليس معناها الذين لهم ألباب، ولكن معناها الذين لهم عقول يلبّون بها، وكلمة ألباب جذرها اللغوي هو فعل لبّ، فنقول لبّ الموز، أي كسّره وأخذ ما بداخله، فأولوا الألباب يعني الذين يلبّون الكلمات التي جاءت في القرآن، لكي يصلوا إلى معناها العميق، أي دلالتها، والتي لا تتغير مع تغير الآيات، وليس معناها السطحي، والذي يجعل مفهوم الكلمة يتغير من آية لأخرى، فيصير كتاب الله تعالى قرآنا ذا عوج.

ولهذا قال تعالى في القاعدة الرابعة في سورة الزمر27 [**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**] يعني أن الله تعالى استعمل الكلمة الواحدة في عدة آيات لكي نتعرف على دلالتها التي تصاحبها في كل تلك الآيات، ولا يمكن تغييرها ولهذا تابع سبحانه قائلا [**28 قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**] يعني عندما نتدبر القرآن،

يجب أن نبحث عن المعنى العميق للكلمة أي دلالتها، والتي لا تتغير حسب تغير الآيات، لكي يكون القرآن غير ذي عوج. فما معنى عوج إذاً؟

فكلمة عوج جذرها اللغوي هو فعل عاج، فنقول في اللغة العربية عاج أي عطف ومال، فكلمة عوج تعني ميول وانعطاف، وهذا هو الخطأ التي لم ينتبه إليه آباؤنا وهو جعلهم للكلمة الواحدة أكثر من دلالة، وهذا الذي سمّاه الله تعالى عوجا، أي تغيير دلالة الكلمة مع تغيّر الآية، وهذا لا ينبغي ولا يحق لنا فعله، ولهذا عندما قال تعالى[**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون 28قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**] ضرب لنا سبحانه مثلا ليبيّن مفهوم هذا الاعوجاج فتابع قائلا[**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**] فهنا كما نرى، الله تعالى جاء بمثال يتعلق بتدبر القرآن، لأن الآيتين اللتين جاءتا من قبل يتحدثان عن ذلك، وهذا المثال يعلمه كل الناس، ويخضع للمنطق. فعندما قال تعالى[**رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ**] فهذا يعني رجل بداخله عدة رجال متشاكسين، وكلمة متشاكسون جذرها اللغوي هو فعل شكس، فنقول رجل شكسٌ يعني صعب المعاشرة، فالله تعالى مثّل كلمات القرآن بالرجال فقال، إذا كان هناك رجل بداخله عدة رجال، فسيكون تناقض بينهم، يعني إذا كان إنسان بداخله عدة شخصيات، فسيغيّر رأيه كل حين، وبالتالي لا يمكن أن يكون إنسانا طبيعيا، ولكن كل رجل ليس فيه شركاء فهو رجل سليم، يعني كل إنسان بداخله شخصية واحدة، لا يمكن أن يغيّر رأيه كل حين، فهو بالتالي إنسان طبيعي، فكذلك كلمات القرآن، لا يمكن للكلمة أن يكون لها أكثر من دلالة، لكي لا تصير كرجل فيه شركاء متشاكسون، ولكن لكل كلمة دلالتها الخاصة بها، لكي تصير كرجل سلما لرجل، وهذه القاعدة هي التي تجعل كتاب الله تعالى قرآنا غير ذي عوج، ولهذا قال سبحانه[**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ28 قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ29ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**]

لكن آباءنا لم يهتموا كذلك بهذه القاعدة، وهذا طبيعي ومنطقي، لأن مستوى فكرهم كان يناسب عصرهم، والآليات التي كانت لديهم آنذاك، فصاروا يغيرون دلالة الكلمة من أية لأخرى، فجعلوها كرجل فيه شركاء متشاكسون، وليس كرجل سلما لرجل، ولهذا ختم سبحانه الآية بقوله[**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**] ولهذا اختلطت علينا الأمور فأصبحنا نغير دلالة الكلمة الواحدة حسب تغير الآية، وأصبح كتاب الله تعالى قرآنا ذا عوج.

لهذا سنأتي بأمثلة لكي نبيّن هاتين القاعدتين، ومدى أهميتهما لتدبر القرآن. قال الله تعالى في سورة النساء1 [بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا] وفي سورة آل عمران6 [هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] وفي سورة الممتحنة3 [لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] وفي سورة الأنفال75 [وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ] وفي سورة الحج5 [يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ أَلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ] وفي سورة البقرة163 [وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ] وهنا كما نلاحظ، ذُكرت كلمة أرحام في كل هذه الآيات، وهي جمع رحم، وذُكرت كذلك في الآية الأخيرة كلمة رحيم، وكما نعلم لكليهما نفس الجذر اللغوي، الذي هو فعل رحم، فنقول رحمه أي رقّ له، أو عطف عليه، وهذا معنى سطحي للكلمة، ولا يوافق جميع الآيات، لأنه سيصعب علينا استعماله مثلا في الآية التي جاءت في سورة آل عمران6 [هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ] وكذلك في سورة النساء[وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ] فلكي لا تختلف دلالة الأرحام من آية لأخرى، ويصير كتاب الله تعالى قرآنا ذا عوج، وجب علينا أن نكون من أولي الألباب، أي نلبّ الفعل ونبحث عن معناه العميق.

قال الله تعالى في سورة الحج5 [وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى] فلكي نلبّ كلمة أرحام، يجب أن نتساءل لماذا نعت الله تعالى المكان الذي يستقر فيه الجنين بالرحم؟ كما يعلم الجميع بأنه بعد مُضي ثلاثة أشهر على حمل المرأة، يكون الجنين قد أكتمل فأصبح إنسانا حيا، والإنسان لكي يعيش يحتاج إلى أكل وشرب وعناية، ولهذا قال تعالى[وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ] يعني يصير ذلك المكان الذي يستقرّ فيه الجنين، هو الذي يتكفل بغذائه والعناية به، ولهذا نعته الله تعالى بالرحم. فكلمة رحم أو رحمك هو كل شخص يتكفل بعنايتك من أكل وشرب وملبس، ومبيت إلى غير ذلك، فإذا أخذناه أي الرحم بهذه الدلالة، لن يكون كتاب الله تعالى قرآنا ذا عوج.

فعندما قال تعالى في سورة النساء1[**وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ**] فهذا يعني اتقوا الله الذي تسألونه النعم والرحمة، فنحن نسأل الله تعالى الأرزاق والمطر والصحة، إلى آخره مثل ما جاء في سورة إبراهيم34[**وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**] ثم أمرنا بأن نتقي أرحامنا الذين نسألهم هم كذلك النعم والرحمة، وهم كل شخص يتكفل برعايتنا وأكلنا وشربنا ومعالجتنا إذا مرضنا، كآبائنا أو أقاربنا، فهم إذًا أرحامنا، وهي نفس الدلالة كذلك في سورة الممتحنة3[**لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**] يعني يوم القيامة لن ينفعنا لا أرحامنا، أي الذين ينفعوننا في الدنيا بتكفلهم بنا، ولا الذين نتكفل نحن بهم كأولادنا مثلا، يعني يوم القيامة لن ينفعك الذي ينفعك في الحياة الدنيا، ولن ينفعك الذي تنفعه أنت في الحياة الدنيا. ونفس الشيء كذلك في سورة البقرة163[**وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ**] وكما نعلم بأن كلمة رحيم هي على وزن فعيل، فهي إذًا صيغة مبالغة لفعل رحم، فهذا يعني بأنه لا أحد يمكن أن ينفعنا، أو يرحمنا، أو ينعم علينا كربنا الذي خلقنا، فهو الذي ينزل لنا من السماء ماءً، وهو الذي جعل لنا الشمس ضياءً وهو الذي يصوّرنا في الأرحام، وهو الذي يغفر لنا ذنوبنا يوم القيامة، كما جاء في سورة الشعراء77[**فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ28الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ 79وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ80وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ81وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ 82وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**]

فلهذا كلما وجدنا كلمة تتكرر في الآيات، فهذا لا يعني بأن لها دلالات مختلفة، وإذا وُجد ذلك في كتبنا، فاعلم بأنه راجع لعدم الاعتماد على القواعد التي جاء بها الله تعالى في كتابه، ومنها مثلا فعل قتل، وفعل ضرب، وفعل قطع، فكل هذه الكلمات وغيرها جاءت بدلالة خاصة بها، ولا تتغير في جميع الآيات التي جاءت فيها، ولن تجد دلالة كل كلمة إلا بلبّها حتى تصل إلى معناها العميق، كما فعلنا بكلمة أرحام، ولهذا ضرب الله تعالى الأمثال في القرآن، ولهذا سنخصص فقرة لكل فعل من الأفعال التي ذكرنا، أي فعل قتل، وفعل ضرب، وفعل قطع، لأنها ذُكرت كثيرا في كتاب الله تعالى واستُنبطت بواسطتها بعض الأحكام المغلوطة، والتي أساءت لديننا الذي جعله الله تعالى هدىً ورحمة وبشرى للمسلمين كما جاء في سورة النحل89[**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ**]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

القاعدة الخامسة (تصريف الأمثال)

قال الله تعالى في سورة الكهف54[وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا] هنا الله تعالى قال[صَرَّفْنَا] والجذر اللغوي لكلمة صرّفنا هو فعل صرف، فنقول صرّف ورقة مائة درهم، يعني حوّلها لعدة فئات يساوي مجموعها قيمة ورقة المائة درهم.

فالله تعالى قال في سورة البقرة173[إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ] وهنا لخصّ تعالى ما حرم علينا من الأنعام في آية واحدة، لكن كما نعلم الميتة هي كلمة عامة وكذلك ما أُهِل به لغير الله، فلكي يبيّن لنا تعالى أنواع الميتة، وأنواع الذبائح التي يُهَل بها لغير الله، صرّف لنا أمثلة في آيات أخر كتفصيل لذلك كما جاء في سورة الأنعام119 [وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ] يعني عيّن وبيّن كل شيء حرّم أكله، وكمثال ما جاء في سورة المائدة3 [حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ] وكذلك في سورة الأنعام145[قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ] وهذا التفصيل الذي فصّله تعالى، جعله عبر آيات، وصرّفها لنا كأمثلة في القرآن وذلك لسببين.

أولهما، ليبيّن كل شيء لكي لا يستفتي المسلمون بعضهم بعضا، ولهذا قال تعالى في سورة النحل89[وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ] وثانيهما، ليفصّل كل الأنباء والقصص التي جاء بها القرآن، ليأخذ الناس منها العبر وليؤمنوا بأن القرآن من عند الله تعالى، ولهذا قال عز وجل في سورة يوسف111 [لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] وكل هذا التبيان والتفصيل صرّفه تعالى في آيات عدة، كل واحدة تكمّل الأخرى، لكي لا يكفي لبشر أن يزيل أية أو كلمة

أو أكثر، أو يضيف جملة أو كلمة أو أكثر ليحرف أحكام الله تعالى، أو ينسب إليه ما لم يُنزل به من سلطان، وهذا بينّاه في فقرة < الاستمتاع > وكذلك فقرة <الرجم>

وسنأتي بمثال هنا لنبيّن مدى أهمية هذه القاعدة، في معرفة أحكام الله تعالى، دون اللجوء إلى فتاوى البشر، والتي قد تؤدي بنا إلى الاختلاف، فيضل بعضنا عن حقيقة ما جاء به القرآن.

الكل يعلم بالاختلافات التي وقعت بين الفقهاء، ومنها اختلافهم في حكم أكل لحم الضبع، فمنهم من قال بأنه حرام، كسعيد بن المسيب والأوزاعي ومذهب أبي حنيفة وقول لمالك واستدلوا بما يلي:

الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ثعلبة الخشني قال:< أن رسول الله ص نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع، وفي رواية، نهى عن كل ذي ناب من السبع>

ومنهم من قال بجواز أكل لحم الضبع، كجابر بن عبد الله وابن عباس، وكذلك مذهب الشافعي وأحمد، واستدلوا بما يلي:

الحديث الذي أخرجه ابن حجر العسقلاني في تخريج مشكاة المصابيح عن عبد الرحمان بن أبي عمار، أنه قال:< سألت جابر بن عبد الله عن الضبع أصيد هيَ؟ قال نعم، فقلت أتؤكل؟ قال نعم، فقلت سمعتَه من رسول الله ص؟ فقال نعم>

فكما نرى، هناك من أفتى بجواز أكل لحم الضبع، وهناك من أفتى بحرامه، وكلهم استدلوا برواية عن النبي ص تؤكد قولهم، ونحن يجب أن نتساءل! أيّهما على حق؟ فهل وجب أن نأخذ بالقاعدة الفقهية التي تقول بالعمل بالمشهور، وهي رواية أبي ثعلبة، أولى بالعمل بغير المشهور، وهي رواية بن أبي عمار عن جابر بن عبد الله، وبالتالي نحرم أكل لحم الضبع؟ أم نستند لرأي ابن قيم الجوزية الذي يرى جواز أكله، اعتمادا على أنه ذو ناب، لكن لا يراه سبعا عاديا، أي ليس مثل الأسد والذئب والنمر والفهد، وبالتالي نحلّ أكل لحم الضبع؟ فإن اتبعنا أحد الرأيين، فقد خالفنا أحدهما، وقد نحرم ما أحله تعالى، أو نُحل ما حرمه تعالى! ومن يخوّلنا الحق في اختيار أحد الرأيين؟ أم نسمع ونطيع دون أن نعقل!

فهل عندما قال تعالى في سورة يوسف111[**مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**] وفي سورة النحل89 [**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ**

ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ] ألا يدل هذا على أن كتاب الله تعالى بيّن ما هو حلال أكل لحمه، وما هو حرام؟ أوليس عندما قال تعالى في سورة الأنعام119 [**وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ]** بيّن هنا بأنه فصّل لنا كل ما حرّم علينا أكل لحمه، وذلك بتصريف الأمثال في القرآن، لكي لا نضل بأهوائنا، ولهذا تابع قائلا[**وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ]**؟

لكن أئمتنا وشيوخنا، اهتموا بالروايات، التي كانت مصدر فقههم، والتي كان منها ما روي قبل نزول القرآن، ومنها ما رُوي بعد نزوله، ولهذا قال تعالى في سورة المائدة 101 [**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ]** ومنها ما نُقل حسب ما فهمه الراوي من قول محمد ص، والذي إن قال شيئا، فهو كان يخاطب قومه آنذاك أما قول الله تعالى، فهو آيات محكمات، ونسخ سبحانه كل ما ألقى فيها الشيطان كما جاء في سورة الحج52 [**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ]** وتخاطب العالمين أجمعين، وصالحة لكل الأزمنة.

فالله تعالى قال في سورة المائدة1 [**أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ**] وهنا كما نرى، أحل سبحانه أكل لحم الأنعام، وليس لحم كل الحيوانات، فهو تعالى عندما تكلم عن الذبيحة، استثنى الحلال وهو الأنعام، وما دونها فهو حرام أكل لحمه، ولهذا صرّف لنا سبحانه الأمثال في القرآن ليبيّن لنا ما هي تلك الأنعام، لكي لا نحرم ما أحله سبحانه، أو نحل ما حرمه.

فهو قال تعالى في سورة طه53 [**ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ]** وهنا كما نرى، يتكلم سبحانه عن ما تُنبت الأرض بواسطة الماء، ثم تابع قائلا[54 **كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ]** وهنا كما نرى، بيّن سبحانه بأن الأنعام هي الحيوانات التي تأكل ما تُنبت الأرض، وليس التي يفترس بعضها البعض، وقال كذلك في سورة النازعات30 [**وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ31أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا32وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا33مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ]** وكذلك في سورة يونس24 [**إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ]** وهذه كلها أمثلة وهناك غيرها، صرّفها تعالى لكي لا نحل أكل لحم الضبع، لأنه ليس من الأنعام،

أي الحيوانات التي تأكل مما تُنبت الأرض، وليس كذلك مما ذلّلها الله لنا ونركبها، كما جاء في سورة يس71[أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ 72وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ73وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ] وهكذا يتبيّن بأن الله تعالى، أحل لنا أكل لحم الأنعام فقط، وهي التي تأكل مما تُخرج الأرض من نباتها، والتي ذلّلها لنا سبحانه ونركبها، وليس لحم ما دونها.

فلو اتبعنا كتاب الله تعالى الذي بيّن وفصّل فيه كل شيء، كما جاء في سورة الأنعام 155[وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ]، دون أن نُحمّل آباءنا أكثر من طاقتهم، واعتمدنا على القواعد التي جعلها سبحانه بداخله، ما كان بيننا أيّ اختلاف، وما أجاز أحد أكل لحم الضبع، وصدق قوله تعالى في سورة النساء82[أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا] وقوله أربع مرات في سورة القمر[وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

القاعدة السادسة (كتاب أحكمت آياته)

قال الله تعالى في سورة هود1 [ألر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ] يجب أن نعلم بأن هذه القاعدة هي أساس كل القواعد الأخرى، وهي التي حفظ بها تعالى كتابه، كما جاء في سورة الحج52 [وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ] وهذا كان عند قراءة محمد ص القرآن على قومه لأول مرة، ويحفظه بها كذلك من كل تحريف من طرف البشر وإلى يوم القيامة، ولهذا عندما قال تعالى في سورة الحجر9 [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ] جاء سبحانه بفعل حفظ في المضارع.

الكل يعلم بأن الله تعالى ذكر في القرآن كلمة طور، وكلمة الجبل، ونحن لا نفرق بينهما، لكن في كتاب الله تعالى، وطبقا للآية التي نحن في صددها، الطور له دلالته والجبل له دلالة أخرى، وبما أن الله تعالى نزّل كتابه باللغة العربية، وجب علينا أن نبحث عن دلالتهما طبقا للغة العربية والقواعد القرآنية.

فكلمة طور جذرها اللغوي هو فعل طار، أي ارتفع أو علا، فنقول طار الطائر، يعني ارتفع عن السطح الذي كان مستويا عليه، ومن هذا الفعل جاءت عبارة التطور الاقتصادي، أي ارتفاع مستوى أو درجة الاقتصاد، فدلالة كلمة الطور إذًا هي ارتفاع أو تقدم مستوى أو درجة شيء ما، ولهذا قال سبحانه في سورة البقرة63 [وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] أي جعل فوقهم مرتفعا من الرمل لأنهم كانوا في الصحراء.

وأما كلمة الجبل فجذرها اللغوي هو فعل جبل، أي ضخم وعظم وغلظ، فالجبل هو كل مرتفع ضخم وعظيم، ويكون راسخا كما جاء في وسورة النبأ7 [وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا] ولهذا قال سبحانه في سورة الشعراء184 [وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ] وهنا كما نرى، قال تعالى [والْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ] أي العظماء والجبابرة الأولين، ولهذا كلما تحدث سبحانه عن عظمة خلقه وما احتوت عليه الأرض، إلاّ واستعمل كلمة الجبال، ولا يستعمل كلمة الطور. فدلالة كلمة الجبل هي كل مرتفع ضخم وثابت في مكانه، ولا يتغير ارتفاعه كما هو الطور.

فهذه وسيلة من الوسائل التي أحكم الله تعالى بها آياته، أي لا يمكن لكلمتين مختلفتين أن يكون لهما نفس الدلالة، وهذا الذي لم ينتبه إليه آباؤنا، فجعلوا مثلا دلالة الكتاب هي نفس دلالة القرآن، ودلالة الرسول هي نفس دلالة النبي، ودلالة الزوج كدلالة البعل، وكذلك دلالة نساؤكم كدلالة أزواجكم، ودلالة فعل بدى كدلالة فعل ظهر، ودلالة فعل قرأ كدلالة فعل تلا، وهناك أمثلة كثيرة، وهذا لا يصح في كتاب الله تعالى الذي هو من علمه كما جاء في سورة النساء166[لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا] وكما نعلم، كل العلوم تخضع لقواعد مضبوطة، وكذلك علم الله تعالى، ولهذا قال[كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ]

فآيات الكتاب هي عبارة عن كلمات ذات دلالات محددة، ولا يمكن لكلمتين مختلفتين أن يكون لهما نفس الدلالة، وتركيب كلمات الآية، ودلالتها يكون حسب اللسان العربي وليس لسان العرب أو لسان الشاعر، ولهذا سنأخذ الآية نفسها[الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ] كمثال، ونتدبرها طبقا لهذه القاعدة، أي كيفية إحكام الله تعالى آيات الكتاب، وطبقا كذلك للقواعد الأخرى.

فالله تعالى قال[الر] وهذه كما عهدنا من فواتح السور، وقد توقف تدبرها عند القرون الأولى للهجرة، وذلك لأن آباءنا عجزوا عن تدبرها لفهم معناها، فزعموا بأنها من الأشياء المبهمة، فلم يتجرأ أحد على تدبرها، مع أن الله تعالى لا يمكن أن ينزّل في كتابه كلمات، وآيات لا نستطيع فهمها، فما جدوى تنزيلها إذًا؟ وهل يعقل أن ينزّل الله تعالى في كتابه ما لا يستطيع البشر تدبره، ثم يقول سبحانه في سورة محمد24[أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا]؟

لكن لو لم نقدس آباءنا، وتدبرنا كتاب الله تعالى بأنفسنا وعقولنا، واستعملنا قواعده التي بداخله، لاستطعنا تفسير فواتح السور تلك، وقد بيّنا هذا في فقرة < ص والقرآن ذي الذكر>.

ثم تابع تعالى قوله[كِتَابٌ] ولم يقل قرآن، والسبب هو أن دلالة الكتاب ليست هي دلالة القرآن، وهذا بيّناه كذلك في فقرة<الكتاب القرآن والذكر> فعندما يستعمل تعالى كلمة كتاب، فذلك دلالة على مضمون ومحتوى المصحف، والذي هو عبارة عن آيات محكمات، والذي قد نؤمن بها ونتبعها، أو نكفر بها ونتولى عنها، ولهذا عندما قال تعالى في سورة البقرة2[ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ] استعمل سبحانه كلمة الكتاب، لأن المرء لا يمكن أن يهتدي للتقوى إلاّ إذا اتبع مضمونه، ولم يستعمل كلمة القرآن

وذلك لأنها دلالة على الطريقة التي علم بها محمد ص الوحي، وكذلك الطريقة التي نتدبر بها القرآن لكي نعلم محتواه، وبالتالي الهدى الذي جاء به القرآن ولهذا عندما قال تعالى في سورة البقرة185 [**شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ**] استعمل كلمة القرآن، لأن كل إنسان يستطيع أن يقرأه ليعلم محتواه أي الهدى الذي جاء به، ولهذا لم يستعمل تعالى كلمة الكتاب.

ولهذا تابع تعالى قوله[**أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ**] لأنه يتكلم سبحانه عن محتوى المصحف والذي هو عبارة عن آيات محكمات كما جاء كذلك في سورة آل عمران7 [**هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ**] وكلمة أحكمت جذرها اللغوي هو فعل حكم، فنقول أحكم زيد إغلاق الباب، يعني غلق الباب بطريقة محكمة حتى لا يمكن لأحد فتحه إلاّ بالطريقة التي أُغلق بها، فالله تعالى جاء بكلمات محدّدة حتى لا يكون لها أكثر من معنى، ونظّمها بطريقة معيّنة حتى لا نزيغ عن سياقها فنختلف في معناها، وهذا الذي لم ينتبه إليه آباؤنا كذلك، وهذا طبيعي بالنسبة للحقبة التي كانوا يعيشون فيها، لكن غير الطبيعي هو تقديسنا لما وصلوا إليه، واتخاذه كقول الله تعالى فغدونا نؤمن بأن الآية حمّالة أوجه، وصار اختلاف في القرآن.

ثم تابع تعالى قوله[**ثُمَّ فُصِّلَتْ**] وهنا كما نرى، جاء سبحانه بحرف العطف – ثم - وليس الواو، وذلك دلالة على أن الآيات أُحكمت، وبعد ذلك فُصّلت، لأن حرف العطف – ثم - يدل على ترتيب الأفعال، أو كذلك التراخي في الزمان بينهم، كما جاء في سورة فاطر11 [**وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا**] ولو جاء تعالى بحرف العطف الواو، لما تحدد هذا المفهوم، وقد يظن القارئ بأن فعل الإحكام والتفصيل فُعلا في نفس الوقت، أو قد يكون اختلاف في ترتيب الفعلين أيهما كان قبل الآخر، كما جاء في سورة البقرة187 [**وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ**] وكلمة فصّلت جذرها اللغوي هو فعل فصل، فنقول فصّل الشيء يعني جزّأه، وجعله فصولا متميزة، وبما أن الله تعالى يتكلم عن آيات الكتاب، فهذا يعني أن الله تعالى جعل كتابه عبارة عن آيات مجزأة، لكن بطريقة محكمة لكي يُبيّن بواسطتها كل شيء كما جاء في سورة الأنعام154 [**ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ**] وكذلك في سورة يوسف111 [**لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**]

فالله تعالى جعل كتابه كجسد الإنسان، كما جاء في الحديث النبوي الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير قال: < مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى> فالقرآن كذلك، كلما حُرّفت منه آية، أو أُضيفت أو فُهمت كلمة أو آية بطريقة غير صحيحة، إلاّ وصار فيه خلل أو تناقض.

ثم تابع تعالى قوله[**مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**] يعني الذي قام بهذا الفعل هو حكيم خبير وكما نرى، هنا تعالى جاء باسمين من أسمائه الحسنى، فالأول أي حكيم، دلالة على الفعل الذي قام به تعالى في أول الأمر، وهو إحكام آيات الكتاب، ثم جاء بالثاني أي خبير وهو دلالة على الفعل الذي قام به في ثاني الأمر، وهو تفصيلها، وكما نرى هنا، وكجميع آيات الكتاب، ترتيب أسمائه الحسنى جاءت حسب ترتيب الفعلين، وهذه كذلك من الطرق التي أحكم بها تعالى آياته، فلا يمكن أن نجد في كتاب الله تعالى آيات تنتهي بأسمائه الحسنى، لا توافق ترتيب ودلالة الأفعال التي جاءت في الآية نفسها، وكمثال على هذا ما جاء في سورة الحج52[**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**] وهنا كما نرى، جاء تعالى باسمه العليم لأنه علم بما ألقى الشيطان فنسخه، ثم أحكم آياته، ولهذا جاء باسمه حكيم بعد إسمه عليم وليس قبل، ولا يمكن كذلك أن نجد في كتاب الله تعالى آيات تنتهي بما لا يوافق، أو يناقض مضمون الآية نفسها، وهذا قد بيّنا أهميته في فقرة <الناسخ والمنسوخ>

ولنبيّن أهمية إحكام الله تعالى لآيات الكتاب، لكي لا يختلف المسلمون في فهم قوله سبحانه، فيكون بينهم اختلاف في الأحكام كما جاء في سورة النساء82[**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا**] سنأتي بحديث نبوي، والذي كما نعلم ليس محكما كما هي آيات الله تعالى، وآية من الكتاب الذي أحكم الله تعالى آياته، لنعلم مدى أهمية هذه القاعدة في تحديد مفهوم قوله سبحانه.

أولا يجب أن نعلم بأن الله تعالى قال في سورة النحل89[**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**] وكذلك في سورة يوسف111 [**مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**] وذلك لكي لا يحتاج المسلم لأيّ كتاب آخر، ليشرّع منه أحكام الدين، فتكون له على الله حجة يوم القيامة، ولهذا قال تعالى في سورة النساء165[**رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**]

فالحديث النبوي هو عن أبي هريرة في الصحيحين قال:< قال رسول الله ص: صوموا لرؤيته، وافطروا لرؤيته، فإن غُمّي عليكم فاكملوا عدة شعبان ثلاثين> فهنا الحديث يُلزم بداية الصوم ونهايته برؤية الهلال بالعين المجرّدة، وهذا طبيعي لأن محمدا ص كان يخاطب قومه، والطريقة الوحيدة آنذاك لمعرفة حلول شهر رمضان هي رؤية الهلال بالعين المجردة، لكن الله تعالى عندما حدّد في كتابه وقت بداية الصيام فهو سبحانه جاء بخطاب عام، وصالح لكل زمان ومكان، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة185[**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًافَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**] وهنا كما نرى، قال تعالى[**فَمَنْ شَهِدَ**] وليس من شاهد أو رأى، ثم تابع قائلا[**مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**] ولم يتحدث عن رؤية الهلال، واستعمل كلمة - فمن - ثم جاء بفعل شهد، وبعده كلمة – منكم - وهذا يدل على أن الفعل أي شهد وليس شاهد، هو فرض عين، كما قال تعالى في نفس الآية[**فَمَنْ كَانَ مِنكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ**] ففعل شهد إذًا هو واجب على كل شخص، ولهذا قال تعالى[**فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**]

فنحن نقول حلّ شهر رمضان عندما نرى الهلال، فلماذا إذًا جاء تعالى بفعل شهد وصاحبه بكلمة الشهر؟ ونحن نرى الهلال وليس الشهر! وذلك لأن الله تعالى أحكم آيات كتابه، وجعله صالحا لكل زمان ومكان. ففعل شهد ليس من الضروري أن يكون المرء قد رأى، وبما أن الله تعالى أحكم آياته، فهو لم يأت قطّ في كتابه بكلمتين مختلفتين لكي يكون لهما نفس الدلالة، ولهذا ضرب لنا تعالى الأمثال في القرآن حتى نفرّق بين الأشياء، ونتعرّف على دلالة كل كلمة لذاتها.

فالله تعالى قال في سورة يوسف26[**قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**] وهنا كما نرى، قال تعالى[**وَشَهِدَ شَاهِدٌ**] والشاهد لم يكن معهما، أي امرأت العزيز ويوسف حين الواقعة، ومع ذلك استطاع أن يُثبت كيفية براءة يوسف من عدمها، وذلك اعتمادا على المنطق، ولهذا استطاع تبرئة يوسف. وقال تعالى كذلك في نفس السورة الآية81[**ارجعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ**] وهنا كما نرى، شهد إخوة يوسف بسرقة أخيهم لصواع الملك، بوجود دليل على ذلك وليس برؤيتهم لفعل السرقة، ولذلك قالوا[**وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ**] وهكذا يتبيّن بأن دلالة فعل شهد هي إثبات حقيقة أو بطلان وقوع شيء ما أو وجوده بدليل بيّن، ولهذا جاء تعالى

بكلمة شهر مع فعل شهد، يعني معرفة حلول شهر رمضان إما بطريقة رؤية الهلال، أو بالعلم بحلوله بدليل بيّن، ونحن الآن أصبحت لدينا وسائل علمية نستطيع أن نعرف بها حلول شهر رمضان، دون رؤية الهلال مباشرة بالعين المجردة، والتي كانت الوسيلة الوحيدة في عهد محمد ص لمعرفة حلول شهر رمضان، ومن هذه الوسائل الحساب الفلكي مثلا، أو الأقمار الاصطناعية، لأنه خلق تعالى هذا الكون، وجعله خاضعا للمنطق، وللدّقة حيث قال تعالى في سورة يس40[**لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**]

فالله تعالى علم أنه سيأتي زمان نستطيع أن نعلم فيه مواقيت شهر رمضان، وكل الشهور القمرية قبل حلولها، ودون الاعتماد على رؤية الهلال كما هو حال الذين من قبلنا، كما جاء في سورة البقرة189[**يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ**]، ولهذا قال سبحانه[**فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**] لكي لا يكون أيّ اختلاف بين المسلمين في بداية ونهاية صيام شهر رمضان، ولهذا جعل كذلك فعل شهد فرض عين، دلالة على وجوب معرفة كل شخص حلول شهر رمضان، سواء برؤية الهلال بنفسه أو بالعلم به.

لكننا نحن عهدنا تدبر الروايات والتي كان يخاطب بها محمد ص قومه آنذاك وهجرنا تدبر القرآن والذي أحكم تعالى آياته، وجعله خطابا عاما وأبديا، فصار حالنا على ما هو عليه.

وهكذا يتبيّن مدى أهمية هذه القاعدة لتدبر القرآن بطريقة صحيحة، لكي لا نزيغ عن فهم قول الله تعالى، ولكي لا يستطيع أيّ إنسان أن يضيف كلمة أو حرفا، أو يغير كلمة بأخرى، أو يغير مكانها، وإذا وقع شيء من هذا، علمه كل من تدبر القرآن بقواعده.

فهذه القاعدة والقواعد التي بيّنا من قبل، هي التي وضعها تعالى في كتابه لتدبر آياته، وكل ما التزم بها المرء إلاّ واستطاع أن يستوعب كل أحكام الدين الذي شرعه تعالى، ولن يحتاج لأيّ كتاب آخر، تصديقا لقوله عز وجل في سورة يوسف111[**مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**] وفي سورة النحل89[**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ**] وفي سورة الأنعام155[**وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**]

فلهذا قمنا بتدبر بعض الآيات التي فُسّرت بطريقة سطحية، وفصّلناها في فقرات وذلك طبقا للقواعد الربانية، كترغيب في تدبر القرآن دون الاكتفاء بحفظه عن ظهر

قلب، لكي يكون المسلم محصّنا من أيّ فتوى قد تسيء لدين الله تعالى، وكدليل على أن تدبر القرآن يسير كما قاله تعالى أربع مرات في سورة القمر [وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ] وهو أصدق القائلين، وذلك إذا ما اتبع المتدبر القواعد التي وضعها سبحانه في كتابه، وتجرّد من كل تقديس لأقوال آبائنا كما جاء في سورة البقرة170 [وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ] وكذلك في سورة العنكبوت8[ووَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ] لتجنب اتباع الظن كما جاء في سورة البقرة78[وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ] وفي سورة النجم28[وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا] وذلك باستعمال عقله كما أمر سبحانه في سورة محمد24 [أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ] لكي لا يكون من الذين قال فيهم تعالى في سورة الملك10[وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ]

ولهذا كذلك جعلنا فقرة <القرآن والحديث النبوي> من أول الفقرات، لعدم إلباس القرآن بالروايات، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لكي لا نسيء لمحمد ص وأصحابه، فيتبرؤون منا يوم القيامة.

والله هو العليم الحكيم الخبير.

القرآن والحديث النبوي

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال:< قال رسول الله ص: لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار> فكما نرى هنا محمد ص ينهي عن كتابة ما يقوله إلاّ إذا كان قرآنا، وهذا الحديث أخرجه كذلك ابن حبان في صحيحه، والسخاوي في فتح المغيث، والألباني في صحيح الجامع وآخرون.

ولهذا لم يُدوَّن الحديث إلا في عهد عمر بن عبد العزيز في أواخر القرن الأول للهجرة عند توليه الخلافة، وذلك لأن أبا بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان رحمهم الله، كانوا يمنعون الناس من كتابة الأحاديث كما أمر محمد ص. وقد أخرج أبو تراب النخشبي، في تخريج الحنائيات عن عروة بن الزبير قال: <أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أراد أن يكتب السنن واستشار فيها أصحاب النبي ص فأشار عليه عامتهم بذلك، فلبث عمر عنه شهرا يستخير الله تعالى في ذلك شاكّا فيه ثم أصبح يوما وقد عزم الله تعالى له فقال: إني كنت قد ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم، ثم تذكرت فإذا أناس من أهل الكتاب قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله تعالى كتبا فأكبّوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أُلبس كتاب الله بشيء أبدا، فترك كتاب السنن>

وهذا ما خشيه النبي ص، أن تكتب الناس من بعده كتبا فيكبّوا عليها، لأن أول عائق وجده عند تبليغ رسالته، كان يتجلى في الأحاديث النبوية التي دوّنها أهل الكتاب عن أنبيائهم، والتي كانوا يلبسون بها كتاب الله، ولهذا قال تعالى في سورة آل عمران93 **[كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ]** وهنا كما نرى، بيّن سبحانه بأن قوله ينسخ قول الأنبياء، وأن كتابه هو الأصل، ولهذا قال عمر بن الخطاب < وإني والله لا ألبس كتاب الله تعالى بشيء أبدا>

وبما أن محمدا ص علم بأن قومه سيفعلون مثل ما فعل الذين من قبلهم، فهو وضع قاعدة أساسية لتحرّي ما سيكتب من أحاديث من بعده، حتى لا يُنسب إليه جهلا أو عمدا، ما لم يُنزل الله به من سلطان، كما جاء في سورة الأعراف6 **[فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ**

أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ] ولهذا قال تعالى في سورة النساء165[رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا]

وهذه القاعدة أخرجها ابن حزم الظاهري في كتابه< الإحكام في أصول الأحكام> عن الأصبغ بن محمد أبو منصور قال:< قال رسول الله ص: الحديث عني على ثلاث فأيما حديث بلغكم عني تعرفونه بكتاب الله تعالى فاقبلوه، وأيما حديث بلغكم عني لا تجدون في القرآن ما تنكرونه ولا تعرفون موضعه فيه فاقبلوه، وأيما حديث بلغكم عني تقشعرّ منه جلودكم، وتشمئزّ منه قلوبكم، وتجدون في القرآن خلافه فردّوه>

فلو اتبع كتّاب الحديث، ومصحّحوه هذه القاعدة، لكان ما فيه خير للأمة الإسلامية، لكنهم اهتموا بتعديل وتجريح القائل وتركوا القول، فقد يكون القائل صادقا، لكن قوله يخالف ما جاء به القرآن لأسباب عدة، ولهذا سنأتي بمثالين لحديثين صحيحي السند لكن متناهما يناقض ما جاء به القرآن.

1- فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين قالت:< كان رسول الله ص يُقبّل وهو صائم، ويباشر وهو صائم، ولكنه أملككم لإربه>

لكن الكل يعلم بأن الصيام ليس فقط الإمساك عن الأكل والشرب، ولكن الإمساك أيضا عن الرفث، والذي قد يكون بقبلة ابتغاء شهوة، فهل لأن الحديث سنده صحيح، حسب قواعد الجرح والتعديل، وجب علينا تصديقه؟ وبالتالي نسيء الظن بمحمد النبي، الذي أرسله تعالى مبشرا ونذيرا، وأمره باتباع ما يوحى إليه هو كذلك كما جاء في سورة الأعراف203[وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّى هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ]؟

فعندما قال تعالى في سورة البقرة183[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**184**أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ] لم يكن يعلم النبي ص أيّ شيء عن الصيام، فبدأ يصوم أياما معدودات، ويتناول وجبة واحدة في اليوم كله كما كان يصوم أهل كتاب، إلى أن نزل قوله تعالى في سورة البقرة185[شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ] فترك الأيام المعدودات التي نقلها عن اليهود، واستمرّ هو وقومه في مواصلة

الصيام اليوم كله، فكانوا يضطرون لمباشرة نسائهم ليلا في شهر رمضان كما كان يزعم أهل الكتاب، ومنهم من كان يجامعهن، ولهذا جاء الحديث بتلك الصيغة، يعني أن عائشة أم المؤمنين قالت بأن محمدا ص ليس مثلهم، فهو يقبّل ويباشر لكن لا يصل إلى الجماع كما كانوا يفعلون هم، ولهذا قالت < ولكنه أملككم لإربه>

وهذا الذي كان سببا في نزول قوله تعالى في سورة البقرة187 [**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ**] ليضع حدّا لما كانوا يفعلون، ولهذا تابع سبحانه قائلا[**عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**] فصاروا يعلمون بأن الرفث لا يحلّ عند الصيام، وأن صيام أمة القرآن لا يدوم طيلة اليوم كما هو صيام الذين أوتوا الكتاب من قبلنا، وإنما يتوقف ليلا، ليحلّ الرفث إلى النساء والأكل والشرب إلى فجر اليوم التالي.

فالحديث الذي روته عائشة أم المؤمنين، كان من قبل أن يعلم محمد ص أحكام الصيام كلها، وعندما نزل حكم الله تعالى، ترك النبي ص وقومه ما كانوا يفعلون، ولهذا قال تعالى في سورة المائدة101 [**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ**] لكنه نُقل إلينا كحديث صحيح اعتمادا على ثقة الرواة، دون تحرّي سبب وجود الرواية، وتاريخها حسب نزول القرآن.

2- أخرج الشيخ الألباني في صحيح الجامع عن عبد الله بن عمر قال:< ألا تسمعون؟ إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن بهذا وأشار إلى لسانه أو يرحم وإن الميت يُعذب ببكاء أهله عليه>

وهنا كما نرى، الحديث يقول بأن الميت يعذّب ببكاء أهله عليه، لكن كل إنسان عاقل ويتدبر القرآن، وبالتالي يعلم منطقية ما جاءت به رسالة محمد ص، فسيعلم بأن ما جاء به الحديث يخالف ما جاء به القرآن، كقوله تعالى في سورة المدثر38 [**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**] وفي سورة البقرة281 [**وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**] وكذلك في سورة الزمر7 [**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**]

وهذا ما يُثبته أيضا الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري في صحيحه حيث قال:< ذُكر عند عائشة رضي الله عنها، أن ابن عمر رفع إلى النبي ص: إن الميت يعذب في قبره

ببكاء أهله فقالت: وهَلَ؟ إنما قال رسول الله ص: إنه ليعذب بخطيئته وذنبه، وإن أهله ليبكون عليه الآن، قالت: وذاك مثل قوله: إن رسول الله ص قام على القليب وفيه قتلى بدر من المشركين، فقال لهم ما قال: إنهم ليسمعون ما أقول، إنما قال (يعني رسول الله): إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق، ثم قرأتْ قوله تعالى في سورة النمل80 [إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ] وقوله تعالى في سورة فاطر22[وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ] يقول حين تبوؤوا مقاعدهم من النار>

وأخرج الإمام مسلم حديثا آخرا في نفس الموضوع عن عائشة أم المؤمنين يقول <ذُكر عند عائشة قول ابن عمر: الميت يعذب ببكاء أهله عليه، فقالت: رحم الله أبا عبد الرحمان، سمع شيئا فلم يحفظه، إنما مرّتْ على رسول الله ص جنازة يهودي وهم يبكون عليه، فقال: أنتم تبكون، وإنه ليُعذب>

وكما نرى هنا، قامت عائشة أم المؤمنين بتصحيح ما فهمه ابن عمر من قول محمد ص، فهي لم تطعن في مصداقية الراوي، وإنما صحّحت ما فهمه الراوي خطأً من الحديث النبوي، حسب ما سمعته مباشرة من النبي، والذي لا يخالف منطقية ما جاء به القرآن، ولهذا استدلّت رضي الله عنها بآيات الكتاب.

وهذا كذلك مثال على أن الحديث قد يكون إسناده خال مما يقدح في اتصاله وثقة رواته، لكن متنه يخالف ما جاء به القرآن، وذلك لأنً الحديث يتضّمن ما فهمه الراوي من قول النبي ص، وليس كما نطق به النبي ص، وبما أن محمدا ص ليس بدعا من الرسل، فهو لا يمكن أن يخالف كلام الله تعالى، كما لم تخالفه الرسل من قبله.

فالله تعالى أرسل رسله ليبلغوا رسالته فقط، ولهذا قال تعالى في سورة النساء165 [رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا] وفي سورة الفرقان56 [وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا] وكذلك في سورة النحل 44 [بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ]

ولا يحق لأحد منهم أن يبدّل شيئا من تلقاء نفسه، وبالتالي يحرم ما أحله الله تعالى، أو يحل ما حرمه سبحانه، أو ينسخ ما أمر به عز وجل، ولهذا عندما قال تعالى في سورة يونس15 [وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ] تابع سبحانه قائلا[قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ] ولهذا برّأ محمد ص نفسه في كثير من الأحاديث ومنها ما أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد عن عائشة أم المؤمنين قالت: <لا تمسكوا عني شيئا فإني لا أحل إلا ما أحل الله في كتابه، ولا أحرم إلا ما

حرم الله في كتابه> وما أخرجه كذلك الشيخ الألباني في صحيح الترمذي عن سلمان الفارسي قال:< سُئل النبي ص عن السمن، والجبن والفِراء؟ فقال: الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرم الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفى عنه>

فمحمد ص كان يتلقّى الوحي من الله تعالى، ثم يبلغه للناس كما جاء في سورة النجم3 [وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ4إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ] ولهذا نعته تعالى بالرسول، وكان نبيّا وهذا مقام خاص به، وكان يتولى أمور قومه حسب عرفهم، ولهذا قال تعالى في سورة الأعراف199 [خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ] ولم يأمره سبحانه بأن يحكم بما أنزل عليه كما أمر أهل الكتاب بذلك كما جاء في سورة المائدة 44 [إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ] وكذلك في سورة المائدة47 [وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ] وهذا بيّناه في فقرة <أمة وسطا>

وبما أن العُرف يختلف حسب اختلاف المجتمعات، وتطوّر الأزمنة، فما كان يأمر به محمد ص هو خاصّ بقومه حسب عرفهم آنذاك، ولهذا أمر محمد ص بأن لا يُكتب ما يقوله إلا إذا كان قرآنا، وأطاعه الصحابة في ذلك.

فلكي لا نسيء للنبي ص وأصحابه، ونسفك الدماء باسمه، ونستحي نساء الآخرين باسمه، ونستعبد البشر باسمه وخصوصا المرأة، وجب علينا أن نتحرى محتوى الأحاديث النبوية، فنجعل القرآن سندا لتصحيحها، لأن محمدا ص لا يمكن أن يخالف ما كان يبلّغ به الناس كما جاء في سورة الأنعام155 [وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ] ولا يمكن أن يأتيَ بشيء من عنده، وهو يبلغ الناس بقوله تعالى في سورة النحل89 [وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ] وقوله تعالى في سورة يوسف111 [مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] ولا يمكن أن يأمر بما يناقض ما قاله تعالى عنه كما جاء في سورة آل عمران159 [فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ] وكذلك في سورة القلم4 [وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى في سورة العلق1[**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**] هنا كما نرى، الله تعالى أمر محمدا ص بالقراءة، فلماذا قال تعالى[**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**]؟ ولماذا بيّن من هو هذا الرب بقوله[**الَّذِي خَلَقَ**]؟ ولم يقل مثلا اقرأ باسم الله؟ ولماذا قال تعالى في سورة الأعلى14 [**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى15|وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**]؟ ولم يقل مثلا - واذكر اسم الله - كما أمرنا عند الذبح والشروع في الأكل كما جاء في سورة المائدة4[**فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ**] وكما جاء كذلك في سورة الأنعام118 [**فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ**] يعني قول بسم الله عند الذبح أو الأكل؟

فكما بيّنا في القواعد التي جاء بها تعالى داخل القرآن، بأن لكل كلمة دلالتها الخاصة بها، ولا يمكن أن يكون لكلمتين مختلفتين نفس الدلالة، وهذه القاعدة من الوسائل التي أحكم بها سبحانه آيات الكتاب. فكلمات عام وسنة وحول، لهن نفس المعنى، وهي مدة زمنية تدوم اثني عشر شهرا، لكن لكل كلمة دلالتها الخاصة بها، وكل هذا بيّناه في فقرته، وكذلك كلمة الكتاب وكلمة القرآن، لهما نفس المعنى، أي ما أوحى به تعالى إلى رسوله لكن لكل كلمة دلالتها كذلك كما تبيّن في فقرة <الكتاب القرآن والذكر> وهذه القاعدة تنطبق على كل كلمات القرآن. فدلالة كلمة الإله ليس هي دلالة كلمة الرب، ولهذا جاء تعالى بكلمتين مختلفتين.

الله تعالى قال في سورة طه98[**إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا**] فهنا عرّف سبحانه بأن إلهنا هو الله، يعني إلهنا اسمه الله، ولهذا عندما نقيم الصلاة نفتتحها بقول الله أكبر وليس الرب الأكبر، لأنه تعالى قال في سورة طه14 [**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**] فنحن إذًا نقيم الصلاة لذكر الله وليس لذكر الرب، وهذا ما جاء في سورة الجمعة9[**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**] فكما نرى، هنا تعالى قال[**فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ**] فنحن إذًا نذكر الإله الذي سمّى نفسه الله، فما هو إذا اسم الرب؟

الله تعالى قال في سورة الإسراء110[**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ**] فهنا قال تعالى[**ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ**] ونحن عندما ندعوا إما أن نقول، اللهم اغفر لنا، وإما أن نقول ربنا اغفر لنا، يعني يمكننا أن ندعوه بلفظ الله

الذي هو اسم الإله، وإما أن ندعوه بلفظ الرحمان كما جاء في الآية، والذي هو اسم الرب. فالله إذًا هو اسم الإله، والرحمان هو اسم الرب، ولهذا قال تعالى في سورة الأنبياء112[قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ] وكذلك في سورة طه90[وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي]

وكما نعلم بأن الله تعالى نعت نفسه عند يوم القيامة بالرحمان وليس بالله، ولهذا قال تعالى في سورة مريم85[يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا] وكذلك في سورة يس52[قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ] وهناك أمثلة كثيرة تدل على ذلك.

فالرحمان إذًا هو الذي يعذب ويغفر، ولهذا قال تعالى في سورة مريم45[يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا] فهنا تدل الآية على أن الرحمان يعذّب، وقال تعالى في سورة يس11[إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ] وهنا الآية تدل على أن الرحمان يغفر.

لكنه قال تعالى في سورة الأنعام12[قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ] وقال تعالى كذلك في سورة الأنعام54[وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ] فهنا كما نرى، في الآيتين معا، كتب تعالى على نفسه الرحمة وليس العذاب، ولهذا قرن تعالى اسمه الرحمان بالرحيم وليس باسم آخر، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة163[وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ]

فعندما قال تعالى في سورة العلق1[اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ] حدّد من هو هذا الرب، وقال تعالى [الَّذِي خَلَقَ] وذلك لأن الرب يمكن أن يكون من البشر، كما نقول رب العمل أي صاحب العمل، أو رب البيت أي صاحب البيت، وهذا ما بيّنه تعالى في سورة يوسف50[وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ] فهنا كما نرى، قال يوسف للرسول[ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ] يعني الملك. فالرب إذًا هو كل من يُطاع، فقد يكون بشرا فيُطاع في أمور الدنيا، وقد يكون إلاها فيُطاع الطاعة الكبرى.

ولهذا عندما قال تعالى لمحمد ص[**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**] حدّد من هو هذا الرب، فقال سبحانه[**الَّذِي خَلَقَ**] يعني الرب الإله، والذي على المسلم طاعته الطاعة الكبرى، أي يركع ويسجد له، ولهذا قال تعالى في سورة الحج77[**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**] وقال كذلك في سورة البقرة21 [**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**]

فهذا الرب الذي خلقنا، وأمرنا بأن نركع له ونسجد له، قد سمّى نفسه الرحمان، وبما أنه كتب على نفسه الرحمة وليس العذاب، نعت نفسه بالرحيم، فهو إذًا الإله الذي سمّى نفسه الله وليس البشر، ولهذا قال تعالى في سورة التوبة31[**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**] يعني أطاعوا أحبارهم ورهبانهم، الذين هم بشر كما يطاع الرب الذي هو الله.

فعندما قال تعالى لمحمد ص[**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**] فهذا يعني قل – بسم الله الرحمان الرحيم - لأن اسم الرب هو الرحمان، وبما أنه كتب على نفسه الرحمة، فهو إذًا الرحمن الرحيم، وحتى يحدّد سبحانه بأن هذا الرحمن الرحيم ليس من البشر، وإنما هو إله اسمه الله، صار اسم الرب الذي خلق هو - الله الرحمن الرحيم -

فعندما قال سبحانه لمحمد ص[**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**] فهو أمره تعالى ببداية قراءة القرآن بقول – بسم الله الرحمن الرحيم- فأول آية نطق بها رسول الله ص هي البسملة، وهي آية منفصلة وليست خاصة بسورة الفاتحة، بل هي مفتاح لقراءة القرآن، ولهذا عندما قال تعالى في سورة النحل98[**وإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**] لم يأمره بذكر بسم الله الرحمان الرحيم، لأنه سبق أن أمره بذلك في أول الرسالة، والله تعالى لا يكرّر أوامره.

وعندما قال تعالى في سورة الأعلى14[**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى15**|**وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**] فهنا الله تعالى يتحدث عن الذين يتزكّون، يعني يقومون بأعمال صالحة ابتغاء مرضاة الله سبحانه، ومنها ذكر الله، كإقامة الصلاة والتسبيح وتلاوة آيات الكتاب لربط صلة مع الله سبحانه، والتي يستهلونها بقول - بسم الله الرحمان الرحيم – ولهذا عندما قال تعالى[**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى**] تابع قائلا[**وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**] أي قال بسم الله الرحمان الرحيم ثم صلى، كما يُذكر اسم الله تعالى عند الذبيحة بقول بسم الله كما أمر سبحانه.

وهكذا يتبيّن بأن آية البسملة ليست وليدة القرآن، وإنما هي موجودة في التوراة بلسان موسى، وفي الإنجيل بلسان عيسى، وهي من الآيات المتشابهات، ولهذا عندما بعث سليمان رسالته للمرأة التي لها عرش عظيم، بدأ تلك الرسالة ب- بسم الله الرحمن الرحيم - وهذا ما جاء في سورة النمل29[**قالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ30إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**] والكل يعلم بأن سليمان جاء من بعد موسى عليه السلام، فهو علم بها من التوراة. وهكذا يتبيّن بأن أول آية أمر الله تعالى رسوله بأن ينطق بها، ويفتتح بها قراءة القرآن هي - بسم الله الرحمن الرحيم - ثم بعد ذلك أمره تعالى بأن يستعيذ من الشيطان الرجيم عند قراءة القرآن كما جاء في سورة النحل98[**وإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**] حتى لا يلقي هذا الأخير في قراءته فتصبح أماني البشر، وليس قول الله تعالى، ولهذا قال سبحانه في سورة الحج52[**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

دلالة فعل قتل

كما نعلم، فعل قتل ورد كثيرا في كتاب الله سبحانه، ولكي نتعرف على دلالته، سنأخذ أربع آيات من الأمثلة التي ضربها لنا تعالى في القرآن لكي يكون غير ذي عوج.

- المثال الأول من سورة البقرة54 [وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ] إذا أخذنا المفهوم السطحي لكلمة قتل بلسان العرب يعني القضاء على الحياة، سيكون مفهوم الآية، أن موسى يأمر قومه بالانتحار لكي يتوب الله تعالى عليهم، وهذا سيناقض أولا قوله تعالى في سورة الإسراء33 [وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ] وسيناقض كثيرا من الآيات القرآنية مثل ما جاء في سورة النساء17 [إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا] وهنا قال تعالى يتوبون يعني يكفّون عن ما كانوا يفعلون من سيئات، وليس ينتحرون، وكذلك الآية39 من سورة المائدة[فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ] يعني يتوب المرء من بعد ظلمه ثم يصلح ما أفسد وليس ينتحر. وكذلك الآية 102من سورة التوبة[وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ] وكذلك الآية106 من نفس السورة [وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ] ففي هاتين الآيتين، الله تعالى يتحدث عن نوعين من المذنبين، الأول أناس خلطوا عملا صالحا وآخرا سيئا، قال تعالى[عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ] والنوع الثاني، أناس لم يعترفوا بذنوبهم، فأمرُهم يرجع إلى الله تعالى، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم، وفي الحالتين معا ليس هناك أمر بالانتحار.

- المثال الثاني في سورة البقرة154 [وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ] هنا لا أحد يمكن أن يقول بأن كلمة قتل لا تعني القضاء على الحياة لأنه تعالى يتكلم عن الموت و الحياة.

- المثال الثالث في سورة النساء29 [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا] هنا كذلك جاء سياق القتل كما جاء في المثال الأول من سورة البقرة، لكن هنا جاء نهيا وليس

أمرا، إلا أن الآية هنا تتكلم عن المعاملات التجارية، فما علاقتها بالنهي عن الانتحار؟ فهل الإنسان عندما يتاجر يضطر إلى الإنتحار؟

- المثال الرابع في سورة المدثر18[**إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ19فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ20ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ21ثُمَّ نَظَرَ22ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ23ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ**] فكما نرى هنا، لا يمكن أن يكون فعل قتل هو القضاء على الحياة. إذًا لكي لا يكون كتاب الله قرآنا ذا عوج، وتكون كلماته كرجل فيه شركاء متشاكسون، وجب علينا أن نتدبره بقواعده، ونلبّ فعل قتل لتحديد دلالته ليكون قرآنا غير ذي عوج، وتكون كلماته كرجل سلما لرجل.

فعندما نقول قتل زيد عمرا، يعني وضع زيد حدّا لحياة عمر ليكون مماته، أي أن زيدا وضع حدّا لشيء وهبه الله تعالى لعمر الذي هو الحياة، ليكون ضده الذي هو الموت، وهذا هو غرض زيد من فعل القتل. فدلالة كلمة قتل إذًا، هي وضع حد لشيء وهبه الله تعالى للإنسان ليكون ضده، وليس من الضروري أن يكون وضعُ حدّ للحياة ليكون الموت، فقد يكون وضع حد للحرية مثلا، كحرية الاختيار أو التعبير، أو حرية الحركة لكي يكون العكس، وكمثال على ذلك ما يلي:

الله تعالى قال في كتابه العزيز في سورة الإسراء70[**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**] فكل شخص وضع حدّا لكرامة الإنسان ليذله، فهذا يُسمّى قتل في كتاب الله تعالى، وقال كذلك في سورة الكهف29[**وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**] فالله تعالى وهب الحرية للإنسان في اختياراته، حتى بالإيمان أو الكفر به، فكل من وضع حدّا لهذه الحرية ليكون الإكراه، فقد قتل الشخص الذي أُكرِه على ذلك، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة256[**لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ**] ونهى سبحانه رسوله عن ذلك كما جاء في سورة يونس99[**وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ**]

ففعل قتل إذًا جاء دلالة على وضع حدّ لشيء وهبه الله تعالى للإنسان ليكون ضده، سواء قام به الإنسان على نفسه شخصيا أو قام به أحد آخر، وسياق الآية هو الذي يجعلنا نحدّد ما هو هذا الشيء الذي جُعل له نهاية، ولهذا سنأخذ الأمثلة الثلاثة وأخرى لتدبرها بهذه الدلالة.

1- قال تعالى في سورة البقرة54[**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**] ولكي نتدبر هذه الآية جيدا، وجب علينا البداية من الآية51

حيث قال تعالى[**وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ52ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ53وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**] ثم جاءت الآية 54، فعندما نتدبر الآية داخل سياقها نستطيع أن نفهم معنى قوله تعالى[**فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ**]

فعندما قال تعالى[**ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ52ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ**] فهو هنا عفا عن قوم موسى، أي أمسك عن عذابهم، ولهذا قال سبحانه[**ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ**] لكن لكي يتوب الله عليهم، أمرهم موسى بقتل أنفسهم، أي وضع حدّ لحريتهم التي كانوا يتنعمون بها، وذلك بالتشديد على أنفسهم، لأنه لو أراد الله تعالى قتلهم بمعنى القضاء على حياتهم، لأخذهم بالعذاب ولم يعف عنهم، وهذا ما جاء في سورة البقرة55[**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ 56ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**] ولهذا مازال اليهود يقومون بهذا الفعل إلى يومنا هذا، وهو ما يسمّونه بيوم الغفران الذي يصومون فيه، ويحرّمون على أنفسهم كثيرا من الأشياء التي تحلّ لهم في الأيام الأخرى. ويجب أن نعلم بأن الله تعالى لا يأمر بالقضاء على الحياة، ولكن يأمر بالقتال حتى إذا كان هناك قتل أي القضاء على الحياة، سيكون دفاعا عن النفس، وهو الذي أحلّه تعالى، وهذا بيّناه في فقرة <القصاص في القتلى> ولهذا قال تعالى في سورة البقرة216[**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**] .

2- قال تعالى في سورة النساء29[**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا**] فالكل يعلم بأن أكل أموالنا بيننا بالباطل حرام، لكن إذا كان عبر تجارة عن تراض منا فهو حلال، يعني أن الله تعالى يقول، إذا كان الحلال يحيط به الحرام، فلا تقتلوا أنفسكم، أي لا تحرّموا على أنفسكم ما أحلّ الله لكم، ولا تشدّدوا عليها مخافة السقوط في الحرام، وليس علينا أن نفعل كما قال آباؤنا، ولذلك قال تعالى في آخر الآية[**إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا**] فأن يقتل إنسان نفسه، لا يعني في كتاب الله تعالى الذي نزله بلسان عربي وليس بلسان العرب أن ينتحر، وعندما أراد تعالى أن ينهانا عن ذلك، أي الانتحار وما دونه، قال في سورة البقرة 195[**وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**] والتهلكة هو كل شيء فيه ضرر للإنسان وأقصاه الهلاك، وهو الموت، ولهذا قال تعالى في سورة النساء176[**إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ**] ولهذا استعمل تعالى كلمة بأيديكم، يعني كل عمل نقوم به يؤدّي بنا إلى الضرر وأقصاه

الموت، أما عندما يقول تعالى - لا تقتلوا - ثم يتبعه بكلمة – أنفسكم - فهذا يعني أن لا نتخذ قرارا في حقنا، كأن نحرّم على أنفسنا ما أحلّ الله لنا، أو نشدّد على أنفسنا مع أن الله تعالى رحيم بنا، كما جاء في سورة الانعام119 [وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ]

3- قال تعالى في سورة المدثر[إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ19فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ20ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّر21ثُمَّ نَظَر22ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ23ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ] فهذه السورة تتحدث عن شخص إمّا أراد أن يُكذّب رسول الله ص أو يُذلّه فخطط لذلك، ولهذا قال تعالى [إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ] لكن وقع له عكس ما خطّط له، أي هو الذي ذُل أو كُذّب، ولهذا تابع تعالى قائلا[فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ] ثم أعاد الكرّة مرة أخرى، فوقع له نفس الشيء، والآيات التي جاءت من بعد تدل على ذلك حيث تابع قائلا[ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّر21ثُمَّ نَظَر22ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ23ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ]

4- قال تعالى في سورة البقرة 154 [وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ] فهنا سياق الآية يحدّد بأن الشيء الذي وُضع له حدّ ليكون ضدّه هو الحياة، لأن الله تعالى يتحدث عن الذين يُقتلون في سبيل الله، وهكذا يتبيّن بأن سياق الآية هو الذي يحدّد نوعية القتل.

هناك آيتان جاء فيهما فعل قتل في الأمر، واستعملها كثير من الناس للقضاء على حياة الأبرياء باسم الله تعالى، وهو بريء من ذلك ورسوله، ولهذا وجب علينا تدبرهما بالقواعد الربانية. الأولى في سورة البقرة الآية191، والثانية في سورة التوبة الآية5.

يجب أن نعلم أولا أن هاتين الآيتين، ومثلهما كثيرة في القرآن، كان الله تعالى يخاطب بهن رسول الله محمد ص، وأصحابه الذين أذن لهم تعالى بالقتال كما جاء في سورة الحج39 [أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ40الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ] فمحمد ص والذين آمنوا معه أخرجوهم الكفّار والمشركون من ديارهم وحاربوهم في دينهم، وسعوا لوضع حدّ للرسالة المحمدية، فأما نحن فلم يأذن الله تعالى لنا بالقتال لأن رسوله بلّغ الرسالة كلها، ولم يُخرجنا أحد من ديارنا بغير حق، ولم يحاربنا أحد في ديننا، ولم يسع أحد لهدم مساجدنا، وعندما يحدث هذا فسنأخذ العبرة من رسول الله ص وأصحابه كما جاء في سورة يوسف111 [لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ]

لكن مع الأسف البعض منا اتبع ما أسخط الله، وكره رضوانه كما جاء في سورة محمد28[ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ]

فعندما قال تعالى في سورة البقرة191[وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ] فهم اتبعوا ما أسخط الله تعالى، وعندما قال تعالى في سورة الممتحنة8[لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ] فهم كرهوا رضوانه.

- قال تعالى في سورة البقرة191[وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ] فكما قلنا هذه الآية كان يخاطب بها تعالى محمدا ص وأصحابه الذين كانوا يقاتلون الكفّار والمشركين في مكة دفاعا عن الرسالة المحمدية حتى تتمّ، وكما نعلم أن الله تعالى حرّم القتل إلا دفاعا عن النفس كما جاء في سورة القصص15[وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ16 قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ] وكما نرى، في هذه الآية موسى قتل عدوه الذي كان من آل فرعون الذين كانوا يذبّحون أبناء بني إسرائيل ويستحيون نساءهم، ومع ذلك نسب فعله أي القتل، والذي حدّد نوعيته تعالى قائلا[فَقَضَى عَلَيْهِ] وليس قتله، إلى عمل الشيطان أي فعل حرام، فدعا ربه ليغفر له، فغفر له سبحانه، لأن قتله لعدوه لم يكن دفاعا عن النفس الذي أحله الله تعالى، وإنما كان طاعة للذي من شيعته، ولهذا قال تعالى[قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي] لأن موسى أطاع شخصا في ما حرم الله تعالى وهو القتل غيلة. فعندما يقول تعالى[وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ] فهذا لا يعني بأن يقضوا على حياتهم، ولكن بأن يشددوا عليهم، ويذلوهم فيضطرون للخروج من المكان الذي أخرجوا منه محمدا ص وأصحابه، ولهذا تابع قائلا[وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ] يعني إذا استعصوا، فلا يقاتلوهم عند المسجد الحرام إلا إذا قاتلوهم هم، فآنذاك حقّ لهم قتلهم عند مقاتلتهم لهم دفاعا عن المسجد الحرام.

- قال تعالى في سورة التوبة5[فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ] وهذه الآية هي كذلك من الآيات التي كان يخاطب بها تعالى رسوله ص والذين آمنوا معه، وسياق الآية يبيّن جليا بأن فعل قتل هو التشديد على المشركين بحصرهم أينما كانوا، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة يُخلى سبيلهم، ولو كان هنا فعل قتل بمعناه الأقصى أي القضاء على حياتهم لما قال تعالى[فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ]

يجب أن نعلم بأن آباءنا قد فهموا القرآن حسب الحقبة التي عاشوا فيها، والتي كانت مليئة بالحروب، وبدون الاعتماد على القواعد التي جعلها تعالى في كتابه، فلهذا فُسّر القرآن بطريقة مشددة، ففعل قتل لم تكن له دلالة لديهم إلا القضاء على الحياة ليكون الموت، وهذا توارثناه إلى يومنا هذا، دون الرجوع مباشرة إلى كتاب الله تعالى وتدبره بقواعده، ولهذا سنأتي بأمثلة أخرى من الأمثلة التي ضرب لنا تعالى، لنبيّن مدى أهمية الرجوع إلى القرآن وعدم اتخاذه مهجورا.

- قال تعالى في سورة التكوير8[وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ9بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ] جُل المفسرين قالوا بأن الموءودة هي المولودة التي كانت تُقتل في عهد الجاهلية، وهذا غير صحيح لعدة أسباب، أولا نحن نعلم بأن الإسلام يجبّ ما قبله، يعني أن الله تعالى لا يحاسب قوما إلا من بعد أن يرسل إليهم رسولا، لكي يبيّن لهم الحلال والحرام كما قال تعالى في سورة القصص59[وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ] فعندما نقول الجاهلية يعني أن الرسول لم يُبعث بعد. وثانيا، الله تعالى لا يسأل غير العاقل، والمولودة هي كذلك، وانما يسأل العاقل الراشد كما جاء في سورة النبأ40[إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا] وثالثا، سورة التكوير يتحدث فيها تعالى عن يوم القيامة وماذا سيقع فيها، وهذا خطاب عام، فكيف يتكلم سبحانه عن شيء قد وقع في الجاهلية يحاسب به الناس من بعد إيمانهم، فإن كان كذلك، فقد حق عليه سبحانه أن يحاسب الذين كانوا ينكحون ما نكح آباؤهم، والذين يجمعون بين الأختين! أولم يقل تعالى في سورة المائدة101 [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ]؟

يجب أن نعلم بأن الله تعالى أنزل القرآن للناس أجمعين، وهو تعالى يتكلم بالمفهوم العام حتى لا يكون الإنسان ملزما بمعرفة ما وقع لفترة معينة، في مكان ما، لكي يؤمن بهذا الكتاب،

ولهذا سنبيّن بأن هاتين الآيتين عامتين، ومضمونهما يتحدث عن أشياء تقع منذ بداية الخلق وهي مستمرة إلى يوم القيامة، ولا علاقة لهما بالمولودة، بل المرء، أي الإنسان العاقل الراشد.

لكي نتدبرهما جيدا، يجب أن نأخذ الآية التي جاءت قبلهما وهي[**وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ**] هنا الله تعالى يبيّن كيف سيبعث الناس، أي كل جسد سيزوجه بنفسه حتى يصير حيا ليحاسب، ولهذا قال تعالى[**النُّفُوسُ**] ولم يقل الأنفس، وهذا بيّناه في فقرة <أجل وأجل مسمى> وهذه النفوس التي زُوجت ستكون من بينها الموءودة، فما هي الموءودة إذًا؟

فكلمة الموءودة جذرها اللغوي هو فعل وأد، فنقول باللسان العربي، وأد الأب ولده بمعنى قيّد حريته وخنقها وكبتها، فالموءودة هي كل نفس قُيّدت، وكُبتت حرياتها كحرية التعبير مثلا، أو حرية الاختيار، أو أيّ حرية، ونحن نستعمل في أيامنا هذه كلمة <القمع> فالله تعالى سيسأل كل عاقل وراشد، حُرّم عليه شيء لم يحرمه عليه تعالى، أو أُكرِه أو أُجبِر على شيء لم يُكرهه عليه تعالى ولم يجبره عليه، لماذا فُعل به ذلك، ولهذا قال تعالى[**بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ**] أي ما هو السبب الذي قُمع من أجله، ولماذا حُرم من حرية ما، كحرية التعبير أو الاختيار أو العقيدة التي وهبه تعالى إياها. وهذا هو الذي يتحدث عنه تعالى، وهذا ما يقوم به كثير من الناس، وخصوصا المجتمعات الإسلامية، فكل إنسان عاقل، رجلا كان أو امرأة سيُسأل غدا يوم القيامة، لماذا وُضع حدٌّ لحريته التي وهبه تعالى إياها بغير حق، ولماذا أُكره على شيء لم يُكرهه الله تعالى عليه، وهذا هو سياق الآيتين.

- قال تعالى في سورة المائدة33[**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**] ففعل قتل هنا جاء مشدّدا أي على وزن فعّل، وهذا يعني المبالغة في الفعل، أي أن يُشدّد عليهم بقوة وبصفة نهائية لكي لا يعودوا لفعلهم، أو يُصلّبوا أي يُقيّدوا، ثم قال تعالى[**أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ**] وهذا بيّناه في فقرة <دلالة فعل قطع> وكل هذه الأفعال تقام عليهم بسبب خلافهم أحكام الله تعالى، ثم تابع تعالى قائلا[**أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ**] يعني أو يُطردوا من المكان الذي سعوا فيه الفساد، وهذا هو سياق الآية، وهذا ما يفعله جميع المجتمعات، ولا ينكره أي إنسان، وهذا ما أراد الله تعالى، وهذا ما يقع، وصدق الله حين قال تعالى في سورة الطلاق3[**إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**]

- وعندما يقول تعالى في سورة الإسراء33[**وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ**] فهو يتكلم عن القتل بمفهومه العام، يعني لا يمكن لأيّ شخص أن يضع حدّا لشيء

وهبه الله تعالى للإنسان إلا بالحق، كالحرية مثلا أو الكرامة، أو حق الاختيار وأقصاه الحياة، ولهذا قال تعالى في سورة النساء31[إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا] فالله تعالى نهانا عن قتل النفس التي حرم إلا بالحق، فأن يمنع أنسان إنسانا آخرا من حريته، أو يكرهه على شيء لمدة قصيرة، فهذا يسمّى قتل النفس، وهذا قد يكفّره الله تعالى، لأنه من الصغائر، لكن عندما يقضي إنسان على حياة أخيه الإنسان بغير حق الذي هو الدفاع عن النفس، فهذا يُعدّ أقصى حدّ لقتل النفس، فهو إذًا من الكبائر، والله تعالى لا يكفّر الكبائر، وهذا ما جاء به الحديث النبوي الذي أخرجه البخاري في صحيحه، والطبراني في المعجم الأوسط، والهيثمي في مجمع الزوائد عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ص:<لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما> ولهذا قال تعالى في سورة النساء 93[وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا]

يجب أن نعلم، ونؤمن بأن الله تعالى لا يأمر بوضع حدّ لحياة الإنسان، وإنما أجازه دفاعا عن النفس، أو لمحاربة الفساد في الأرض، كما جاء في سورة المائدة32[مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا] وهذا بينّاه كذلك في فقرة <القصاص في القتلى>

ويجب أن نؤمن كذلك بأن الله هو أرحم الراحمين، ورؤوف بالعباد، وعندما يحق علينا العذاب كالموت، فهو الذي يتولى ذلك لأنه هو ربنا الذي خلقنا وليس البشر، ولأنه هو القوي الشديد، وهو العدل وليس هناك من هو أعدل منه، فهو عندما أمرنا تعالى بجلد الزانية والزاني كما جاء في سورة النور2[الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ] تابع سبحانه قائلا[وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ] فهل يمكن لإله يأمرنا بعدم الرأفة في الجلد فقط، أن يأمرنا بالقضاء على حياة الإنسان بذبحه، أو حرقه والتمثيل بجثته؟

ولهذا وجب علينا أن نُقدِر قول الله تعالى حق قدره، فنعيد تدبر القرآن بعقولنا نحن، وبالقواعد التي جاء بها تعالى داخل كتابه، لأنه لا يُعقل أن يكون الإنسان أرحم من الله تعالى، ولهذا قال سبحانه في سورة النحل89[وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ] وفي سورة يوسف111[مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] وفي سورة محمد24[أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

دلالة فعل ضرب

قال الله تعالى في سورة النساء34[**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً**] يجب أن نعلم دائما بأن الله تعالى نزّل كتابه بلسان عربي مبين حتى نعقله، ووضع بداخله قواعد بيّنة، وإذا نحن اتبعناها لن نجد فيه ما يعارض إنسانية البشر، ولا منطقيته. فالله تعالى سمّى البشر إنسانا، ولا يمكن أن يبيح له ما هو غير إنساني، وكرّم بني آدم، ولا يمكن أن يبيح بأن يُذَلَّ، سواء كان رجلا أو امرأة، أو مؤمنا أو كافرا، ووهب له الحياة، ولا يمكن أن يأمر بالقضاء عليها. فإذا كانت جميع القوانين العالمية تُجرّم العنف ضد المرأة لأنها إنسانة، ولا تقلّ درجة عن إنسانية الرجل، فيجب أن يعلم المؤمن بأن الله سبحانه، لم يفرّق بين المرأة والرجل، وإنما فرّق بين الذكر والانثى كما جاء في سورة آل عمران 36[**وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى**] وأن قوانينه عز وجل، هي أعدل وأرحم من قوانين البشر.

أولم يقل تعالى في سورة فصلت34[**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**] فكيف بإله يأمرنا بأن نعامل عدونا معاملة حسنة، حتى ولو أساء إلينا، أن يبيح لنا ضرب (بلسان العرب) نسائنا؟ أولم يكن أولى أن يبيح لنا ضرب عدونا؟ فإذا وجدت هذه التساؤلات والتناقضات في ديننا، فاعلم أن هناك فهم خاطئ لآيات الله تعالى، ولهذا وجب علينا الرجوع إلى كتابه عز وجل، وتدبره بالقواعد التي بداخله.

يجب أن نعلم أن هذه الآية التي تتكلم عن ضرب النساء، قد فسرها آباؤنا بلسان العرب وطبقا للظروف التي كانت تعيش فيها المرأة آنذاك، والتي بيّنها تعالى في سورة النحل51[**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ 59يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ**] فهذه الآية تبيّن منظور الرجل للمرأة لدى أسلافنا، ولهذا كان محمد ص كثيرا ما يوصي بالنساء خيرا، ولهذا وجب علينا كذلك تدبر القرآن بعقولنا نحن، ونبحث عن دلالة فعل ضرب، وذلك بلبّ معنى الفعل لكي يكون كتاب الله تعالى قرآنا غير ذي عوج.

قال تعالى في سورة النساء101[وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا] وهنا كما نرى، قال تعالى[ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ] ولم يقل إذا كنتم على سفر كما جاء في آية الصيام في سورة البقرة184[فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ] وذلك لأن عبارة على سفر تعني بأن المسافر على الطريق، ولم يصل بعد إلى المكان الذي يتجه إليه، أما ضرب في الأرض، تعني بأن المرء في مكان غير المكان الذي يستقر فيه. فعندما قال تعالى [وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ] فهذا يعني إذا ارتحلتم، أي لستم مستقرين في مكانكم المعتاد، وهكذا يتبين بأن دلالة فعل ضرب في القرآن، هي فعل أو جعل الشيء عكس ما كان عليه، وبهذه الدلالة وجب أن نتدبر بعضا من الأمثلة التي ضربها تعالى، حتى لا يكون كتاب الله قرآنا ذا عوج، وذلك بعدم تغيير دلالة فعل ضرب في جميع الآيات، وهكذا تكون كلمات القرآن كرجل سلما لرجل.

قال تعالى في سورة البقرة26[إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا] هنا يعني بأن المثال لم يكن موجودا أصلا، فأوجده تعالى كمثال لما يقع في الحقيقة، أي إيجاد شيء لم يكن موجودا، يعني جعل الشيء على عكس ما كان عليه.

قال تعالى في سورة الكهف11[فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا] هنا الله تعالى يتحدث عن أصحاب الكهف فقال[فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ] يعني أصبحوا لا يسمعون وذلك لتوقف حاسة الأذن، وهنا كذلك إيقاف فعل السمع الذي هو الأصل ليكون ضده.

قال تعالى في سورة البقرة60[وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا] وهنا يجب أن نعلم أولا بأن موسى عليه السلام كان يتوكأ على عصاه، وهذا ما جاء في سورة طه18[قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى] وهذا يعني أن العصا تلمس الأرض، فهي إذا متجهة نحو الأسفل، فعندما قال تعالى[اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ] فهذا يعني اجعلها عكس ما هي عليه، أي متجهة نحو الأعلى صوب الحجر لتنفجر منه اثنتا عشرة عينا في آن واحد، لأنه لو كان فعل ضرب بمعنى لسان العرب الذي عهدناه، يعني أن يلمس بعصاه الحجر، لقال تعالى - اضرب اثني عشر حجرا - مثلا.

وعندما قال تعالى في سورة الشعراء63[فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ] فلو كان هنا كذلك فعل ضرب يعني المفهوم

الذي توارثناه، لقال تعالى اضرب بعصاك اليمّ وليس البحر، لأن كلمة اليمّ تعني ماء البحر وليس البحر، وذلك لأن كلمة البحر في كتاب الله تعالى هي دلالة على عكس البر كما جاء في سورة الروم41[ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ] والبرّ هو المفهوم العام لليابسة والبحر إذًا هو المفهوم العام لغير اليابسة، وعندما يريد تعالى أن يحدّد شيئا في البر يقول مثلا في سورة الفرقان63[وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا] وهنا كما نرى، قال تعالى الأرض، لأنه يتحدث عن المشي، فحدّد السطح الذي يمشون عليه أي الأرض ولم يقل البرّ، وكذلك عندما قال تعالى في سورة طه39[أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ] فهنا الله تعالى استعمل كلمة اليمّ، لأن التابوت يوضع على ماء البحر في مكان محدد، وبما أن الله تعالى أحكم آياته، فلن نجد فيه خللا يدفعنا للاختلاف في فهمه. فقوله تعالى[اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ] يعني رفع العصا التي هي في الأصل موجهة نحو الأسفل، وتصويبها اتجاه البحر كما هو الشأن عندما أمره تعالى بضرب الحجر، وهنا كذلك فعل ضرب يدلّ على جعل الشيء عكس ما هو عليه في الأصل.

قال تعالى في سورة البقرة61[وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ] وهنا قال تعالى [أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ] يعني أن الله تعالى قد أنزل عليهم المنّ والسلوى، وكانوا يعيشون حياة مكرّمة ودون تعب، فعندما أرادوا استبدال هذه النعمة بما هو أدنى أصبحوا أذلة، وهنا كذلك فعل ضرب يدل على إيقاف الكرامة التي هي الأصل ليكون عكسها وهو الذلّ والمسكنة.

قال تعالى في سورة الأنفال12[إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ] يجب أن نعلم أولا بأن الملائكة ليسوا كالبشر، فهم لا يسفكون الدماء، وإنما البشر هو الذي يقوم بذلك، ولهذا عندما قال تعالى في سورة البقرة30[وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً] تابع سبحانه قائلا[قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ] ولكي نعلم ما معنى قوله تعالى[فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ] وجب علينا أن نفهم ما معنى كلمة الأعناق، وكلمة بنان.

فكلمة أعناق هي جمع عنق، والعنق هو ضرب من السير فسيح للإبل أو الخيل أو ما شابه ذلك، فعندما قال تعالى[فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ] يعني سيروا فوق المجموعات من الدواب التي كان يركبها المحاربون ليتشتّت جمعهم من الرعب، ثم قال تعالى[وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ] وكلمة بنان جذرها اللغوي هو فعل بنى، فبنان إذًا هي مصدر لفعل بنى، ولهذا قال تعالى في سورة القيامة3[أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ4بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَه] فهنا يقول تعالى بأنه قادر على أن يسوّي بنياننا الجسماني كما كان عليه في الحياة الدنيا، فكلمة بنان تعني بنيان، وهو كل ما يبنيه الإنسان، وعندما تكون حرب، يقوم الجيش ببناء الخيم وما شابه ذلك، فعندما قال تعالى[فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ] فهذا يعني فرّقوا جمعهم وهدّموا بنيانهم أي خيمهم، وكل ما بنوه، بنفخ ريح مثلا أو إعصار حتى يُرعبوا فيتفرقوا، وهذا ما أراده سبحانه ولم يأمر الملائكة بقتلهم، وهذا ما جاءت به الآية حيث قال تعالى[فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ] فهو تعالى أراد رعبهم فيفروا وليس قتلهم، فهنا كذلك في هذه الآية، دلالة فعل ضرب هي فعل الشيء عكس ما كان عليه.

قال تعالى في سورة ص41[وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ] فالآية هنا تتحدث عن النبي أيوب حيث أمره تعالى بأن يأخذ ضغثا، وكلمة ضغث تعني حزمة من أشياء مختلفة، وقد تكون حزمة من نبات جُمع عشوائيا أي مختلطا، وعندما قال تعالى[وَخُذْ بِيَدِكَ] فكلمة بيدك لا تعني المفهوم الذي عهدناه، وإنما أمره تعالى بأن يجمع الحزمة هو بنفسه بطريقة عشوائية، ثم يضرب بها، أي يشتّتها فلا تصير حزمة، ولهذا قال تعالى[فَاضْرِبْ بِهِ] يعني شتّته، وهكذا لا يصير حزمة، ولو كان فعل ضرب هنا كما فهمناه بلسان العرب، لبيّن الله تعالى ماذا يضرب به، ولكن دلالة فعل ضرب كما تبيّن في الآيات السابقة وهنا كذلك في هذه الآية، هي فعل أو جعل الشيء عكس ما هو عليه.

قال تعالى في سورة الصافات91[فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ92مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ93فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ] هذه الآية تتحدث عن النبي إبراهيم عليه السلام، لمّا ذهب مسرعا وسرّا إلى آلهة قومه، ولهذا قال تعالى[فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ] ثم قال من بعد[فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ] وهنا جاء تعالى بكلمة باليمين وليس باليد، لأن كلمة اليمين باللسان العربي، تعني الجزء المتقدم من اليد، والذي يتكون من الأصابع والراحة أو الكف، ولهذا نقول يأكل بيمينه وليس بيده، ولهذا قال تعالى مثلا في سورة طه17[وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى] وكذلك في سورة العنكبوت48[وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا

تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ] فعندما قال تعالى[فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ] فذلك ليبيّن سبحانه أن إبراهيم لم يستعمل أيّ آلة، لأن الأصنام كانت قائمة على القواعد فقام إبراهيم بدفعها بيمينه لإسقاطها، فلم تعد مستقيمة عموديا كما هو الأصل، وهنا كذلك دلالة فعل ضرب هو جعل الشيء عكس ما كان عليه.

الآن يمكننا أن نتدبر الآية التي جاءت في سورة النساء34[الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا] هنا بدأ تعالى الآية بقوله[الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء] وكلمة قوامون هي صيغة مبالغة لكلمة قائمون، ومفردها قائم، فنقول في اللغة العربية، الرجل قائم على المرأة، يعني هو الذي يقوم بشؤونها من مأكل ومشرب ومبيت، وهذا ما هو سائد في كل المجتمعات سواء منها الإسلامية أو غير الإسلامية، لأنه غالبا ما يكون الرجل هو الذي يشتغل والمرأة تقوم بالعناية بالأطفال والبيت، فالقوامة تكون بالإنفاق وليس بشيء آخر، ولهذا تابع تعالى قائلا[بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ] يعني قد يُفضّل الله تعالى الرجل على المرأة بالمال فيكون هو القائم عليها، وقد يُفضّل المرأة على الرجل بالمال كذلك فتكون هي القائمة عليه، وهذا ما بيّنه سبحانه في نفس السورة الآية32[وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا] وكما نلاحظ هذه الآية تبيّن بأن هناك رجال أكثر مال من النساء، وهناك نساء أكثر مال من الرجال، وهذا ما يعلمه الجميع، وقد جاءت هذه الآية قبل آية من الآية التي نحن في صددها، والتي تتحدث عن حالة ما إذا كانت المرأة هي القائمة على الرجل، أي هي التي فضّل تعالى على الرجل مما اكتسبت، وقد تكون من الصالحات، أي قانتات وحافظات للغيب، بمعنى لا تُعلن بهذا وتفتخر به أمام الناس، وقد لا تكون من الصالحات فتنشز، أي تتمرد على الرجل بدعوى أنها هي القائمة على مصالح البيت، فالله تعالى جاء بالوسيلة لكي يحدّ الرجل من هذا النشوز بسبب قيامها هي على مصالح البيت دون اللجوء إلى العنف أو الطلاق مباشرة.

ولهذا عندما قال تعالى[وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ] أي تمردهن وتجبرهن، تابع قائلا [فَعِظُوهُنَّ] وفعل وعظ يعني أن ينصحها الرجل ويُذكّرها بعواقب تصرفها، ثم قال تعالى[وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ] يعني إن لم تتعظ المرأة، يجب فراقها في الفراش، وهذا هو السلاح الوحيد لدى الرجل الذي تكون امرأته هي القائمة عليه، ثم قال

تعالى[وَاضْرِبُوهُنَّ] يعني إن لم ينفع الفراق في الفراش، فيجب فراقهن كليا، أي ترك البيت دون أن يطلقها، ولهذا استعمل تعالى كلمة اضربوهن، يعني التوقف عن مصاحبتهن وذلك بترك البيت، لأن الأصل هو مصاحبة الرجل المرأة في البيت، وفي حالة الخصام، المرأة هي التي تترك البيت عندما يكون الرجل هو القائم عليها، لكن في هذه الحالة، المرأة هي القائمة على مصالح البيت، فالرجل إذًا هو الذي سيترك البيت، فهو إذًا سيقوم بعكس ما كان عليه الوضع، أي التوقف عن مصاحبتها في البيت، يعني ترك البيت دون طلاقها، ولهذا تابع تعالى قائلا[فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا] يعني إن انتهين عن نشوزهن فلا تستمروا في مفارقتهن، ويجب أن نلاحظ بأن الله تعالى استعمل هنا كلمة سبيلا وليس سلطانا، لأن كلمة سلطان تعني التحكم والسيطرة بقدرة ما، كما جاء في سورة الحجر42[إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ] أما كلمة سبيل فهي تعني اتخاذ وسيلة ما أو حجّة ما.

فالله تعالى يقول، إذا رجعت المرأة عن نشوزها فليس للرجل حجة في الاستمرار في فراقها، لكن إن هي استمرت في نشوزها فالله تعالى وضع حلا لهذا في الآية التالية بقوله[وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا] لأن الله تعالى لا يُكره رجلا على أن يعيش مع امرأة لا يستطيع العيش معها بكرامة، ولا يشعر معها بالسعادة، ولا يكره كذلك المرأة على أن تعيش مع رجل لا يعاملها بكرامة، ولا تشعر هي كذلك معه بالسعادة لأن الله عز وجل لا يظلم مثقال ذرة، ولكن الإنسان يظلم أخاه الإنسان، ولهذا قال تعالى في سورة النساء128[وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا]

فكما خوّل الله الحق للرجل، خوّله كذلك للمرأة، فأعطى لكل ذي حق حقه، ولم يجعل للرجل سلطة على المرأة، ولا للمرأة السلطة على الرجل، والا فسيظلم أحدهما، والله تعالى لا يظلم، ولا يُفضّل بين الرجل والمرأة إلا بما اكتسبا من أموال، وهذا لم يجعله تعالى سببا لاستعباد الرجل للمرأة، أو استضعافها، أو إهانتها، وصدق الله تعالى حيث قال في سورة يونس44[إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ]

وهكذا يتبيّن بأن القوانين الربانية هي أرحم وأعدل من القوانين البشرية، ولا يمكن لإله سمّى نفسه رحمان رحيم، أن يبيح ما ينكره الإنسان، إما لقساوته أو لعدم منطقيته، وهذا لا يعلمه المرء إلا إذا استغنى عن النقل، وتدبر القرآن بقواعده، وصدق

الحديث النبوي الذي أخرجه ابن حزم في كتابه <أصول الأحكام> عن الأصبغ بن محمد أبو منصور قال:<الحديث عني على ثلاث، فأيما حديث بلغكم عني تعرفونه بكتاب الله تعالى فاقبلوه، وأيما حديث بلغكم عني لا تجدون في القرآن ما تنكرونه به ولا تعرفون موضعه فيه فاقبلوه، وأيما حديث بلغكم عني تقشعر منه جلودكم وتشمئز منه قلوبكم وتجدون القرآن خلافه فردوه>

والله هو العليم الحكيم الخبير.

دلالة فعل قطع

قال الله تعالى في سورة الأنعام45[فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ] وفي سورة الحجر66[وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ] في هاتين الآيتين الله تعالى يتحدث عن القوم الذين كفروا به، كقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، فكلهم هُلكوا بعذاب من الله تعالى، ولم يتبقّ منهم أحدا، ولهذا استعمل تعالى فعل قطع، فهو سبحانه وضع حدّا لذريتهم كما جاء في سورة نوح26[وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا27إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا] فالله تعالى أوقف تناسلهم بهلاكهم كلهم. ففعل قطع دلالته في القرآن، هي وضع حدّ لشيء أو فعل من الاستمرار، وعندما نتدبر بعض الآيات التي جاء فيها فعل قطع، والتي ضربها الله تعالى أمثلة في القرآن بهذه الدلالة، لن يكون كتاب الله تعالى قرآنا ذا عوج.

قال الله تعالى في سورة الحشر4[ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ5|مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ] هنا قال تعالى[مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ] وكلمة لينة جذرها اللغوي هو فعل لان، فنقول لان الشيء أي سهل وانقاد، فاللينة هنا في الآية هي الصلة السهلة بدون إكراه والانقياد إلى الله سبحانه، فعندما قال تعالى[مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ] يعني ما أوقفتم من علاقة أو معاملة طيبة، ولهذا تابع قوله تعالى[أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا] فهنا كذلك نفس الدلالة لفعل قطع، أي إيقاف فعل أو وضع حدّ لشيء ما من الاستمرار.

قال تعالى في سورة هود81[قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ] هنا جاء تعالى بكلمة[بِقِطْعٍ] وهي مصدر لفعل قطع، ليقول للوط بأن يسير بأهله مدة زمنية من الليل فقط وليس الليل كله، وهنا كما نرى دائما نفس الدلالة.

قال تعالى سورة يوسف31[فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ] يجب أن نعلم بان كتاب الله تعالى عندما يتدبر بقواعده التي جاءت بداخله، وبالتجرد من كل تقديس كما اشترط سبحانه، لن نجد فيه أيّ شيء يخالف العقل أي المنطق، أو العلوم التي اكتُشفت، أو نجد فيه أشياء

تقشعر منها جلودنا، أو تشمئز منها قلوبنا، أو تجعلنا نصد عن سبيل الله تعالى. فعندما نغير دلالة الكلمة في كل آية، يصير كتاب الله تعالى قرآنا ذا عوج، وبالتالي نزيغ عن فهم قوله سبحانه.

الكل يعلم بقصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز عندما زعمت بأن يوسف أراد بها سوءًا، ولمّا شهد شاهد من أهلها تبيّن بأنها كذبت، وبعد ذلك شاع الخبر بين الناس، ولهذا قال تعالى في سورة يوسف30[**وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**] وهنا كما نرى، قال تعالى نسوة ولم يقل نساء، وذلك دلالة على أنهن لسن متزوجات بعدُ، وهؤلاء النسوة كنّ يلمن امرأة العزيز في مراودتها لفتاها عن نفسه مع أنها متزوجة، فلما علمت هي بذلك أرادت أن ينتهين عن هذه الإشاعة، فقررت ضيافتهن ليعلمن السبب الذي دفعها لذلك، ولهذا قال تعالى[**فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً**] يعني اعتدت لهن مجلسا، ثم تابع قوله تعالى[**وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا**] يجب أن نعلم أولا بأن الله تعالى قد خلق هذا الكون وفطره، يعني جعل له منطقا، فلا يمكن أن يكون مطر بدون سحاب، ولا يمكن للنهار أن يكون مبصرا بدون شمس، ولا يمكن لإنسان أن تناوله سكينا، أي آلة حادة، فيقوم ببتر يده بنفسه، ولهذا وجب علينا تدبر القرآن بالقواعد التي هي بداخله، وكما ضرب الله تعالى في القرآن من كل مثل، وجب علينا أخذ بعضها.

ففعل آتى في كتاب الله تعالى لا يدلّ على مناولة شيء ليأخذه شخص ما بيده، وهناك أمثلة في كتابه سبحانه، ففي سورة الحشر7[**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**] فالآية تعني ما جاء كم به الرسول أي الأوامر فخذوه، وما نها كم عنه فلا تعودوا لفعله، وهنا فعل آتى لا يدلّ على مناولة شيء مادّي لشخص ما، وإنما الإتيان أو المجيء بما هو معنوي، وفي سورة إبراهيم34[**وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**] وهنا كذلك لا يدلّ فعل آتى على مناولة شيء معيّن في اليد.

فلو كان يتكلم تعالى في الآية عن الآلة الحادة التي نعتها بلسان العرب بالسكين، لقال سبحانه كما جاء في سورة الذاريات26[**فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ**] وهنا كما نرى، استعمل تعالى فعل جاء، وقرن كلمة العجل بحرف الباء، دلالة على أن إبراهيم جاء بشيء مادي ناوله لضيوفه، ولهذا وجب علينا أن نتدبر كلمة سكّينا، والتي جذرها اللغوي هو فعل سكن، فنقول سكنت الريح أي هدأت، ولهذا قال تعالى في سورة

يونس67[هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ] أي جعل لنا الليل لنرتاح فيه، ونقلّل من الحركة، وقال كذلك في سورة الإسراء26[وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا] وكلمة مسكين اشتُقت من فعل سكن، فمسكين إذًا هو كل شخص ليس له شغل، أو عاطل عن الحركة.

فعندما قال تعالى[وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا] يعني أوجدت لكل واحدة منهن ما يسكنها في مكانها، فيجعلها تنتظر قدوم يوسف دون علمها بذلك، فكلمة سكّينا في الآية لا تعني الآلة الحادة كما نعرفها نحن بلسان العرب، ولكن القيام بفعل ما يلهيهن عند جلوسهن فيجعلهن ساكنات، ولهذا قال تعالى[وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا] ولم يقل - جاءت لكل واحدة منهن بسكين -

ثم تابع قوله تعالى[وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ] يعني لما خرج يوسف عليهن وهن جالسات في أماكنهن ساكنات ولم يغادرنه، استطعن رؤيته والانتباه إليه في آن واحد، ولهذا قال تعالى[فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ] يعني عندما رأين يوسف تعجبن لجماله، ثم تابع قائلا [وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ] يعني توقفن عن لومهن لامرأة العزيز لمراودتها يوسف عن نفسه لأنهن علمن بعظمة جماله، ولا يمكن لامرأة أن تستفرد به ولا تسعى لمراودته عن نفسه، وهذا ما كانت تريده امرأة العزيز، وهو أن يعلمن بالسبب الذي دفعها لما صنعت فيتوقفن نهائيا عن لومهن لها في ذلك، ولهذا جاء فعل قطع في هذه الآية مشدّدا، دلالة على وضع حدّ للفعل بصفة نهائية، ولهذا تابع قوله تعالى[قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ] وهكذا بدأت النسوة كذلك في مراودة يوسف عن نفسه، ففعلن هن كذلك ما فعلت امرأة العزيز، لكن يوسف دعا ربه فصرف عنه كيدهن كما قال تعالى[قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ34فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ] وهكذا يتبيّن سياق هذه الآيات الذي لا يخرج عن المنطق الإنساني، وبأن فعل قطع في هذه الآية لا علاقة له كذلك بالمفهوم الذي عهدناه، وورثناه عن آبائنا وغير المنطقي، وإنما دلالته هي وضع حدّ لفعل ما أو شيء ما حتى لا يستمر.

قال تعالى في سورة المائدة38[وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] يجب كما تبيّن حسب القواعد التي وضعها تعالى لتدبر القرآن،

أن لا نعطي للكلمة الواحدة أكثر من دلالة حتى لا يكون كتاب الله تعالى قرآنا ذا عوج، وبالتالي يكون اختلاف في فهم كتابه سبحانه، مما يؤدي إلى استنباط أحكام لم ينزل الله بها من سلطان.

فالله تعالى قال في سورة المائدة6[**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ**] وهنا كما نرى، عندما تكلم سبحانه عن اليدين بالمعنى الحقيقي للكلمة، بيّن لنا الجزء الذي يجب غسله عند الوضوء، وليس كل اليدين ، وهذا يدلّ على أن اليد في كتابه تعالى، هي من رؤوس الأصابع إلى الكتف، وفي آية السارق قال تعالى[**فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا**] وهنا كما نرى قال تعالى[**أَيْدِيَهُمَا**] وليس يديهما، يعني أيدي السارق وأيدي السارقة، وليس يد السارق ويد السارقة، وإذا كان قوله تعالى[**فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا**] بالمفهوم الذي عهدناه، وورثناه بدون أن نعقله، فنحن نخالف حكم الله تعالى في أمرين، ففقهنا يدعو إلى بتر جزء من اليد فقط وليس اليد، فالذين يقومون بهذا الفعل، أي بتر اليد، فهم يقطعون اليمين فقط وليس اليد، وهذا يخالف قوله سبحانه، والأمر الثاني، إذا كانت كلمة اليد في القرآن تعني ما نفهمه نحن بلسان العرب، فهم لا يقطعون أيدي السارق، ولكن يقطعون يد السارق، وهذا كذلك يخالف قوله سبحانه، فضلا عن الاختلافات التي وقع فيه جل الفقهاء، كالمبلغ مثلا الذي يوجِب بتر اليد، وهل اليد اليمنى أم اليسرى، ومسائل أخرى، وأصبح كل واحد يحدّد بهواه، وليس بما قال الله تعالى، وذلك لفهمهم الخاطئ لدلالة فعل قطع، مما أدّى إلى فهم خاطئ للآية، وبالتالي وجود تلك الاختلافات التي وقعوا فيها، وكأن القرآن من عند غير الله عز وجل كما جاء في سورة النساء82[**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**] فكيف لرحمان رحيم، عند غسل اليد يعيّن الجزء الذي وجب غسله، وعند البتر لا يعيّن الجزء الذي وجب بتره، حسب ما فهمه آباؤنا، فأيهما أهمّ وأعظم عند الله تعالى، غسل اليد أم بترها؟

فالله تعالى قال في سورة الشورى30[**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**] فهنا عبارة (ما كسبت أيديكم) تعني ما قمتم به من أفعال، وبالتالي لا يمكن تغيير عبارة كسبت أيديكم بعبارة كسب اليد، فهذا سيغير المعنى المراد لتلك العبارة، لأن كلمة أيديكم هنا كناية ولا تعني عضو الجسم، وإنما الفعل الذي نقوم به بأنفسنا، وقال تعالى في سورةالنساء62[**فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**] وهنا كذلك عبارة قدّمت أيديهم تعني الفعل الذي يقومون به هم بأنفسهم، فيكون سببا للمصيبة التي قد تصيبهم، ولا علاقة لكلمة أيديهم هنا كذلك بالعضو، ولا يمكن كذلك أن

نغير عبارة قدمت أيديهم بعبارة تقديم اليد مثلا، فهذا سيغير معنى العبارة، وقال تعالى كذلك في سورة الفتح24[وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ] يعني أن الله كفّ إيذاء بعضهم بعضا، ولا يمكننا هنا كذلك تغيير عبارة كفّ أيديهم بعبارة كفُّ اليد، لأن هذه العبارة تعني شيئا آخرا.

فعندما نتدبر القرآن بهذه الأمثلة التي ضربها تعالى، سيتبيّن بأن عبارة (اقطعوا أيديهم) لا تعني قطع اليد، أي بتر عضو اليد، وإلا سيكون تحريف لقوله تعالى، وإنما تدلّ على وضع حدّ لفعل السرقة حتى لا يستمر سواء كان السارق ذكرا أو أنثى، وذلك حسب العرف الذي يأمر به المجتمع، كما أمر الله تعالى محمدا ص في سورة الأعراف199[خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ] ولهذا لم يقطع عمر بن الخطاب يد السارق، وذلك لأنه فقه قول الله تعالى كما فقهه النبي، وليس لأيّ سبب آخر، وأمر هو كذلك بالعرف وأعرض عن الجاهلين، وهذا ما تقوم به جميع المجتمعات سواء الإسلامية أو غير الإسلامية، ولا يختلفون فيه، وهذا ما أراد الله تعالى، وهذا ما هو كائن والى يوم القيامة إن شاء الله تعالى كما جاء في سورة الطلاق 3[إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا]

فكل شيء أمر به تعالى واقع لا محال، ولا يمكن أن يأمر عباده بما تقشعر منه جلودهم، وتشمئز منه قلوبهم، ولهذا عندما قال تعالى[وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] تابع سبحانه قائلا[فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] وهنا كما نرى، اشترط تعالى توبته على السارقة بإصلاح ما أفسد، أي إرجاع ما سرقه، ولا يمكن لمن بُترت يده حسب فهم آبائنا أن يُرجع ما سرق.

وعندما قال تعالى في سورة المائدة33[إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ] فهنا كذلك جاءت نفس العبارة، حيث قال تعالى[تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ] وهنا فعل قطع جاء مشدّدا كذلك كما في الآية 31 من سورة يوسف، وذلك دلالة على وضع حدّ للفعل بصفة نهائية، يعني يوضع حدّ بصفة نهائية لفعلهم وتحركاتهم، لكي لا يعودوا للفساد في الأرض، ولهذا قال تعالى[أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ] وهذا الحكم يُقام عليهم لمخالفتهم أحكام الله سبحانه، ولهذا عندما قال تعالى[تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ] تابع قائلا[مِنْ خِلَافٍ] وهذا ما نسميه

نحن بالسجن المؤبد، وهذا ما تقوم به جميع المجتمعات كذلك سواء الإسلامية أو غير الإسلامية، وصدق قوله تعالى في سورة البقرة117 [**وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**] وكذلك في سورة الحجر42 [**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ**] وهنا تعالى يخاطب الشيطان فقال[**إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ**] والكل يعلم بأن <إلاّ> حرف استثناء يستثني القليل من الكثير، فإذا كان فقهنا صحيحا، أي (اقطعوا أيديهم) بمعنى قطع اليد، وهذا لا يصح لغويا، وكل الدول الإسلامية تقريبا لا تطبق هذا الحكم، فهذا يعني بأن الذين اتبعوا الشيطان هم الأغلبية، وهذا يدل على أن الشيطان أصبح أقوى من الله تعالى، فهل يمكن لعاقل أن يؤمن بهذا؟ وهل يمكن لإله نعت نفسه بالرحمان الرحيم، أن يأمرنا بأحكام تناقض إنسانية البشر؟

فلهذا وجب علينا أن نعيد تدبر القرآن طبقا للقواعد التي بداخله، ونعترف بأن آباءنا تدبروه حسب ما كان لديهم آنذاك من معرفة وآليات، والتي كانت تناسب الحقبة التي كانوا يعيشون فيها، ولهذا قال تعالى في سورةالبقرة170 [**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

الكتاب (القرآن والإنجيل والتوراة) والذكر

قال الله تعالى في سورة هود1 [الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ] وهنا كما نرى، قال تعالى[كِتَٰبٌ] ولم يقل - قرآن - وبما أن الله سبحانه أحكم آياته فجعل لكل كلمة دلالتها، وجب أن نبيّن دلالة كلمة الكتاب، لكي نعلم لماذا قال تعالى [كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ] ولم يقل - قرآن أحكمت آياته ثم فصلت -

فالله تعالى قال في سورة الزخرف3 [إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] فلكي نعقل قوله تعالى، وجب أن نتدبر القرآن باللغة العربية، وباللسان العربي كما جاء في سورة الشعراء193 [نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ194عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ195بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ]

فكلمة كتاب جذرها اللغوي هو فعل كتب، فنقول كتب على الورقة، يعني خطّ عليها، ونقول كتب عليه الطاعة، يعني أمره بها وأوجبها عليه، وهنا كما نرى، فعل كتب له دلالتان، وبما أن الله تعالى جعل كتابه قرآنا غير ذي عوج، يعني لكل كلمة دلالة واحدة ولا تتغير مع تغير الآية، وجب أن نبيّن أيّ الدلالتين هي من اللسان العربي الذي أنزل به تعالى كتابه، ولهذا ضرب لنا تعالى أمثلة في القرآن.

فالله تعالى قال في سورة البقرة183 [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ] يعني أوجبه علينا، وقال تعالى في سورة التوبة51 [قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا] يعني أوجب لنا وليس أوجب علينا، فالله تعالى أوجب أن يكون مرض وعافية، وعقم وخصوبة، وكل شيء يصيبنا هو مما أوجب أن يكون، ولا يمكن أن يصيبنا شيء لا وجود له في الأرض وغير منطقي، وبما أن المصحف يحتوي على ما أوجب علينا تعالى من فرائض وأحكام، وعلى ما أوجب أن يكون كالقصص والأنباء، ولا يخالف المنطق، فكلمة الكتاب إذًا هي دلالة على محتوى ما جاء به المصحف، ولهذا عندما تكلم سبحانه عن ما كتب لنا وما كتب علينا، والذي جعله تعالى عبارة عن آيات محكمات لكي نعلمه، استعمل كلمة الكتاب، وليس كلمة القرآن أو كلمة الذكر.

أما عندما أراد تعالى أن يتحدث عن الدلالة الثانية لفعل كتب والتي نعرفها بلسان العرب، فهو سبحانه قال في سورة العنكبوت48 [وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَلَا تَخُطُّهُۥ] ولم يقل – تكتبه – لأنه يتكلم سبحانه عن فعل خطّ، والذي نعرفه بلسان العرب بفعل كتب، ولهذا تابع تعالى قائلا[بِيَمِينِكَ] ولم يقل – بيدك – وكما تبيّن بأن كلمة يمين في القرآن هي دلالة على الجزء المتقدم من اليد، والذي يبدأ من رؤوس الأصابع إلى المعصم ويحتوي الكفّ، ولهذا قال تعالى في سورة طه17 [وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ**18**قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ]

فعندما يستعمل تعالى كلمة الكتاب، فذلك ليتكلم عن مضمون الوحي، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة2 [ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ] وهنا كما نرى، قال تعالى [ٱلْكِتَٰبُ] ثم قال[هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ] يعني إن قام المؤمن بما أحتوى عليه المصحف من أحكام وفرائض، وآمن بما جاء به من أنباء، وأخذ العبرة والموعظة مما جاء به من قصص، فهو من المتقين، ولهذا قال تعالى كذلك في سورة آل عمران7 [هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ] وهنا كما نرى، استعمل تعالى كلمة كتاب، وذلك لأنه يتكلم عن محتوى المصحف والذي يتكون من آيات محكمات، وهذا بيناه في فقرة <المحكم والمتشابه>

وكذلك عندما قال تعالى في سورة البقرة79 [فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ] استعمل سبحانه فعل كتب، وذلك دلالة على فعل أمر أو أوجب، فعندما قال تعالى[فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ] فهو يُنذر عز وجل الذين يأمرون الناس ويوجبون عليهم ما لم يوجبه تعالى على عباده رحمة منه، ولهذا تابع قائلا[بِأَيْدِيهِمْ] يعني يأمرون بأشياء لم ينزل الله بها من سلطان، وإنما من تلقاء انفسهم وبأهوائهم، ويوجبونها على الناس بزعمهم أنها من دين الله تعالى، ولهذا تابع قائلا[ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ] وهنا كما نرى، الله تعالى استعمل فعل المضارع في هذه الآية، لأنه سيكون لكل أمة قوم يشرّعون ما لم يشرّعه تعالى، ولهذا قال سبحانه في سورة النحل 116 [وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ] وقال كذلك في سورة الشورى 21[أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] والأمثلة كثيرة في الكتاب.

فدلالة كلمة الكتاب ليست هي دلالة كلمة القرآن، وليست هي دلالة كلمة التوراة، وكذلك كلمة الإنجيل، ولهذا كلما أمر تعالى بالإيمان بما جاء به الرسل واتباعه، إلاّ واستعمل كلمة الكتاب، وذلك بالنسبة لكل الرسل، ولهذا قال تعالى في سورة الأنعام 155[وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ] وهنا كما نرى، استعمل تعالى كلمة الكتاب ولم يستعمل كلمة القرآن، وقال كذلك في سورة البقرة85[ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ] وهنا كما نرى، استعمل تعالى كلمة الكتاب ولم يستعمل كلمة التوراة، وذلك لأنه يتكلم عن المحتوى كما جاء في سورة الأنعام154[ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ]

ولهذا كلما أراد كذلك أن يتكلم سبحانه عن الذين يعلمون محتوى الكتاب، فهو يقول مثلا في سورة النساء159[وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا] وهنا يتكلم سبحانه عن النصارى الذي يعلمون ما جاء به كتابهم، والذي يذكر بأن الله تعالى سيرفع عيسى إليه كما جاء ذلك بطريقة مباشرة في عديد من الآيات في كتابنا، وأخرى غير مباشرة كقوله سبحانه في سورة آل عمران46 [وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ] وهنا كما نرى، قال الله تعالى[وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ] وهذه آية بيّنة خاصة بعيسى عليه السلام، لكن الله تعالى تابع قائلا[وَكَهْلًا] وهذا ليس خاص بعيسى، وإنما هو شيء عام، لكن الله تعالى بيّن هنا بأن عيسى ستتوقف حياته عند الكهولة ولن يكلم الناس بعدها.

فإذا كانت كلمة الكتاب هي دلالة على محتوى المصحف، فما هي دلالة كلمة القرآن إذًا؟ ولماذا نعت الله تعالى الكتاب الذي أنزله على محمد ص بالقرآن، والذي أنزله على عيسى بالإنجيل، والذي أنزله على موسى بالتوراة؟

- القرآن: قال الله تعالى في سورة محمد24[أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ] وهنا كما نرى، قال تعالى[أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ] ولم يقل – أفلا يتدبرون الكتاب – وكلمة القرآن هي على وزن فعلان، كما نقول ظمآن، والتي جذرها اللغوي هو فعل ظمأ ، وكذلك كلمة القرآن جذرها اللغوي هو فعل قرأ، فنقول قرأ الرسالة يعني علم عن طريق القراءة ما هو مخطوط بداخلها، فهو إذًا علم محتواها، ولهذا قال تعالى في سورة العلق1[ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ] وذلك لأن محمدا ص علم الوحي، أي محتوى الكتاب، عن طريقة القراءة، فكلمة القرآن إذًا هي دلالة على الطريقة التي أوحى بها

تعالى إلى رسوله، والتي علم بها الكتاب، أي محتوى الرسالة، ولهذا قال تعالى[**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ**] وذلك لأنه يتكلم سبحانه عن فهم ما جاءت به الرسالة. ولهذا قال تعالى في سورة البقرة185[**شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ**] وهنا كما نرى قال تعالى[**ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ**] ولم يقل الكتاب، وذلك لأنه يتكلم عن معرفة محتوى الكتاب وليس الإيمان به، ولهذا قال تعالى[**هُدًى لِّلنَّاسِ**] يعني لكي يهتدي الإنسان، يجب أن يقرأ المصحف ليعلم محتوى الرسالة أي الكتاب، وبعد ذلك إن شاء آمن بمحتواه، وان شاء كفر به، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة2[**ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**]

وبما أن كتاب الله تعالى هو من علمه، ولكل كلمة دلالتها، فدلالة الكلمة المُعرّفة ليست هي نفس دلالة تلك الكلمة عندما تكون نكرة، فدلالة كلمة العاقبة مثلا ليست هي دلالة كلمة عاقبة، وكذلك دلالة كلمة الساعة ليست هي دلالة كلمة ساعة، وبالتالي دلالة كلمة القرآن ليست هي دلالة كلمة قرآن، فعندما يقول تعالى – القرآن – فهذا يعني المصحف الذي نعلم محتواه بالقراءة، والذي ليس هناك سواه، وعندما يقول تعالى – قرآن – فهو دلالة على معرفة أيّ شيء عن طريقة القراءة، ولهذا قال تعالى في سورة فصلت44[**كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**] وهنا كما نرى، قال تعالى[**كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا**] يعني الكتاب، والذي هو دلالة على المحتوى، قد فصّل سبحانه محتواه عبر آيات بقراءة عربية لكي يتدبر الذين يعلمون قراءة اللغة العربية ما بداخله، ولهذا تابع قائلا[**لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**]

ثم قال تعالى في سورة فصلت44[**وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ**]وهنا كما نرى، قال تعالى[**جَعَلْنَٰهُ**] والهاء ضمير متصل دلالة على الكتاب يعني لو جعل تعالى الكتاب بلغة أعجمية، أي لغة أهل الكتاب، وأنزله تعالى على محمد ص لاحتاجوا لمن يفصّل آياته بلغتهم، ولهذا تابع قائلا[**ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ**] يعني كيف يمكن أن يُنزّل الله تعالى كتابا بلغة أعجمية على رسول عربي!

وقال تعالى في سورة الرعد31[**وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا**] وهنا كما نرى، قال تعالى[**وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا**] ولم يقل القرآن هنا كذلك، وذلك لأنه يتكلم سبحانه عن أيّ قراءة أي علم، والذي بواسطته يمكننا أن نُسيّر الجبال، أي نجعلها تتحرك، كاستعمال المفجرات مثلا، ولهذا قال تعالى[**وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ**] ونستطيع كذلك أن نقطّع الأرض، يعني نترك الكرة الأرضية تماما ونتجه إلى الفضاء، وهذا كذلك توصلنا إليه بواسطة القراءة،

ولهذا تابع قائلا[أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ] وكما بيّنا في فقرة < أجل وأجل مسمى- وموتى وأموات> بأن كلمة موتى هي دلالة على توقف حياة الإنسان وبقاء نفسه على وجه الأرض، فقد أصبح بواسطة القراءة، أي العلم، الكلام مع تلك النفس، ولهذا تابع تعالى قائلا[أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ] ولم يقل - أو كلم به الأموات -

وهكذا يتبيّن بأن كلمة الكتاب هي دلالة على محتوى الرسالة، وكلمة القرآن هي دلالة على الطريقة التي أوحى بها الله تعالى ذلك الكتاب وعلمه رسوله، ولهذا كلما تكلم سبحانه عن تدبر المحتوى لمعرفة ما جاءت به رسالة محمد ص، إلاّ واستعمل كلمة القرآن، وكلما تكلم تعالى عن مضمون الرسالة والذي هو عبارة عن آيات محكمات، أو التصديق أو التكذيب بها وبالتالي الإيمان أو الكفر بها، إلاّ واستعمل سبحانه كلمة الكتاب، وبما أن كل الرسل جاؤوا بنفس المحتوى، فلذلك استعمل عز وجل كلمة الكتاب بالنسبة لمحمد وعيسى وموسى، لكنه خالف تعريف الكتاب بينهم، وذلك لاختلاف طريقة الوحي، ولهذا نعت الكتاب الذي أنزله سبحانه على محمد بالقرآن، والذي أنزله على عيسى بالإنجيل، والذي أنزله على موسى بالتوراة.

- الإنجيل: قال تعالى في سورة المائدة47 [وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ] وكلمة الإنجيل جذرها اللغوي هو فعل نجل، فنقول نجل الولد يعني ولده، أي خرج من صلبه، وبما أن الله تعالى أنزل الإنجيل ولم يُنزله كما جاء في سورة آل عمران3[نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ] أي أمر بوجوده، ولكن لم يُنزله على عيسى (وقد بيّنا الفرق بين التنزيل والإنزال في فقرته) وإنما علّم تعالى عيسى التوراة والإنجيل، ولهذا قال تعالى في سورة آل عمران48[وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَيُعَلِّمُهُ] يعني جعله يعلم الكتاب والحكمة، أي كيف يعقل أحكام الله تعالى التي جاءت بها التوراة وبالتالي يبيّنها لقومه بلسانهم، وهذا التبيان هو الذي نعته تعالى بالإنجيل، ولهذا قال سبحانه في سورة الزخرف 63[وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ] لأن عيسى علم بما جاءت به التوراة بإذن الله، ثم بيّنه لقومه وقوم موسى، ولهذا عندما قال تعالى في سورة الأحقاف29[وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ] تابع سبحانه قائلا [30قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ] وهنا كما نرى، قال تعالى[سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ] ولم يقل سبحانه من بعد عيسى، وذلك لأن

كتاب عيسى هو تبيان لما جاءت به التوراة، ولهذا نعت تعالى كتاب عيسى بالإنجيل، لأن محتوى الكتاب خرج مباشرة من عند عيسى ولم ينزل عليه، فهو إذًا أنجله، وهكذا علم بنوا إسرائيل بمحتوى رسالة عيسى، فكلمة الإنجيل هي دلالة على طريقة معرفة محتوى رسالة عيسى.

- التوراة: قال تعالى في سورة المائدة43 [وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ] وكلمة التوراة جاءت من فعل توارى، كما جاء في سورة النحل 58 [وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ 59 يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى [يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ] يعني يختفي لكي لا يراه الناس، والكل يعلم بأن موسى اختفى عن قومه ليتلقى الوحي، كما جاء في سورة الأعراف142 [وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ] وهنا كما نرى، قال تعالى [وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً] يعني أن موسى اختفى عن قومه لأربعين يوما، وخلفه أخوه هارون ، ولهذا تابع تعالى قائلا [وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ] ثم قال تعالى في الآية144 [قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ] ثم تابع قائلا [145 وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ]

وهكذا يتبيّن بأن الطريقة التي أوحِيَ بها لموسى ليعلم محتوى الرسالة، كانت هي التواري من الناس ليكون لوحده لتلقي الرسالة، ولهذا نعت تعالى كتاب موسى بالتوراة.

فالله تعالى أنزل على موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام الكتاب، لكن جعل لكل رسول طريقته لتلقي ذلك الكتاب، فموسى أوحي له عن طريق التواري، ولهذا نعت تعالى الكتاب الذي جاء به بالتوراة، وعيسى علّمه تعالى التوراة، فعلم كيف يُبيّنه لبني إسرائيل، ولهذا نعت تعالى الكتاب الذي جاء به بالإنجيل، ومحمد أوحِي له عن طريق القراءة، ولهذا نعت تعالى الكتاب الذي جاء به بالقرآن.

فإذا كان الكتاب دلالة على محتوى الرسالة، والقرآن والإنجيل والتوراة، دلالة على الطريقة التي أوحِيَ بها إلى رسل الله، فما هي إذًا دلالة كلمة الذكر؟

- الذكر: قال الله تعالى في سورة الكهف63 [قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ] وهنا كما نرى، قال تعالى [نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ

أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ] يعني عندما نسي الحوت فهو لم يعد يذكره، يعني كان يعرف أي يعلم بلسان العرب، بوجود الحوت في مكانه ثم نسي ذلك، أي لم يعد يعرف بأن هناك حوتا في مكان ما، وقال تعالى في سورة يوسف42[وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ] يعني اجعله يعلم بوجودي في السجن، ثم تابع قائلا[فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ] يعني أن الشيطان أنسى الذي خرج من السجن بأن يجعل الملك يعلم بوجود يوسف عليه السلام في السجن، وهكذا يتبيّن بأن كلمة الذكر هي دلالة على استعادة معرفة شيء بعد جهله أي نسيانه، أو معرفة شيء كان مجهولا.

فالله تعالى قال في سورة الجمعة9[ياأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ] وهنا كما نرى، قال تعالى[فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ] لأننا عندما نقيم الصلاة، فذلك لنعترف بأن ربنا هو الله وليس البشر، ولهذا نقوم بالركوع والسجود حركة، وليس فعلا كما جاء في سورة المائدة55[ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ] وهذا قد بيّناه في فقرته، ولهذا قال تعالى[ذِكْرِ ٱللَّهِ] ولم يقل ذكر الرب، وهذا بيّناه في فقرته كذلك، ولهذا عندما قال تعالى في سورة طه14 [إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى] تابع قائلا[وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ] يعني يقيم الصلاة ليعترف بأنه يعبد الله الذي لا إله إلا هو، أي يطيعه هو وليس غيره.

فنحن إذًا نقيم الصلاة لذكر الله تعالى، وليس لعبادته كما عهدنا، يعني نقف بخشوع لنقرّ ونعترف بأننا نطيع الرب الذي خلقنا، وله الفضل الأكبر، فهو إذًا إلهنا، والذي سمّى نفسه الله، وليس البشر أو إلها آخرا، فنحن إذًا لا نجهل هذا ولا ننساه، ولهذا نبدأ الصلاة بقول – الله أكبر- وليس – الرب الأكبر -لأن هناك ربّا من البشر نطيعه في أوامر الدنيا ويكون له فضل علينا، لكن لا نتخذه إلها، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة200[فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا] وهنا كما نرى، قال تعالى[فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا] يعني أن نعترف بالله وفضله علينا أكثر مما نعترف بآبائنا وفضلهم علينا، وذلك بتلاوة القرآن دلالة على أنه قول الله سبحانه وليس قول البشر، والتسبيح لتعظيمه تعالى وتجليله وتوحيده، والاستغفار دلالة على أنه هو الوحيد الذي يغفر الذنوب وليس غيره، ولهذا قال تعالى كذلك في سورة البقرة40[يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ] يعني اعترفوا بنعمتي.

والله تعالى قال في سورة الأنبياء7[وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ] وهنا كما نرى، الله تعالى يخاطب رسوله، ولهذا قال تعالى[وَمَآ

أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ] وذلك لأن الناس كانوا يريدون أن يُرسل الله تعالى ملائكة ليؤمنوا بما جاء به محمد ص، ثم تابع قائلا **[فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ]** وهنا كما نرى، لم يقل تعالى - فاسألوا أهل الكتاب، أو الذين أوتوا العلم، أو الراسخين في العلم، وذلك لأنه يتكلم عن معرفة الشيء فقط وعدم جهله، وليس فهمه أو الإيمان به، ولهذا قال تعالى**[فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ]** يعني الذين يعرفون ولا يجهلون ما جاء به الكتاب من قبل القرآن، والذي يحوي هو كذلك قصص الرسل والأنبياء، والذين لم يكونوا إلا رجالا.

والله تعالى قال في سورة النحل44**[وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ]** وهنا كما نرى، قال تعالى**[وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ]** ولم يقل الكتاب أو القرآن وذلك لأنه تعالى يتكلم عن معرفة محتوى ما جاء به محمد ص فقط، وليس الإيمان به أو قراءته لتدبره، ولهذا تابع قائلا**[لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ]** يعني ليعلم الناس ما جاء به القرآن ولعلهم يفرّقون بين الحق والباطل، ولهذا تابع قائلا**[وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ]** وهنا أيضا يتبيّن بأن الذكر هو معرفة الشيء بعد جهله، وذلك لأن الله تعالى يتكلم عن الرسالة أي الكتاب، ولهذا جاءت كلمة الذكر معرّفة، والذي ينزله على الأميين، أي الذين لم يكن لهم كتاب بلسانهم من قبل، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، أي من جهل الحقيقة إلى معرفتها، ولهذا قال تعالى في سورة القمر17**[وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ]** وهنا كما نرى، استعمل سبحانه كلمة القرآن، وذلك لأنه يتكلم عن طريقة معرفة ما هو مخطوط داخل المصحف، ولهذا قال**[يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ]** يعني أن الله تعالى جعل قراءة الكتاب يسيرة لمعرفة محتواه، ولهذا تابع قائلا**[فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ]** يعني هل هناك من يريد معرفة ما جاءت به رسالة محمد ص.

والله تعالى قال في سورة الحجر9**[إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ]** وهنا كما نرى، لم يقل سبحانه الكتاب أو القرآن، لأنه لا يتكلم عن الإيمان بالمحتوى، أو طريقة فهم المحتوى، ولكن يتكلم عن معرفة المحتوى كما هو، وذلك لأن الرسول عندما كان يقرأ القرآن على الناس ليعلموا به، كان الشيطان يُلقي في قراءته لكي يحرّف معنى الآية فيتلقّاه الناس بطريقة مغلوطة، ولهذا قال تعالى في سورة الحج52**[إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ]** ولم يقل - إذا قرأ - فكان الله تعالى ينسخ، أي يزيل كلّيا ما هو ليس من عنده، فيحكم آياته، وهذه هي الطريقة التي حفظ بها تعالى الذكر، فهو حفظه عندما كان يقرأه محمد ص على الناس لكي يصل إلى أسماعهم كما أنزله سبحانه على رسوله، فجعل محتوى المصحف والذي هو عبارة عن آيات، كالجسد الواحد حتى إذا زيد فيه أو نقص منه كلمة أو حرفا تداعت له جميع الآيات بالخلل، وهذا قد بيّناه في فقرة <الاستمتاع> وفي فقرة <الرجم>

ولهذا عندما تكلم سبحانه عن كيفية محاولة الشيطان تحريف آيات الكتاب عند قراءتها لأول مرة من طرف محمد ص ليتغير معناها، قال[وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ] يعني أن الشيطان حاول تحريف آيات الكتاب مع الرسل والأنبياء من قبل محمد ص، لكن الله تعالى تابع قائلا[فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ] يعني أن الله تعالى أحكم آيات الإنجيل وآيات التوراة كما أحكم آيات القرآن، ولهذا عندما قال سبحانه[إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ] جاء تعالى بكلمة الذكر مُعرّفة وليس نكرة، لأن القرآن والإنجيل والتوراة هو قول الله تعالى الذي نطق به رسله بلسانهم ليعلم به قومهم كما أنزله تعالى، ولكي لا تزيغ عقولهم عن فهم آيات الكتاب عند تدبرها فيكون اختلاف في معانيها كما جاء في سورة النساء82[أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا] وبالتالي تكون لهم حجة على الله يوم القيامة كما جاء في سورة النساء165[رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا]

فالقرآن والإنجيل والتوراة، كله من الذكر الذي حفظه الله عز وجل، ولا يستطيع ولن يستطيع أحد تحريفهم، ولهذا عندما قال تعالى[إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ] جاء بفعل حفظ في المضارع، ولكن بعض الناس، وخصوصا الأميين منهم، اتخذوا شيوخهم وأئمتهم أربابا من دون الله تعالى، فأطاعوهم كما يطاع الرب الإله، واتخذوا كتبهم مصدرا لدينهم عوض كتاب الله سبحانه كما جاء في سورة الأنعام155[وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ] وكذلك في سورة المائدة66[وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ] ولهذا قال تعالى في سورة الجاثية6[تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ] وذلك لأن الله سبحانه لن يعترف بأيّ كتاب غير كتابه كما جاء في سورة الجاثية28 [وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ] وهنا كما نرى، كل أمة ستدعى إلى كتابها وليس كتبها، ولهذا تابع تعالى قائلا[29هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ]

فالله تعالى بريء من كل كتاب جاء بما ليس من عنده، ولم يبلّغ به رسله، ولهذا قال تعالى في سورة الأعراف6[فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ] وقال كذلك في سورة التوبة3[أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ]

فكلمة الكتّاب إذًا هي دلالة على محتوى أو مضمون الرسالة، وكلمة القرآن هي دلالة على الطريقة التي عُلِم بها محتوى الرسالة التي جاء بها محمد ص، وكلمة الإنجيل هي دلالة على الطريقة التي عُلِم بها محتوى الرسالة التي جاء بها عيسى عليه السلام، وكلمة التوراة هي دلالة على الطريقة التي عُلِم بها محتوى الرسالة التي جاء بها موسى عليه السلام، وكلمة الذكر هي دلالة على معرفة محتوى الرسالة والذي يكون إما بواسطة القراءة أو السمع والإنصات، والذي حفظه تعالى من كل تحريف لكي يعلم الناس قوله سبحانه كما أنزله على رسله، ونطقوا به.

والله هو العليم الحكيم الخبير

الإسلام والإسلام دين

قال الله تعالى في سورة المائدة3[الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا] الكل يعلم بأن العلوم التي اكتُشفت حتى يومنا هذا، كان سبب اكتشافها وضع سؤال ثم البحث عن الجواب، وكتاب الله تعالى هو كذلك علم كما قال تعالى في سورة البقرة120[وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ] ولنكتشف ما بداخله يجب أن نضع أسئلة لإيجاد أجوبة لها، وهذا هو التدبر الذي أمرنا به سبحانه، يعني تحليل خطابه تحليلا دقيقا، وذلك بوضع أسئلة مركزة وعقلية حتى لا نسيء فهم خطابه تعالى فنسوء الظن به، أو نصيب قوما بجهالة.

فالله تعالى عندما تكلم عن الدين قال[الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ] وعندما تكلم عن النعمة قال تعالى[وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي] فالسؤال هو لماذا قرن تعالى كلمة الدين بفعل أكمل، وكلمة النعمة بفعل أتم، مع أن القواعد الأساسية في القرآن هي أن لكل كلمة دلالتها الخاصة بها، ولا يمكن أن تكون مشتركة مع كلمة أخرى، وهذه من القواعد التي أحكم بها تعالى آياته، فما هو الفرق إذا بين فعل أكمل، وفعل أتم؟ ولنعلمه وجب أن نأخذ الأمثال التي ضربها تعالى في القرآن.

قال تعالى في سورة البقرة185[شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ] ولم يستعمل فعل أتم، ولكن في الآية187 من نفس السورة قال تعالى[أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ] وهنا كما نرى، قال تعالى[أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ] ولم يقل أكملوا.

فنحن في خطابنا أي لسان العرب، لا نفرّق بين فعل أكمل وفعل أتمّ، ولكن في خطاب الله تعالى أي اللسان العربي، لكل فعل دلالته، لأنه تعالى أحكم آياته. فنحن في شهر رمضان نصوم الشهر كله، لكننا لا نواصل الصيام من أول يوم من الشهر إلى آخر

يوم منه، ولكن نصوم نهاره ونتوقف عن الصيام ليله، ففعل الصيام يستمر من الفجر إلى غروب الشمس، وهكذا نكون قد أتممنا صيام ذلك اليوم، ثم يتوقف الصيام طيلة الليل حتى الفجر التالي، ونعيد الكرّة، ونعدّ الأيام حتى نكّمِل العدة، وهكذا يتبيّن بأن فعل أكمل يدلّ على إنهاء وحدة تتكون من عدة أجزاء تُتمّ كل واحدة على حدة.

فعندما قال تعالى[الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ] فهذا يعني أنه تعالى أنهى الوحدة بأكملها، والتي لها بداية واحدة ونهاية واحدة، وهذه البداية كانت مع إرسال نوح عليه السلام، والنهاية كانت مع إرسال محمد ص ، ولهذا عندما قال سبحانه في سورة الشورى13 [شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى] تابع تعالى قائلا [أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ] فالدين إذًا واحد لكل الأمم، ولهذا قال تعالى[أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ] ولم يقل أتممت لكم دينكم، وعندما قال تعالى[وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي] يعني أنه أنهى وحدة من الوحدات والتي سمّاها تعالى نعمة، أي أتمّ نعمة من النعمات، فما هي هذه النعمة إذًا؟

فالنعمة التي ذكرها تعالى هي نعمة الهدى، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة2[ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ] وقال كذلك في سورة المائدة44[إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى] وقال كذلك في سورة المائدة46[وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ] فهنا كما نرى، كل أمة أنزل تعالى عليها كتابها فيه هدى، وهي النعمة التي ذكرها، وهي تختلف من أمة لأخرى، وتُبتدأ مع بداية نزول الكتاب، وتنتهي مع نهايته، ولهذا قال تعالى في سورة المائدة48[لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ] وقال تعالى كذلك في سورة الحج34[وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ] وقال كذلك في سورة الحج67[لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ] وقال كذلك في سورة البقرة148[وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] وقال كذلك في سورة البقرة183[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ]

فهنا كما نرى، في هذه الآيات وهناك أخر، يتكلم فيها تعالى عن اختلاف القبلة واختلاف المناسك، وطريقة الصيام، وهذه الأشياء هي التي سماها تعالى بالملة، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة120 [**وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى**] وهنا كما نرى، قال تعالى ملتهم ولم يقل دينهم، ولهذا جاء تعالى بكلمة الهدى، وذلك لأن الدين واحد، وهو كذلك هدى، ولهذا قال تعالى[**أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**] ولكن لكل أمة ملتها، وهي طريقة إقامة الصلاة، والقبلة، ومناسك الحج، والصيام، فالله تعالى ختم لأمة موسى نعمتها أي طريقة الهدى، وختم لأمة عيسى نعمتها كذلك، وختمها لأمة محمد ص، بتحديد القبلة لكل أمة، ومناسكها، وطريقة صيامها ومدته ووقته، وهذا من النعم التي أنعم بها تعالى على كل أمة، وهي ليست النعمة الوحيدة التي أنعم بها علينا، ولكن هناك نعمات أخرى لا يمكن لأي امرئ أن يحصيها كما جاء في سورة إبراهيم34 [**وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**] ومن هذه النعم كما قلت نعمة الهدى أي الملة، فهي إذًا وحدة من الوحدات، ولهذا قال تعالى[**وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي**]

فعندما قال تعالى[**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي**] يعني أن الله تعالى أكمل الدين الذي هو واحد لكل الأمم، فشرع أحكاما عبارة عن أوامر ونواهي، وحلال وحرام، وأتمّ لكل أمة نعمة الهدى التي تختلف من أمة لأخرى، فشرع لكل أمة قبلتها وطريقة صيامها ومناسكها، وهي التي نعت تعالى بالملة، ولهذا قال عز وجل في سورة المائدة48 [**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**] فكل أمة إذًا تتبع ملتها، أي شرعتها ومنهاجها للهدى، ولهذا قرن تعالى فعل أتم بكلمة نعمة، لكن كل هذه الأمم وجب عليها أن تتبع دينا واحدا، من حلال وحرام، وأمر ونهي، ولهذا قرن تعالى فعل أكمل بكلمة دين.

والآن يجب أن نتدبر لماذا قال تعالى[**وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**] فالسؤال هنا هو لماذا قرن تعالى الإسلام بكلمة دين، ولماذا لم يذكر تعالى الإسلام فقط، أو الإيمان مع انه قال تعالى في سورة البقرة62 [**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**] ؟ فكما نرى هنا لم يتحدث تعالى عن الإسلام، ولكن عن الإيمان بالله واليوم الآخر، والعمل الصالح، فما السبب إذًا؟ لكي نبيّن السبب يجب أن نبحث في كتاب الله تعالى كما جاء في سورة النحل89 [**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**]

قال تعالى في سورة الأنبياء108[قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ] هنا كما نرى، الله تعالى اشترط في الإسلام الاعتراف بوحدانية الله، أي ليكون المرء مسلما يجب أن يعترف بوجود إله واحد، وقال تعالى في سورة هود14 [فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ] وهنا كذلك، اشترط تعالى الاعتراف بوحدانية ألوهيته، وقال كذلك في سورة يونس90 [وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ] وهنا نفس الشيء، بيّن تعالى بأن الإسلام هو الاعتراف بوجوده فقط، ولهذا قال تعالى في سورة الحجرات14[قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ] فهنا بيّن تعالى الفرق بين الإسلام والإيمان، فالإسلام هو الاعتراف بألوهيته، والإيمان هو تصديق واتباع ما جاء به رسله أي الكتاب، ولهذا قال تعالى [وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ] فكل من أسلم لا يكون مؤمنا حتى يتبع أحكام الله تعالى مخافة منه بالغيب، ولهذا قال تعالى مخاطبا الأعراب[قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا] لأنهم لم يكونوا يطيعون الله ورسوله، أي لا يقومون بالأحكام التي أنزلها تعالى على رسوله، وهذا ما يُثبته الحديث النبوي الذي أخرجه ابن حجر العسقلاني في فتح الباري عن معاذ بن جبل قال:< إن مفتاح الجنة لا إله إلا الله ولكن مفتاح بلا أسنان وإن جئت بمفتاح له أسنان فُتح لك، وإلا لم يُفتح لك، وهذه الأسنان هو الدين>

فأن تكون مسلما إذًا هو أن تؤمن بوجود إله فقط، ولهذا قال تعالى في سورة القلم35 [أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ] يعني من آمن بالله، واعترف بأنه لا إله إلا هو فقد اعتنق الإسلام وليس دين الإسلام، فهو إذًا من المسلمين، وليس بعدُ من المؤمنين، وإن أنكر وجود الإله فهو من المجرمين وليس من الكافرين، لأن الكفر له علاقة بدين الإسلام وليس بالإسلام، ولهذا كان ينعت الله تعالى قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب بالمجرمين كما جاء في سورة الدخان37[أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ] لأنهم كفروا بوجود الإله. لكن لكي يكون المرء مؤمنا وجب عليه أن يُصدّق رسل الله تعالى، ويتبع ما جاءوا به من أحكام وشرائع، أي يقيم الدين.

لكن الكل يعلم بأن كل الناس يقيمون الدين، الكافر منهم والمؤمن، والمسلم والمجرم، فهناك من لا يؤمن بالله ولا يؤذي أخاه الإنسان، ولا يسعى في الأرض فسادا، ولا يسفك الدماء، لأن هذا من طبيعة الإنسان ولا علاقة له بالإسلام، ولا دين الإسلام

ولهذا قال تعالى في سورة الروم30[فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ] فكما نرى، هنا تعالى بيّن بأنه هو الذي فطر الناس على الدين، أي جعل للناس مبادئ وأخلاقا إنسانية ليست عند الحيوان، ولا يمكن لأحد أن يبدّل هذه الطبيعة، ولهذا استعمل تعالى كلمة الناس، ولكنه قال تعالى في سورة النساء125[وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا] يعني أن الله تعالى لن يقبل الدين الذي فطر الناس عليه، إلاّ إذا كان هذا الدين طاعة له وابتغاء رضوانه، وليس فطرة فقط، ولهذا قال تعالى في سورة البينة5[وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ] وقال كذلك في سورة غافر65[هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ] وهكذا يتبيّن بأن الله تعالى فطر الناس كلهم على الدين، لكنه سبحانه لا يقبل هذا الدين الذي يكون فطرة، ولهذا قال تعالى في سورة النور39 [وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ] ولكن الله تعالى يقبل الدين الذي يكون خالصا له، ولهذا قال تعالى في سورة النساء124[وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا] وهذا هو الدين الذي رضيه لنا تعالى، ولهذا قال تعالى[وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا] أي أن نكون من المؤمنين، يعني نؤمن بالله ولا نشرك به شيئا، ونقوم بالدين ليس فطرة فقط، ولكن مخافة الله تعالى بالغيب وليس مخافة البشر أو السيف ولهذا قال تعالى في سورة الحج77[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] وهذا هو الإيمان، ولهذا قال تعالى للأعراب في سورة الحجرات14 [قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ]

والآن يمكن أن نلخص مفهوم الآية[الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا] يعني لتكون من الفائزين لا يمكنك أن تعترف بوجود الله تعالى فقط، ولكن التصديق كذلك بما جاء به رسله أي الكتاب، واتباع ما بداخله مخافة الله تعالى بالغيب، وليس مخافة شيء آخر، وهذا هو الإيمان بالله واليوم الآخر، ولهذا قال تعالى في سورة آل عمران85[وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ] ولم يقل سبحانه - ومن يتبع غير الإسلام فلن يقبل منه - لأن الإسلام كما تبيّن هو أن تعترف بوجود الإله الذي هو الله، والذي خلقنا والذين من قبلنا، ودين الإسلام هو أن يكون دينك خالصا لله وليس فطرة، أي في سبيل الله

تعالى ومخافة منه بالغيب، وليس في سبيل شيء آخر، أو مخافة من بشر أو سيف، وهذا هو الإيمان، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة62[إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ] وقال كذلك في سورة المائدة69[إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ]

فدين الإسلام إذًا هو أن يؤمن المرء بالله واليوم الآخر ويعمل عملا صالحا، وهذا عامّ لكل الأمم، ولا علاقة له بالملة التي تختلف من أمة لأخرى، ولهذا عندما قال تعالى في سورة النساء125[وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ] تابع قوله سبحانه [وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا] يعني أقام الصلاة وقام بمناسك الحج كما فعله إبراهيم عليه السلام، وكما بيّنه كل رسول لأمته كما جاء في سورة النحل123[ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ] ولهذا قال تعالى في سورة المائدة48[لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ] وقال كذلك في سورة المائدة66[وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ] وقال كذلك في سورة آل عمران113 [لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ **114**يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ]

فكل من اعترف بوجود إله وهو الذي خلقه وخلق هذا الكون، فهو إذًا من المسلمين، وإن أنكر هذا فهو إذًا من المجرمين، وإن اعترف به ثم آمن به واليوم الآخر، يعني خافه بالغيب، واتبع ما جاء به رسوله بلسانه، فهو إذًا من المؤمنين، وإن جاءه رسول يتلو عليه آيات الله تعالى بلسانه فكذّب بها أو تولى، فهو إذًا من الكافرين.

فالمؤمنون إذًا ليسوا هم أمة محمد ص فقط، ولكن هناك من يؤمنون بالله واليوم الآخر من أمة موسى ومن أمة عيسى، ولا يحق لأمة أن تنفي أو تنكر إيمان أمة أخرى، ولا يحق كذلك لأمة أن تزكّي نفسها وتلعن أمة أخرى، ولهذا قال تعالى وهو أصدق القائلين في سورة النحل92[وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**93**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**94**وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ

ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ] وقال كذلك في سورة النساء123 [لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا] والأمثلة التي صرفها تعالى في القرآن كثيرة، لكن البعض منا اتبع ما أسخط الله تعالى كقوله في سورة المائدة73 [لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] وقوله تعالى كذلك في سورة البينة6 [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ] وقوله تعالى في سورة الممتحنة1 [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ] وكره ما رضيه سبحانه كقوله مثلا في سورة التوبة6 [وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ] وقوله كذلك في سورة الممتحنة8 [لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ] وقوله تعالى كذلك في سورة البقرة62 [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ] وقوله تعالى كذلك في سورة الحج40 [وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ] ولهذا قال تعالى في سورة محمد28 [ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ]

فصدق قوله تعالى في سورة الفرقان30 [وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا] وها نحن هجرنا تدبر كتاب الله تعالى، فأصبحنا نُكفّر كل من خالف ملتنا، والتي شاء تعالى أن تختلف من أمة لأخرى كما جاء في سورة المائدة48 [لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَـٰكُمْ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ] وليس من خالف دين الإسلام، والذي جعله تعالى واحدا لكل الأمم، فأصبح بعضنا يحارب مشيئة الله تعالى ظنا منه أنه يحسن صنعا، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة78 [وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ] وفي سورة النجم28 [وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا]

والله هو العليم الحكيم الخبير،

رسول ورسول الله

قال الله تعالى في سورة الأحزاب40[مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا] كما نرى، هنا الله تعالى قال[وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ] ولم يقل خاتم الرسل، فهل جاء رسل بعد محمد رسول الله ص إذًا؟ فالجواب هو نعم، فقد بُعثوا رسلا من بعد محمد ص، وسوف يُبعثون إلى يوم القيامة، لكن الله تعالى لم يُرسل أيّ رسول من بعد محمد، ولن يرسله أبدا، وهذا ما بيّنه تعالى في كتابه، وكل من تدبر القرآن بقواعده إلاّ وعلم ذلك.

فالرسل تنقسم إلى قسمين، هناك رسل يختارها تعالى من بين البشر كما جاء في سورة الحج75[اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ] فيجعل الملائكة رسلا بينه تعالى وبين البشر الذين اصطفاهم ليُنزلوا إليهم الوحي كما قال تعالى في سورة الشورى51 [وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ] ثم يرسل تعالى هؤلاء البشر إلى قومهم ليبلغوهم بما نُزّل إليهم، ولهذا قال تعالى في سورة الحديد25[لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ] وهنا كما نرى، قال تعالى[أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ] يعني أرسل تعالى رسله بالمعجزات حتى يعلم الناس بأن الله هو الذي أرسلهم، وأن الكتاب الذي ينطقون به هو كلام الله تعالى كما جاء في سورة النجم3[وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى4إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى] وهو القرآن بالنسبة لمحمد، والتوراة بالنسبة لموسى، والإنجيل بالنسبة لعيسى، وكل هؤلاء هم رسل الله، لأن الله تعالى اصطفاهم وأرسلهم بالبينات، وأنزل معهم الكتاب، وبعثهم في قومهم الذين لم يكن لهم كتاب من قبل بلسانهم، ولهذا قال تعالى في سورة الجمعة2 [هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ] فموسى اصطفاه تعالى وأرسله بالبينات، وأنزل معه الكتاب أي التوراة، وبعثه في قومه الذين لم يكن لهم كتاب بلسانهم من قبل أي العبرية، فهو إذًا رسول الله، وعيسى كذلك اصطفاه الله وأرسله بالبينات، وأنزل معه الكتاب أي الإنجيل وبعثه في قومه الذين لم يكن لهم كتاب بلسانهم من قبل أي الآرامية، وكذلك بلسان قوم موسى لنسخ ما شرعه الأحبار من تلقاء أنفسهم، ولهذا قال تعالى في سورة آل عمران48[وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ] فهو كذلك

رسول الله، وكذلك محمد ص اصطفاه تعالى وأرسله بالبينات، وأنزل معه الكتاب أي القرآن، وبعثه في قومه الذين لم يكن لهم هم كذلك كتاب بلسانهم من قبل أي العربية، فهو إذًا رسول الله وبما أن الله تعالى قال في سورة المائدة3[**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**] فلن يكون من بعد القرآن أيّ كتاب آخر، وبالتالي لن يكون هناك رسول يُرسل، أي لن يكون هناك رسول الله من بعد محمد ص، ولكن مازالت هناك رسل تُبعث في قومها، لأن اللغات تتعدد والأمم تكثر وتختلف ألسنتها، فحقّ على الله تعالى أن يبعث فيهم رسولا منهم، يتكلم بلسانهم ليُعرّفهم على الدين ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ولهذا قال تعالى في سورة القصص59[**وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ**] ففي هذه الآية كما نرى، قال تعالى[**يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا**] ولم يقل يرسل، لأن هناك من يُرسله الله بالبينات وينزل معه الكتاب، ويبعثه في قومه الذين لم يكن لهم كتاب بلسانهم من قبل، وهذا النوع الأول من الرسل وقد انتهى، وهناك النوع الثاني من الرسل، وهو رسول يُبعث فقط ولا يُرسل، وهذا مازال مستمرا، وهو كل شخص يعلم بكتاب جاء به رسول الله من قبل، ثم يبلّغه قومه بلسانهم ليعلموا به، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، وقد جاء حديث نبوي يدلّ على هذا أخرجه ابن حجر العسقلاني في تخريج مشكاة المصابيح، والسيوطي في الجامع الصغير، والألباني في إصلاح المساجد، وكذلك السلسلة الصحيحة عن أبي هريرة قال:<إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها>

فعندما قال تعالى [**وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا**] فهذا يعني أنه تعالى لا يمكن أن يعذب قوما حتى يعلموا بالكتاب الذ جاء به رسوله أي رسول الله الذي يُرسل، عن طريق شخص يُبعث فيهم، علم بذلك الكتاب وتعرّف على ما بداخله، ليتلو عليهم آيات الله بلسانهم دون أن يُكرِه أيّ إنسان على الإيمان بما بلّغهم به كما لم يُكرَه هو على ذلك، ولكن الله تعالى هو الذي منّ عليه بالإيمان كما جاء في سورة النساء94[**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**]

فالنوع الأول من الرسل أي رسول الله، لا يمكن أن يكون إلا من البشر وله صفات خاصة به، ويصطفيه الله تعالى ويطهره وأهله، أما النوع الثاني فقد يكون من الجن

أو الإنس، وليس له صفات خاصة كرسول الله، ولا يصطفيه تعالى ولا يطهره، أي إنسان من عامة الناس أو جن من عامة الجن.

فكما يعلم الجميع بأن كل الرسل التي أرسلها الله يعني رسل الله، كانوا من البشر كما جاء في سورة النحل43 [**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**] وهنا كما نرى، قال تعالى أرسلنا ولم يقل بعثنا، لأن رسول الله يُرسل ويُبعث، ولكن النوع الثاني أي رسول، فهو يُبعث فقط، فكل من يُرسل يُبعث، ولكن ليس كل من يُبعث من الضروري أن يكون قد أرسل، أي كل رسول الله هو رسول لكن ليس كل رسول هو رسول الله، ولهذا قال تعالى في سورة الأنعام130 [**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ**] وهنا كما نرى، عندما تكلم تعالى عن الجن والإنس قال[**أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ**] ولم يقل يُرسل لأن الله تعالى لا يُرسل رسله من الجن، ولكن يبعث رسلا من الجن، وهذا ما جاء في سورة الأحقاف29[**وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ**] فهنا كما نرى، الله تعالى هو الذي صرف مجموعة من الجن بمشيئته، فعلموا بالقرآن ثم ذهبوا لإبلاغه قومهم الذين هم منهم ويتكلمون بلسانهم، ومحمد رسول الله ص لم يكن ليعلم بذلك لو لم يخبره تعالى عن طريق الوحي كما جاء في سورة الجن1 [**قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا2يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا**] ولهذا عندما قال تعالى في سورة الأنبياء107[**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**] فهو تعالى لا يتكلم عن شخصية محمد ص ، ولكن عن الدين الذي جاء به محمد رسول الله ص أي القرآن، والذي سيبلغ للعالمين الإنس منهم والجن، وإلى يوم القيامة، وذلك بواسطة رسل سيُبعثون في قومهم ويتلون عليهم آيات ربهم بلسانهم.

فكل شخص علم بكتاب الله وتعرّف على ما بداخله، ثم بلّغه لقوم لا يعلمون لسان ذلك الكتاب، سواء كان ذلك الشخص منهم أو تعلم لغتهم لينذرهم به، وليس بكتاب غيره ليخرجهم من الظلمات إلى النور، فهذا الشخص هو من الرسل التي تُبعث في أمّ القرى للتبليغ بالكتاب الذي جاء به رسول الله من قبل، والذي اصطفاه الله من الناس وأرسله بالبينات وأنزل عليه ذلك الكتاب.

فإن بلّغ ذلك الرسول الذي يُبعث بما هو ليس من كتاب الله تعالى الذي جاء به رسول الله ونسبه إلى الله تعالى، فسيكون من الذين قال فيهم سبحانه في سورة النحل25 [لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ] وهذا النوع لا علاقة له بالنبوة، ولهذا عندما قال تعالى[مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا] بيّن سبحانه بأن النبوة تؤتى لرسول الله الذي يُرسَل بالكتاب ويُبعث في قومه، وليس لرسول يُبعث فقط، لأن كلمة نبي جذرها اللغوي هو فعل نبأ، يعني جاء بأنباء لا يعلمها الناس، كأنباء عن يوم القيامة لينذر ويبشر بها، وهذه الأنباء لا يمكن أن يعلمها شخص إلا إذا تلقاها عن طريق الوحي، يعني الكتاب أو عن طريق آبائه، لأن كل رسول الله هو نبي، وليس كل نبي هو رسول الله، كما بيّن تعالى ذلك في سورة مريم49 [فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا] وقال كذلك في سورة البقرة246[أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ] فكما نرى، كان في ما مضى أنبياء وليس نبيون، لم يرسلهم الله بالبينات ولم يُنزل عليهم الكتاب.

والآن يمكن أن نتدبر الآية التي قال فيها تعالى[مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا] يعني أن محمدا ص بشر ليس له أولاد يمكن أن يجعلهم سبحانه أنبياء، كما قال تعالى في سورة الحديد26[وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ] ولهذا لم يجعل له سبحانه ذرية، وهو رسول الله، وبما أن الله تعالى قال في سورة المائدة3[الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ] فلن يُرسل الله من بعده رسولا، ولكن سيبعث رسلا في قومهم لتمديد رسالته حتى تصل للناس أجمعين، ولكن لن يكونوا من الأنبياء ولا من النبيين، ولهذا قال تعالى[وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ] ولم يقل خاتم الأنبياء.

يجب أن نعلم وهذا مهم، أن كلمة نبي جمعها جاء في القرآن بصيغتين مختلفتين، ولكل واحدة لها دلالتها كما هو الشأن مثلا لكلمتي ذكور وذكرانا كما جاء في سورة الشورى49 [لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ50أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ] وكلمتي الأنفس والنفوس كما جاء في سورة البقرة 155 [وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ] وفي سورة التكوير7[وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ]

فهناك كلمة جمع على صيغة أنبياء كما جاء في سورة البقرة91[وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] وكلمة جمع على صيغة نبيين، كما جاء في سورة آل عمران21[إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ]

فكلمة النبيين قد تشمل الأنبياء، ولكن الأنبياء ليسوا من النبيين، كما هو الشأن لكلمة المسلمين التي تعيّن الذكور والإناث، ولكن كلمة المسلمات هي خاصة بالإناث، ولهذا قال تعالى[وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ] ولم يقل خاتم الأنبياء. فالنبيون تشمل الذين جعل فيهم الله النبوة والكتاب، والذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة كما قال تعالى في سورة الأنعام 84 [وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ85وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ86وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ87وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ88ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ89أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ] وهنا كما نرى، الله تعالى تحدث عن ذرية إبراهيم، وذرية نوح، وقال[أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ]

وقال كذلك في سورة الحديد26[وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ] وفي سورة العنكبوت27 [وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ] وهنا كما نرى، في الآيتين معا، قال تعالى[وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ] ولم يقل آتينا، وعندما قال تعالى جعلنا قال النبوة والكتاب فقط، وعندما قال آتينا قال الكتاب والحكم والنبوة، وهذا هو الفرق بين الأنبياء والنبيين.

فكل بشر آتاه الله تعالى الكتاب والحكم والنبوة هو من النبيين، كموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، وكل بشر جعل فيه النبوة والكتاب هو من الأنبياء، كإسحاق ويعقوب مثلا كما جاء في سورة مريم49[فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا] وذلك لأنهما من ذرية إبراهيم، فلهذا قال تعالى على محمد ص خاتم النبيين، ولم يقل خاتم الأنبياء، لأنه تعالى آتاه الكتاب والحكم والنبوة، وهكذا

يتبيّن كيف أحكم الله تعالى آياته، حتى يتبيّن لنا كل شيء ولا نحتاج لأيّ كتاب آخر، كما قال تعالى في سورة النحل89 [**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**] وفصّل لنا تعالى كل شيء كذلك كما جاء في سورة يوسف111 [**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**] ولا يمكننا الوصول إلى كل هذه الأشياء التي بيّنها سبحانه وفصّلها، إلاّ إذا نحن اتبعنا القواعد التي وضعها تعالى في كتابه.

والله هو العليم الحكيم الخبير

الرسول والنبي

قال الله تعالى في سورة النساء136[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ] وهنا كما نرى، قرن تعالى اسمه بكلمة الرسول، وكل من تدبر القرآن لن يجد قطّ اسم الجلالة مقرونا بكلمة النبي، وذلك لأنه تعالى أحكم آياته، فجعل لكل كلمة دلالتها.

فكلمة الرسول هي اسم فاعل لفعل رسل، فالرسول إذاً هو الذي يبلّغ رسالة ما ورسول الله هو الذي يبلّغ رسالة الله تعالى، والرسالة التي جاء بها محمد ص هي القرآن، كما هي التوراة بالنسبة لموسى، والإنجيل بالنسبة لعيسى، فموسى كان هو الناطق الرسمي بكلام الله تعالى، وعيسى كذلك هو الناطق الرسمي بكلام الله، ومحمد ص ليس بدعا من الرسل، فهو كذلك الناطق الرسمي بكلام الله تعالى، ولهذا قال سبحانه في سورة النجم3[وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى4إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى] وهنا يتكلم تعالى عن محمد الرسول وليس محمد النبي، لأن كلمة الرسول هي دلالة على الوظيفة التي كلّف بها تعالى محمدا ص، ليبلّغ رسالته كما جاء في سورة الحج75[اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ]

فعندما ينعت الله تعالى محمدا بالرسول أو رسوله، فذلك دلالة على الناطق الرسمي بآياته سبحانه كما أحكمها، ولا يحق له أن يضيف ولو حرفا واحدا، وكل إنسان قرأ القرآن أو سمعه ثم صدّق بأنه من عند الله تعالى، فقد آمن بالله وبالتالي آمن بأن من نطق به أول مرة هو رسول من عند الله تعالى، وهذا هو معنى[آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ] ولهذا لا يمكن أن تجد في القرآن اسم الجلالة مقرونا بكلمة النبي، لأن النبوة لا علاقة لها بالرسالة، وانما هي مرتبة يؤتيها تعالى لرسله أو يجعلها في ذريتهم، ولهذا كلما جاءت كلمة رسول أو رسول الله، فذلك دلالة على البلاغ، أي قول الله تعالى وليس قول النبي.

فالله تعالى قال في سورة التوبة29[قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ] وهنا كما نرى، قال تعالى[مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ] ولم يقل ما حرم الله وحرم رسوله، لأنه يتحدث تعالى عن ما حرمه سبحانه و نطق به رسوله، وهو ما جاء به القرآن، ولو كان يحق لمحمد ص أن يحرم من تلقاء نفسه، لقال تعالى ما حرم الله وحرم النبي، ولهذا قال تعالى في سورة آل عمران93[كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ] ومحمد ص ليس بدعا من الرسل، وبالتالي لا يحق له أن يُحرم ما

أحل الله، أو أن يحل ما حرمه تعالى ولو على نفسه كما جاء في سورة التحريم1 [يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ] فلفظ ما حرم الله ورسوله، يعني ما حرم الله تعالى وبلّغ به أي نطق به رسوله، وقد صرّف لنا الأمثال في القرآن حتى لا نزيغ عن قوله تعالى، وسنبيّن بعضا منها.

فالله تعالى قال في سورة النساء14 [وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ] وهنا كما نرى، جاء لفظ الله ورسوله، لكنه قال تعالى[وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ] ولم يقل - ويتعد حدودهما - لأنه يتحدث سبحانه عن الحدود التي جاء بها القرآن وبلّغها رسوله.

وقال تعالى في سورة النساء13 [تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ] وهنا كذلك قال تعالى[تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ] ثم تابع قائلا[وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ] يعني من أقام حدود الله فقد أطاع ما نطق به الرسول أي القرآن، وبالتالي فقد أطاع الله تعالى، لأن محمدا ص لم يأت بحدود من تلقاء نفسه، ولكن هي حدود الله التي تلقّاها الرسول عبر الوحي فبلّغها للناس، ولهذا قال تعالى في سورة يونس15 [وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ] وهنا كما نرى، الله تعالى بيّن جليا بأن محمدا ص لا يمكن له أن يبدّل شيئا من أحكام الله من تلقاء نفسه، فيحرم ما لم يحرمه تعالى، أو يحل ما لم يحله سبحانه، أو ينسخ ما أمر به عز وجل، خوفا من أن يعصي ربه.

وقال تعالى كذلك في سورة النور52 [وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ] وهنا أيضا، قال تعالى[وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ] ثم قال[وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ] ولم يقل ويخش الله ويخش رسوله ويتقهما مثلا، لأن لفظ الله ورسوله لا تعني الله والنبي محمد، ولكن تعني قول الله الذي نطق به محمد الرسول.

فهذه الأمثلة تبيّن أيضا بأن كلمة الرسول هي دلالة على قول الله الذي نطق به محمد ص وهو القرآن، ولا يمكن أن يكون فيه خطأ، فالرسول إذًا هو المعصوم من الخطأ لأنه ينطق بكلام الله تعالى، وكذلك النبي عندما يقرأ القرآن، وليس عندما يتكلم بكلامه هو، ولهذا قال تعالى في سورة الحج52 [وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ] فهنا كما نرى، بيّن سبحانه بأنه ينسخ ما يلقي الشيطان عندما يقرأ الرسول أو النبي القرآن لكي لا يكون فيه ما لم ينزل به عز وجل من سلطان فتصير آيات الكتاب

غير محكمة، ويُحرف معناها، ولهذا قال تعالى[**ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ**] لكنه تعالى لا ينسخ ما يلقي الشيطان في قول النبي أو قول شخص آخر.

فالله تعالى لم يُرسل الرسل لتحرم أو تحل، أو تشرع أحكاما من تلقاء نفسها، والاّ فقد عصوا ربهم، والرسل لا تعصي ربها، ومحمد ص ليس بدعا من الرسل، ولو كان يحق للرسل أو الأنبياء أن تحرم من تلقاء نفسها، لكان أجازه تعالى وذكره في كتابه، ولكن الله تعالى ذكر عكس ذلك في سورة آل عمران93 [**كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**] فهنا يبيّن تعالى جليا بأن النبي قد يحرم من تلقاء نفسه بدون علم من الله تعالى فيتبعه قومه، لكن عندما ينزل الله تعالى آياته، وجب على ذلك النبي وقومه اتباع ما أنزل سبحانه، وترك ما قاله النبي من تلقاء نفسه، وهذه الآية نزلت لبني إسرائيل الذين كانوا يجادلون محمدا ص بما حرم نبيهم إسرائيل من قبل أن ينزل تعالى التوراة فينسخ فعل نبيهم، إلاّ أنهم تعصّبوا لقول نبيهم، واتخذوا كتابهم مهجورا، ولهذا عندما قال تعالى[**إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ**] تابع سبحانه قائلا[**قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**]

ونحن كذلك إن حرمنا شيئا بدعوى أن محمدا ص حرمه، سوف يقولنا ربنا يوم القيامة فأتوا بالقرآن فاتلوه إن كنتم صادقين، ويومها سيتبرأ منا محمد رسول الله ص، ولهذا قال تعالى في سورة النساء165 [**رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**] فهو سبحانه سيسألنا يوم القيامة لماذا حرمنا ما لم يحرمه تعالى في كتابه، وهل فعلا بلغه لنا رسوله، ولهذا قال تعالى في سورة الأعراف6[**فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ**] وهنا كما نرى، الله تعالى جاء بكلمة المرسلين لأنه يتحدث عن البلاغ أي القرآن، فالله تعالى سيسأل الذين أرسل إليهم لماذا حرموا ما لم يحرمه تعالى في كتابه، وسيسأل المرسلين إن هم فعلا بلّغوا ما لم يوحى إليهم كما جاء في سورة المائدة116 [**وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ**]

فرسول الله هو الناطق الرسمي بكلام الله تعالى الذي هو الكتاب، ولا يمكن لأيّ رسول أو نبي، أن يشرع ما لم يشرعه الله سبحانه في الكتاب، وهناك أمثلة كثيرة صرّفها تعالى في القرآن تبيّن ذلك، ومنها ما جاء في سورة الشورى13 [**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا**

الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ] فهنا بيّن تعالى جليا بأن هو الذي شرع الدين لجميع رسله وأنبيائه، ولا يحق لأحد منهم أن يشرع من تلقاء نفسه، ولهذا قال تعالى في سورة الشورى21 [أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] وهنا بيّن كذلك أن كل من شرع شيئا من الدين، فقد صار ندّا لله، ولهذا قال تعالى[مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ] ولم يقل ما لم يأذن به الله ورسله مثلا، أو أولي العلم، أو الأئمة، لأن الله تعالى هو الذي شرع الدين وأنزله بعلمه، وهو أعلم العالمين، ولا يمكن أن ينزل كتابا يقول فيه سبحانه في سورة النحل89 [وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ] وفي سورة يوسف111 [مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] ثم يضطر المسلم العاقل لاستفتاء البشر وكأن الله تعالى لم يصدقه القول.

ولهذا قال تعالى في سورة النحل116 [وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ] وقال كذلك في سورة الأنعام119 [وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ] وقال تعالى كذلك في سورة يونس59 [قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ] وقال كذلك في سورة المائدة87 [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ] وقال كذلك في سورة الأعراف32 [قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ]

ومحمد رسول الله ص لا يفتري على الله الكذب، و بالتالي لا يتعدى حدود الله تعالى، وهذا ما جاء به الحديث النبوي الذي أخرجه الهيثمي في كتابه مجمع الزوائد عن عائشة أم المؤمنين قالت:< قال رسول الله ص: لا تُمسكوا عني شيئا فإني لا أحل إلا ما أحل الله في كتابه، ولا أحرم إلا ما حرم الله في كتابه> وما جاء به الحديث النبوي كذلك الذي أخرجه ابن العربي في عارضة الأحوذي، وكذلك ابن القيسراني في معرفة التذكرة والترمذي في سننه، والألباني في صحيح الترمذي عن سلمان الفارسي قال:< سئل رسول الله ص عن السمن، والجبن، والفراء، فقال: الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرم الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه> وهذان

الحديثان يوافقان آيات الله تعالى، ولا يمكن أن تجد آية واحدة في القرآن تناقضهما. فلكي لا يتبرأ منا محمد رسول الله ص، وجب علينا أن نتدبر القرآن بالقواعد التي وضعها تعالى بداخله، فنخصّ كل كلمة بدلالتها كرجل سلما لرجل، ليكون كتاب الله تعالى قرآنا غير ذي عوج.

فكلمة الرسول في القرآن تدلّ على قول الله تعالى الذي ينطق به محمد ص، وليس قول النبي، وعبارة رسول الله تدلّ على شيء واحد وهو قول الله الذي بلغه الرسول، أي ما جاء به القرآن، ولهذا عندما أراد تعالى أن يفرّق بينه وبين رسوله، قال في سورة التوبة3[أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ] وهنا كما نرى، لم يقل تعالى - الله ورسوله - وذلك ليبيّن سبحانه بأنه سيتبرأ هو من المشركين يوم القيامة وكذلك رسوله من كل حرام حرموه، أو حلال أحلوه لم يشرعه تعالى، وبالتالي لم يبلغه رسوله، ولهذا قال تعالى في سورة الأعراف6[فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ]

وعندما قال تعالى في سورة النساء59[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ] فهو سبحانه يخاطب قوم محمد ص، لكي يطيعوه في ما جاء به القرآن، لأن الطاعة تكون للأحياء وليس للأموات، والله حيّ لا يموت، ولهذا قال تعالى في سورة الأنعام155[وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ] ولم يأمر باتباع أيّ كتاب آخر، وذلك لأن الله تعالى لم يرسل الرسل لتشرع من الدين ما لم يوحي به إليهم، ولكن ليبلغوا ما أوحي إليهم، وقد بيّن تعالى هذا وصرّفه في عدة أمثلة في القرآن حتى لا يتجادل المسلمون ، ومن هذه الأمثال ما جاء في

- سورةالأنعام48[وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ]

- سورةالإسراء105[وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا]

- سورة النساء165[رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا]

- سورة الفرقان56[وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا]

- سورةالمائدة92[وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ]

- سورةالمائدة99[مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ]

- سورةالرعد40 [وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ]

- سورةالعنكبوت18 [وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ]

ومحمد ص كان رسولا يبلغ الناس رسالة ربه، وكان هو كذلك يتبع ما يوحى إليه كنبي وكبشر حاكم، وقد يصدر أحكاما لقضايا عاجلة اجتهادا منه، أو اتباعا لما هو معروف من قبل أن ينزل القرآن مثل واقعة خولة بنت ثعلبة حسب الروايات، وعندما نزل القرآن نسخ ما كان يُعمل به آنذاك واتبعه محمد ص، وهذا ما بيّنه تعالى في سورة المجادلة1 [قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ2الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ3وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ4فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ]

أو قد يحرم شيئا عن خطأ كما جاء في سورة التحريم1 [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ] فينسخه تعالى، وهنا كما نرى، خاطب الله تعالى محمدا كنبي وليس كرسول، وذلك لأن كلمة النبي هي دلالة على مرتبة محمد ص الإنسان الذي قد يخطأ ويصيب، ويمرض ويصحّ، فهو بشر مثلنا كما جاء في سورة فصلت6 [قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ] وكذلك في سورة الأعراف 188 [قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] ولهذا كلما خاطب تعالى رسوله بأمور تختص به أو قومه إلاّ واستعمل كلمة النبي، أو مباشرة بدون استعمالها، وهذا ما جاء في كثير من الأمثلة التي صرّفها تعالى في القرآن ومنها

- سورة الأنفال64 [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ]

- سورة الأحزاب1 [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا]

- سورة الأحزاب59 [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا]

- سورة الإسراء74[وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا75إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا]

- سورة النساء106[وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا]

- سورة غافر55[فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ]

وكلما خاطبه تعالى بأمور تختص بالرسالة إلا وخاطبه بكلمة الرسول كما جاء في:

- سورةالمائدة41[يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ]

- سورة المائدة67[يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ]

ولا يحق كذلك لأيّ رسول أو نبي أن يُكره أحدا على الإيمان بالله، أو أن يكره المسلم على القيام بشعائره الدينية، وإنما عليه البلاغ فقط، ولقد صرّف لنا تعالى أمثلة كثيرة في القرآن، حتى يأخذ بعضنا العبرة فلا يكره الناس على الإيمان، أو أن يكونوا مؤمنين، ومنها ما جاء في

- سورة ق45[نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ]

- سورة يونس99[وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ]

- سورة الشعراء3[لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ4إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ]

- سورة الغاشية25[فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ22لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ23إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ24فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

المؤمن المشرك والذي كفر

قال الله تعالى في سورة البقرة21[يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ] ولم يقل اعبدوا الله، وذلك لأنه أحكم سبحانه آياته، فجعل لكل كلمة دلالتها كما تبيّن من قبل، ففي هذه الآية، الله تعالى يتكلم عن الطاعة التي تكون للرب الذي خلقنا ويرزقنا وليس للرب البشر ولهذا قال تعالى في سورة التوبة31[اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ] يعني أطاعوهم في الدين، كما يطاع الرب الإله الذي خلقهم.

وقال تعالى في سورة الحج77[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] وهنا كما نرى، الله تعالى أمر المؤمنين بأن يركعوا ويسجدوا ويعبدوا ربهم، ويجب أن نعلم، بأنه عندما يأمر عز وجل في القرآن بالركوع والسجود، فهذا لا علاقة له بإقامة الصلاة، لأنه عندما يأمرنا تعالى بذلك، فهو يقول أقيموا الصلاة، ونحن عندما نقيم الصلاة نعبّر عن الركوع والسجود بالحركة، لكن في أعمالنا نقوم بالركوع والسجود فعليا وليس حركة.

فعندما قال تعالى[اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ] فهذا يعني أن نكون عباده وليس عبيده، ونتخذه هو ربا وليس البشر، فنطيعه في الدين وليس غيره، لأنه هو ربنا الذي خلقنا، وبما أن الإنسان يطيع أخاه الإنسان في أمور الدنيا كطاعة العامل لرب العمل، وطاعة الإنسان لوالديه، فهو سبحانه فرّق بين هاتين الطاعتين، ولهذا قال تعالى[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ] يعني أن طاعة الإنسان لربه تكون بالركوع والسجود، وهذا هو الفرق بين طاعة الإنسان لربه الإنسان، وطاعة الإنسان لربه الإله الذي خلقه.

فكلمة اركعوا جذرها اللغوي هو فعل ركع، فنقول ركع زيد لعمر، يعني خضع لأمره دون إكراه، فعندما يقول تعالى اركعوا، يعني اخضعوا لأوامري طائعين غير مكرهين، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة43[وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ] وفي سورة المائدة55[الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ] وهنا كما نرى، الله تعالى أمر بأن نقيم الصلاة، ونُعطي قدرا من أموالنا في سبيله كحق على ما رزقنا، خاضعين لأوامره، خوفا منه بالغيب وليس خوفا من البشر، وراضين بذلك

غير مكرهين، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة256[**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**]

فكل من قام بأمر من أوامر الله تعالى ليس طاعة له وابتغاء مرضاته وإنما لغيره فلن يقبله منه تعالى، ولهذا قال سبحانه في سورة البينة5[**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**] فالإخلاص في الدين هو أن يقوم المؤمن بما أمر تعالى راكعا لله تعالى، أي خاضعا لأمره دون إكراه من أحد، أو ابتغاء مرضاة أحد آخر.

وكلمة اسجدوا جذرها اللغوي هو فعل سجد، فنقول سجد زيد لعمر، يعني تذلّل له واعترف بعظمته، وهذا الذي أمرنا به تعالى، أي نخضع لأوامره خوفا منه بالغيب وطاعة له، متذللين وراجين منه تعالى أن يتقبّل عملنا، كما فعل إبراهيم وأبنه إسماعيل عليهما السلام، عندما أمرهما تعالى بتطهير بيته حيث قال في سورة البقرة 127[**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ**]

ولهذا عندما نقيم الصلاة، فنحن نعبّر عن خضوعنا لله وتذللنا له سبحانه بحركة الركوع فنخرّ ركّعا، وبحركة السجود فنخرّ سجّدا، ولذلك ندعوا الله تعالى عند السجود، اعترافا منا بأنه هو ربنا الذي خلقنا ونحن عباده، وكل أمورنا بقبضته وبمشيئته، كما قال تعالى في سورة فاطر15[**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**]

فعندما قال تعالى في سورة الحج77[**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ**] فهذا يعني أن نكون عباده في الدين وليس لغيره، ونتخذه ربّا لنا وليس غيره، ونجعل قوله هو مصدر ديننا وليس قول غيره، وذلك بطاعته والتذلل له وليس لغيره، فإذا أمرنا بأمر وجب علينا القيام به دون استفسار وإنما إيمانا بقوله وابتغاء رضوانه، وهذا هو الركوع والسجود الفعلي الذي أمرنا به سبحانه وليس الحركة التي نقوم بها، وهو خاص به وليس بغيره، ولو كان من النبيين كما جاء في سورة آل عمران79[**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ**]

فكل مؤمن اتخذ كتابه مهجورا، واعتمد على قول البشر، واتخذه مصدرا له ليتقرب إلى الله سبحانه بدون علم من الكتاب، فقد أشرك بما لم ينزل الله به من سلطان، لأنه جعل قول الغير ولو كان من النبيين كقول الله تعالى كما جاء في سورة آل عمران79 [**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ**

وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ] ولهذا قال سبحانه في سورة الزمر3[أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ] وهنا كما نرى، قال تعالى[أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ] يعني أن الله تعالى هو الذي شرع الدين، ولا يمكن لأيّ بشر أن يشرع ما لم ينزل به تعالى من سلطان.

ثم تابع قائلا[وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ] يعني هناك من اتخذ البشر كمصدر لدينه فجعلهم أولياءً له، أي أندادا لله، وانكبّ على طاعتهم كما يطاع الرب ليُقربوه إلى الله تعالى، ولهذا تابع قائلا[مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ]

ولهذا كلما نهى تعالى عن الشرك به، إلا وأمر بالإحسان للوالدين كما جاء في سورة النساء36[وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا] وذلك لأن الإنسان وجب عليه طاعة والديه، لكن هذه الطاعة خاصة بأمور الدنيا، وليس بأمور الدين الذي شرعه تعالى، لأن الدين لا يُؤخذ بالتوارث وإنما بالعلم بما جاء به الكتاب، ولهذا قال تعالى في سورة العنكبوت8[وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ]

وهناك نوع آخر من الشرك كما جاء في سورة يونس66[أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ] وهنا كما نرى، الله تعالى قال[يَدْعُونَ] ولم يقل يعبدون، لأنه هو تعالى الوحيد الذي نتوجه إليه بالدعاء، كما جاء في سورة البقرة186 [وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ] فكل من توجه بدعائه إلى غير الله، فقد أشرك به تعالى كما جاء في سورة الحج62[ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ] والأمثلة كثيرة في كتاب الله تعالى.

فهذان النوعان من الشرك هما اللذان نهى عنهما تعالى بقوله في سورة الأنعام82 [الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ] وكما نرى هنا ختم تعالى الآية بقوله[وَهُمْ مُهْتَدُونَ] يعني ليسوا بضالين، أي ليسوا بمشركين.

قال الله تعالى في سورة الزمر32[فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ] وهنا كما نرى، بيّن تعالى بأن كل من كذب عليه، أي نسب إليه شيئا لم ينزل به من سلطان كما جاء في سورة النحل116[وَلَا

تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ] أو كذّب بآية من آيات الكتّاب أو كلها، فقد كفر.

وقال كذلك في سورة النحل107[يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ] وهنا كما نرى، بيّن تعالى بأن كل من نكر نعمة من نعم الله تعالى فقد كفر، ولهذا قال سبحانه في سورة البقرة152[فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ] وقال كذلك في سورة الكهف37[قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا]

وقال تعالى في سورة آل عمران32[قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ] وهنا كما نرى، بيّن تعالى بأن كل من رفض وأعرض عن ما جاء به الكتّاب، أو عن البعض منه كما جاء في سورة البقرة85[أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ] فقد كفر.

وقال تعالى في سورة البقرة146[ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ] وقال كذلك في سورة المائدة61[يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا] وهنا كما نرى، بيّن تعالى بأن كل من كتم ما أنزل تعالى، بعضه أو كله، فقد كفر.

وبما أن الإنسان لا يمكن أن يكذب أو يُكذّب، أو يرفض، أو يكتم، إلا إذا علم بما جاء به الكتّاب، فالكافر إذا هو الذي يعلم قراءة الكتّاب فيغير حقيقة ما جاء به، أو لا يصدقها، أو يرفضها، أو يكتمها لكي لا يعلم بها الأميون، فهو إذًا من الغاوين، كما جاء في سورة الأعراف175[وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ] ولهذا قال تعالى في سورة الحجر39[قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ] فالكافرون إذًا هم الغاوون.

أما المشرك فهو كل إنسان لا يعلم ما بداخل الكتّاب الذي جاء به رسوله بلسانه، فيتبع الذين يعلمون قراءة الكتّاب بدون علم، ويتخذهم أربابا من دون الله، ولهذا عندما تحدث سبحانه عن المشركين في سورة التوبة6[وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ] تابع سبحانه قائلا[ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ] فالمشركون إذًا هم الضالون، كما جاء في سورة الشعراء86[وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ] ولهذا قال تعالى في سورة النساء119[وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ

ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا]

وهذا هو الفرق بين المؤمن المشرك والذي كفر، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة 105[مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡ] وذلك لأن عبارة أهل الكتاب، دلالة على الذين يعلمون قراءة الكتاب، ومنهم من كفر بما جاء به محمد ص، والمشركين دلالة على الذين لا يعلمون قراءة الكتاب، فيتبعون من كفر من أهل الكتاب ظنّا وليس بعلم، ولهذا عندما قال تعالى في سورة البقرة78[وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ] تابع سبحانه قائلا[79فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ]

فالمؤمن المشرك من أمة محمد ص، هو الذي لا يعلم قراءة القرآن، أو يهجر تدبره فيتخذ شيخه أو إمامه ربا له من دون الله، فيطيعه في الدين بدون علم من القرآن ليتقرب إلى الله به، كما جاء في سورة الزمر3[أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ]

والمؤمن الكافر من أمة محمد ص، هو الذي يعلم قراءة القرآن، فيكذب على الله تعالى كما جاء في سورة النحل116[وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ] فيحرم أو يحل ما لم يُنزل به تعالى من سلطان، ثم يُنسبه إلى الله عز وجل.

أو يُكذّب بعض ما جاء به القرآن، كقوله تعالى في سورة الحج40[وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ] و في سورة النور36[فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ] فيهدّم أو يدعو لتهديم كل بيت ليس بمسجد، أمر تعالى أن يرفع ويُذكر فيه اسمه كثيرا.

أو يرفض مشيئة الله تعالى فيكتم بعض آيات الكتاب، كما جاء في سورة المائدة48 [لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ] فيحارب

أو يدعو لمحاربة كل من خالف ملته، أي لا يصلي بصلاته، ولا يتجه قبلته، ولا يصوم صيامه، ولا ينسك مناسكه.

فالله تعالى نهى عن اتباع الظن في أمور الدين، أي اتباع قول البشر بدون دليل من كتابه، كما جاء في سورة النجم28[وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا] ونهى كذلك تقديس أقوال الأولين، كما جاء في سورة البقرة170 [وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ] وذلك لأن كل إنسان مسؤول عن نفسه كما جاء في سورة الممتحنة3[لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ] ولهذا قال تعالى في سورة التوبة3[أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ] ولم يقل الكافرين.

ولهذا أمر سبحانه المؤمن باستعمال عقله في أمور الدين، وأمره بتدبر كتابه لكي لا يكون كالأنعام، كما جاء في سورة الأعراف179 [وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ] فيضله الذي غوى أي كفر، وبالتالي يكون من الذين قال فيهم تعالى في سورة الملك10 [وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ] وفي سورة الأحزاب67[وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا] وفي سورة غافر47 [وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ]

وصدق قوله تعالى في سورة الفرقان30[وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا] وصحّ الحديث الذي أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد وصحّحه الألباني في السلسلة الصحيحة وكذلك صحيح الجامع عن عقبة بن عامر قال:< قال رسول الله ص سيخرج قوم من أمتي يشربون القرآن كشربهم اللبن> وها نحن نحفظ القرآن عن ظهر قلب، ونتسابق في تحسين ترتيله وتجويده كما كان يفعل آباؤنا، مما جعلنا نترك تدبره كما أمرنا ربنا.

والله هو العليم الحكيم الخبير.

الصلاة وإقامة الصلاة

قال الله تعالى في سورة طه14[**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**] يجب أن نعلم أولا، وكما تبيّن من قبل، بأن الله تعالى عندما قال في سورة هود1[**الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**] فهو سبحانه لا يتكلم عن مضمون الآيات من أحكام، كأمر ونهي، وحلال وحرام، وإنما يتكلم تعالى عن الطريقة التي ركّب بها تلك الآيات من تحديد كلماتها، وطريقة صياغتها، وكتابتها أيضا، وطريقة تنظيمها حتى لا تتعدّد معانيها، فيكون في القرآن اختلاف في مفاهيمه وبالتالي في أحكامه كما هو حالنا اليوم، والذي يتجلى في كثرة مذاهبنا، بسبب اختلافهم في أحكام الله تعالى وكأن القرآن من عند غير الله سبحانه كما جاء في سورة النساء82[**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**] ولكنه من عند الله ، وكلما اعتمدنا على القواعد التي وضعها تعالى داخل كتابه، إلاّ وزال ذلك الاختلاف، لأنه لا يمكن لعلم البشر كعلم الرياضيات مثلا الذي يخضع لقواعد مضبوطة، أن يكون أكثر انضباطا من علم الله سبحانه.

فالله تعالى قال في سورة طه[**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**] ولكن قال سبحانه في سورة مريم 31[**وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا**] وهنا كما نرى، قال تعالى[**وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ**] ولم يقل - وأوصاني بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة - كما قال تعالى في كثير من الآيات مثل ما جاء في سورة البقرة 43[**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**]

وبما أن الله تعالى أحكم آياته، فهو قد فرّق بين أقم الصلاة وأوصى بالصلاة، أو أمر بالصلاة كما جاء في سورة طه132[**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى**] وهنا كما نرى، قال تعالى[**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ**] ولم يقل – وأمر أهلك بإقامة الصلاة - وذلك لأن الصلاة تنقسم إلى قسمين، صلاة تقام وصلاة لا تقام، وبما أن كلمة صلاة دلالة على ربط صلة مع الله تعالى، وذلك عن طريق ذكره، أي الاعتراف بألوهيته، فنحن نعترف بأن ربنا هو الله وليس البشر بطريقتين مختلفتين:

الأولى هو عندما نقوم في أوقات محدّدة كما قال تعالى في سورةالنساء103 [فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا] وقد عيّن سبحانه هذه الأوقات في كتابه في سورة هود114 [وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ] وطرفي النهار هما الفجر والعصر، وزلفا من الليل تعني ظهور شيء ما من الظلام، يعني المغرب، وقال تعالى في سورة الإسراء78 [أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ] ودلوك الشمس يعني الظهر، وغسق الليل هو عندما يعمّ الظلام، يعني العشاء.

وبما أن إقامة الصلاة لها مواقيت معينة، فهي لها إذًا بداية ونهاية كما جاء في سورة الجمعة9 [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ10فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ]

ونتوضأ عندما نريد إقامتها في حالة الطهارة، وإلاّ وجب علينا الاغتسال للتطهر أو التيمم عند عدم وجود الماء كما جاء في سورة المائدة6 [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ]

وعندما يأمرنا تعالى بالقيام بهذه الصلة، فهو يقول – أقيموا الصلاة – أو - أقم الصلاة – ولهذا قال تعالى في آية الوضوء [إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ] لأننا عندما نريد إقامة الصلاة فنحن نقوم لإقامتها، وعندما يتحدث عن الذين يقيمون هذا النوع من الصلة فهو يقول تعالى – المقيمي الصلاة – أو – المقيمين الصلاة – وفي كل هذه الحالات فهو يستعمل تعالى فعل أقام دلالة على الصلاة التي تقام.

وهناك صلاة لا تقام، وليس لها مواقيت محددة، لأن الله تعالى لم يعيّنها، وبالتالي ليس لها بداية أو نهاية معينة، فهي إذًا مطلقة، ولهذا نعتها تعالى بالصلاة الوسطى، وهذا بيّناه في فقرة <الصلاة والصلاة الوسطى> وعندما يأمرنا بها تعالى فهو يقول - اذكروا الله- وليس – صلّوا –

وهذا النوع من الصلاة لا يحتاج لوضوء، وإنما الاغتسال من الجنابة، أو التيمم عند فقدان الماء، وهذا النوع من الصلة هو الذي ذكره سبحانه في سورة النساء43 [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ

حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا]

فهذه الآية لا تتكلم عن الصلاة التي تقام، لأن الله سبحانه لا يكرّر كلامه، وإنما تتكلم عن الصلاة التي لا تقام، والتي عندما يأمر بها تعالى، فهو يقول - اذكروا الله - وهي تلاوة القرآن والتسبيح، ولهذا قال تعالى[**لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ**] ولم يقل - لا تقيموا الصلاة-

ثم تابع قوله تعالى[**وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ**] ولم يقل - حتى تعلموا ما تفعلون - لأننا عندما نقيم الصلاة، فنحن نقوم بأفعال كالركوع والسجود، لكن عندما نذكر الله كتلاوة القرآن أو التسبيح، فنحن نقول فقط ولا نقوم بأيّ فعل، ولهذا لم يذكر سبحانه كذلك الوضوء، لأن تلاوة القرآن والتسبيح لا يوجبان الوضوء، ولكن الغسل من الجنابة إلاّ إذا كان المرء عابر سبيل، يعني ماراًّ مرّ الكرام ، ولا يطيل في التلاوة أو التسبيح كالمرأة الحائض مثلا أو من عليه جنابة، وهذا لم يرخّص به تعالى عند إقامة الصلاة التي توجب الوضوء والطهارة والخشوع، والذي لا يمكن أن يكون في حالة السكر.

فهذه الآية لا علاقة لها بإقامة الصلاة التي تكون عن طريقة صلة مباشرة مع الله تعالى، وبالتالي لا يمكن أن تُقام في حالة السكر، وعندما قال تعالى[**لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى**] فهذا لا يعني بالضروري أن يكون المرء شاربا لخمر، لأن فعل سكر يدلّ على فقدان الوعي أو الإدراك، وقد يكون عن طريق شرب الخمر، أو تناول المخدرات مثلا، أو عقاقير لعلاج بعض الأمراض، أو عند الغضب أو الخوف الشديد كما جاء في سورة الحج2[**يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ**] وفي هذه الحالات قد يضطر المرء للصلاة، أي أن يذكر الله، فيتلو بعضا من آيات الكتاب أو يسبّح الله تعالى.

وهذه الآية تبيّن جليا كذلك بأن الحائض يمكن أن تتلو القرآن وتسبّح الله تعالى، وكذلك الذي عليه جنابة، ولكن عابري سبيل، أي لمدة قصيرة وليس مطوّلة كورد مثلا.

وهكذا يتبين بأن الصلاة تنقسم إلى قسمين، صلاة لا تقام ومطلقة، كتلاوة آيات الكتاب والتسبيح، ولا توجب الوضوء، وعندما يأمر بها تعالى يقول – اذكروا الله – وصلاة تقام لذكر الله، لها مواقيت محددة، وتوجب الوضوء والطهارة، وعندما يأمر بها تعالى يقول كما جاء في سورة طه14 [**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**] وكذلك في سورة البقرة43 [**وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ**]

فعندما قال تعالى في سورة طه132[وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ] فهذا يعني الصلاة بنوعيها، وهذا ما فصّله تعالى آمرا نساء النبي في سورة الأحزاب33[وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ] ثم تابع قوله تعالى في الآية الموالية[وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا]

وعندما قال تعالى في سورة مريم31[وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ] فهنا يتحدث عن الصلاة بنوعيها كذلك، لأن عيسى عليه السلام كان يقيم الصلاة ويذكر الله كثيرا، كما هو الشأن لموسى ومحمد عليهما السلام. وعندما قال تعالى[وَالزَّكَاةِ] ولم يقل - إيتاء الزكاة - فذلك لأنه يتحدث تعالى عن الأعمال التي تزكّي المؤمن عند الله تعالى كما جاء في سورة التوبة103[خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ] وكذلك في سورة البقرة129[رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ]

وهكذا يمكننا أن نتدبر بعض الآيات حتى يتبيّن كيف أحكم الله تعالى آياته، وفصّلها حتى يبيّن لنا كل شيء كما جاء في سورة النحل89[وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ]

فالله تعالى قال في سورة العنكبوت45[اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ] يعني يأمره بالصلاة التي لا تقام، وعندما يأمر بها يقول تعالى -اذكروا الله- والتي تكون عبر تلاوة آيات الكتاب والتسبيح، لكن هنا أمر سبحانه بتلاوة آيات الكتاب فقط، ولهذا قال تعالى[اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ] ولم يقل -اذكر الله-

ثم تابع تعالى قوله[وَأَقِمِ الصَّلَاةَ] وهنا أمر تعالى محمدا ص بالنوع الثاني من الصّلة أي الصلاة التي تقام، ثم تابع قائلا[إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ] وهنا كما نرى، قال تعالى[الصَّلَاةَ] يعني النوعين معا، ولهذا لم يقل -إن إقامة الصلاة- ثم تابع قائلا[وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ] يعني أن إقامة الصلاة التي أمره بها تعالى في ثاني الأمر، لأننا نحن نقيم الصلاة لذكر الله كما جاء في سورة طه14[إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي] وكذلك في سورة الجمعة9[يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ] هي أكبر درجة عند الله تعالى من تلاوة القرآن والتسبيح، وهكذا يتبيّن بأن إقامة الصلاة وتلاوة القرآن والتسبيح، كلّ ينهي عن الفحشاء والمنكر، إلاّ أن

إقامة الصلاة هي أكبر درجة عند الله تعالى، ولهذا قال سبحانه في سورة البقرة 238 [حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ]

فهذه الآية وآيات الكتاب كلها عندما نتدبرها بالقواعد الربانية، يتضح لنا كيف أحكم الله تعالى آياته، وأنه علمٌ من عنده سبحانه، ولا يمكن لأيّ إنسان أن يأتي بهذا التناسق في الدلالات والأفعال، فالله تعالى في هذه الآية جاء في أول الأمر بفعل تلاوة آيات الكتاب، ثم جاء بفعل إقامة الصلاة، ثم جاء بعد ذلك بكلمة الصلاة دلالة على تلاوة آيات الكتاب وإقامة الصلاة، ثم بعد ذلك جاء بعبارة - لذكر الله - دلالة على الصلاة التي تقام كما هو ترتيب الشطر الأول من الآية، وهذه من الأساليب التي أحكم بها تعالى آياته.

وقال الله تعالى في سورة الماعون4[فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ5الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ6الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ7وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ] ولم يقل تعالى – المقيمين الصلاة– ولم يقل كذلك –الذاكرين الله– لأن كلمة المصلين تشمل الاثنين، كما هي كلمة الصلاة، فهو هنا سبحانه يتوعد الذين يقيمون الصلاة والذين يذكرون الله، أي فعل الصلاة وفعل إقامة الصلاة، فقال تعالى[الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ] يعني عن تلاوة القرآن والتسبيح ساهون وعن إقامة الصلاة كذلك ساهون، وكلمة ساهون جذرها اللغوي هو فعل سها، فنقول سها فلان عن الأمر، بمعنى تركه مع علمه به، ففي هذه الآية الله تعالى يتوعّد بالويل للذين يغفلون عن الصلة به، من تلاوة القرآن والتسبيح وإقامة الصلاة، ولا يقومون بها إلا رياء، وليس ركوعا لله سبحانه، ولهذا تابع تعالى قائلا[الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ] وهم المنافقون الذين قال فيهم تعالى في سورة النساء142[إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا] وهنا كما نرى، الله تعالى ذكر الصلاة التي تقام، فقال[وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى] ثم تابع قائلا[يُرَاءُونَ النَّاسَ] لأننا عندما نقيم الصلاة فنحن نقوم بحركتي الركوع والسجود، وهذا يراه الناس فيعلمون بأننا نقيم الصلاة، لكن لا يعلمون سعينا، أي هل نسعى لذكر الله أم نسعى ليرانا الناس فقط، ولهذا قال تعالى[يُرَاءُونَ النَّاسَ]

ثم تابع قوله تعالى[وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا] وذلك لأننا عندما نتلوا القرآن أو نسبح قد لا يراه الناس، وبالتالي لا يعلمونه، ولهذا فصّل الله تعالى بين الصلاة التي تقام والصلاة التي لا تقام، ولهذا نعت الذين يقومون بفعل الصلاة بنوعيها بالمصلين.

فعندما تحدث تعالى في سورة الماعون عن المصلين وتوعّدهم بالويل، فهو تكلم سبحانه عن المصلين المنافقين، والذين بيّنهم تعالى في الآية142 في سورة النساء كما بيّنا، ولا علاقة لهؤلاء المصلين بالذي عهدناه، وورثناه عن آبائنا دون أن نعقله، ولهذا عرّفهم سبحانه في آخر سورة الماعون بقوله[**الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ7وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**] وهم المنافقون، والذين هم كذلك يمنعون الماعون، وكلمة الماعون جذرها اللغوي هو فعل معن يعني نفع، فالمعن هو كل ما يُنتفع به، فعندما قال تعالى[**وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**] فهذا يعني يمنعون كل ما ينفع الناس، ولهذا بدأ الله تعالى سورة الماعون بقوله[**أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ2فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ3وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ**] فدعّ اليتيم وعدم الحضّ على طعام المسكين، يعدّ نوع من منع الماعون.

قال الله تعالى في سورة النساء103[**فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا**] وهنا كما نرى، قال تعالى[**فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ**] وهذا يعني الصلاة التي تقام والتي لها بداية ونهاية، ثم تابع قائلا[**فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ**] وهذا يعني الصلاة التي لا تقام.

ولكن لماذا قال تعالى اذكروا الله، ولم يقل صلّوا؟ فالسبب هو أن الله تعالى أحكم آياته، وجعل لكل كلمة دلالتها، لأن كتاب الله علم وكل علم له قواعده، ففي علم الرياضيات مثلا، العدد الموجب خمسة لا يساوي العدد السالب خمسة، وكذلك كلمات القرآن، فاذكروا الله ليست لها نفس الدلالة لكلمة صلّوا أو صلّ.

فالله تعالى قال في سورة التوبة103[**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**] وهنا كما نرى، قال تعالى[**وَصَلِّ عَلَيْهِمْ**] ثم تابع قائلا[**إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ**] يعني أن الله تعالى أمر محمدا ص بأن يدعو لهم فيستغفر لهم، وهذه هي دلالة صلّ عليهم، ولهذا قال تعالى في سورة التوبة 84[**وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ**] فهنا تعالى يأمر محمدا ص بعدم الاستغفار للفاسقين، وعدم القيام على قبرهم، ولهذا قال تعالى في سورة التوبة80[**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**]

فأن يصلّي إنسان على إنسان، هذا يعني يدعو له ويستغفر له، ولهذا قال تعالى في سورة الأحزاب41[**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا42وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا43هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**] وهنا كما

نرى، الله تعالى قال بأنه يصلي علينا هو وملائكته، وذلك لأن ملائكته يستغفرون لنا، فيغفر هو لنا، ولهذا قال تعالى في سورة الشورى5[تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ] ثم تابع قوله[أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ]

وعندما قال تعالى في سورة الأحزاب56[إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا] فهذا يعني بأن الملائكة يستغفرون للنبي والله يغفر له، ثم بعد ذلك أمرنا سبحانه بأن نصلي عليه بمعنى أن ندعو له، ولهذا عندما يختم المؤذن الآذان، كثير من المؤمنين يقولون الدعاء المعروف :< اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا كما وعدته إنك لا تخلف الميعاد> فهم إذًا صلّوا على محمد ص، وكلما دعونا للنبي ص فنحن نصلي عليه، ولهذا قال تعالى[صَلُّوا عَلَيْهِ] ولم يقل -قولوا اللهم صل على محمد-

ثم تابع تعالى قوله[وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا] يعني أن نعترف بنبوته ولا نجادل في ذلك، كما جاء في سورة النساء65[فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا] وهنا كما نرى، قال تعالى[ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا] يعني يعترفوا ولا يجادلوا في ما قضى به محمد ص، ولهذا عندما قال تعالى [صَلُّوا عَلَيْهِ] تابع قائلا[وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا] ولم يقل -ألقوا عليه السلام- أو -سلّموا عليه-

وهكذا يتبيّن بأنه كل ما جاء الله تعالى بكلمة الصلاة في الآية، ولا يأتي بما يحدّد نوع تلك الصلاة، فذلك دلالة على أنه يتكلم سبحانه عن الصلاة بنوعيها، كما هو الشأن بالنسبة لكلمة المسلمين، والتي تدلّ على الذكور والإناث، والمسلمات تعيّن الإناث فقط، وكمثل على ذلك ما جاء في سورة البقرة153[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ] وهنا كما نرى، لم يأت سبحانه بأيّ كلمة تحدّد نوعية الصلاة، وذلك لأنه يتكلم سبحانه عن الصلاة بمفهومها العام، أي الصلاة التي تقام والصلاة التي لا تقام.

والله هو العليم الحكيم الخبير.

ص والقرآن ذي الذكر

قال الله تعالى في سورة ص1[ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ] كما نرى، هذه الآية ومثلها كثيرة في القرآن تُبتدأ بحروف متقطعة، وها هو قد مرّت أكثر من ألف وأربعمائة سنة على نزول القرآن على محمد ص، ولم نتعرف على دلالتها. فهل الله تعالى نزّل في كتابه كلاما لا نستطيع فهمه؟ وإذا كان كذلك، فما جدوى وجوده داخل القرآن؟ وهل الله سبحانه وضعه عبثا في كتابه؟ أولم يقل تعالى في سورة محمد24[أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا] وهذه الحروف المتقطعة هي من القرآن؟ أم هذه الآية تخصّ فقط آباءنا الذين عاشوا في القرون الهجرية الأولى، ولا تخاطبنا نحن؟ أم الله تعالى اصطفى هؤلاء من دون العالمين، فجعلهم وكلاء علينا؟ أولم يقل في سورة الإسراء54[وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا]؟ أم الله حباهم بعقول تتقدم بكثير على الحقبة التي عاشوا فيها فصار كل ما فهموه هو الحقيقة المطلقة، وكل ما لم يفهموه لا يمكن لأحد أن يفهمه من بعدهم؟ أولم يقل تعالى في كتابه في سورة البقرة170 [وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ]؟

أوليس الله تعالى هو الذي لديه الحقيقة المطلقة ويعلم الغيب، ولا يمكن لأحد من النبيين أو الملائكة أو الجن، أن يعلم إلا ما علّمه سبحانه؟ أولا نعلم بأن عقل الإنسان يتطوّر حسب المكان وتقدم الزمان؟ وبالتالي لا يمكن لشخص عاش في القرون الماضية أن يستوعب الأشياء، أي يعقلها كشخص يعيش في هذا القرن؟

لكن تقديسنا لآبائنا الأولين، واتخاذهم أربابا من دون الله، وذلك بظننا أنهم تدبروا القرآن وعقلوه، وكل ما وصلوا إليه هو الحقيقة المطلقة، ولا يمكن لأحد أن يتجرأ على تخطيئهم، كما لا يمكن لأيّ مؤمن بالله واليوم الآخر أن يجادل في قول الله سبحانه، أو يجادل في أحكامه، جعلنا بغير قصد نخصُّهم بخصائص هي لله وحده، ممّا يجعلهم أندادا له سبحانه، وهم برآء من ذلك، ولهذا كان الأئمة الأربعة يتبرؤون من أتباعهم بقولهم المعروف < لا تتبعوا قولنا حتى تعرفوا دليلنا> ولهذا قال تعالى في سورة يونس36[وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ]

الكل يعلم بأن تلاوة القرآن تنقسم إلى قسمين، تلاوة نبتغي بها أغراضا أو منافع دنيوية، فهناك مثلا من يتلو القرآن أمام الناس فيرتّله أو يجوّده ليستأنس به السامعون، وقد يأخذ مقابل ذلك أجرا أو لا يأخذ، وهناك من يتلو القرآن ليرقي به مريضا، وقد يأخذ أو لا يأخذ مقابل ذلك أجرا هو كذلك، وهناك من يقرأ القرآن لتدبره أو حفظه عن ظهر قلب، والأمثلة كثيرة.

وهناك تلاوة خاصة نبتغي بها صلة الله، إما عن طريق الصلاة التي لا تقام، فنحن آنذاك نتلوا آيات الكتاب فنذكر الله، أو عن طريق الصلاة التي تُقام، فنحن آنذاك نتلوا آيات من الكتاب لذكر الله. فعندما قال تعالى في سورة ص1[ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ] فهو جاء تعالى بحرف الصاد دلالة على صلته التي أمر أن يُوصل بها كما جاء في سورة الرعد21[وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ] أي الصلاة التي لا تقام والصلاة التي تقام، والاثنان معا نتلوا ضمنهما القرآن، ليقول لنا بأن تلاوة القرآن لا تُعدّ ذكرا إلا إذا كانت صلة لله وليس لسبب آخر، ولهذا عندما قال تعالى[ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ] تابع في الآية التالية قائلا[بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ] يعني الذين كفروا هم في استكبار عن ربط صلة مع الله، ورفض الاعتراف بألوهيته.

فالله تعالى لا يمكن أن ينزّل كتابا يأمرنا بتدبره كما جاء في سورة محمد24[أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ] ثم يجعل بداخله ما لا يمكن تدبره، ولا يمكن أن يقول سبحانه في كتابه في سورة يوسف111[مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] وفي سورة النحل89[وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ] ثم نحتاج لفتاوى البشر، فإن حدث هذا، فذلك لأننا أتخذنا القرآن مهجورا، واتبعنا أقوال آبائنا، ولهذا قال تعالى في سورة النجم28[وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

القراءة والتلاوة

قال الله تعالى في سورة العلق1[ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ] وكما تبيّن، بأن الله عز وجل، نعت الكتاب الذي أنزله على محمد ص بالقرآن، وذلك لأن كلمة القرآن جذرها اللغوي هو فعل قرأ، فكلمة القرآن دلالة على ما يُعلم محتواه عن طريقة القراءة كما جاء في سورة فصلت3[كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ] ولهذا عندما قال تعالى[ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ] استعمل سبحانه فعل قرأ، ولم يستعمل فعل تلا، وذلك لأن لكل كلمة دلالتها الخاصة بها.

فدلالة فعل قرأ هي معرفة ما هو مخطوط، وقد يكون حرفا أو كلمة أو أكثر، ولهذا عندما يأمر سبحانه بتدبر ما جاءت به الرسالة المحمدية، يستعمل كلمة القرآن كما جاء في سورة محمد24[أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ] ولا يستعمل كلمة الكتاب، والتي تدلّ على مضمون الرسالة، وهو عبارة عن آيات محكمات، ولهذا عندما قال تعالى في سورة هود1[الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ] استعمل كلمة كتاب، ولم يستعمل كلمة القرآن.

والله تعالى قال في سورة مريم58[وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا] وهنا كما نرى، قال تعالى[إِذَا تُتۡلَىٰ] ولم يستعمل فعل قرأ، وذلك لأن الله تعالى يتكلم عن الإيمان أو الكفر برسالته، وليس معرفة محتواها، ولهذا استعمل فعل تلا، يعني نطق بكلمات أو بآيات متتالية لكي يكون لها معنى ويعلم السامع أنها من عند الله سبحانه، وبالتالي ما جاء به الرسول هو قول الله تعالى، ولهذا عندما قال تعالى[إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ] تابع سبحانه قائلا[خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا] ولهذا لم يقل -تُقرأ-

فالتلاوة إذًا هي النطق بكلمات أو آيات متتالية تدلّ على مفهوم معيّن، ولهذا كلما تكلم الله سبحانه عن الإيمان أو الكفر برسالته، إلاّ واستعمل فعل تلا أو كلمة الكتاب كما جاء في سورة البقرة121[ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ] وكلما تكلم عن معرفة محتوى الرسالة إلاّ واستعمل فعل قرأ أو كلمة القرآن، كما جاء في سورة الأعراف204[وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ]

وبما أن المسلم عندما يقيم الصلاة أو يذكر الله، فهو لا يتدبر القرآن، وانما يعترف بإيمانه بربه، فهو إذًا يتلو آيات الكتاب ولا يقرأ القرآن، كما جاء في سورة آل عمران 113[لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ] ولهذا قال تعالى في سورة المؤمنون1[قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ 2ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ] ولم يقل -سامعون أو منصتون-

وبما أن الله تعالى أحكم آياته، وجعل لكل كلمة دلالتها الخاصة بها لكي لا يكون كتابه قرآنا ذا عوج، فهو عندما يستعمل سبحانه فعل تلا، فذلك دلالة على الإيمان أو الكفر بآياته، أو ذكره عند الصلاة بنوعيها، الصلاة التي تقام والصلاة التي لا تقام، والتي يتلى خلالها آيات الكتاب، وكمثال على ذلك ما جاء في سورة الحج72 [وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ] وفي سورة فاطر29[إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ] وفي سورة مريم73[وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا] وفي سورة الأحزاب34[وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا] والأمثلة كثيرة في القرآن.

وعندما يستعمل سبحانه فعل قرأ، فذلك دلالة على معرفة محتوى الرسالة، ولهذا عندما قال تعالى في سورة العلق1[ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ] استعمل فعل قرأ وليس فعل تلا، وهكذا يمكننا تدبر بعض الآيات التي وقع خطأ في تدبرها لعدم التفريق بين دلالة فعل تلا، ودلالة فعل قرأ.

فعندما قال تعالى في سورة الأعراف204[وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ] فهو لا يتكلم هنا سبحانه عن إقامة الصلاة، ولو كان كذلك لاستعمل فعل تلا وكلمة الكتاب أو الآيات، لأن المسلم عندما يقيم الصلاة فهو يتلو آيات الكتاب لذكر الله، ويتخشع في صلاته، لكن الله تعالى استعمل في هذه الآية فعل قرأ وكلمة القرآن، وذلك لأنه يتكلم عن فهم محتوى المصحف، ولهذا عندما قال تعالى[وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ] تابع سبحانه قائلا[فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ] يعني يستمعون وينتبهون لما يقرأ من القرآن لعلهم يفقهون قول الله فيعلمون بالهدى الذي جاء به القرآن كما جاء في سورة البقرة185[شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ] ولعلهم يهتدون، ولهذا عندما قال تعالى[وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ] تابع سبحانه قائلا[لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ]

ولهذا قال تعالى كذلك في سورة الأحقاف29[وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ] وهنا كما نرى، استعمل تعالى كذلك كلمة القرآن، وفعلي سمع وأنصت، لأنه يتكلم عن معرفة واستيعاب ما يُقرأ من الهدي، ولا علاقة له بالصلاة هنا كذلك، ولا بالإيمان أو الكفر بآيات الكتاب.

وعندما قال تعالى في سورة النحل98[فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ] فهنا سبحانه لا يتكلم كذلك عن إقامة الصلاة، والتي نتلوا حينها آيات الكتاب، وانما يتكلم سبحانه عن تعريف الناس بمحتوى الرسالة، ولهذا عندما قال تعالى[فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ] تابع سبحانه قائلا[فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ] وذلك لأن الشيطان كان يلقي في قراءة محمد ص للقرآن لكي يسمع الناس آيات الكتاب عن غير حقيقتها كما جاء في سورة الحج52[وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ]

ولهذا عندما قال تعالى في سورة المزمل20[إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ] تابع سبحانه قائلا[عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ] وذلك لأنه يتكلم عن التعريف بالقرآن، والذي كان يقوم به محمد ص ليلا كما أمره تعالى عند أول الرسالة في مكة، وأعانه في ذلك من استطاع من الذين آمنوا حينذاك، ولا علاقة له بإقامة الصلاة، ولهذا عندما تابع قائلا[عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ] أمر بعد ذلك بإقامة الصلاة، متابعا قوله تعالى[وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ]

فكما تبيّن، كتاب الله هو من علمه ولكل علم قواعده، ومن القواعد الأساسية لهذا العلم، هو أن لكل كلمة دلالتها الخاصة بها، والتي لا تتغير مع تغير الآية، ولهذا عندما قال تعالى في سورة الزمر27[وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ 28قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ] ضرب لنا مثلا لكي نستوعب قوله سبحانه فتابع قائلا[29ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

القلب والفؤاد

قال الله تعالى في سورة الحج46[أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ] وهنا كما نرى، قال تعالى[قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ] فهل فعلا نحن نعقل بقلوبنا؟ أولم يُثبت علم الطب بأن القلب الذي نعرفه بلسان العرب، هو العضو الأساسي لعملية التنفس ولا علاقة له بالفكر؟ فعن أيّ قلب يتحدث سبحانه؟

فبما أن الله تعالى قال في سورة الزخرف3[إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] وفي سورة الشعراء193 [نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ194عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ 195بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ] وجب علينا إذًا أن نعلم دلالة كلمة قلب حسب اللغة العربية واللسان العربي الذي نزل به القرآن.

فكلمة قلب جذرها اللغوي هو فعل قلب، فنقول قلب الشيء، يعني جعل أعلاه أسفله أو باطنه ظاهره، أي جعله على عكس ما كان عليه، ولهذا قال تعالى في سورة النور44 [يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ]

والكل يعلم بأن الحياة هي عكس الموت، ولكي يموت الإنسان يجب أن يتوقف عن التنفس، ولا يمكن هذا إلا إذا توقف العضو الأساسي في عملية التنفس، ولهذا سُمّي بالقلب، لأنه يُقلّب الإنسان من الحياة إلى الموت، لكن الله تعالى لم ينزل كتابه ليخرج الناس من الموت إلى الحياة، ولكن نزّله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، والعضو الأساسي الذي يقلّب الإنسان من الجهل إلى المعرفة، هو الذي ننعته بالعقل بلسان العرب، ولهذا قال تعالى[لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ] فالقلب إذًا في كتاب الله تعالى، هو العقل بلسان العرب.

وعندما قال تعالى[أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا] تابع قائلا[أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ] وهنا كما نرى، قال تعالى[ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ] وكلمة صدور هي جمع لكلمة صدر والتي جذرها اللغوي هو فعل صدر، فنقول تصدّر اللائحة، يعني جاء في أولها أو أعلاها، فدلالة كلمة الصدر هي أعلى الشيء، وكما نعلم، أعلى عضو في جسم الإنسان هو الدماغ، ولهذا حدّد تعالى مكان القلب الذي يتحدث عنه في كتابه، ولهذا قال[ٱلْقُلُوبُ

ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ] يعني الجزء الأساسي الذي يقلّب الإنسان من الجهل إلى المعرفة، يوجد في أعلى جسم الإنسان، فالصدر إذًا هو الدماغ بلسان العرب.

وقال تعالى في سورة المؤمنون78[وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ] وهي جمع لكلمة الفؤاد، وبما أن الله تعالى جعل كتابه قرآنا غير ذي عوج، أي لا يمكن أن تكون للكلمة الواحدة أكثر من دلالة، وبالتالي لا يمكن أن يكون لكلمتين مختلفتين نفس الدلالة، فدلالة كلمة فؤاد ليست هي دلالة كلمة قلب.

فكلمة فؤاد جذرها اللغوي هو فعل فاد، فنقول استفاد زيد من كلام عمر، يعني وجد في كلامه ما فيه فائدة له، والكل يعلم بأن الإنسان عندما يفكر بعقله، فهو يستفيد منه، فعندما ينتبه لما يُقال، فهو يسمع ويعقل، وعندما ينتبه لما يرى، فهو يُبصر ويعقل، ولهذا عندما قال تعالى[وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ] ذكر الحواس، فقال -السمع- وهي حاسة الأذن، وقال -البصر- وهي حاسة العين، وقال -الأفئدة- وهي حواس الدماغ، وذلك لأن الدماغ يتكون من عدة أجزاء، ومنها القلب أي العقل، ولكل جزء حاسته أي وظيفته، من تفكير ، وتخزين للمعلومات، وشعور وإحساس إلى آخره، ولهذا عندما قال تعالى في سورة الناس4[مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ] تابع قائلا [5ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ] وهنا كما نرى، قال تعالى[فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ] ولم يقل -قلوب الناس- وذلك لأن الدماغ يحتوي على عدة أجزاء ومنها القلب، ولكل جزء وظيفته، وبالتالي الوسوسة قد تصيب جزء أو أكثر من أجزاء الدماغ، فتعيب وظائفها، ولهذا قال تعالى -الصدور- ولم يقل -القلوب-

فالفؤاد إذًا هو حاسة القلب أي العقل، الذي هو جزء من الدماغ، وبما أن الإنسان يفكر بعقله، ففؤاد القلب أي وظيفته، هو التفكير عندما يكون الإنسان يقظا، وقد يفقه أو لا يفقه، والرؤية عندما يكون الإنسان نائما.

فالإنسان إذًا له قلبان أي عضوان أساسيان، أحدهما يقلّبه من الموت إلى الحياة، وله وظيفة أساسية، وهي تزويد خلايا الجسم بما تحتاجه من أوكسجين وغذاء لتستطيع أن تحيا، وهذا القلب أنشأ تعالى وظيفته للحيوان كذلك، ولهذا قال تعالى في سورة الأنبياء 30[وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ]

والآخر يقلّبه من الإدراك إلى عدمه، وهو جزء من الصدر أي الدماغ، ووظيفته أي فؤاده ينقسم إلى قسمين:

- تحليل ما تسمعه الأذن وما تراه العين، وما يوحى إلى الإنسان، وتغييره إلى أفكار عند اليقظة، كما جاء في سورة طه38[إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ 39أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي] ولهذا قال تعالى في سورة الإسراء36[وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا] وهنا كما نرى، قال تعالى[إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا] وذلك لأن الفؤاد هو تحليل ما يسمعه الإنسان وما يراه، وقد يكون غير حقيقي فيعبّر عن ما وصل إليه من فكر بطريقة خاطئة كذلك، إما بالقول أو بالفعل، ولهذا قال تعالى في سورة الحجرات6[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ] وكذلك في سورة الحجرات12[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ]

- تحليل ما يُفكّر فيه المرء وتغييره إلى صور عند المنام، كما جاء في سورة الصافات 102[فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ] أو تغيير ما يوحى إليه إلى صور عند المنام كذلك كما جاء في سورة النجم10[فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ 11مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ 12أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ]

وهذا القلب لم ينشئ تعالى وظيفته للحيوان، ولهذا عندما قال تعالى في سورة الأعراف179[وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا] تابع سبحانه قائلا [أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ] ولم ينشئ لهم كذلك الوظائف الأخرى للصدر، ولهذا قال تعالى في سورة المؤمنون78[وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ] وقال كذلك في سورة الإسراء 36[وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا] وذلك لأن الحيوان ليس له أفئدة، فلهذا له آذان ينصت بها ولا يسمع بها، وأعين يرى بها ولا يبصر بها، وبالتالي لا يفكر ولا يميز بين الأشياء، ولهذا مثّل تعالى الضالين، أي الذين لا يستعملون عقولهم في أمور الدين و يتبعون الظن بالأنعام.

والله هو العليم الحكيم الخبير.

الشجر

قال الله تعالى في سورة الواقعة71[أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ72أَأَنتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ] فهنا كما نرى، الله تعالى يتحدث عن النار التي تُستخرج من الشجر، ولهذا استعمل سبحانه فعل ورى، ليسألنا من الذي أنشأ الشجر الذي نستخرج منه النار، لكن السؤال الذي وجب أن نسأله نحن، هل الشجر فقط هو الذي تُستخرج منه النار؟ فأين هي باقي النباتات، كالحشيش مثلا والتبن وما غير ذلك، والذي نستخرج منه النار أيضا؟

وقال تعالى كذلك في سورة يس80[الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ] وهنا كذلك، يتحدث سبحانه مرة أخرى عن الشجر والنار، ولكن ليس ليعيد ما قاله تعالى في الآية السابقة، وهذا ليس من صفاته سبحانه، ولكن ليعطينا معلومة أخرى عن قدرته، ولهذا قال تعالى[الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ] فالسؤال هنا كذلك هو: لماذا قال تعالى الشجر الأخضر؟ وهل الشجر فقط هو الذي يخضرّ لونه؟ ولماذا تكلم تعالى عن اللون الأخضر؟ ولماذا في هذه الآية استعمل فعل وقد؟

لكن عندما نتدبر القرآن بالقواعد الربانية، وبدون تقديس لما قيل من قبل، ونخرج من الأكنة التي مازلنا فيها إلى يومنا هذا، فقد نصل إلى معرفة أشياء لم يصل إليها آباؤنا من قبل. فالكل يعلم بأن الشيء الذي يجعل النبات قابلا للاشتعال، هي تلك المادة التي تعطيه اللون الأخضر، وهي مادة الكلوروفيل أو اليخضور، وتجعله ينمو ويحيا، ولهذا قال تعالى[الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ] ولهذا أستعمل سبحانه فعل وقد ليحدّد عملية الإضرام أو الاشتعال، لأن المادة التي تعطي للنبات اللون الأخضر، هي التي تجعله قابلا للاشتعال، ولهذا عندما قال تعالى [الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا] تابع قائلا [فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ] ولم يقل[تُورُونَ] وذلك لأن فعل وقد هو دلالة على اشتعال النار، أما فعل ورى، فهو دلالة على استخراج النار. وهنا كذلك يجب أن نضع نفس السؤال، أي هل نحن نستخرج ونضرم النار من الشجر الذي عهدناه بلسان العرب فقط؟

فالله تعالى قال في سورة النمل60[أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ] وهنا كما نرى، في هذه الآية، وهناك أخر مثلها، يتحدث تعالى عن الماء الذي ينزل

من السماء، فيكون لنا كشراب نحيا به، فهل هذا الماء يُنبت الشجر فقط، والذي نعرف نحن بلسان العرب؟ أوليس هذا الماء هو الذي يُخرج من الأرض كل نبات، ونستخرج ونوقد منه نارا، أم هناك خطأ في دلالة كلمة شجر في كتاب الله تعالى؟

فكلمة شجر جذرها اللغوي هو فعل شجر، يعني ظهر فتشعّب، فالشجر إذًا هو كل نبات يخرج من الأرض، فيظهر على سطحها ويتشعّب، وقد يُنبت عروشا أي أغصانا ذات أوراق، ولهذا قال تعالى في سورة النحل68 [**وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ**] وهنا كما نرى، الله تعالى يتحدث عن النحل، والكل يعلم بأن هذا الأخير يأكل من كثير مما تُنبت الأرض.

وقال تعالى في سورة الحج18 [**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ**] وهنا كما نرى، الله يتحدث كذلك عن كل ما تُنبت الأرض، وليس الشجر فقط الذي نعرفه بلسان العرب، ونفس الشيء في سورة الإسراء44 [**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**] ولهذا قال تعالى متحدثا عن يونس في سورة الصافات145 [**فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ146 وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ**] وهنا قال سبحانه [**شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ**] ولم يقل (شجرة اليقطين) يعني نبتة من نوع اليقطين الذي ليس له ساق، ويُنتج البطيخ مثلا أو القرع، ليكون ليونس غطاء.

وعندما قال تعالى في سورة البقرة35 [**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**] فهو سبحانه لا يعني الشجرة التي عهدناها، والتي نعتها باسم آخر في كتابه، والذي بيّناه في الفقرة التالية، ولكنه يعني تعالى نبتة ما ولم يحدّدها، لكن أهل الكتاب عيّنوها فقالوا شجرة التفاح، فأثّر هذا القول في تفاسير آبائنا، وتناقلناه دون أن نعقله.

فيجب أن نعلم بأن الله تعالى لم يعيّن قطّ في كتابه نوعا من الفاكهة أو الخضر أو النبات لأنه تعالى لا يميز ولا يفضّل نوعا عن نوع آخر لأن الكل من مخلوقاته، وكل شيء خلقه تعالى إلاّ وله منفعة في هذه الحياة.

فكلمة شجر في القرآن إذًا، هي دلالة على النبات، وهو كل ما يخرج من الأرض بواسطة الماء، وبهذه الدلالة يمكننا أن نتدبر الآية20 من سورة المؤمنون، والتي أخطأ

أسلافنا في تفسيرها ونسبوا إلى الله تعالى ما ليس من صفاته، وهو أن الله سبحانه وضع حرفا زائدا في هذه الآية.

فالآية تقول[وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ] وسنلخص ما جاء به ابن جرير الطبري في تفسيره، والذي لا يختلف كثيرا عن ما جاء به باقي أهل التفسير.

ففي تفسير الطبري، قيل بأن الشجرة التي ذكر تعالى في هذه الآية هي شجرة الزيتون، ونحن يجب أن نتساءل، من أين علموا بأنها شجرة الزيتون، والآية لا تدلّ على ذلك؟ وقيل عن قوله تعالى[تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ] يعني تخرج من جبل يُنبت الأشجار، وأختلف في كلمة سيناء، فهناك من قال هو الجبل المبارك، وهناك من قال بأنه جبل بالشام مبارك، وهناك من قال بأنه الجبل الذي نودي منه موسى، وهناك من قال هو جبل ببيت المقدس، وأما القول الذي رجّحه الطبري هو قول ابن عباس، وهو الجبل الذي نودي منه موسى وهو مبارك. وهنا يجب أن نتساءل أيضا، كما حقّ لكل مسلم عاقل أن يتساءل، من أين جاء آباؤنا بكل هذه الأسماء للجبال؟ أم هناك في اللغة العربية ما يدلّ على أن طور سيناء هو ما ذكره آباؤنا؟ أوليس هذا تعبير كما تُعبر الرؤيا؟

وعن قوله تعالى[تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ] فقد اختُلف في قراءتها، فهناك من قرأها بفتح التاء، بمعنى تَنبت هذه الشجرة بثمرة الدهن، وقرأها البصرة بضم التاء، بمعنى تُنبت الدهن، وقالوا الباء في هذا الموضع زائدة كما يُقال أخذت ثوبه، وأخذت بثوبه، انتهى قول الطبري.

وهنا يجب أن نتوقف حتى نتساءل، كيف لإله عظم شأنه، وتعالى قدره أن يضع حرفا زائدا في كتابه؟ فضلا عن الكلمات التي جاء بها آباؤنا رحمهم الله وأضافوها إلى الآية، وأسماء الجبال وأماكنهم، والتي لم ينزل بها تعالى من سلطان، وكل هذا سببه عدم الاعتماد على القواعد التي وضع سبحانه في القرآن، وهذا أمر طبيعي لأن تفسيرهم للقرآن كان يناسب الحقبة التي كانوا يعيشون فيها، والآليات التي كانت لديهم آنذاك، لكن غير الطبيعي هو أن ننقل عليهم كل ما قالوه دون أن نعقله، مع أن كتاب الله بين أيدينا كما نطق به محمد رسول الله ص.

فلكي نتدبر هذه الآية، وجب أن نضعها في سياقها حتى لا ننسب إلى الله ما ليس من عنده. فالله تعالى قال في سورة المؤمنون18[وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ19فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ20وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ]

وهنا كما نرى، الله تعالى يتحدث عن الماء الذي يُنزّله من السماء وهو ما نعرف بالمطر، والذي ينزل في كل جهات العالم، ويُخرِج من الأرض كل النباتات، ثم قال تعالى[فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ] ولم يقل كما قال سبحانه في سورة النمل 60[وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ] لأنه يتحدث تعالى عن الماء الذي يذهب إلى باطن الأرض ليسكن فيها، ولهذا عندما قال تعالى [فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ] تابع سبحانه قائلا[وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ] والله تعالى يُذهب ما هو موجود، أي الماء الذي في باطن الأرض، ولا يُذهب ما هو غير موجود، أي الماء الذي نبت بواسطته الشجر، ولم يعد موجودا.

ثم تابع قوله تعالى[فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ] يعني هذا الماء الذي ذهب إلى باطن الأرض، منه ما ينمو به ما نحتاجه للأكل بطريقة تلقائية، ومنه ما يُخرج نبات الأرض بطريقة غير تلقائية، ولهذا تابع تعالى قائلا[وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ]

فعندما قال تعالى[وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ] فهذا لا يعني أن هناك شجرة بلسان العرب تخرج من شيء يُسمّى طور سيناء، وإنما يعني أن هناك نبات يخرج بطريقة أو بواسطة طور سيناء، كما نقول مثلا بلسان العرب: هلِك من تعب، وكما جاء في سورة الأنبياء37[خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ] وكلمة طور جذرها اللغوي هو فعل طار، يعنى ارتفع، وهذا بيّناه في عدة فقرات، وكلمة سيناء جذرها اللغوي هو فعل سنا، فنقول سنا القوم لأنفسهم يعني استقوا، ونقول سنا السانية يعني استقت، أو أخرجت الماء من البئر ونحوه، ومنها جاءت كلمة سناء.

فعندما قال تعالى[وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ] فهذا يعني أن هناك طريقة أخرى يخرج بها النبات من الأرض، ليس كالطريقة الأولى التي هي تلقائية، ولهذا جاء تعالى بواو العطف مع كلمة شجرة، وهي رفع الفلاح الماء الذي أسكنه تعالى في الأرض بواسطة السقي، وهذا ما يقوم به الزرّاع في جميع أنحاء العالم، وهو ما يسمى بزراعة الري.

ثم تابع قوله تعالى[تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ] وكلمة الدهن جذرها اللغوي هو فعل دهن، فنقول دهن المطر الأرض، يعني بلّها قليلا أو رشّها، فالدهن إذًا هو رشّ الماء، وهذا الذي نسميه بالنضح بلسان العرب، ثم تابع قوله تعالى[وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ] وكلمة صبغ جذرها اللغوي هو فعل صبغ، فنقول صبغ الخبز في الإدام، يعني غمسه فيه، فالصبغ إذًا هو كل شيء نأخذ منه ما ينفعنا، ولهذا عندما قال تعالى في سورة البقرة137[فَإِنْ آمَنُوا

بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ138] تابع سبحانه قائلا[صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ] فعندما قال تعالى[وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ] فهذا يعني ما فيه منفعة للآكلين الإنسان منهم والحيوان.

فالله تعالى بيّن لنا في كتابه الطريقتين الوحيدتين اللتين يخرج بواسطتهما الشجر، أي كل نبات من الأرض، وليس هناك ثالثهما، فعندما يُنزّل تعالى الماء من السماء تكون حالتان:

الحالة الأولى، عندما ينزل قدر من ذلك الماء مباشرة على الأرض فيخرج نباتها، كما جاء في سورة الحج5[وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ] والحالة الثانية، عندما يذهب قدر آخر من الماء فيسكن في باطن الأرض، ثم يرفعه الإنسان عند الحاجة لسقي الأرض كما جاء في الآية التي نحن في صددها في سورة المؤمنون18 [وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ19فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ20وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ] ولهذا قال تعالى[وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ] أي هناك نبات يخرج بواسطة جلب الماء من باطن الأرض، ليسقي به الفلاح ما زرعه كي يُنتج له ثمارا للأكل، ولهذا فرّق النبي ص وبيّن قدر الزكاة في هاتين الحالتين كما جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال: <فيما سقت السماء والعيون، أو كان عثريا العُشر، وفيما سُقي بالنضح نصف العشر>

فكما نرى، عندما نخرج من الكينونة التي مازال الكثير منا يعيش فيها، والقوللة التي ألبسنا بها قول الله تعالى، وذلك بالتجرد من كل تقديس للبشر، والاعتماد على القواعد التي وضعها تعالى في كتابه لتدبره، لن يزعم أحد منا قطّ، فيقول بأن الله سبحانه أنزل في كتابه حرفا زائدا، ولا يُخوّل لنفسه أن ينسب إلى الله ما ليس من عنده تعالى، وبالتالي نستطيع أن نصحّح الأخطاء التي وقع فيه آباؤنا، وصدق قوله تعالى في سورة البقرة170[وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

النخل والعنب - النخيل والأعناب

قال الله تعالى في سورة الأنعام99[وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّات مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] وهنا كما نرى، الآية عامة وبيّن فيها تعالى للعالمين كيف يخرج النبات من الأرض، وذكر النخل الذي نعرفه نحن بلسان العرب، والذي لا يوجد في كل أنحاء العالم، وخصوصا منها الباردة، دون أن يذكر تعالى الأشجار التي نعرفها نحن هي كذلك بلسان العرب، والتي توجد في سائر أنحاء العالم.

وقال تعالى كذلك في سورة الأنعام141[وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّات مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَات وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ] وهنا كذلك الآية عامة، ومرة أخرى يذكر تعالى النخل، ولم يذكر الأشجار مع أنها هي أكثر وجودا على سطح الأرض وفي جميع القارات، و تنتج جلّ الفواكه.

وقال كذلك في سورة الرعد4[وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ] وهنا كذلك، الله تعالى يتحدث عن كل ما تنبت الأرض، ونحن نعلم بأن النخل الذي نعرفه بهذا النعت، لا يوجد في الأرض كلها، وأيّ إنسان يستعمل عقله سيسأل لماذا لم يذكر الله تعالى في هذه الآيات، وهناك أخر مثلها، الأشجار التي تنتج الفواكه، وكذلك الزيتون والرمان؟

فالله تعالى قال[وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ] وكلمة صنوان أصلها صنوٌ، فنقول في اللغة العربية، فلان صنو فلان بمعنى شقيقه، أي لهما نفس الأصل، فعندما قال تعالى [وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ] فهذا يعني أن الله تعالى أخرج من الأرض نباتا له أصل واحد، ولكن قد يكون له جذع واحد أو أكثر، فإن كان له جذع واحد فهو غير صنوان، وإن كان له أكثر من جذع فهو صنوان.

فالنخل إذًا هو كل نبات له جذع، أي ساق أو أكثر، فشجرة البرتقال مثلا لها أكثر من جذع، وشجرة الزيتون كذلك، وأغلبية شجر التمر والذي ننعته بالنخيل له جذع واحد، لكن الله تعالى لم يفرّق بين الأشجار والنخل (بلسان العرب)، فنعت الكل بكلمة النخل، لأن كلمة الشجر كما تبيّن في الفقرة السابقة دلالة على كل نبات يخرج من الأرض بواسطة الماء، فهي إذًا كلمة عامة، أما كلمة النخل فهي دلالة على كل نبات له جذع أو أكثر، ولهذا قال تعالى في سورة الأنعام99[**وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ**] يعني النبات الذي له جذع أو أكثر فيجعله يعلو على سطح الأرض، ثم تخرج من طلعه، أي من جوانبه العالية أغصان متدلية، والنخيل التي نعرف نحن بهذا الإسم هي كذلك، ولهذا قال تعالى[**وَمِنَ النَّخْلِ**] أي هناك نوع من النخل تخرج ثماره على شكل عناقيد دانية، ولهذا نعت الله تعالى الكلّ بالنخل، لأن كلمة النخل جذرها اللغوي هو فعل نخل، فنقول نخل الطحين يعني غربله وأزال نُخالته، ولكي نخل الطحين، يجب أن نرفع المُنخل أو الغربال من السطح الذي ينزل عليه الطحين، ولهذا جاء تعالى بكلمة النخل دلالة على كل نبات يرتفع من فوق سطح الأرض بواسطة جذع أو أكثر ثم يعرش .

وقال الله تعالى في سورة الإسراء91[**أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا**] وقال كذلك في سورة عبس26[**ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا27فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا28وَعِنَبًا وَقَضْبًا29وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا**] وهنا كما نرى، ذكر تعالى النخل والعنب في الآيتين معا، وبما أنه قد تبيّن بأن النخل هو كل نبات له جذع أو أكثر، فالعنب هو كل نبات ليس له جذع، كما هو النبات الذي ينتج ثمار العنب، أي نبات الكرم، والذي هو من العنب وليس العنب كله، كما أن النخل الذي نعرفه نحن بهذا الإسم، هو من النخل وليس هو النخل كله، فكل عنب أي ثمار الكرم ، هو من العنب باللسان العربي الذي نزل به القرآن، لكن ليس كل العنب هو عنب، وكل نخل التمر هو من النخل باللسان العربي الذي نزل به القرآن، لكن ليس كل النخل هو نخل التمر.

فالماء الذي ينزّل تعالى من السماء يُخرج نوعين من الشجر أي النبات، شجرا له جذع أو أكثر، ونعته تعالى بالنخل، وشجرا ليس له جذع، ونعته تعالى بالعنب، والنخل فيه من يُثمر وفيه من لا يُثمر، والعنب كذلك، وبما أن الله تعالى أحكم آياته، فهو سبحانه فرّق بينهما، فالنخل الذي يُثمر نعته تعالى بالنخيل، والعنب الذي يُثمر نعته سبحانه بالأعناب، فكل نخيل هو نخل، لكن ليس كل نخل هو نخيل، وكل الأعناب هي عنب، لكن ليس كل عنب هي أعناب.

وهذا ما بيّنه تعالى في كثير من الأمثلة التي ضربها في القرآن، ومنها ما جاء في سورة البقرة266[أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ] وهنا كما نرى، عندما تحدث الله تعالى عن النبات الذي يثمر جاء بكلمتي نخيل وأعناب، وليس نخل وعنب، ولهذا قال تعالى[لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ] وقال كذلك في سورة الرعد4[وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ] وهنا كذلك جاء تعالى بكلمتي النخيل والأعناب، دلالة على النبات الذي يُثمر، ولهذا قال تعالى[وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ] وقال تعالى كذلك في سورة النحل11[يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] وهنا كذلك، قال تعالى[وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ] وقال كذلك في سورة النحل67[وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ] وهنا كذلك جاء تعالى بكلمتي النخيل والأعناب، وليس النخل والعنب، لأنه يتكلم سبحانه هنا أيضا عن النبات الذي يُثمر، وهناك أمثلة كثيرة في القرآن، ولن تجد قطّ في آية ما يدلّ على ما يُؤكل مما تُنتج النباتات إلاّ واستعمل سبحانه كلمة النخيل أو الأعناب أو كليهما، وهذه من الأساليب التي أحكم بها تعالى آياته ثم فصّلها لكي لا نختلف في معانيها .

وعندما قال تعالى في سورة الأنعام99[وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ] فهو سبحانه يصف هنا نوع من النخل، ولهذا قال تعالى[وَمِنَ النَّخْلِ] ثم تابع قائلا[مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ] وكلمة طلعها جذرها اللغوي هو فعل طلع، يعني علا وارتفع فالطلع إذًا هو ما ينبت في أعلى الجذع، وكلمة قنوان دلالة على العنقود، فعندما قال تعالى[وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ] فهذا يعني أن هناك نخيل ذات أغصان في أعلى جذوعها يكون فيها عناقيد متدلية، فالشجر الذي يُنتج التمر، والذي ننعته نحن بالنخل، هو كذلك، وشجر الموز هو أيضا نخل من طلعها قنوان دانية، وشجر الجوز الهندي هو أيضا كذلك، والأمثلة كثيرة.

فكل نبات أخضر يخرج من الأرض بواسطة الماء، ونوقد منه نارا فهو شجر، وكل شجر له جذع أو أكثر، أي صنوان وغير صنوان، فهو نخل، وكل شجر ليس له جذع فهو عنب، وكل نخل يعطي ثمارا فهو نخيل، فالشجر الذي ينتج التمر هو من النخيل، والشجر الذي ينتج الزيتون مثلا، أو التفاح هو أيضا من النخيل، وكل عنب ينتج

ثمارا فهو من الأعناب، فشجر الكرم هو من الأعناب، وشجر الطماطم مثلا أو الفلفل، هو كذلك من الأعناب .

فعندما قال تعالى في سورة مريم25 [وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً] فهو سبحانه لم يعيّن أي نوع من النخيل، وليس هذا من فعله، لأنه لم يعيّن قطّ في كتابه نوعا من الثمار، فهو سبحانه نزّل القرآن بلسان عربي، وليس بلسان العرب، فنخلة هي مفرد نخيل، أي الشجر الذي يُثمر، وليس من الضروري أن تكون النخلة التي تنتج التمر، ولهذا قال تعالى[تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً] يعني تسقط ما قد نضُج وأصبح جاهزا للجني، وهو الذي يسهل إسقاطه عن طريق هزّ الجذع، أما غير الرطب فلا يسهل إسقاطه بهذه الطريقة، وقد تكون نخلة التمر، وقد تكون غير ذلك، ولا يمكن لأحد أن يعيّن ما لم يُعيّنه الله تعالى .

والله هو العليم الحكيم الخبير.

الزيتون والرمان

قال الله تعالى في سورة الأنعام99[وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون] فهنا كما نرى، الله تعالى يتحدث عن الماء الذي ينزل من السماء كسبب لكل ما يخرج من الأرض من نبات، لكن تحدث سبحانه عن الزيتون والرمان فقط، ولم يذكر الأشياء التي لها أكثر أهمية في طعامنا وهي رئيسية في حياتنا، كالقمح مثلا.

وقال تعالى في سورة الأنعام141[وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّات مَعْرُوشَات وَغَيْرَ مَعْرُوشَات وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ] وهنا مرة أخرى، تحدث سبحانه بالمفهوم العام، فذكر الزيتون والرمان، ونحن نعلم بأن الكثير من البلدان وخصوصا منها الإفريقية، لم يعرفوا هذين النوعين من الثمار إلا في العقود الأخيرة عبر التبادل التجاري ، فهل الله تعالى خصّص قوما بهذا النوع من الثمار دون قوم آخر؟ مع العلم بأن هذا النوع من الثمار ليس ضروريا في حياة الإنسان، ولا يُجنى إلا في أوقات معينة وليس طول السنة.

لكن عندما نتدبر القرآن بالقواعد التي جاءت بداخله، سوف تضمحل كل هذه التساؤلات والتناقضات، وسوف يتبيّن بأن الله تعالى عندما يتكلم عن المخلوقات، فهو يتكلم بالمفهوم العام، لأنه لا يفضل نوعا عن نوع آخر، ولأنه أنزل القرآن للعالمين، وسيقرأه الإفريقي والآسيوي، والأمريكي، والأوروبي، والنيوزيلاندي، وقد قرأه الذين من قبلنا، ونقرأه نحن اليوم، وسيقرأه الذين سيأتون من بعدنا، والزراعة تتطور، فالإنسان استطاع أن ينتج ثمارا لم تكن موجودة بالأمس، وسوف ينتج غدا ما هو غير موجود اليوم، وهكذا إلى قيام الساعة. فلهذا وجب أن نتدبر القرآن باللسان العربي وليس بلسان العرب، وعندما نقوم بهذا، سوف يتبيّن بأن كلمتي الزيتون والرمان، هما أعمّ مما عهدناه، والذي يوافق مضمون آيات الكتاب.

فكلمة الزيتون جذرها اللغوي هو فعل زَتّ، فنقول زتّ العروس، يعني زيّنها ظاهريا فأصبحت جميلة، فالزيتون إذًا هو كل ما تُنبت الأرض ويسرّ الناظرين، وقد يكون عبارة عن ورود أو أزهار، أو ثمار إذا رأيتها يعجبك منظرها فتأكلها دون تقشيرها، أو فتحها لأكل ما بداخلها، فثمرة الزيتون التي نعرف نحن بهذا الاسم، هي من الزيتون، لأننا نأكلها كما هي، وكذلك الثمرات التي هي من فصيلة الورديات مثلا، كالمشمش أو البرقوق أو الإجاص، هي من الزيتون، لأننا نأكلها كما هي، فكل زيتون بلسان العرب هو من الزيتون باللسان العربي الذي نزل به القرآن، لكن ليس كل ثمرة الزيتون هي الزيتون.

أما كلمة الرمان فجذرها اللغوي هو فعل رمّ، فنقول رمّ الشيء يعني أكله، ورمّ العظم يعني أكل ما بداخله أي مخّه، فالرمان إذًا هو كل ثمرة تُفتح، أو تُقشّر ليُؤكل ما بداخلها. فثمرة الرمان التي نعرف نحن بهذا الاسم هي من الرمان، لأننا نفتحها لنأكل ما بداخلها، والبرتقال مثلا أو الموز، هما كذلك من الرمان.

فالزيتون إذًا هو عكس الرمان، وهناك من الخضر ما هو زيتون، ومنها ما هو رمان، وكذلك الفواكه، منها ما هو رمان ومنها ما هو زيتون، والورود والأزهار هي من الزيتون، لأنها جميلة المنظر، إلا أننا لا نأكلها لأنها ليست من الثمرات، فالرمان إذًا هو كل شيء يُفتح، أو يُقشّر لأخذ ما بداخله، والزيتون هو كل شيء جميل المظهر، ولهذا قال تعالى في سورة التين1[وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ] وهذا بيّناه في فقرته.

وهكذا يتبيّن بأن الزيتون والرمان يوجدان في كل أنحاء العالم، وعلى طول السنة، وليس لهما ثالث، ولا يمكن أن يخصّ سبحانه قوما بنعمة، ويترك قوما آخرا، فقد تجد عند هذا القوم أنواعا من الزيتون والرمان، وعند قوم آخر أنواعا أخرى، ولكن أينما وُجد الماء إلا وأخرجت الأرض زيتونها ورمانها، ولهذا قال تعالى متحدثا عن ما تنبت الأرض بواسطة الماء بصفة عامة في سورة الأنعام99[وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] وكذلك في سورة الأنعام 141[وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

زنجبيلا وسلسبيلا

قال الله تعالى في سورة الإنسان16 [**قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا17|وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا18عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا**] يجب أن نعلم بأن كل آيات القرآن خضعت لعدة اختلافات في تفسيرها، فصارت هذه الاختلافات قاعدة أساسية في التفسير، مما أدّى إلى اعتيادنا على ذلك، حتى غدونا نقول بأن الاختلاف رحمة، مع أن الله تعالى أنزل كتابه عربيا لكي نعقله، وأحكم آياته حتى لا يكون هناك اختلاف في تفسيرها، وبالتالي اختلاف في أحكامه، فيظن المرء أن القرآن هو من عند غير الله، ولهذا قال تعالى في سورة النساء82 [**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**]

فكما يعلم الكثير بأن آباءنا اختلفوا في تفسير كلمتي زنجبيلا وسلسبيلا، كما اختلفوا في أغلب كلمات القرآن، ومن هذه الاختلافات ما جاء في تفسير القرطبي، عن مجاهد الذي قال بأن الزنجبيل هو إسم للعين التي منها مزاج شراب الأبرار، وهو قول قتادة كذلك، وقيل دائما عن تفسير القرطبي، بأن الزنجبيل هي عين يوجد فيها طعم الزنجبيل، والسلسبيل هو الشراب اللذيذ، وعن أبي العالية ومقاتل، قالا إنما سُمّيت سلسبيلا لأنها تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم، و تنبع من أصل العرش من جنة عدن إلى أهل الجنة، تمّ.

فكما نرى هنا كذلك، لم يعتمد آباؤنا رحمهم الله في تفاسيرهم على أيّ قاعدة من القواعد التي وضعها الله تعالى في كتابه، وإنما اعتمدوا على آرائهم، فعبروا كلام الله سبحانه كما تعبر الرؤيا، وهذا لا يصح مع قوله تعالى، لأنه الحقّ من عند الله سبحانه، وقد أحكم آياته وجعلها بلسان عربي مبين.

الكل يعلم بأن جميع اللغات تتضمن كلمات مركبّة، فتكون كلمة واحدة تتكون من كلمتين مختلفتي المعنى لتدلّ على مفهوم بمعنيين. ففي اللغة الفرنسية مثلا، هناك كلمة فوبي phobie والتي تعني الخوف من الشيء، أو عدم حبّ أو تقبل الشيء، وعندما نريد أن نعبّر عن شيء لا نحبه أو نخاف منه، نأخذ اسم ذلك الشيء، ونضيف له كلمة فوبي phobie مع تغيير طفيف في لفظها، فعندما نريد أن نصف إنسانا لا يحب فرنسا مثلا أو الفرنسيين، نقول francophobe وعندما نريد أن نصف إنسانا يخاف من ركوب الطائرات نقول aerophobe ونفس الشيء بالنسبة للغة الإنجليزية فهناك كلمة priceless مثلا، فهي كلمة مركبة من كلمتين، price الذي هو السعر أو الثمن

وless الذي معناه أقل أو أدنى، فكلمة priceless تعني إذًا ليس له ثمن، أو لا يقدر بثمن، واللغة العربية هي كذلك تخضع لهذه القاعدة.

فالكل يعلم بأن جذر الكلمة العربية هو على وزن فعل، والقرآن نزّله تعالى بلسان عربي، وعلينا تدبره بهذا النحو. فكلمة زنجبيل وكلمة سلسبيل، هما كلمتان مركبتان، والمتشابه بينهما هو كلمة بيل، وبقي عندنا كلمتان مختلفتان وهما زنج وسلس.

فالله تعالى قال في سورة المزمل16 [**فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا**] وكلمة وبيلا جذرها اللغوي هو فعل وبل، فنقول وبل الشيء يعني اشتدّ وصعب ونقول كذلك وبل المطر، يعني اشتدّ، فكلمة وبيل إذًا تعني شديد، وعندما تضاف للكلمة، فذلك دلالة على المبالغة في وصف تلك الكلمة.

وكلمة زنج جذرها اللغوي هو فعل زنج، فنقول زنجت الإبل يعني عطشت، فكلمة زنجبيلا هي مركبة من كلمة زنج وكلمة وبيلا، وعندما رُكّبتا في كلمة واحدة حُذف الواو، فصارت الكلمة المركبة على شكل زنجبيلا، يعني العطش الشديد، أو شدة العطش.

وكلمة سلس جذرها اللغوي هو فعل سلس، فنقول سلس الشراب، يعني مرّ من الحلق بسهولة وليونة، فهو إذًا عذبٌ، وعندما أضيفت كلمة وبيلا إلى كلمة سلس، كما هو الشأن بالنسبة لكلمة زنج، حُذف الواو كذلك، فصارت كلمة مركبة على شكل سلسبيلا، يعني شديد السلس أي عذب.

وهكذا يمكننا تدبر الآية بهذا المفهوم، فالله تعالى قال[**وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا**] وكلمة مزاج هي مصدر لفعل زاج، كما هو مقال لفعل قال، وميعاد لفعل وعد، فنقول في اللغة العربية، زاج بين اثنين يعني حرّش، وأغرى واحد على الآخر، فعندما قال تعالى[**وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا**] فهذا يعني أن المؤمن عندما يرى الكأس ستغريه بالعطش الشديد، ثم تابع قوله تعالى [**عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا**] يعني أن الكاس التي إذا رآها المؤمن أغرته بالعطش الشديد، قد سُقيت من عين تعرف بشراب شديد السلس، أي شراب عذب، وقد يكون عسلا، أو ماءً، أو لبنا أو خمرا كما جاء في سورة محمد15 [**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ**]

فالله تعالى لا يمكن أن ينزّل كتابا بلسان عربي، ثم نتدبره بلسان العرب أو لسان الشاعر، ولا يمكن أن يُحكم آياته، ثم نعبر كلمات تلك الآيات وكأنها رؤيا.

والله هو العليم الحكيم الخبير.

النساء والنساء

قال الله تعالى في سورة آل عمران14[زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ] يجب أن نعلم بأن القرآن هو كلام الله تعالى يخاطب به الناس أجمعين، وهذا الإله هو الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما، وكل من تعمق في كيفية خلق هذا الكون وما فيه، إلاّ وتيقن من عظمة الله، فهو تعالى خلق الكون وأبدعه، وخلق الإنسان وأتقنه، ولم يخلق شيئا إلا وله أهميته. فهذا الإله هو الذي نزّل القرآن، ولابدّ أن يكون كلامه مثل خلقه في الإبداع والإتقان، فكل حرف داخل القرآن إلاّ وله أهميته، وكل كلمة إلاّ ولها دلالتها، وكل آية إلاّ ولها سياقها، ولهذا قال تعالى في سورة النساء82[أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا] وذلك لأنه أحكم آياته كما جاء في سورة هود1[الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ] ولهذا عندما نقرأ هذه الآيات، وجب علينا أن ننتبه لكل كلماتها، ونتدبرها بالقواعد التي وضعها تعالى لذلك، ونقدر كلامه حق قدره سبحانه.

فعندما قال تعالى[زُيِّنَ لِلنَّاسِ] وجب علينا أن ننتبه بأن الله تعالى يتحدث عن الناس، وكما نعلم كلمة الناس تعني جميع بني آدم، صغيرهم وكبيرهم، ذكورهم وإناثهم، سفيههم وعاقلهم، فقوله تعالى[زُيِّنَ لِلنَّاسِ] يعني أن هناك أشياء تجعل كل الناس يسعون وراءها ويرغبون فيها، ثم بدأ تعالى يتحدث عن تلك الأشياء، وكان أولها[حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء]

فكل أهل التفسير فسروا كلمة النساء على أنها جمع امرأة، وذلك لأنهم لم ينتبهوا بأن الله تعالى استعمل كلمة الناس، والتي لا تعني الرجال فقط، فالطفل الصغير هو من الناس، والطفلة الصغيرة كذلك، والمرأة كذلك هي نفسها من الناس، فهل هؤلاء زُيِّن لهم حب الشهوة من المرأة؟ وخصوصا عندما نقرأ في هذه الآية بأن كل الأشياء التي ذكرها تعالى هي من الأشياء التي نسعى لامتلاكها، ولذلك قال تعالى في آخر الآية [ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا] فهل المرأة هي من الأشياء التي نسعى لامتلاكها؟ وهل هي من متاع الحياة الدنيا؟

لكن عندما نتدبر القرآن بعقولنا، وبالقواعد التي وضعها تعالى داخل كتابه، يتبيّن لنا حسب سياق الآية بأن كلمة نساء في القرآن، ليست فقط جمع لكلمة امرأة، وانما هي كذلك مصدر لفعل نسأ، فنقول نسأه البيع، يعني أخّره وأجّله الدفع، فكلمة نساء في هذه الآية تعني الذي تأخر، أي الذي سيأتي من بعد نزول أحكام الله، وانقضاء الوحي.

فالله تعالى جعل القرآن خاتما للكتب، وصالحا لكل مكان وزمان، ولهذا استعمل سبحانه كلمات عامة، وصالحة لكل الأزمنة حتى لا نحتاج لفتاوى البشر، ولكتب أخرى نحتجّ بها يوم الحساب، فننقض قوله تعالى كما جاء في سورة النحل89 [وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ] وكذلك في سورة يوسف111 [مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] ولهذا أمرنا تعالى باتباع كتابه وحده كما جاء في سورة الأنعام155 [وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ] وهو الذي سنحاسب على ما بداخله، ولن يعترف سبحانه بأيّ كتاب آخر، لأنه تعالى غني عن العالمين، وكتابه هو الحق، ولهذا قال تعالى في سورة الجاثية28 [وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ29هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ]

فالله عز وجل علم بأن الإنسان سوف يتطور، وبالتالي تتطور حياته، ويتطور متاع الحياة الدنيا، وسيسعى وراء ذلك المتاع كل الناس، لهذا استعمل سبحانه كلمة نساء دلالة على كل ما سيأتي من بعد نزول القرآن، والى قيام الساعة. فالسيارة مثلا لم تكن موجودة عند نزول القرآن، وشاشة التلفاز، والهاتف، ولا أيّ شيء مما هو بين أيدينا اليوم، ولا الأشياء التي ستأتي من بعدُ، وكل هذه الأشياء يحبها ويسعى وراءها الطفل الصغير، والطفلة الصغيرة كذلك، والمرأة والرجل، والسفيه والعاقل، وكل هؤلاء من الناس.

ولهذا عندما قال تعالى[زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ] تابع سبحانه قائلا [وَالْبَنِينَ] وكلمة البنين جذرها اللغوي هو فعل بنى، فالبنين إذًا هو كل ما يبني الإنسان في حياته ليكون سببا في سعادته، ثم تابع تعالى قائلا[وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ] وهنا كما نرى، ذكر تعالى كل الأشياء التي يسعى الإنسان لامتلاكها، وتكون كسبب لسعادته في الحياة الدنيا، ولهذا ختم سبحانه هذه اللائحة بقوله[ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا] وكما نعلم، المرأة ليست من متاع الحياة الدنيا وإنما هي من بني آدم، والله تعالى قال في سورة الإسراء70 [وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ]

فالله سبحانه بيّن كل شيء في كتابه لكي لا نحتاج لأيّ فتوى من أيّ شيخ أو إمام، كما فعل نفس الشيء في التوراة والإنجيل حتى لا يحتاج اليهود والنصارى هم كذلك

لفتاوى أحبارهم ورهبانهم. فهو سبحانه أعلم من البشر وغني عنهم وعن فتاويهم، ولم يجعل أيّ وكيل في الأرض كي يحلّ أو يحرم نيابة عنه سبحانه ولو كان من النبيين، ومحمد رسول الله ص على علم هذا، ولم يفت قطّ قومه، وعندما يستفتونه ينتظر الفتوى من ربه، وهذا ما جاء مثلا في سورة النساء176 [يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ] وهنا كما نرى، الله تعالى قال لمحمد ص[قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ] ولم يوكّل رسوله في الفتوى، لأنه لم يرسله تعالى ليشرع الدين، ولكن أرسله ليبلغ الدين الذي شرعه هو سبحانه ، ولهذا قال تعالى في سورة الإسراء54[رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا] وقال تعالى في سورة الفرقان56[وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا]

فبما أن الله تعالى بيّن لنا كل شيء في كتابه كما جاء في سورة النحل89[وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ] وفصّله كذلك كما جاء في سورة يوسف111[مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] فهو سبحانه بيّن لنا حكم كل الأشياء التي نستعملها في حياتنا اليومية، ونرغب في اكتسابها، والتي سيستعملها الذين سيأتون من بعدنا، والى قيام الساعة، وذلك في قوله سبحانه في سورة النساء223[نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ] فهنا كما نرى، قال تعالى[نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ] وكلمة نساء هنا كذلك ليست كجمع لكلمة امرأة، لأن المرأة ليست حرث الدنيا، وانما هي من بني آدم، لأن كلمة حرث تدل على كل شيء نفعله أو نكسبه فيه منفعة لنا، وبما أن الله تعالى ضرب لنا الأمثال في القرآن، وجب أن نأخذ بعضا منها.

فهو قال سبحانه في سورة الشورى20[مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ] وهنا كما نرى، قال تعالى[حَرْثَ الْآخِرَةِ] يعني ما فيه منفعة في الآخرة، وقال تعالى[حَرْثَ الدُّنْيَا] بمعنى ما فيه منفعة في الحياة الدنيا.

فعندما قال تعالى[نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ] فهذا يعني أنه ما يأتيكم من بعدُ، أي من بعد هذه الآية وإلى قيام الساعة، هو منفعة لكم، ثم تابع قوله تعالى[فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ] يعني استعملوا هذه المنافع كيفما شئتم، ولكن الله تعالى تابع قائلا[وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ] يعني عند الانتفاع بهذه الأشياء واستعمالها، يجب أن نتقي الله تعالى في ذلك، ولا ننسى بأننا سوف نلقاه يوم القيامة، وسوف نحاسب على طريقة استعمالنا وانتفاعنا بتلك الأشياء.

فالله تعالى أفتانا في كل ما نستعمله في الحياة الدنيا، وفيه منفعة لنا ونرغب في اكتسابه ليسعدنا في حياتنا، سواء كان للهو، أو للعب، أو للزينة، أو للتفاخر، أو لتكاثر الأموال أو الأولاد كما جاء في سورة الحديد20[اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ] وهنا كذلك حذّرنا تعالى لكي لا نهتم بهذه الأشياء الدنيوية بطريقة تنسينا حرث الآخرة، أي ما ينفعنا يوم الحساب، ولهذا ختم الآية سبحانه بقوله[وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ] وهذا يدلّ على أن الله تعالى أباح للمؤمن بأن يلعب ويلهو، ويبتغي الشهوات، ويتفاخر بأمواله وأولاده، لأن كل هذا من عمل الحياة الدنيا، بشرط أن لا يغرّه فينسى ذكر ربه، ولهذا قال تعالى في سورة القصص77[وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ] ولكي لا يتجرأ أيّ شخص بأن يفتي بما لم يفت به الله، فقد قال تعالى في سورة الأعراف32[قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ]

والآن بما أننا علمنا بأن ليس كل كلمة نساء في القرآن تأتي كجمع لكلمة امرأة، وإنما قد تكون كمصدر لفعل نسأ، وهذا يتبيّن حسب سياق الآية كما جاء مثلا في سورة البقرة49[وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ] أو كما جاء في سورة البقرة222 [وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ] وكما نرى، يتبيّن جليا في الآيتين معا بأن كلمة نساء هي كجمع لكلمة امرأة، وليست كمصدر لفعل نسأ، ولهذا وجب علينا أن نتدبر قوله تعالى في سورة النور31[أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ] لكي لا نأتي بتفسير يناقض اللغة العربية والمنطق.

فعندما قال تعالى[أَوْ نِسَائِهِنَّ] كل المفسرين فسروا كلمة نساء كجمع لكلمة امرأة، كما هو الشأن في الآيات الأخر، فهل المرأة تكون لها امرأة؟ أولم يقل تعالى في سورة البقرة49[وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ]؟ وهنا كلمة نساؤكم جاءت كجمع لكلة امرأتكم؟ فإن كانت كلمة نساء عندما قال تعالى[أَوْ نِسَائِهِنَّ] كجمع لكلمة امرأة، فلا يمكن أن يكون مفردها حسب اللغة العربية إلاّ امرأتها، وهذا لا يمكن أن يكون من قول الله تعالى!

فهنا كلمة نساء ليست كجمع لكلمة امرأة، ولكن هي كمصدر لفعل نسأ، يعني ما يأتي من بعد، فعندما قال تعالى في سورة النور31[أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ] فهو تكلم سبحانه عن أبناء المرأة، وأبناء بعلها، وأبناء إخوانها، وأبناء أخواتها الذين يمكن أن تُبدي لهم ما ظهر من زينتها، ولهذا جاء تعالى بكلمة نسائهن دلالة على الذين يولدون من بعد هؤلاء الذين ذكرهم تعالى، بمعنى أن هذا الحكم صالح كذلك لأبناء أبنائها أي أحفادها، وأبناء أبناء بعلها أي أحفاده، وأبناء أبناء إخوانها أي أحفادهم، وأبناء أبناء أخواتها أي أحفادهن، واللائحة قد تطول ولهذا استعمل سبحانه كلمة نساء التي هي كمصدر لفعل نسأ، كدلالة على لفظ <ما يلي> كما هو الشأن لأيّ لغة أعجمية كالفرنسية مثلا التي يوجد فيها لفظ <etc> ولا علاقة لها بكلمة نساء التي هي كجمع لكلمة امرأة، والذي يناقض سياق الآية، ولهذا جاء سبحانه بنفس الكلمة في نفس الحكم بقوله تعالى في سورة الأحزاب55[لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاء إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاء أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ] وهنا كما نرى، نفس الكلمة في نفس اللائحة لنفس الحكم، إلا أن هنا لم يذكر سبحانه كلمة بعولتهن لأنه يتكلم عن نساء النبي ص.

وهكذا يتبيّن بأنه ليس كل كلمة نساء في القرآن تأتي كجمع لكلمة امرأة، وإنما قد تكون مصدرا لفعل نسأ، كما هو الحال في الآيات الأربع التي جاءت في القرآن، ولا يوجد غيرها، والتي قمنا بتدبرها بهذا المفهوم، والذي يوافق سياق تلك الآيات، ولا يناقض المنطق، إلاّ أن آباءنا لم ينتبهوا لذلك، فجعلوا المرأة حرثا ومتاعا، وخالفوا عدل الله بين الرجل والمرأة، وخالفوا كذلك المنطق واللغة العربية، وقد وقعوا في نفس الخطأ في عدة كلمات، ومنها كلمة سنين، والذي بيّناه في الفقرة التالية، وهذا ليس عيب منهم رحمهم الله، فهم تدبروا القرآن حسب الحقبة التي كانوا يعيشون فيها، والآليات التي كانت تتوفر لديهم آنذاك، لكن العيب هو أن نقدس ما قالوه، ولا نتجرأ على إعادة تدبر القرآن بعقولنا نحن أي عقل القرن الواحد والعشرين، الذي يعقل ما هو البعد الثلاثي، ويعلم ما في الأرحام بواسطة أدوات اخترعها الإنسان بنفسه، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة170 [وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

السنة والسنين

قال الله تعالى في سورة الأعراف130[**وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**] يجب أن نعلم بأن محمدا رسول الله ص، عندما أمره تعالى بتبليغ ما يوحى إليه، واجه مقاومات عدة، وخصوصا من الذين أشركوا من أهل الكتاب، يعني الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، وهم الذين قال فيهم تعالى في سورة البقرة78[**وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**] يعني لم يكونوا يعرفون قراءة كتبهم بلسانهم، فكانوا يطيعون أحبارهم ورهبانهم بغير علم من الكتاب، ويقدسونهم بدعوى أن كل ما يقولون هو من عند الله تعالى، ولا يمكن أن يخطئوا في فهم كتبهم.

وها نحن كذلك نسير على نفس المنوال، لا نعلم الكتاب إلا أماني، وإن نحن إلاّ نظن أن كل ما قاله الذين من قبلنا هو الحقيقة المطلقة، ولا يمكن أن يخطئوا، والكل يعلم بأن هذه الصفات هي من خصائص الله سبحانه، فأما الإنسان فقد يخطأ ويصيب، وعقله يتطور مع تغير المكان والزمان، وحسب الآليات المتوفرة لديه، ولا يمكن لآبائنا وأسلافنا أن يخرجوا عن هذا المنطق، ولو كان كذلك، لعلموا مثلا بدوران الأرض حول الشمس، وكرويتها التي تحدث عنهما تعالى في كتابه، وكيف بدأ تعالى الخلق، والذي لم يتوصل إليه الإنسان إلاّ في نهاية القرن الماضي، مع أن الله فصّله في القرآن كما فصّله من قبل في التوراة والإنجيل.

فأيّ كتاب تفسير فتحناه لنبحث عن تفسير كلمة السنين التي جاءت في الآية التي نحن في صددها، سنجد بأنها فُسّرت كجمع لكلمة سنة، وأن كلمة سنة تأتي في اللغة العربية كذلك بمعنى جدب وقحط، لكن عندما نتدبر القرآن بقواعده، ونعلم بأن الله تعالى لا يكرّر كلامه، وقد أحكم آياته، ونزلها بلسان عربي مبين، نستطيع أن نعلم هل أخطأ الذين من قبلنا أم أصابوا القول.

فالله تعالى قال[**وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُون**] وإذا كانت هنا كلمة سنين تعني الجدب والقحط، فلماذا سيكرّر كلامه سبحانه في نفس الآية ويقول[**وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ**]؟ أولا يدل هذا على القحط؟ أوليس هذا بتكرار للكلام؟ أولم يقل تعالى في سورة يونس5[**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا**

وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ]؟ أولا يدلّ هذا على أن كلمة سنين التي جاءت كجمع لكلمة سنة، جعلها الله تعالى لحساب المدة الزمنية فقط، والتي تُحسب بتعاقب الأيام والشهور، ولا علاقة لها بصفة أو نوعية تلك المدة؟

بلى، ولهذا صرّف الله تعالى الأمثال في القرآن حتى لا نزيغ عن فهم آياته، ومنها ما جاء في سورة يوسف42[**وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ**] وكذلك في سورة يوسف47[**قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ**] والأمثلة كثيرة في القرآن، والتي تُبيّن أن كلمة سنين التي تكون كجمع لكلمة سنة، لها دلالة واحدة وهي المدة الزمنية فقط، ولا علاقة لها بنوعية تلك المدة، وهذا بيّناه كذلك في عدة فقرات.

فلكي نبيّن دلالة كلمة سنين التي جاءت في قوله تعالى[**وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ**] وجب علينا أن نأخذ بعضا من الأمثلة التي صرّفها عز وجل في القرآن، فهو قال في سورة المؤمنون64[**حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ**] وقال كذلك في سورة المؤمنون76[**وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ**] وهنا كما نرى، في الآيتين معا، قال تعالى بأنه يأخذ بالعذاب، وكلمة العذاب هي بالمفهوم العام، لكن في الأمثلة الأخرى التي صرّفها تعالى في القرآن، بيّن سبحانه وحدّد نوع العذاب الذي أخذ به الذين يستحقونه، فقال مثلا في سورة الأعراف 94[**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ**] فهنا كما نرى، عيّن تعالى نوع العذاب، وهو البأساء والضراء، فعندما يقول تعالى أخذنا، فهو لا يأتي بالمدة الزمنية، ولكن بالعذاب بصفة عامة، أو يعيّن نوع ذلك العذاب.

فعندما قال تعالى[**وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ**] فهذا يعني أن كلمة سنين هي دلالة على نوع من العذاب، وليس المدة الزمنية أو نوعيتها، ولهذا وجب علينا أن نتدبر الآية بهذه الدلالة، لأن كلمة سنين جاءت بعد كلمة أخذنا، وبالتالي فهي نوع من العذاب حسب الطريقة التي أحكم بها تعالى آياته، ثم فصّلها في أمثلة.

فكلمة سنين جاءت في الآية مجرورة بحرف الباء، وعندما نزيل حرف الباء تكون الكلمة مرفوعة أي السنون، والتي هي جمع السَنّ، فنقول سنّ الطعام أو الشراب، يعني سنه وفسد، ونقول سنهت النخلة، يعني أتت عليها السّنون أي ما يسنه إنتاجها فهي

سنهة أو سنهاء. فالسّنُّ إذًا هو ما يسنه ويُفسد الطعام والشراب أو غيرهما، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة259[فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ]

فعندما قال تعالى[وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ] فهو عيّن سبحانه نوع العذاب أي أنه أرسل ما يسنه طعامهم وشرابهم ، وهذه السّنون بيّنها تعالى قائلا في سورة الأعراف133 [فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ] والكل يعلم بأن الطوفان يسنه الطعام والشراب فهو إذًا سنّ، والجراد يسنه الطعام فهو إذًا سنّ، والقمّل يسنه كذلك الطعام فهو أيضا سنّ، والضفادع تسنه الشراب فهي إذًا سنّ، والدّم يسنه الشراب فهو أيضا سنّ، وكل هذه الأشياء أرسلها تعالى كسنين ليسنه طعام وشراب آل فرعون كعقاب لهم، وأصابهم كذلك بما يُنقص من الثمرات، وقد يكون القحط مثلا، فهو سبحانه أرسل ما يُفسد ما كان لديهم من طعام وشراب، وكذلك ما يؤدّي إلى نقص في الإنتاج الزراعي.

وهكذا يتبيّن بأن الله تعالى لا يكرّر كلامه، وانه أحكم آياته، ولا يمكن أن تكون لكلمة واحدة أكثر من دلالة حتى لا يكون كتاب الله تعالى قرآنا ذا عوج، أي كلماته كرجل فيه شركاء متشاكسون، ولكن الله تعالى جعل كتابه قرآنا غير ذي عوج، أي كلماته كرجل سلما لرجل.

وهنا يتبيّن كذلك بأنه ليست كل كلمة سنين هي جمع لكلمة سنة، وهذا بيّناه أيضا في فقرة[وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

السنة الحول والرضاعة

قال الله تعالى في سورة يونس5[هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ] كما تبيّن في الفقرة السابقة بأن الله تعالى جاء بكلمة سنة دلالة على المدة الزمنية، والتي تُحسب بتعاقب الأيام والشهور، وتبلغ مدتها كما يعلم الجميع اثني عشر شهرا، وبما أن الله تعالى جعل كتابه قرآنا غير ذي عوج، كرجل سلما لرجل، أي لكل كلمة دلالتها الخاصة بها، وبالتالي كلما جاء تعالى بكلمة تطابق معنى كلمة أخرى ولكن تخالفها لغويا، فذلك للإتيان بدلالة أخرى، وبالتالي ليبيّن لنا تعالى أشياء أخرى.

فكلمة سنة وكلمة حول لهما نفس المعنى، وهي مدة زمنية تدوم اثني عشر شهرا لكن ليس لهما نفس الدلالة، وهذا صالح لكل الكلمات التي جاءت في كتاب الله تعالى، وهذه القاعدة أساسية في تدبر القرآن، والتي لم ينتبه إليها آباؤنا، كما لم ينتبهوا للقواعد الأخرى التي وضعها تعالى داخل القرآن، والتي بيّنا كل واحدة على حدة، وكيفية استعمالها حتى يستطيع كل شخص تدبر القرآن، فلا يكون عرضة لأهواء الذين يضلون الناس بغير علم بكتاب الله تعالى، ولهذا عندما قال سبحانه في سورة الأنعام 119[وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ] تابع سبحانه قائلا[وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ]

فكلمة سنة دلالتها هي معرفة المدة الزمنية فقط، ولهذا ضرب الله تعالى لنا الأمثال في القرآن، ومنها ما جاء في سورة يوسف47[قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ] وفي سورة الكهف11 [فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا] وفي سورة الشعراء205[أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ] فهنا كما نرى، كل هذه الأمثلة تبيّن بأن دلالة كلمة سنة هي حساب المدة الزمنية فقط، وليس لها أيّ علاقة بنوعية تلك المدة، أو مدة قضاء فرض أو حكم أمر به الله تعالى.

لكن عندما أراد الله تعالى أن يجعل لهذه المدة الزمنية، أي السنة دلالة معينة، غيّر سبحانه تعريفها، وهذا ما جاء مثلا في سورة البقرة240[وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] فهنا كما نرى، الله تعالى يتكلم عن وصية

فرضها على الذين يتوفون ويتركون أزواجا، وهي أن يُحقّ للمرأة أن تمكث في بيت زوجها المتوفى لفترة تدوم اثني عشر شهرا، وهو ما يعادل سنة، لكن لماذا استعمل تعالى كلمة حول ولم يستعمل كلمة سنة؟

فكلمة حول جذرها اللغوي هو فعل حال، فنقول حال بالشيء، يعني أحاط به من كل جوانبه، ولهذا نقول الأرض تدور حول الشمس، يعني تمرّ بجميع النقط حتى تصل للنقطة التي بدأت منها، ولهذا استعمل سبحانه كلمة حول، فهو عندما قال [وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ] فهذا يعني بأن تُعدّ المدة الزمنية التي فرض تعالى كوصية، أي مدة سنة، ابتداء من اليوم الذي توفي فيه الزوج، وتستمر حتى يحلّ نفس ذلك اليوم من السنة التالية، وهكذا يكون الحول قد اكتمل، وبالتالي تمت مدة الوصية، فدلالة الحول إذًا هي إتمام فريضة عند حلول نفس اليوم الذي بدأت فيه بعد مرور اثني عشر شهرا دون انقطاع، وما يأتي من بعد ذلك اليوم لا يعدّ مما فرضه الله تعالى، وهكذا يمكن أن نتدبر الآية التي تتكلم عن الرضاعة.

فالله تعالى قال في سورة البقرة233[وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ] وهنا كما نرى، الله تعالى استعمل كلمة حول، وذلك دلالة للمدة الزمنية التي فرضها سبحانه للرضاعة، والتي تُبتدأ منذ اليوم الذي وُلد فيه الطفل وتُنتهى عند حلول نفس اليوم بعد مرور سنتين، أي أربعة وعشرين شهرا، لكن لماذا قال تعالى[حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ] ثم تابع قائلا[لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ]؟

فلكي نتعرف على السبب، سنأخذ مثالا من الأمثلة التي ضربها تعالى في القرآن بالنسبة لفريضة صيام شهر رمضان، وهذا قد بيّناه من قبل، وسنعيده هنا بطريقة ملخصة، فالله تعالى قال في سورة البقرة187[وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ] فكما بيّنا في فقرة <الإسلام ودين الإسلام> دلالة فعل أتمّ هي إنهاء وحدة من الكل، ودلالة فعل أكمل هي إنهاء مجموع الوحدات التي تُتمّ.

فعندما نصوم في شهر رمضان من فجر كل يوم إلى غروب الشمس، فنحن ننهي صيام ذلك اليوم، الذي هو وحدة من شهر رمضان، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة 187 [ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ] وبإنهاء أيام شهر رمضان أي الوحدات، نكون قد أكملنا العدة كلها، ولذلك قال تعالى في الآية185[وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ]

فعندما قال تعالى[ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ] فهذا يعني أن نوع الصيام الذي فرضه سبحانه على أمة محمد ص، سواء كان في شهر رمضان أو خارجه، يبدأ عند الفجر وينتهي عند غروب شمس نفس اليوم، وكل شخص واصل أو بدأ صيامه من بعد غروب الشمس، فهذا لا يُعدّ من الصيام الذي فرضه تعالى، وإنما إمساك عن الطعام والشراب والجماع، ولا يُجزى به، وكل شخص لم يصم كل أيام شهر رمضان، فهو لم يكّمل العدة، ولهذا وجب عليه القضاء، وكل شخص صام في أيام غير شهر رمضان، فهذا لا يُعدّ من الصيام الذي فرضه تعالى على أمة محمد ص، وإنما هو صيام تطوعي فقط، ولهذا قال تعالى[وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ]

فعندما قال تعالى[وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ] فهذا يعني أن الرضاعة التي فرضها تعالى على الوالدة، أي التي وضعت الطفل، مدتها لا تتعدى حولين، يعني تبدأ منذ اليوم الذي وضعت فيه المولود، إلى أن يحلّ نفس اليوم بعد مرور أربعة وعشرين شهرا، وكل رضاعة بعد هذه المدة لا تعدّ من الفريضة التي فرضها تعالى، وبالتالي لا تدخل في خانة التحريم، وإنما هي تغذية فقط، ولهذا تابع تعالى قائلا[لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ] يعني لمن أراد أن يتمّ الرضاعة التي فرض تعالى، لأن الرضاعة التي تُحرّم نكاح الإخوة من الرضاعة والأم من الرضاعة، تتمّ عندما يبلغ المولود سنتين كاملتين من عمره، وكل رضاعة أخذها بعد ذلك فهي تُعدّ تغذية فقط ولا علاقة لها بالتحريم، كما هو الشأن بالصيام الذي فرضه تعالى علينا.

فالأمومة والأخوّة من الرضاعة، هي التي تكون قبل أن يبلغ المولود سنتين من عمره، وكل رضاعة تكون بعد هذا العمر، فهي لا تعدّ من الرضاعة التي فرض الله تعالى والتي تؤدي إلى التحريم، وإنما تعتبر تغذية فقط . فكل والدة أرضعت طفلا ليس بولدها لم يبلغ بعد سنتين من عمره، فهو يعتبر كأخ أو هي كأخت لأولادها، وإن كان قد بلغ من العمر أكثر من سنتين، فهو لا يعتبر كذلك، وهذا ما بيّنه تعالى بقوله [وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ] ولهذا جاء تعالى بكلمة الوالدة، يعني الأمّ التي ولدت، وذلك ليبيّن لنا حكم نكاح الإخوة من الرضاعة، ولم يأت بكلمة الأمّ كما قال تعالى في سورة لقمان14 [وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ] وذلك ليبيّن لنا تعالى في هذه الآية حكم الأمهات من الرضاعة، وهذا بيّناه في الفقرة التالية.

والله هو العليم الحكيم الخبير.

العام ورضاعة الكبير

قال الله تعالى في سورة البقرة259 [أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ] فهنا كما نرى، استعمل تعالى كلمة عام، لكن قال سبحانه في سورة الكهف25 [وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا] وهنا استعمل كلمة سنة، ولم يستعمل كلمة عام.

فالكل يعلم بأن أصحاب الكهف لم يُمتهم الله تعالى، وانما أرقدهم كما جاء في سورة الكهف18 [وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ] وفي الآية11 [فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا] وكل هذا يدلّ على أن حياة أصحاب الكهف لم تتوقف واستمرت كما هي، ولذلك استعمل تعالى كلمة سنين كدلالة على المدة الزمنية فقط، والتي لبثها الفتية في الكهف، لكن عندما قال تعالى في سورة البقرة259 [فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ] فهو استعمل هنا كلمة عام، وذلك لأن حياة ذلك الإنسان توقفت ولم تستمر على ما كانت عليه وتغيّر جسده.

فدلالة كلمة عام إذًا هي توقف أو تغير شيء في مدة زمنية من عمر الإنسان، وقد تكون حياته أو شيء في حياته، ولهذا قال تعالى في سورة يوسف49 [ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ] وهنا كما نرى، الله تعالى استعمل كلمة عام ولم يستعمل كلمة سنة، وذلك دلالة على المدة الزمنية التي توقف فيها القحط وبدأ الخصب، أما عندما قال تعالى في سورة الأحقاف 15 [وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ] فقد استعمل سبحانه كلمة سنة، وذلك لأنه يتحدث عن بلوغ الإنسان مرحلة من عمره، وهي (أربعين سنة) فتجعله أكثر رشدا مما كان عليه دون أن يتغير شيء في حياته، فهو كان من قبل مسلما وظل مسلما، ولهذا قال تعالى أربعين سنة ولم يقل أربعين عاما.

لكن الله تعالى عندما قال في سورة العنكبوت14 [وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ] فهو سبحانه استعمل الكلمتين معا، سنة وعام، فعندما قال تعالى [فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ] فهذا يعني المدة

الزمنية التي استغرقها نوح عليه السلام يدعو فيها قومه، وعندما قال تعالى[إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا] فذلك دلالة على أن نوحا عندما بلغ خمسين سنة من عمره، تغيرت حياته من رجل عادي إلى رسول، أي من الضلالة إلى الهدى كما قال تعالى لمحمد ص في سورة الضحى7[وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ] ولهذا استعمل تعالى كلمة عام. فنوح عليه السلام جاءته الرسالة عندما بلغ عمره خمسين عاما، ولبث في قومه يدعوهم للإسلام لمدة ألف سنة بالعدّ الذي كان يُعدّ في عهد نوح، وليس بالعدّ الذي نعدّه اليوم، وهذا بيّناه في فقرة <ألف سنة إلا خمسين عاما> أمّا كم عمّر نوح، فهذا لا يمكن لأحد أن يعلمه لأن الله تعالى أخبرنا عن عمره عندما توصّل بالرسالة فأصبح رسولا، وعن المدة التي لبث في قومه يدعوهم للإسلام، لكنه لم يُخبرنا تعالى بالمدة التي عاشها من بعد الطوفان، ونحن يمكن أن نأخذ المثال من محمد ص، فهو لبث في قومه ثلاث عشرة سنة إلا أربعين عاما، فهاجر إلى المدينة، وعاش فيها مدة عشر سنوات حسب ما وصلنا، وبهذا يكون قد توفي عن عمر يناهز ثلاثة وستين عاما.

فبهذه الدلالة التي جاء بها القرآن لكلمة عام، يمكننا أن نتدبر قوله تعالى في سورة لقمان14 [وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ] فهنا كما نرى، استعمل تعالى كلمة عام، وكذلك كلمة أمّ وفعل فصل، وذلك ليبيّن لنا شيئا من كل الأشياء التي بيّنها تعالى في كتابه.

فعندما قال تعالى في سورة البقرة233[وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ] فهو سبحانه استعمل كلمة والدة، وذلك دلالة على المرأة التي ولدت الرضيع، أما كلمة الأمّ فهي دلالة على الاثنين معا، أي المرأة التي تلد أو المرأة المرضعة، فكل والدة هي أمّ، لكن ليس كل أمّ هي بالضروري والدة، وانما قد تكون الأمّ من الرضاعة، وهذا يتبيّن حسب سياق الآية. فعندما قال تعالى[حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ] فهو لا يتكلم سبحانه عن الحمل الذي يكون داخل الرحم، وذلك لأنه تابع تعالى قائلا [وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ] وكلمة وهن هي كمصدر لفعل وهن يعني تعب، ولهذا قال تعالى في سورة مريم4[قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا] يعني تعب عظمه من حمل وزنه.

فعندما قال تعالى[حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ] فهو يتكلم هنا سبحانه على الأمّ من الرضاعة، التي يكون لها ولدها الذي ترضعه وهذا تعب تحمله، والذي يجعلها قابلة لإرضاع طفل آخر لسبب وجود حليب في ثديها، وهذا يحمّلها تعبا آخرا، أما عندما تكلم تعالى عن الأمّ الوالدة فهو قال في سورة الأحقاف 15[وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ

إِحْسَـٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا] وهنا كما نرى، قال تعالى[حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا] وذلك دلالة على الحمل داخل الرحم، وليس خارجه كما جاء في سورة مريم27[فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا] ولهذا عندما قال تعالى[حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا] تابع قائلا[وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا] أي ولدته كما جاء في سورة آل عمران36[فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ] ولهذا استعمل تعالى كلمة كرها في الحمل والوضع، وذلك دلالة على رغبة المرأة في الإنجاب رغم الألم الذي يسبّبه الحمل والولادة.

فلهذا عندما قال تعالى[وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ] لم يقل وضعه، لأنه يتكلم سبحانه عن الأمّ المرضعة وليس الأمّ الوالدة، ولهذا عندما قال تعالى[وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ] استعمل سبحانه كلمة عام، دلالة على المدة الزمنية التي تتوقف فيها الرضاعة التي تحرّم نكاح الأمّ من الرضاعة، يعني تفصل الرضيع من أمومة المرأة التي ترضعه، وكل رضاعة أخذها الطفل من امرأة لم تلده بعد بلوغه عامين من عمره، فهي لا تعدّ من الرضاعة التي تحرم، وإنما تغذية فقط.

فعندما قال الله تعالى في سورة النحل89[وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ] وقال كذلك في سورة يوسف111[مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] فهو سبحانه بيّن لنا بأن الرضاعة التي تحرّم نكاح الإخوة من الرضاعة، هي التي تكون من قبل أن يبلغ الرضيع عامين من عمره، وأيّ رضاعة أخذها من بعد عامين فهي تعدّ تغذية فقط، ولا علاقة لها بتحريم نكاح الإخوة من الرضاعة، وهذا ما بيّنه تعالى بقوله في سورة البقرة233[وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ] وعندما قال تعالى في سورة لقمان14[وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ] فهو سبحانه بيّن مدة الرضاعة التي تحرّم نكاح الأمّ من الرضاعة، والتي تتوقف هي كذلك عندما يبلغ الرضيع عامين من عمره، ولهذا قال تعالى[وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ]

فهاتان الآيتان هما تفصيل لقوله تعالى في آية تحريم الاستمتاع في سورة النساء [وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ] وكل رواية تتحدث عن رضاعة الكبير فهي باطلة، لأن كلام الله هو الحق، وكل قول يخالف ما بداخل كتاب الله تعالى الذي بيّن فيه كل شيء، وفصّله تفصيلا، فهو باطل وردّ على قائله، ولهذا قال تعالى في

سورة البقرة42[وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ] وقال في سورة الجاثية6[تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ]

فلكي لا نسيء لرسول الله ص فيتبرأ منا يوم القيامة كما قال تعالى في سورة التوبة3[أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ] وجب علينا أن نتدبر القرآن بقواعده، ونجعله سندًا في تصحيح الأحاديث النبوية لأنه قول الله تعالى، ولا يمكن لرسول أرسله عز وجل ليبلغ رسالته، أن يغيّر منها شيئا، أو ينسخ منها شيئا، أو يحرّم ما أحلّه الله تعالى، أو يحلّ ما حرّمه تعالى، وهذا كله يطابق الحديث الذي ذكرنا في المقدمة، والذي أخرجه ابن حزم في كتابه (الإحكام في أصول الأحكام) عن الأصبغ بن محمد أبو منصور قال:< الحديث عني على ثلاث، فأيما حديث بلغكم عني تعرفونه بكتاب الله تعالى فاقبلوه، وأيما حديث بلغكم عني لا تجدون في القرآن ما تنكرونه به ولا تعرفون موضعه فيه فاقبلوه وأيما حديث بلغكم عني تقشعرّ منه جلودكم، وتشمئزّ منه قلوبكم وتجدون في القرآن خلافه فردوه>

وحديث رضاعة الكبير هو من الأحاديث التي تقشعرّ منه جلودنا، وتشمئزّ منه قلوبنا ويبيّن القرآن خلافه، وهذا ما بيّناه كذلك في الفقرة التالية بالنسبة للآية التي تتكلم عن اللائي لم يحضن في سورة الطلاق4[وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا] واللاتي عرّفهن آباؤنا بالصغيرات.

والله هو العليم الحكيم الخبير.

اللائي لم يحضن

قال الله تعالى في سورة الطلاق4 [وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا] فالكل يعلم بأن علم التفسير باختصار، قد اشتهر في أوائل القرن الثاني الهجري، والأكثر شهرة في تفسير القرآن هناك مثلا ابن ماجة، وابن المنذر، وأشهرهم ابن جرير الطبري، وهو يلقب بشيخ المفسرين، وبعده جاء مفسرون آخرون، لكن لم تكن هناك اختلافات كثيرة بين تفاسيرهم، وذلك لسبب نقل بعضهم عن بعض، مما أدّى إلى عدم تطور مفاهيم القرآن، لأن تقديس الشيخ والنقل عنه كان هو السائد آنذاك، وكان أساس الفقه هو الحفظ عن ظهر قلب، ولهذا لُقّب أغلبهم بالحافظ وليس بالمفكر. فالذاكرة كانت هي أساس الفقه وليس العقل، خوفا من الخروج عن النص، وذلك لأنهم خلطوا بين العقل والرأي. وعندما كانوا يفسرون القرآن غالبا ما يستحضرون سبب النزول، فيجعلون الآية أو السورة تخضع لذلك السبب، مع أنه عندما بدأ فعلا تفسير القرآن بطريقة مكثفة ومتتالية، كان قد مرّ أكثر من قرن على الواقعة، فكانت تُنقل أسباب النزول بطريقة مغلوطة، فيُفَسر القرآن طبقا لذلك الخبر، وهذا ما سنبيّنه في الآية التي أتينا بها، والتي تتكلم عن عدة المطلقات.

قبل كل شيء، يجب أن نعلم برحمة الله لنا بوجود كتابه بين أيدينا كما أنزله تعالى على رسوله و نطق به، مما يجعلنا نتدبره بالطريقة التي أحكم بها سبحانه آياته، وحسب القواعد التي وضعها بداخله، وليس حسب ما فهمه آباؤنا كما هو الشأن بالنسبة للأحاديث النبوية، والذي يؤكده ما جاء في الكتب المترجمة للقرآن بلغات أجنبية عديدة مما أدّى إلى تحريف في فهم القرآن. ولهذا وجب أن يعلم المرء وخصوصا غير المتكلم باللغة العربية، بأن ما يقرأ من قرآن بلغة أجنبية هو أماني البشر وليس قول الله تعالى ولهذا قال سبحانه في سورة الزخرف3 [إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] وقال كذلك في سورة فصلت3 [كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ] يعني لا يمكن تدبر القرآن إلاّ باللغة التي نزل بها، كما هو الشأن للتوراة والإنجيل، ولهذا سنأتي بترجمة الآية التي نحن في صددها كمثال لنبيّن التحريف الذي وقع في القرآن عند ترجمته، وذلك راجع لتأثر المترجم بأقوال وتفاسير آبائنا، وادعائه أنه من عند ربنا الذي أحكم آياته وجعل كتابه رحمة للعالمين.

فالآية التي في سورة الطلاق تقول[وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا] وعندما تُرجمت إلى اللغة الفرنسية أصبحت على الشكل التالي:

Si vous avez des doutes à propos (de la période d'attente) de vos femmes qui n'espèrent plus avoir de règles, leur délai est de trois mois. De même pour celles qui n'ont pas encore de règles. Et quant à celles qui sont enceintes, leur période d'attente se terminera à leur accouchement. Quiconque craint Allah cependant, Il lui facilite les choses.

فإذا تأملنا الآية التي نطق بها محمد رسول الله ص كما نزلت عليه باللغة العربية وترجمتها، سوف نرى بأن سياقها قد تغير، وذلك بإضافة كلمات بداخلها، ولهذا سنأخذ الجزء الذي وقع فيه تغيير وليس كل الآية.

فالله تعالى قال[فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ] فالمترجم زاد على حرف العطف <الواو> كلمة < كذلك > De même وبعد كلمتي <لم يحضن> أضاف كلمة <بعدُ> encore فأصبح الجزء على الشكل التالي - فعدتهن ثلاثة أشهر وكذلك اللائي لم يحضن بعدُ وأولات الأحمال - بمعنى أصبح حتميا بأن ثلاثة أشهر هي عدة اللائي لم يحضن بعدُ أي الصغيرات كما هي عدة اللائي يئسن من المحيض، يعني أن الله تعالى الذي سمّى نفسه بالرحمان الرحيم، أباح لنا نكاح الصغيرات حتى لو كان عمرهن أقل من أربع، أو ثلاث سنوات مثلا، أو أقل حسب منظورنا نحن، لأن ترجمة الآية بالفرنسية ولغات أخرى تؤكد ذلك، وسبب كل هذا هو تأثر المترجم بتفسير الآية الذي خضع لسبب نزولها، والذي جاء في جلّ كتب التفاسير، ومنه ما جاء في تفسير ابن كثير عن عمرو بن سالم قال:<قال أبي بن كعب: يا رسول الله إن عِددًا من عِدد النساء لم تُذكر في الكتاب، الصغار والكبار وأولات الأحمال، قال: فأنزل الله تعالى هذه الآية> ومن هنا انطلقت التفاسير كلها خاضعة لسبب نزول الآية.

فهل يمكن لرب سمّى نفسه بالرحمان، وكتب على نفسه الرحمة، فنعت نفسه بالرحيم أن يبيح لنا نكاح الصغيرات؟ أولم يقل في سورة النساء6[وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ]؟ وهنا كما نرى، أمرنا تعالى بأن نتكفل باليتامى حتى بلوغهم النكاح ويتبيّن لنا رشدهم،

وحينذاك نعطيهم أموالهم وليس من قبل، وعندما يقول الله تعالى اليتامى فهذا يعني الذكر والأنثى.

فكيف بربٍّ يمنعنا إعطاء الإناث أموالهن من قبل أن يبلغن النكاح ونأنس منهن رشدا، أن يبيح لنا نكاحهن؟ والمال يتعرّف عليه الصغيرات من قبل أن يتعرّفن على النكاح! فهل الله تعالى يناقض قوله بقول آخر؟ وهل يستطيع أيّ إنسان عاقل أن يزوّج ابنته وهي لم تبلغ بعد النكاح؟ فسماع هذا فقط يجعل جلودنا تقشعرّ وقلوبنا تشمئزّ. فهل نحن أرحم من الرحمان بعباده؟ أولم يقل في كتابه تعالى في سورة آل عمران30 [**وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ**]؟ وفي سورة البقرة143 [**إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ**]؟ وفي سورة النحل47[**إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ**]؟ والأمثلة كثيرة.

وعندما يُسأل أيّ شيخ هل فعلا الله تعالى أباح لنا نكاح الصغيرات؟ يجيب الجواب الذي عهدناه، دفاعا عن تفسير ليس له به علم من كتاب الله سبحانه، وانما اتباعا للظن كما قال تعالى في سورة النجم28[**وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا**] فيقول القول المعروف، وهو أن تعقد عليها ولا تدخل بها أي تجامعها، وهو لا يعلم بأن جوابه هذا يعارض ما جاء به القرآن في سورة البقرة236[**لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ**] يعني التي لم يُدخل بها لا عدّة لها، وانما العدة جُعلت للتي يدخل بها، وهذا ما يؤكده ما جاء في سورة الأحزاب49[**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا**] فالجواب الذي عهدناه إذًا، وتوارثه بعض الشيوخ هو باطل، إن زعموا بأن اللائي لم يحضن هن الصغيرات، وعدتهن ثلاثة أشهر كما هي عدة اللائي يئسن من المحيض، وذلك لأن العدّة هي للاتي دُخلن بهن.

لكن الكثير منا لا يتجرأ على إعادة النظر في فقه وتفاسير آبائنا، بدعوى أن كل ما عقلوه هو الحقيقة المطلقة، ولا يمكن لأيّ شخص كان من كان أن يعقل ما لم يعقلوه، وكأن الله تعالى اصطفاهم وحباهم بعقول تفوق بكثير الحقبة التي عاشوا فيها، ولهذا كان يتبرأ الأئمة الأربعة الأكثر شهرة بقولهم (لا تتبعوا قولنا حتى تعرفوا دليلنا)

فنحن سوف نبيّن بأن الله تعالى هو الرؤوف الرحيم، ولا يمكن لرحمان رحيم أن يبيح لنا أشياء ضد الإنسانية، ولو كان كذلك لما سمّانا بالإنسان، ولهذا وجب أن ندع جانبا ما قاله آباؤنا، ولنتدبر الآية بعقولنا، وبالقواعد الربانية التي جاءت داخل القرآن.

فالآية تقول[وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا] وكما نعلم هذه الآية جاءت في سورة الطلاق والتي تبدأ بقوله تعالى[يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ] وهنا كما نرى، السورة تتكلم عن النساء، وكلمة نساء هي جمع امرأة، وكلمة امرأة جذرها اللغوي هو فعل مرأ، فنقول مرأ الطعام يعني نضج فأصبح سائغا، لأن الطعام لا يمكن أن يكون سائغا إلاّ إذا طاب ونضج، ولهذا قال تعالى في سورة النبأ40[إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا] وهنا كما نرى، قال تعالى المرء ولم يقل الإنسان، وذلك لأن كلمة المرء تعني الإنسان الناضج والراشد، وهو الذي يُحاسب يوم القيامة، لأنه أصبح يميز بين الرشد والغي، وليس الذي لم يبلغ بعدُ النكاح ولم يرشد، ولا السفيه أي غير العاقل، وكلمة المرء هي دلالة على الذكر والأنثى، وعندما نعيّن الأنثى نقول المرأة كما هو الشأن لكلمة المؤمنين مثلا هي للذكر والأنثى، وعندما نعيّن الإناث نقول المؤمنات.

فعندما قال تعالى[إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ] فهو يتكلم سبحانه عن الراشدات والبالغات النكاح، وهن اللاتي يُطلّقن، فسورة الطلاق تتكلم عن المرأة، أي الراشدة والبالغة النكاح والناضج عقلها، والمسؤولة عن نفسها، وتتحمّل عواقب اختياراتها حتى يحقّ للرب محاسبتها، وتعلم ما هو النكاح وما هو الجنس، وبالتالي تعلم واجباتها وحقوقها كما قال تعالى في سورة البقرة228[وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ] وليكون كل هذا يجب أن تكون من اللائي يحضن.

فهل كل النساء يحضن؟ نعم عندما يبلغن النكاح، وهذا الذي فطر الله تعالى عليه المرأة، إلاّ عند حالات استثنائية ضئيلة جدا كمرض مثلا، والله تعالى لا ينزّل أحكاما لحالات قد تكون معدومة، بل لما هو قاعدة، لكن هناك نساء ينقطع عنهن دم الحيض في فترة معينة، وهي عند الحمل، وهذا الذي تكلم عليه تعالى وبيّنه وفصّله في أمثلة صرّفها في القرآن.

قال الله تعالى في سورة البقرة228[وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ] وهنا كما نرى، قال تعالى المطلقات يعني النساء كما جاء في سورة الطلاق، وهنا ذكر تعالى العدة التي هي القاعدة، والتي بواسطتها يتبيّن هل المطلقة حامل أم لا، ولهذا جاء تعالى بكلمة قروء، والكل يعلم باختلاف الصحابة في القرء، مع أن الله تعالى قال في سورة النساء82[أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا] وقال

كذلك في سورة الزخرف3[إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] ولهذا وجب علينا تدبر الكلمة باللغة العربية.

فكلمة قرء جذرها اللغوي هو فعل قرأ، فالقرء إذًا هي القراءة، وقد نقرأ حروفا وكلمات، وهذه العملية تسمّى قراءة، وقد نقرأ أرقاما، وهذه العملية تسمى عدًّ، فعندما قال تعالى[ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ] يعني وجب على المرأة أن تعدّ ثلاث مرات أيام طهارتها، أو أيام حيضها ليتبيّن هل هي حامل أم لا، ولهذا جاء تعالى بالآية التي نحن في صددها كتفصيل للمرأة التي تبيّن حملها.

فالله تعالى قال[وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ] وهنا كما نرى الله تعالى جاء بعدتين، ثلاثة أشهر ووضع الحمل، لكن سبب نزول الآية كما جاء به أهل التفسير، هو سؤالهم النبي ص عن ثلاثة أنواع من النساء، أي الصغيرات والكبيرات وأولات الأحمال، وبما أن الله تعالى بيّن عدتين فقط، فهذا دفعهم إلى جعل سياق الآية على الشكل التالي (واللائي يئسن من المحيض فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن) ثم بعد ذلك (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) فأضافوا اللائي لم يحضن إلى اللائي يئسن من المحيض حتى يكون لهما نفس العدة، لكن لو كان كذلك لكان أصحّ لغويا وليس شرعا، أن يقول تعالى (واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم واللائي لم يحضن عدتهن ثلاثة أشهر) أو على النحو التالي (واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر وكذلك اللائي لم يحضن) كما جاء به الذي ترجم القرآن إلى اللغة الفرنسية، والمترجمون الآخرون.

لكن الله تعالى أحكم آياته، وفصّلها وضرب وصرّف لنا الأمثال في القرآن حتى لا نُقوّله سبحانه ما لم يقل، فعندما قال تعالى[وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ] فهو جاء سبحانه بعدة النساء اللائي قد يتعذّر التأكد من بلوغهن سنّ اليأس، فإن نحن تأكدنا من ذلك فلا عدة لهن، وذلك لعدم استطاعتهن الحمل، ولهذا قال تعالى[إِنِ ٱرْتَبْتُمْ] ولهذا جعل تعالى عدتهن ثلاثة أشهر وليس ثلاثة قروء، وجعل سبحانه وضع الحمل هو عدة اللائي لم يحضن وأولات الأحمال، لأن المرأة عندما تحمل لا تحيض لمدة تسعة أشهر، والله تعالى قسّم هذه المدة إلى مرحلتين، والسبب في ذلك قد بيّنه تعالى في كتابه العزيز، ولو علمه الأطباء الذين لا يؤمنون بالله لآمنوا بأن القرآن هو من عنده، لأن هذه الآية تتحدث عن ما اكتشفه الطب في القرن العشرين.

فالله تعالى قال في سورة لقمان14[وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ] والكل يعلم بأن العام يتكون من اثني عشر شهرا (فعامين) إذًا دلالة على أربعة وعشرين شهرا، وقال تعالى في سورة الأحقاف15[وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا] وهنا قال تعالى[وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا] فإذا قمنا بعملية حسابية، يتبيّن بأن المدة التي خصّصها الله تعالى للحمل هي ستة أشهر فقط وليس تسعة كما نعلم، فلماذا هناك فرق ثلاثة أشهر بين الذي نعدّه نحن كمدة للحمل وبين الذي يعدّه سبحانه كمدة لذلك، والذي يُعدّ كلغز إلى يومنا هذا؟ لكن عندما نتدبر القرآن بقواعده ونقدر كلام الله تعالى حق قدره، نستطيع أن نبيّن سبب وجود ذلك الفرق.

فالله تعالى قال في سورة الحج5[يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى] وهذا الجزء من الآية يتحدث عن تطوّر الجنين من بدايته كنطفة حتى يصير مضغة، وحينذاك قال تعالى[مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ] يعني إنسانا كاملا بدون عيب أي مخلّقا، أو إنسانا كاملا لكن لديه عيب أي غير مخلق. فالإنسان قد يزداد بدون عيب أو بعيب، لكنه يزداد إنسانا وليس خلقا آخرا، وبعد ذلك قال تعالى[لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ] ثم تابع قائلا[وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى] فنحن لم ننتبه لقوله[لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ] يعني أن نتوقف ونتدبر قوله عز وجل، وهو أن الحمل عند الله تعالى ينقسم إلى مرحلتين، مرحلة تكوين الجنين حتى يصبح إنسانا، والمرحلة الثانية تبدأ عندما يقرّ الله تعالى الإنسان في الرحم، وعِلم الطب بيّن ذلك.

فأيّ طبيب اختصاصي في طب النساء، يعلم بأن تكوين الجنين يستمر اثني عشر أسبوعا، وهو ما يعادل ثلاثة أشهر، وفي الأسبوع الثالث عشر تكتمل جميع أعضاء الجسم ويصبح إنسانا كاملا، ومدة الستة أشهر الباقية هي لكبر حجمه فقط، وهذه المدة التي تدوم ستة أشهر هي مدة الحمل عند الله تعالى، وهي التي نعت بها النساء بأولات الأحمال، لأن الحمل الذي ذكره تعالى في كتابه يبدأ عندما يقرّ سبحانه الإنسان الحيّ في الرحم، ولهذا قال تعالى في سورة الأحقاف[وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ] وحرف الهاء هو ضمير متصل تقديره الإنسان، لأنه من قبل هذه المدة لم يكن إنسانا مكتملا بعدُ، وإنما جانّ، أي لا يُعرف ما هو كما جاء في سورة النجم32[وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ] ولم يكن مستقرا بعدُ في الرحم، ولهذا لم ينعت تعالى النساء في هذه المدة بأولات الأحمال، وإنما نعتهن باللائي لم يحضن، أي انقطع عنهن دم الحيض.

فالثلاثة أشهر الأولى، والتي تبدأ عند تكوين النطفة إلى أن يصير الجنين مضغة مخلقة أو غير مخلقة، أي إنسانا عاديا أو به عاهة، لا تعدّ حملا عند الله، وقد تكتمل هذه العملية حتى تصل إلى مضغة مخلقة أو غير مخلقة، وقد لا تكتمل، ولهذا يكون من السهل على المرأة أن تُجهض دون أن تكون هناك عواقب وخيمة، وذلك لأن الحمل لم يستقرّ بعد في الرحم، ولهذا نعت الله تعالى النساء في هذه المدة باللائي لم يحضن، أي اللائي انقطع عنهن الحيض بسبب بداية الحمل، أما الحمل عند الله تعالى، هو عندما تكتمل جميع أعضاء الإنسان، فيُقرّه تعالى في الرحم لأنه أصبح إنسانا كاملا وحيّا يُرزق، وبالتالي يحتاج للتغذية، ويكون ذلك بعد نهاية الشهر الثالث وبداية الشهر الرابع، وهذا ما أثبته علم الطب، وهذه المدة هي التي يكبر فيها حجم الطفل، ولهذا يصعب الإجهاض عندها لأن الجنين قد أقرّه الله تعالى في الرحم، ولهذا نعت تعالى النساء عند هذه المدة بأولات الأحمال، والتي تدوم ستة أشهر، ولهذا قال تعالى [وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا] أي حمل الإنسان الكامل وليس النطفة، ستة أشهر، وفصله عن الرضاعة التي تحرم نكاح الإخوة والأمّ من الرضاعة عند بلوغه أربعة وعشرين شهرا كما تبيّن في الفقرة السابقة، وهكذا لم يعد هناك أيّ لغز في عدة الشهور التي ذكر تعالى بالنسبة للحمل والفصل.

وهكذا يمكننا أن نتدبر قوله تعالى[وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ] وقوله كذلك [وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ] فالله تعالى جعل عدة المطلقة ثلاثة قروء، أي أن تعدّ ثلاث مرات متفرقات، إما أيام حيضها أو أيام طهارتها، والكل يعلم بأن كل امرأة تعلم وقت حيضها وعدة أيامه، ووقت طهارتها ومدتها، فإن نزل منها دم في أيام حيضها المعتادة بنفس المدة لثلاث مرات، وكانت أيام طهارتها كذلك كالمعتاد، فهي إذًا غير حامل، فتُسرّح سراحا جميلا، وإن لم ينزل منها دم في أيام حيضها لثلاث مرات، فهي من اللائي لم يحضن، وعدتها وضع حملها، وإن طُلّقت وقد تبيّن حملها، أي طُلقت من بعد الثلاثة أشهر الأولى، والتي تظهر فيها أعراض الحمل، فعدتها هي كذلك وضع حملها، ولهذا قال تعالى[وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ]

لكن الكل يعلم بأن أكثر من ثلاثين في المائة من النساء عند بداية حملهن في الثلاثة أشهر الأولى، ينزل منهن دم فيعتقدن بأنه دم حيض، فلا يعلَمن بأنهن في بداية الحمل حتى تمرّ ثلاثة أشهر، فيبدأ ظهور أعراض الحمل، ولهذا قال تعالى ثلاثة قروء، ولم يقل ثلاثة أشهر كما هو بالنسبة للائي يئسن من المحيض، يعني يجب على المرأة التي مازالت تحيض، بأن تتحرى إذا ما نزل منها دم بعد تطليقها، فتعدّ أيام نزول ذلك الدم، إن

وافق وقت وعدة أيام نزول دم حيضها لثلاثة مرات، فهو دم حيض وهي ليست حامل، وإن لم يوافق نزول ذلك الدم وقت أو عدة أيام حيضها، فهو دم بداية الحمل، فهي إذًا من اللائي لم يحضن وأجلها أن تضع حملها.

فكما نرى، عندما نتدبر كتاب الله تعالى بالقواعد التي بداخله، ونتجرد من كل تقديس، سنعترف بأن آباءنا ما كانوا ليعقلوا ما نستطيع أن نعقله نحن في القرن الواحد والعشرين، وهذا شيء طبيعي، وغير الطبيعي هو أن نظن بأنهم عقلوا كل شيء، ولا يمكن لأحد أن يعقل أحسن منهم، ولهذا عندما قال تعالى في سورة البقرة170 [وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ] تابع سبحانه قائلا [أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ]

فلكي لا نسيء الظن بالرب الرحمان الرحيم، وننُسب إليه ما لم يُنزل به من سلطان، وبالتالي نجعل الناس تصدّ عن سبيل الله بزعمنا بأن الله سبحانه أباح لنا نكاح الصغيرات، ورضاعة الكبير، ورجم المرأة، وقتل القاتل، وسبي النساء، وبتر يد السارق، وطاعة المرأة لزوجها كما لو أنه ربّها، وضربها (بلسان العرب) وما غير ذلك من الأشياء التي تدفع الإنسان لكره دين الإسلام، الذي أنزله الله تعالى هدى ورحمة وبشرى للمسلمين والمؤمنين، كما جاء في سورة النحل89 [وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ] وفي سورة يوسف111 [مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] وجب علينا أن لا نستمر في اتخاذ القرآن مهجورا، ونتجرد من كل تقديس وتعظيم لأقوال الذين من قبلنا، فنعيد تدبر القرآن بالقواعد التي جعل تعالى بداخله.

ملاحظة: الكل يعلم بالاختلافات التي وقعت بين الصحابة في عدة الحامل المتوفى زوجها، فهناك من قال بأن عدتها تنتهي بوضع حملها، وإن كان ذلك قبل انتهاء العدة التي وضعها تعالى للأرملة، أخذًا برواية سُبيعة الأسلمية مع أبي السنابل، وهناك من قال بأن عدتها هي أقصى الأجلين، بمعنى إذا وضعت حملها قبل مضيّ أربعة أشهر وعشر تستمر في عدتها حتى نهايتها، وإن انتهت العدة ولم تضع حملها وجب عليها الانتظار حتى تضع حملها.

فهل الله تعالى لم يُصدقنا القول عندما قال في سورة النحل89 [وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ]؟ وكذلك في سورة يوسف111 [مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ]؟ أم وجب علينا تقديس ذلك الاختلاف وجعله ركنا أساسيا من أركان الفقه؟ أولم

يقل سبحانه في سورة النحل69[وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ]؟ أم القرآن ليس من عند الله كما قال تعالى في سورة النساء82[أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا]؟

بلى هو من عند الله تعالى، وبالتالي لا يمكن أن يكون هناك اختلاف في أحكامه، لأنه بيّن كل شيء سبحانه، وفصّله تفصيلا، وكل ما وجدت اختلافا في حكم من أحكام الله تعالى، فاعلم بأنه ناتج عن فهم خاطئ لكلام الله سبحانه، ولهذا وضع تعالى القواعد لتدبره وأحكم آياته، فآباؤنا رحمهم الله خلطوا بين عدة المطلقات وعدة الأرامل، وهذا لا يصحّ.

فعدة المطلقة تكون للمرأة التي جامعها زوجها، فإن لم يجامعها فلا عدة لها كما جاء في سورة الأحزاب49[يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا] والسراح هو عندما يحقّ للمرأة أن تنكح زوجا آخرا، أما الطلاق فهو المدة التي يجب على المطلقة التأكد من عدم حملها بولد من بعلها وليس زوجها، لأنه لا يحق له أن يجامعها أثناء هذه المدة، ولهذا نعت الله تعالى طليقها بالبعل، ولهذا عندما قال تعالى في سورة البقرة 228[وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ] تابع سبحانه قائلا [وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَـٰحًا] فإما أن تكون من اللائي يحضن فيسرحها بعلها سراحا جميلا، وإما أن تكون من اللائي لم يحضن، أو بلغت مرحلة أولات الأحمال، فتنتظر حتى تضع حملها، ولهذا قال تعالى في سورة الطلاق4[وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ] وما جاء في هاتين الآيتين من أحكام هو خاص بالمطلقات، ولا علاقة لحكم المطلقات بحكم الأرامل، لأن المطلقة بعلها حيّ يرزق، فبالتالي أوجب الله تعالى عليه إعالتها أثناء عدتها لتبرئة رحمها، وإعالتها إلى حين وضع حملها إن تبيّن ذلك، ولهذا قال تعالى في سورة الطلاق1[يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا] وقال تعالى في سورة الطلاق6[أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُو۟لَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ

أُخْرَىٰ] وجعل الأحقية للبعل في ردّها إن كانت تحمل ولدا منه، ولهذا عندما قال تعالى في سورة البقرة228[وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَاخِرِ] تابع سبحانه قائلا[وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا]

أما الأرملة، فزوجها لم يطلقها، وإنما توفي وهي مازالت زوجه، وأصبحت مسؤولة على نفقتها بعد وفاته، لكن الله تعالى برحمته التي نسخها آباؤنا، جعل لها وصية كفريضة على المتوفى، والتي لا علاقة لها بالعدة بقوله عز وجل في سورة البقرة 240[وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] يعني يحق للأرملة المكوث في بيت أهل زوجها لمدة عام ينفقون عليها دون أن يطردوها، ولهذا قال تعالى[وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ] إلا إذا هي تركته بمحض إرادتها قبل إتمام الحول، ولهذا تابع تعالى قائلا[فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ] لكن العدة التي جعلها تعالى للمتوفى زوجها، وجب على هذه الأخيرة أن تحصيها، وليس لها في ذلك أيّ اختيار، وهي العدة التي يحرم على الأرملة أن يعقد عليها زوج آخر، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة234[وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ] وهنا كما نرى، قال تعالى[يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ] ولم يقل [وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم] لأنه يتكلم عن العدّة الواجب إحصاؤها، كما هو الشأن للمطلقات، وهذه العدّة لا علاقة لها بالحمل ولا بوضعه، ولكن جعلها تعالى كمدة لكي تحلّ لزوج آخر، لأن زوجها لم يطلقها، وذلك لأن أربعة أشهر هي عدة الأشهر الحرم كما جاء في سورة التوبة36[إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ] والعشرة أيام هي كذلك عدة الأيام الحرم التي جعلها تعالى لقضاء مناسك الحج كما جاء في سورة الفجر1[وَٱلْفَجْرِ2وَلَيَالٍ عَشْرٍ] والتي يُحرم فيها الصيد كما جاء في سورة المائدة95[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ] ويحرم فيه كذلك الرفث إلى النساء كما جاء في سورة البقرة197[ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ] ولا علاقة لوضع حملها بعدتها، سواء وضعت قبل إتمام العدة أو بعدها، لأنها ليست كالمطلقة التي إن علم بعلها بحملها وجب عليه الإنفاق عليها حتى تضع حملها، ولوكان غير هذا لبيّنه تعالى في كتابه وهو أعلم العالمين.

والله هو العليم الحكيم الخبير.

لفروجهم حافظون

قال الله تعالى في سورة المؤمنون1[قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ2ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ3وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُون4وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ5وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ6إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ] يجب أن نعلم بأن كل ما أردنا تدبر آيات الله تعالى إلاّ ووجب علينا أن نلتزم بالقواعد التي وضع سبحانه في كتابه، وبالتالي لا يحق لنا أن نضيف شيئا من عندنا، أو نستثني ولو حرفا واحدا من كلمات الآية، ونجعل تدبرنا للقرآن يخضع للسان العربي، وليس للسان العرب كما وقع في هذه الآية التي نحن في صددها وجلّ آيات الكتاب، ولهذا قال تعالى في سورة هود1[الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ] يعني أن الله تعالى جعل سياق آياته بطريقة محدّدة ومعيّنة، وذلك بجعل كلماتها ذات دلالات بيّنة، ولا يمكن لكلمتين مختلفتين أن تكون لهما دلالة واحدة، ولا يمكن لكلمة واحدة أن تكون لها أكثر من دلالة، حتى لا يكون كتابه قرآنا ذا عوج فيصير كرجل فيه شركاء متشاكسون ، ولكن ليكون كتابه قرآنا غير ذي عوج كرجل سلما لرجل، ولهذا أتينا بهذه الآية لنبيّن مدى أهمية الانتباه لتركيب الكلمات وصياغها في الآية القرآنية، والذي لم ينتبه إليه آباؤنا ونقلناه نحن دون أن نعقله.

فالله تعالى قال في أول السورة[قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ] وهنا يتحدث تعالى عن المؤمنين الذين أفلحوا، والكل يعلم بأن كلمة المؤمنين تعني الرجل المؤمن والمرأة المؤمنة، ثم تابع قوله سبحانه بوصفه لهؤلاء حتى قال[وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ6إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ] ولم يأت تعالى بأيّ شيء يدلّ على استثناء النساء، لكن أسلافنا استثنوا النساء، لأنهم اهتموا بقوله تعالى[مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ] ظنا منهم أن الله عز وجل يتكلم عن العبيد وبما أن المرأة لا يمكن أن يجامعها زوجها و(العبيد) فبديهيا وجب استثناء النساء من قوله تعالى[وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ] فهل الله تعالى نسي أن يأتي بشيء يدلّ على ذلك؟ أولم يحكم آياته؟ بلى وهو الحكيم الخبير.

الكل يعلم بأن كل اللغات لها سياقها، وكذلك اللغة العربية، ولهذا قال تعالى في سورة الشعراء193[نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ194عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ 195بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ] وقال كذلك في سورة مريم97[فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا

لُدًّا] وقال كذلك في سورة الدخان58**[فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ]** فآباؤنا لم يفرّقوا بين عبارة - لفروجهم حافظون - وعبارة - على فروجهم يحافظون -

فعندما نقول في اللغة العربية مثلا زيد يحفظ ماله، فهذا يعني أنه يفعل أسبابا حتى لا يُسرق ماله أو يتلف، أي يُقام عليه فعل ما، فهو إذًا لماله حافظ، ولهذا قال تعالى في سورة يوسف12**[أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ]** يعني أنهم سيحفظون أخاهم من أيّ فعل يقام عليه، يعني لا يؤذى، ولهذا قال تعالى كذلك في سورة الحجر9**[إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ]** يعني أن الله تعالى يحفظ الذكر من أن يُلقى فيه من طرف الشيطان، وهذا ما بيّنه سبحانه في سورة الحج52**[وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ]** أو أن يُحرَّف من طرف البشر، ولهذا قال تعالى في سورة هود1**[الٓر كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ]** فالله تعال حفظ القرآن من أن يُحرَّف، أي يُقام عليه الفعل، وليس من أن يُستعمل القرآن في فعل ما، ولهذا قال تعالى**[وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ]** ولم يقل -وانا عليه لمحافظون- لأن هذه العبارة لها سياق آخر، فنقول في اللغة العربية، زيد يحافظ على ماله، يعني أن زيدا لا يستعمل ماله في ما لا يفيده ولا ينفعه وقد يضره، ولهذا قال تعالى في سورة المؤمنون9**[وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ]** يعني الذين لا يضيعون أوقات الصلوات الخمس كما جاء في سورة النساء103**[إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا]** ولم يقل -لصلواتهم حافظون-

فعندما قال تعالى**[وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ]** ظن آباؤنا بأن الله تعالى يعني الذين لا يستعملون فروجهم إلا مع أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، ولو كان كذلك لقال سبحانه -والذين على فروجهم يحافظون- ولكن بما أن الله تعالى أحكم آياته فهو قال سبحانه**[وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ6إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ]** يعني المؤمنون الذكر منهم والأنثى الذين يحفظون فروجهم لكي لا ترى إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم **[فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ]** والنساء لهن كذلك ما ملكت أيمانهن.

فالمؤمن لا يبدي فرجه إلاّ لزوجه أو ما ملكت يمينه، والمؤمنة لا تبدي فرجها إلاّ لزوجها أو ما ملكت يمينها، وبما أن الله تعالى أحكم آياته ثم فصّلها، فهو سبحانه فصّل هاتين الآيتين في قوله تعالى:

بالنسبة للرجال في سورة النور30**[قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أبصرهم وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ]** وهنا كما نرى، قرن تعالى الغض من البصر

مع حفظ الفرج، وليس غض البصر مع الحفاظ على الفرج، يعني أن الله تعالى أمر رسوله أن يقول للمؤمنين بأن يقلّلوا من النظر عند دخول بيوت الآخرين، ولا يُحدّقوا أي لا يتجسّسوا وليس بأن لا ينظروا، ولهذا قال تعالى[يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ] وليس -يغضوا أبصارهم- ولا يبدوا فروجهم عند وجودهم في بيوتهم لينُظر إليها، وليس بأن لا يستعملوها فيما حرّم الله تعالى، ولهذا تابع تعالى قائلا[وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ] يعني يكونوا لفروجهم حافظين، ولم يقل -يحافظون على فروجهم- يعني - على فروجهم يحافظون-

وبالنسبة للنساء في سورة النور31[وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] وهنا كما نرى نفس الشيء، أمر تعالى رسوله أن يقول للمؤمنات بأن يغضضن من أبصارهن، وليس بأن يغضضن أبصارهن، ويحفظن فروجهن أي لفروجهن حافظات كما جاء في سورة الأحزاب35[وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ] وليس على فروجهن يحافظن، وفي هذه الآية ذكر تعالى أقارب المرأة لأنه يتحدث عن المرأة في بيتها كما هو الشأن للرجل في بيته، والتي تكون معرّضة لخلع ثيابها، فهو وضع لها حدودا بالنسبة لأفراد عائلتها والذين قد يمكثون معها في البيت، ولهذا قال تعالى[وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ] وكما تبيّن في فقرة <فعل ضرب> بأن دلالة فعل ضرب هي جعل الشيء عكس ما هو عليه، فعندما قال تعالى[وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ] فهذا يعني لا يرفعن أرجلهن إلى الأعلى، لأن المرأة عندما تجلس أو تضّجع، توجه رجليها إلى الأسفل، وإذا ضربت بهما، أي رفعتهما إلى الأعلى، قد تظهر زينتها التي تخفي تحث ثيابها، وهذا كان يقع في عهد محمد ص لأن الرجال والنساء لم يكن لديهم آنذاك الثياب الداخلية كالتي موجودة في أيامنا نحن، وكانت بيوتهم عورة، أي لا تتوفّر على الأبواب كما هي بيوتنا اليوم، ولهذا قال تعالى [قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ] وكذلك[وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ] ولم يقل -يا أيها المؤمنون- وذلك لعلمه سبحانه بأن الوضع سيتغير على ما كان عليه.

فهاتان الآيتان في سورة النور لا علاقة لهما كذلك باستعمال الفرج، كما هو الحال بالنسبة للرجال والنساء، ولا علاقة لهما بخارج البيت، لأن الرجل والمرأة لا يُظهران فرجهما خارج البيت ولكن داخله ، فالمرأة يظهر على فرجها زوجها وما ملكت

يمينها، كخادمتها التي تخدمها في بيتها، والتي قد تقوم بغسل جسدها، أو تعالجها أو تغيّر ثيابها لأنها امرأة مثلها، والرجل كذلك يظهر على فرجه زوجه وما ملكت يمينه، كخادمه كذلك في بيته، والذي قد يغسل جسده هو الآخر، أو يعالجه أو يغيّر ثيابه، ولهذا قال تعالى في سورة النور58[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ]

فكما نرى، الله تعالى أمر الرجال والنساء بحفظ الفرج، أي ستره وعدم إظهاره، وليس الحفاظ على الفرج، أي استعماله في ما لا يرضي الله تعالى، والذي نهى عنه سبحانه بقوله في سورة الفرقان68[وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا] ولهذا قال تعالى [وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ] وليس -على فروجهم يحافظون- ولهذا استثنى تعالى أزواج الرجال والنساء وما ملكت يمينهم، كما تابع قائلا[إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ] وهكذا يتبيّن مدى أهمية تدبر القرآن بالقواعد الربانية حتى لا نسيء فهم آيات الله، فنستثني ما لم يستثنه سبحانه أو نضيف ما لم ينزل به تعالى من سلطان، وبالتالي ننسب إليه عز وجل ما ليس من عنده.

والله هو العليم الحكيم الخبير.

ألف سنة إلا خمسين عاما

قال الله تعالى في سورة العنكبوت20[قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ] فهنا كما نرى، الله سبحانه يخبرنا بالطريقة التي نستطيع أن نعلم بها كيف بدأ تعالى خلق الكون ومن فيه، وذلك بالبحث تحت الأرض، وعلى سطحها ومن فوقها، وفي سائر أنحاء العالم، وهذا ما يقوم به علماء الأثريات، والحفريات والجيولوجيا، والأنثروبولوجيا وإلى ما غير ذلك من العلوم التي تهتم بكيفية خلق الكون والإنسان. وبالاطلاع على نتائج هذه العلوم وتدبر القرآن بالقواعد التي بداخله، يمكن أن نتعرف على المدة الحقيقية التي لبثها نوح في قومه يدعوهم للإسلام، وليس كما قرأنا في كتب أسلافنا، والتي كان مؤلفوها يعتمدون على روايات أهل الكتاب التي تناقض كل العلوم والفطرة التي فطر الله تعالى عليها الإنسان، وهي المدة الزمنية المنطقية التي يعمرّها البشر، وقد تزيد هذه المدة أو تنقص على ثلاثين سنة أو أقل أو أكثر، وذلك حسب نوعية حياة الإنسان والحقبة التي يعيش فيها، وقد تصل هذه المدة الزمنية التي يعمرّها، أي الأجل المسمى وليس الأجل كما قال تعالى في سورة الأنعام2[هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ] إلى مائة وخمسين سنة عند أطول الحالات، وهي نادرة جدا، وقد لا تتجاوز المائة حالة في العالم.

فالله تعالى قال في سورة العنكبوت14[وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ] وهنا يتحدث سبحانه عن مدتين، المدة التي استغرقها نوح يدعو فيها قومه للإيمان بالله، وهي المدة الزمنية التي صنع فيها السفينة، ولهذا استعمل تعالى كلمة سنة، وهي كما بيّنا دلالة على المدة الزمنية فقط، ولهذا قال تعالى[أَلْفَ سَنَةٍ] ثم تابع قائلا[إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا] وبما أن كلمة عام في القرآن دلالة على المدة الزمنية التي يتغيّر عندها شيء في حياة الإنسان أو تتوقف حياته، وبما أن الطوفان جاء من بعد هذه المدة وعاش نوح من بعد ذلك، فهذا يعني بأن شيئا ما تغيّر في حياة نوح عند هذه المدة الثانية، والتي كانت قبل الطوفان، وهو أن نوحا أصبح رسولا عندما بلغ خمسين عاما، فقد تغيرت حياته من إنسان عادي إلى رسول، وبالتالي خرج من الضلالة إلى الهدى، كما هو الشأن لمحمد ص كما جاء في سورة الضحى7[وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ] ولهذا استثنى تعالى هذه المدة الزمنية لعمر نوح

من تلك التي ظل يدعو فيها قومه، فهو أرسله تعالى إلى قومه عندما كان عمره خمسين عاما، ولبث فيهم ألف سنة، ولهذا أخذنا المثال من قبل بمحمد ص، فهو لبث في قومه ثلاث عشرة سنة إلاّ أربعين عاما فهاجر إلى المدينة، وعاش عشر سنوات من بعد ذلك حسب ما علمنا من كتبنا، لكننا لا نعلم كم عاش نوح من بعد الطوفان.

لكن لماذا قال تعالى[أَلْفَ سَنَةٍ]؟ فهل نوح فعلا لبث في قومه ألف سنة، أو تسعمائة وخمسين سنة حسب روايات أهل الكتاب وآبائنا؟ فهل نوح لم يفطره الله تعالى على ما فطر علية الإنسانية جمعاء؟ أم الله تعالى خاطبنا بكلام لا نستطيع فهمه؟ فما جدوى وجوده داخل الكتاب إذًا؟ أولم يقل سبحانه في سورة النحل89 [وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ] وكذلك في سورة يونس111 [لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ]؟ أليس هذا بكافٍ لكي نبحث في كتابه تعالى ونتدبره لكي نعلم ماهي المدة الزمنية الحقيقية التي لبثها نوح في قومه، والتي لا يمكن أن تخالف الفطرة التي فطر سبحانه عليها الإنسان؟

فلكي نعلم كم هي هذه المدة التي نعتها تعالى بألف سنة، يجب أن نبحث داخل القرآن، ونستعين بما اكتشفه الذين ساروا في الأرض فنظروا كيف بدأ الله الخلق، كما أمر تعالى في كتابه وهو أعلم العالمين.

فهناك آية في القرآن وأخر مثلها تتحدث عن بداية الخلق، وكيف كانت عاقبة المجرمين ونهاية الخلق، لا يمكن لأيّ أحد أن يتدبرها بالقواعد القرآنية فقط، وإنما بالاستعانة بما توصل إليه البشر عن طريق البحث في الأرض، ومن هذه الآيات قوله تعالى في سورة الإسراء12 [وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا] فهنا كما نرى، قال تعالى[وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ] وكلمة آية تعني علامة تدلك على معرفة الشيء، فالآية تخبرنا بأن الليل والنهار كانا يُعرفان بعلامتين غير اللتين نعلمهما نحن اليوم، يعني أن الليل لم يكن يُعرَف بالسكون والنوم، والنهار لم يكن يُعرَف بالنشور ولهذا قال تعالى[فَمَحَوْنَآ] ولم يقل فنسخنا، لأن دلالة فعل نسخ هي إزالة الشيء من الوجود كلّيا، ودلالة فعل محا هي تغيير طريقة معرفة الشيء أي آيته.

فالليل والنهار أوجدهما تعالى منذ أن خلق الأرض، لكن الطريقة التي كان يتعرّف بها الإنسان على وقت نومه ووقت استيقاظه، ليست هي نفس الطريقة التي نتعرّف

بها عليهما نحن، وهي أن بداية النهار الذي ننتشر فيه هي عند طلوع الشمس، وبداية الليل الذي ننام فيه هي عند غروبها، ولهذا قال تعالى في سورة الفرقان47[وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا] وبما أن الله تعالى قال في سورة الأنعام67[لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ] يعني أن كل نبأ جاء به القرآن سوف يقع وسوف نعلمه. ولو علم بهذه الآية التي تتحدث عن تغيّر علامتي الليل والنهار العلماء الذين ساروا في الأرض لينظروا كيف بدأ الله الخلق، وكيف كان سطح الأرض في عهد نوح، لآمنوا بأن القرآن من عند الله تعالى وأن الذي بلّغه هو رسول الله.

فلكي نعلم لماذا غيّر تعالى علامتي الليل والنهار ليجعلهما على ما هما عليه الآن، وما علاقة هذا بالمدة الزمنية التي لبثها نوح في قومه وهي ألف سنة، يجب أن نتعرف على أشياء مهمة من قصة نوح من داخل القرآن.

فالله تعالى قال في سورة الشعراء106[إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ] وفي الآية 124[إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ] وفي الآية142[إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ] وفي الآية162[إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ] وفي سورة هود84[وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا] وكما نرى، في كل هذه الآيات استعمل تعالى كلمة أخوهم بالنسبة لنوح وهود وصالح ولوط وشعيب، ولم يستعمل سبحانه هذه الكلمة مع أيّ رسول أو نبي من بعدهم، وذلك لأن في عهدهم لم يكن إلاّ قوما واحدا ولغة واحدة، ولم تكن بعد أيّ ملة، وكلمة قوم جذرها اللغوي هو فعل قام، فكلمة قوم إذًا دلالة على مجموعة من الناس تقيم في منطقة محدّدة وتتكلم نفس اللغة، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة54 [وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ]

وكما يعلم الجميع أن أول لغة استعملها البشر هي اللغة السومرية، وكانت لغة نوح وقومه، ثم بعد ذلك بدأت تكثر الأقوام شيئا فشيئا حتى ظهرت اللغة السريانية، وهي لغة إبراهيم، ثم بدأت تتطور هذا اللغة مع تطور الإنسان واختلاط الأقوام حتى ظهرت اللغة العبرية، وهي لغة موسى، ثم وقع نفس الشيء حتى ظهرت اللغة الآرامية، وهي لغة عيسى، ووقع نفس الشيء كذلك عندما اختلطت الأقوام في مكة، ولهذا نعتهم تعالى بقريش، فظهرت اللغة العربية، وهي لغة محمد ص، ولهذا كلما ظهرت لغة جديدة وكثر القوم الذين يتكلمون بها، أرسل الله تعالى رسولا بتلك اللغة، ولهذا قال تعالى في سورة الشورى13[شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ] وهنا كما نرى، بيّن

تعالى انه كل ما ظهرت لغة جديدة يتكلم بها كثير من الناس يُرسل رسولا بتلك اللغة لينذر قومه.

ففي عهد نوح إذًا لم يكن هناك إلا قوما واحدا، وقال تعالى في سورة المؤمنون29 [وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ30إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ31ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ] فهنا الله تعالى يتكلم عن الحقبة التي جاءت من بعد الطوفان، فقال[ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ] ولهذا استعمل تعالى حرف العطف <ثم> وذلك دلالة على الترتيب والتراخي في الزمان، وهذا التراخي قد يطول إلى آلاف السنين وقد يقصر، وبعد حرف العطف <ثم> استعمل سبحانه فعل نشأ، يعني أوجد أشياء لم تكن موجودة من أشياء كانت موجودة، كما جاء في سورة المؤمنون14[ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ]

فعندما قال تعالى[ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ] يعني أوجد ما لم يكن موجودا مما هو موجود، وكلمة قرن جذرها اللغوي هو فعل قرن، يعني صاحب بطريقة ملتحمة ولهذا قال تعالى في سورة الزخرف36[وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ] يعني من يعش عن ذكر الله يجعل له شيطانا يصاحبه ولا يفارقه حتى موته، فكلمة قرن تدل على مجموعة قرى، أي بلدان موجودة في نفس البقعة الأرضية وليس بينهم ما يفصلهم كنهر أو بحر، ولهذا قال تعالى[قَرْنًا ءَاخَرِينَ] ولم يقل -قرنا آخرا- وهذا ما نعرّفه نحن بالقارة، يعني أنه في عهد نوح لم يكن هناك بعد القارات الخمس، ولكن كانت الأرض عبارة عن قارة واحدة، لكن عندما جاء الطوفان انقسم سطح الأرض إلى قسمين، فتكونت قارة أخرى، ولهذا قال تعالى[قَرْنًا ءَاخَرِينَ] وأصبح هناك أنهار، وبحر يفرّق بين القارتين، ولهذا قال تعالى في سورة القمر11[فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ12وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ] لكن في نفس السورة أي سورة المؤمنون في الآية41 قال تعالى[فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ42ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ] وهنا كما نرى، قال تعالى [ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ] ولم يقل (قرنا آخرين) يعني أن الأرض أصبحت تتكون من أكثر من قارتين، بمعنى أن الأرض كانت عبارة عن قارة واحدة، ثم انقسمت إلى قسمين من بعد الطوفان، وبذلك تكونت قارة أخرى، ثم من بعد الصيحة انقسمت مرة أخرى فأصبح هناك أكثر من قارتين، ولهذا قال تعالى[قُرُونًا ءَاخَرِينَ] وليس -قرنا آخرين-

والآن بما أننا نعلم بأن في عهد نوح لم يكن آنذاك إلاّ قوما واحدا على وجه الأرض، وكانت الأرض عبارة عن قارة واحدة، فأين كانت إذًا مجموعة ومقرونة كل هذه القارات التي نعرفها اليوم، وبدأ إنشاؤها بسبب الطوفان في أول الأمر؟

فالكل يعلم بأن اليوم الذي نعرفه نحن يدوم 24 ساعة، فالنهار يدوم 12 ساعة والليل كذلك، لكن كلما اتجهنا نحو القطب الشمالي أو الجنوبي، إلا وطالت المدة الزمنية لليل والنهار حتى تصل إلى 6 أشهر، فالقطب الشمالي مثلا تشرق هناك الشمس لمدة 6 أشهر وتغرب لنفس المدة، فيكون اليوم بالعلامة التي نعرف نحن والتي ذكرها تعالى في سورة النمل86 [أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] مدته سنة، وبه نعدّ المدة الزمنية، ونتعرف على عدد السنين كما جاء في سورة يونس5 [هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ] فيوم في القطب الشمالي أو الجنوبي يدوم لمدة سنة حسب الآيتين اللتين نعرف بهما الليل النهار، والذي يستغرق تعاقبهما 24 ساعة.

فنوح عليه السلام كان يعيش في القطب الشمالي، ولم يكن النهار يُعرف آنذاك بشروق الشمس والذي ينتشر فيه الناس، والليل بغروبها والذي يسكن فيه الناس، ولكي يستطيع الإنسان أن يفرّق آنذاك بين وقت النوم، ووقت الاستيقاظ طوال الستة أشهر التي تغرب فيها الشمس، وطوال الستة أشهر التي تشرق فيها، جعل تعالى حينها علامتين، أي آيتين يعرف بهما الإنسان وقت النشور، ووقت السكون والنوم أثناء كل مدة، ولهذا قال تعالى[وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ] ثم عندما أنشأ تعالى قرونا آخرين، غيّر سبحانه تلكما العلامتين ليجعلهما بالطريقة التي نعرفها نحن، ولهذا قال تعالى [فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا] فأصبح وقت نشورنا مرتبط بالإبصار، أي طيلة شروق الشمس، والذي يدوم 12 ساعة بدل 6 أشهر، ووقت سكوننا ونومنا مرتبط بالظلام، أي طيلة غروبها، والذي يدوم هو كذلك 12 ساعة بدل 6 أشهر.

فبما أن الله تعالى غيّر علامتي الليل والنهار على ما كانتا عليه في وقت نوح، وبما أن بمفهومنا نحن، اليوم يتكوّن من ليل ونهار ويدوم 24 ساعة، فهو عندما قال تعالى في سورة العنكبوت14 [وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ] أخبرنا عن المدة الزمنية بالطريقة التي نعدّها نحن، أي اليوم الذي يدوم 24 ساعة، والذي هو سنة بالنسبة للقطب الشمالي الذي كان يقطنه نوح وقومه.

فعندما قال تعالى[أَلْفَ سَنَةٍ] فهذا يعني ألف يوم، لأن الليل يدوم في القطب الشمالي 6 أشهر والنهار كذلك، وهو ما يعادل يوما حسب ما نعرف به علامتي الليل والنهار. وأيّ شخص يمكن أن يبحث بواسطة الإنترنيت عن قائمة الملوك السومريين الذين حكموا قبل الطوفان وبعده، فسيجد بأن حساب المدة الزمنية آنذاك كانت تُعدّ بالألف سنة، فهناك ملك مثلا حكم لمدة 36000 سنة، وهو ما يعادل 36000 يوما، أي 98 سنة تقريبا بمفهومنا اليوم، وبالطريقة التي نحسب بها عدد السنين، وكان النهار آنذاك يُسمّى - سار-، والليل يسمّى - نير - وهذا كله موجود داخل القائمة التي عثروا عليها في العراق، وكلما طالت القائمة واقتربت الحقبة إلى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، إلا وتغيّر حساب المدة الزمنية حتى طابق الذي نعرفه نحن في أيامنا هذه، فمثلا الملك (أورنمو) حكم لمدة 18 سنة، وكان ذلك في القرن الواحد والعشرين قبل الميلاد، وهذا دليل على انقسام الأرض إلى قارات وابتعادها عن القطب الشمالي مع تقدم الأزمنة.

فنوح إذًا أرسله تعالى إلى قومه عندما بلغ من العمر خمسين عاما، واستغرقت مدة دعوته ألف سنة، والتي تعادل ألف يوم حسب ما نعرف به الليل والنهار، وهو ما يعادل سنتين وتسعة أشهر وعشرة أيام، وهي المدة التي احتاجها نوح كذلك لصنع السفينة، وهكذا يمكن أن نعرف كم كان عمر نوح عندما وقع الطوفان، وهو - اثنان وخمسون سنة وتسعة أشهر وعشرة أيام - لكن لا أحد يستطيع أن يعلم كم عاش نوح من بعد الطوفان، لأن الله تعالى لم يخبرنا بذلك في كتابه.

لكن لماذا القول بأن نوحا عاش في القطب الشمالي وليس القطب الجنوبي؟ فذلك لسببين، أولهما ما عثر عليه علماء الحفريات في القطب الشمالي والقارة الأمريكية، فقد عثر علماء من كندا على بقايا جَمَل في القطب الشمالي يرجع تاريخها إلى ملايين السنين، وقد احتاروا في وجود هذه البقايا في منطقة جليدية، مع العلم بأن الجمل يعيش في المناطق الصحراوية، ووجدوا كذلك بقايا أشجار كشجر النخل ذات جذوع طويلة ولا تنبت إلاّ في المناطق الحارة، وهذا يدلّ على أن القطب الشمالي كان عبارة عن منطقة صحراوية.

و السبب الثاني هو ما أنبأ به الله تعالى في آيات عدة، ولو علم هؤلاء العلماء بما هو موجود داخل القرآن من أنباء، لعلموا بأن القطب الشمالي لم يكن على ما هو عليه الآن، وإنما كان عبارة عن منطقة حارة، ثم تغيرت إلى منطقة جليدية من بعد الطوفان، والذي أدّى لوجود آثار لحيوانات بحرية منقرضة في مناطق برية بالولايات المتحدة كنيوجرسي مثلا.

فمن هذه الأنباء ما جاء في سورة هود38[وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ] وهنا كما نرى، سخِر قوم نوح من صنعه للسفينة، وذلك لوجودهم في منطقة صحراوية ولا يوجد فيها بحر بعدُ، لأنها كانت عبارة عن قرن واحد ولم تُفجّر بعد الأنهار، ثم بعد الطوفان أنشأ الله تعالى قرنا آخرين، وبالتالي فُجِّرت الأنهار وأصبح البحر يفرّق بين القارتين كما جاء في سورة القمر11[فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ12وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ13 وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ] ولهذا قال تعالى في سورة المؤمنون31[ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ]

وقال كذلك في سورة نوح10[فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا11يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا12وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا] والكل يعلم بأنه عندما يكون نقص في الأمطار، نقيم صلاة الاستسقاء حتى يرحمنا ربنا فنستغفره وندعوه، وهذا ما قاله نوح لقومه لكي تتساقط عليهم الأمطار، وذلك لأن المنطقة كانت حارة، ولم تكن هناك جنات ولا أنهار كما بيّنه تعالى في الآية، وهذا كله دليل على أن القارات كانت كلها متلاصقة ومتلاحمة في القطب الشمالي، وكان المناخ حارا آنذاك، وكان الطوفان هو السبب في إنشاء أول قارة وتغيير المناخ في القطب الشمالي، والسبب في انقراض كثير من الحيوانات البرية كفيلة الماموث مثلا والتي ماتت بالغرق، وهذا لعظمة وقوّة ذلك الطوفان، ولذلك قال تعالى في سورة هود41[وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرۭىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ42وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ] وكلمة الجبل جذرها اللغوي هو فعل جبل يعني ضخُم وعظُم، فهنا بيّن سبحانه عظمة ذلك الطوفان، والذي ليس كالطوفان الذي أرسله تعالى لقوم فرعون.

و قال تعالى في الآية44[وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ] وهنا كما نرى، أمر تعالى الأرض ببلع مائها، يعني لم يعد هناك ماء على سطح الأرض، ثم أمر تعالى السماء بالتوقف عن إنزال الماء، ثم قال تعالى[وَغِيضَ ٱلْمَآءُ] وكلمة غيض جذرها اللغوي هو فعل غاض، فنقول غاض الماء يعني نقص وقلّ، فإن كان قد أمر الله تعالى الأرض ببلع مائها، فهذا يعني أنه لم يعد على سطحها ماء! فأيّ ماء إذًا سينقص ويقلّ؟

فالله تعالى يتكلم عن البحر والأنهار التي تكونت عند انقسام سطح الأرض إلى قسمين، مما أدّى إلى إنشاء قرن آخرين، أي قارة أخرى، وبما أن الأرض بلعت ماءها، وجب انخفاض مستوى مياه الأنهار والبحر الذي ارتفع بسبب سقوط الأمطار، ولهذا جاء تعالى بفعل غاض مبنيا للمجهول، وذلك دلالة على أن نقصان الماء وقع بطريقة منطقية، وهي إما ارتفاع الحرارة فيتبخر الماء، وإما انخفاضها فيتجلد سطح الأنهار والبحر، وبالتالي يغيض الماء، وهذا الذي حدث أي أن الله تعالى غيّر المناخ فأصبحت جهة القطب الشمالي منطقة جليدية، ولهذا عُثر على بقايا حيوانات صحراوية تحت الجليد وبقايا شجر النخل، وأشياء أخرى سوف يعثرون عليها كلما ارتفعت درجة الحرارة في القطب الشمالي بسبب تغير الطقس وعودته على ما كان عليه، وقد يستغرق آلاف السنين أو أقل، وهذا الذي سيؤدي إلى الفيضانات بسبب ذوبان الجليد، ولهذا قال تعالى في سورة التكوير6[**وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ**] وكلمة سجّرت جذرها اللغوي هو فعل سجر، فنقول سجر الكوبَ يعني ملأه، فالبحار إذًا ستمتلئ بسبب ذوبان الجليد ثم تفيض، ولهذا قال تعالى في سورة الإنفطار3[**وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ**] وكما نرى، الله تعالى استعمل الفعل المبني للمجهول في الآيتين معا كما هو الشأن بالنسبة للآيات الأخر التي تتكلم عن قيام الساعة، وذلك دلالة على وجود أسباب منطقية ستؤدي إلى قيامها، وهذا الذي جعل علماء الكسمولوجيا يؤمنون بنهاية الكون كما جاء في سورة الأنبياء104[**يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ**]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

فما استمتعتم به منهن

قال الله تعالى في سورة النساء24 [وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا] كما يعلم الجميع بأن هذه الآية هي التي تشعّب منها الجدال في مسألة زواج المتعة، وما بلغنا كذلك من الروايات عن النبي ص والصحابة والتابعين، والتي منها ما تُحلّه ومنها ما تُحرّمه، وهكذا صار أهل الشيعة يحلّونه محتجين بتفاسير للآية والروايات التي تثبت ذلك وتنعت زواج المتعة بالنكاح المؤقت، وأهل السنة يحرمونه محتجين هم كذلك بتفاسير للآية وروايات تثبت ذلك وتنعت زواج المتعة بالزنا، وهكذا أصبح الإنسان العادي في حيرة من أمره، أيحله أم يحرمه؟ وأيّ التفاسير هي أصوب، وأيّ الروايات هي أصدق؟ ولكي نكون منصفين سنأتي ببعض التفاسير للآية والروايات المتناقضة وليس كلها، وذلك لكثرة عددها لأن الكل أدلى بدوله في هذا الموضوع، وذلك لمدة تزيد عن ألف سنة حتى تشجرت اختلافاتنا وتشعبت، فأصبح المسلمون يكفّر بعضهم بعضا ويستحيي بعضهم نساء بعض، ويحل بعضهم دماء بعض، فحق علينا قول الله تعالى في سورة الأنعام153 [وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ]

فقد جاء في تفسير ابن كثير في قوله تعالى[فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً] حيث قال: قد استُدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة، ولا شكّ أنه كان مشروعا في ابتداء الإسلام ثم نُسخ. وقد ذهب الشافعي بعموم هذه الآية إلى أنه أبيح ثم نُسخ، ثم أبيح، ثم نُسخ مرتين، وقال آخرون أكثر من ذلك، وقال آخرون إنما أبيح مرة، ثم نُسخ ولم يبح بعد ذلك، وقد رُوي عن ابن عباس وطائفة من الصحابة القول بإباحتها للضرورة.

وهنا يجب أن نتوقف للحظة ونتبيّن ما جاء به ابن كثير من آراء وليس تدبر لكلام الله تعالى، فهو قال رحمه الله بأن الآية تدلّ على أن زواج المتعة كان مشروعا في بداية الإسلام ثم نُسخ، لكن أين هو الدليل على هذا؟ فإذا كانت الآية تدل على مشروعيته فأين هي الآية التي تدلّ على تحريمه؟ مع أن هناك روايات تدلّ على عدم نسخه لم

يذكرها ابن كثير، ومنها ما جاء في مسند أحمد عن عبد الله بن عباس بإسناد صحيح قال: < تمتّع النبي فقال عروة بن الزبير نهى أبو بكر وعمر عن المتعة فقال ابن عباس: ما يقول عريّة قال: يقول نهى أبو بكر وعمر عن المتعة، فقال ابن عباس أراهم سيُهلكون، أقول قال النبي ص ويقول نهى أبو بكر وعمر!> فهنا كما نرى، ابن عباس يؤكد بأن المتعة حلال وأن النبي فعلها، ويعيب على عروة قوله بأن أبا بكر وعمر نهيا عنها.

وجاء كذلك في صحيح البخاري عن عمران بن الحصين قال:< أنزلت آية المتعة في كتاب الله ففعلناها مع رسول الله ص ولم ينزل قرآن يحرمها، ولم ينه عنها حتى مات قال رجل برأيه ما شاء > وهذه الرواية تؤكد ما جاء به أحمد في مسنده عن ابن عباس. ونحن نقول ألا يحق لنا أن نأخذ بهذه الروايات التي تُبيح زواج المتعة؟ وهل فعلا يحق لأيّ شخص كان من كان أن يحرم ما أحله الله تعالى لعباده، أو يحل ما حرم تعالى على عباده؟ أم كل رجل يقول برأيه ما شاء كما قال عمران بن الحصين؟

أم وجب علينا أن نأخذ بالروايات التي تقول بتحريم زواج المتعة؟ ومنها ما أخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة قال:< لما خرج النبي نزل ثنيّة الوداع فرأى مصابيح وسمع نساء يبكين فقال: ما هذا؟ قالوا يا رسول الله نساء كانوا تمتعوا منهن أزواجهن فقال رسول الله ص: (هدم أو قال حرم المتعة، النكاح والطلاق، والعدة والميراث)> وأخرج الإمام البخاري في صحيحه عن علي بن أبي طالب قال:<إن النبي نهى عن المتعة، وعن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر>

ونحن يجب أن نتساءل، من الذي يُبيح لنا أن نختار بين الروايات التي تبيح والأخرى التي تحرم؟ ومن الذي له الحق بأن يلزمنا بالأخذ بهذه أو تلك؟ فإن نحن اخترنا فقد اتبعنا أهواءنا، فحقّ علينا قوله تعالى في سورة الروم29 [**بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ**] وإن نحن اتبعنا رأي أو قول صحابي أو تابعي أو إمام، فقد أشركنا بربنا، لأننا اتخذنا ديننا من البشر فجعلناهم أندادا لله، وبالتالي حق علينا قوله تعالى في سورة الشورى21 [**أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**]

وتابع ابن كثير في تفسيره قائلا بأن الشافعي وطائفة من العلماء ذهبوا إلى أن زواج المتعة أبيح ثم نُسخ، ثم أبيح ثم نُسخ، ثم أضاف وقال بأن آخرين قالوا بأكثر من ذلك، يعني أبيح و نُسخ، وأبيح ونُسخ، وأبيح ونُسخ، ثم أتى ابن كثير بقول آخر، وهو أن آخرين قالوا إنما أبيح مرة ثم نُسخ ولم يبح بعد ذلك، فهو رحمه الله قد اضطرّ لهذا

التناقض في الآراء نتيجة لتناقض الروايات وكثرة الآراء التي أدلى بها الفقهاء تبعا لتلك الروايات طيلة أزيد من سبعمائة سنة قبل تفسيره للقرآن، ونحن سنختصر على بعض منها لنبيّن الخطأ الذي وقع فيه آباؤنا.

فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن علي بن أبي طالب قال:< إن النبي نها عن المتعة، وعن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر> وأخرج ابن حبان في صحيحه عن شبرة بن معبد الجهني قال:< أذن لنا رسول الله ص في المتعة عام فتح فانطلقت أنا ورجل آخر إلى امرأة شابة كأنها بكرة عيطاء لنستمتع بها، فجلسنا بين يديها وعليه بُرد وعليّ بُرد فكلمناها ومهرناها ببُردينا، وكنت أشبُّ منه، وكان بُرده أجود من بردي فجعلت تنظر إليّ مرة، وإلى بُرده مرة، ثم اختارتني، فنكحتها فأقمت معها ثلاثا ثم أن رسول الله ص نهى عنها ففارقتها > وقد جاء الإمام البخاري بهذه الرواية مختصرة في العلل الكبير دائما عن شبرة بن معبد الجهني.

ونحن نقول دون أن نتطرق لمحتوى الرواية، بأن الكل يعلم بأن واقعة فتح جاءت بعد واقعة خيبر بحوالي سنتين، وهذا ما دفع بعض الأئمة للقول بأن زواج المتعة أبيح ثم نُسخ، ثم أبيح ثم نُسخ. فكل إنسان يقرأ مثل هذه الروايات، ويتوقف للحظة واحدة ويتجرّد من كل تقديس وتعظيم، ويستعمل عقله الذي حباه الله تعالى ليفضّله عن الأنعام، فسوف يتساءل، وأول سؤال يطرحه على نفسه، هل فعلا هذا من أمر الله تعالى، بأن يحلّ على قوم شيئا ما ويذكره في كتابه، ويحرمه اليوم التالي ولا يذكره في كتابه؟ وهل فعلا يحق لمحمد رسول الله ص أن يحرم ما أحله الله، أو يحل ما حرمه سبحانه؟ أولم يقل تعالى في سورة الفرقان56[**وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا**] وليس مشرعا؟ أولم يقل تعالى كذلك في سورة الأحقاف9[**قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ**]؟

فكيف لرسول ليس هو أول الرسل، بل أرسل الله تعالى رسلا من قبله، ولم يحقّ لأحد منهم أن يحرم أو يحل على قومه ما لم يأذن به سبحانه، وكلهم اتبعوا ما أوحي إليهم كما اتبع محمد ص هو كذلك ما أوحي إليه، ولم يبدّل منه شيئا كما جاء في سورة يونس15 [**وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**] ثم نأتي بروايات تناقض هذه الآيات ومثلها كثيرة في القرآن؟ فإن حقّ لمحمد ص أن يحرم على قومه ما شاء هو، فقد حقّ كذلك للنبيين من قبله أن يحرّموا على قومهم ما لم يحرمه الله تعالى عليهم ولا ينفيه سبحانه، لكن

القرآن يقول عكس ذلك كما جاء في سورة آل عمران93[كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ]

ونحن كذلك وجب علينا أن نأتي بالقرآن فنتلوه إن كان فعلا الله تعالى أحلّ زواج المتعة في وقت ما ثم نسخه، وإن كان بالأحرى قد ذكر تعالى عبارة زواج المتعة في كتابه، وبالتالي نتحرى من هذه الروايات والآراء التي يناقض بعضها البعض. ويجب أن نعلم بأن آباءنا وقع لهم التباس كبير، فهم خلطوا بين زواج المتعة ومتعة العمرة إلى الحج التي تحدث عنها تعالى في سورة البقرة196[فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ] وهذا ما يدل عليه بعض الروايات.

فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن علي بن أبي طالب قال:< اختلف علي وعثمان وهما بعسفان في المتعة فقال علي ما تريد أن تنهي عن أمر فعله النبي ص، فلما رأى ذلك علي أهلّ بهما جميعا > فكما نرى هنا، الرواية تتحدث عن التمتع بالعمرة إلى الحج، ولا علاقة لها بزواج المتعة. وأخرج أيضا الإمام البخاري في صحيحه عن علي بن أبي طالب دائما قال:< شهدت عثمان وعليا وعثمان ينهي عن المتعة، وأن يجمع بينهما، فلما رأى علي أهلّ بهما لبيك بعمرة وحجة قال (ما كنت لأدع سنة النبي لقول أحد)> وهنا كذلك نرى بأن الرواية تتحدث عن التمتع بالعمرة إلى الحج، وهي ليست سنة، وإنما هي من شريعة الله تعالى شرعها لعباده في كتابه. وهناك روايات أخر تدل على ذلك الخلط، وتناقض الواحدة الأخرى، ومنها ما أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله تقول:< قدم جابر بن عبد الله معتمرا فجئناه في منزله فسأله القوم عن أشياء، ثم ذكروا المتعة، فقال: نَعم استمتعنا على عهد رسول الله، وأبي بكر وعمر> وهذه الرواية تناقض تلك التي ذكرنا من قبل، والتي أخرجها الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس والتي تقول بأن أبا بكر وعمر نهيا عن المتعة حسب قول عروة بن الزبير، فكيف لأبي بكر وعمر أن يقوما بفعل مع النبي ص، حتى لو كان زواج المتعة، ثم ينهيا عنه من بعده؟ فمن أذن لهما بذلك؟ أم هجرنا لكتاب الله تعالى جعلنا نسيء لأبي بكر وعمر؟ والأغرب من هذا ما جاء في صحيح مسلم عن أبي ذر الغفاري قال:< كانت لنا رخصة يعني المتعة في الحج > وفي رواية أخرى دائما في صحيح مسلم، ودائما عن أبي ذر الغفاري قال:< كانت المتعة في الحج لأصحاب محمد ص خاصة > يعني أن الله تعالى أخصّ أصحاب محمد ص من دون العالمين بالمتعة في الحج، فهل من إنسان يعقل ما بداخل كتاب الله تعالى يمكن أن يصدق مثل هذه الروايات، والتي تسيء لمحمد ص و أصحابه؟

والآن سنتمّ ما جاء به ابن كثير في تفسيره حين قال: وقد روي عن ابن عباس وطائفة من الصحابة القول بإباحتها (أي المتعة) للضرورة، وهو رواية عن الإمام أحمد، وقد جاء الإمام مسلم في صحيحه برواية في هذا الموضوع عن شبرة بن معبد الجهني قال:< قال ابن شهاب فأخبرني خالد بن المهاجر بن سيف الله أنه بينا هو جالس عند رجل جاءه رجل فاستفتاه في المتعة، فأمره بها فقال له ابن أبي عمرة الأنصاري مهلا قال ما هي؟ والله لقد فُعلت في عهد إمام المتقين، قال ابن أبي عمرة إنها كانت رخصة في أول الإسلام لمن اضطر إليها كالميتة والدم ولحم الخنزير، ثم أحكم الله الدين، ونهى عنها > تمّ قول ابن كثير.

وأنا والله بحث في كتاب الله، وكل إنسان يمكنه ذلك، فما وجدت إلا قوله تعالى في سورة الأنعام119[وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ] وما وجدت أيّ آية تفصّل لنا تحريم زواج المتعة ولا تحليله، ولكن وجدت في كتب أخرى ما يحرم زواج المتعة وما يحله على الإطلاق، وما يحله كذلك عند الضرورة كما جاء في كتاب فقه السنة لأحمد السابق في الجزء الثاني في باب زواج المتعة حيث قال:< وقد روي عن بعض الصحابة، وبعض التابعين، أن زواج المتعة حلال، واشتهر ذلك عن ابن عباس وفي تهذيب السنن . وأما ابن عباس فإنه سلك هذا المسلك في إباحتها عند الضرورة ولم يُبحها مطلقا، فلما بلغه إكثار الناس منها رجع، وكان يحمل التحريم على من لم يحتج إليها، وقال الخطابي إن سعيد بن جبير قال:< قلت لابن عباس هل تدري ما صنعت وبما أفتيت؟ قد سارت بفتياك الركبان، فقال ابن العباس: إن لله وان إليه راجعون، والله ما بهذا أفتيت، ولا هذا أردت ولا أحللت إلا مثل ما أحل الله الميتة والدم ولحم الخنزير وما تُحل إلا للمضطر)

فإذا كان بعض الصحابة أحلّوا زواج المتعة، وابن عباس أفتى بإباحته عند الضرورة، وعندنا أحاديث تقول بأن النبي ص أباحه ثم نسخه، وعندنا آراء جل فقهاء السنة وليس كلهم، تقول بأن زواج المتعة زنا، وآراء بعض فقهاء السنة وكل فقهاء الشيعة تقول بحلاله، فأيّ قول نأخذ به إذًا، ذلك الذي يبيح؟ وخصوصا عندما نعلم بالحديث النبوي الذي أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو أن النبي ص قال:< خذوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود، وسالم مولى حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب > وبأن هذا الأخير أي أبي بن كعب، ومعه عبد الله بن عباس وسعيد بن جبير والسدي كانوا يقرأون (فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فأتوهن أجورهن فريضة) ونحن نقرأها كما هو موجود داخل المصحف (فما

استمتعتم به منهن فأتوهن أجورهن فريضة)! أم ذلك الذي يحرّم؟ أم ذلك الذي يبيح عند الضرورة؟ أوليس هذا بالتيهان؟ أم الدين هو بأمانينا وليس بقول الله تعالى؟ بلى وصدق قوله عز وجل في سورة يونس36 [وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ]

فعندما نقيم وجهنا للدين الذي شرعه تعالى حنفاء، وذلك باتباع كتابه وليس الكتب الأخرى كما قال تعالى في سورة الأنعام155 [وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ] والتصديق بأن الله سبحانه بيّن بداخله كل شيء، كما قال تعالى في سورة النحل89 [وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ] وفصّله تفصيلا كما قال تعالى في سورة يوسف111 [مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] فسوف نعلم الحق ونُزهق به الباطل، وبالتالي لا نسيء لمحمد ص ولا لأحد من أصحابه، ولهذا وجب علينا تدبر القرآن بالقواعد الربانية، ونبحث عن دلالا ت الكلمات والعبارات التي لها علاقة بآية الاستمتاع وهي - النكاح والاستمتاع - المحصنات - ما ملكت أيمانكم - ثم نتدبر آية الاستمتاع.

فما استمتعتم به منهن(النكاح والاستمتاع)

قال الله تعالى في سورة الأحزاب49 [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا] هنا كما نرى، قال تعالى[إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ] وكلمة نكحتم جذرها اللغوي هو فعل نكح، فنقول نكح المطر الأرض يعني اختلط ماء المطر بترابها، وهو يختلف عند قولنا سقط المطر على الأرض، لأن هذه العبارة هي بالمفهوم العام، فقد يسقط ماء المطر على الأرض دون أن يختلط بترابها لسبب ما، كوجود غلاف واقي مثلا على سطحها، لكن عندما نقول نكح المطر الأرض، فهذا دليل على أن ماء المطر قد اختلط بالتراب، فدلالة فعل نكح في القرآن إذًا هي عملية اختلاط ماء الرجل بماء المرأة والذي يؤدّي إلى الإنجاب.

فعندما قال تعالى[إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ] فهذا يعني المجامعة التي يختلط ضمنها ماء الرجل بماء المرأة بطريقة شرعية، ولهذا تابع قوله تعالى[ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا] يعني إذا عقد الرجل على المرأة بغية الإنجاب لكن لم

يجامعها، فليس له عدة عليها لأنها بديهيا ومنطقيا ليست من اللائي لم يحضن، وبالتالي ليست من أولات الأحمال، فالنكاح إذًا هو كل جماع بطريقة شرعية يؤدي أو يُرجى منه الحمل، وبالتالي الإنجاب.

لكن هناك جماع لا يُبتغى منه الإنجاب وإنما الشهوة فقط، وهذا النوع من الجماع نعته الله تعالى في كتابه بالاستمتاع، يعني أن الرجل يجامع المرأة رغبة في المعاشرة الجنسية فقط، ابتغاء الشهوة دون اختلاط منيه بمنيها والذي قد يؤدي إلى الحمل، وذلك بالملامسة فقط، وقد تكون بلمسة أو قبلة أو أكثر، وقد يدخل بها دون أن يختلط منيهما، إما بعزل أو أيّ وسيلة تمنع التقاء مني الرجل بمني المرأة والذي يكون سبابا في الحمل.

فعندما قال تعالى في سورة النساء23[حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا] فهو سبحانه لا يتكلم عن النكاح الذي يؤدي إلى الإنجاب، ولو كان كذلك لحق لنا أن نُلامس أو نقبّل مثلا أمّنا أو أختنا ابتغاء الشهوة، ولكنه تعالى في هذه الآية حرّم علينا ما هو أدنى من النكاح، وهو الاستمتاع والذي قد يكون بلمسة أو بقبلة بغية شهوة يعني أن الله تعالى حرم علينا أن نقوم بأيّ حركة مع الأفراد الذين ذكر في الآية ابتغاء شهوة جنسية، ولهذا قال تعالى في الآية التالية24[وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا] وهنا كما نرى، حرّم كذلك المحصنات من النساء واللاتي أحل لنا نكاحهن لأنه يتكلم سبحانه عن الاستمتاع وليس النكاح واستثنى منهن، أي المحصنات من النساء، ما ملكت يميننا، وهذا بيّناه في فقرته.

ولهذا قال من بعد ذلك[فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ] ولم يقل (ما نكحتم) وذلك لأن الله تعالى أحكم آياته، وجعل لكل كلمة دلالتها حتى لا نفتي ونحرم بأهوائنا، ولهذا قال تعالى في نفس الآية[وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ] وهنا كما نرى، قال[دَخَلْتُم بِهِنَّ] ولم يقل (نكحتم) لأنه يتكلم سبحانه عن الاستمتاع وليس النكاح، لأنه عندما يجامع الرجل المرأة قد يُدخل فرجه في فرجها دون أن يختلط

منيه بمنيها كأن يعزل مثلا، وهذا ما كان يُعمل به في عهد محمد رسول الله ص، فهم كانوا يستمتعون بالنساء فيستعملون الوسائل المتوفرة آنذاك لتفادي الحمل كالعزل والذي كان سائدا، والاستخصاء والذي كان ينهي عنه النبي ص ، والأحاديث التي تتكلم عن هذا الموضوع كثيرة، ومنها ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي سعد الخدري قال:< خرجنا مع رسول الله ص في غزوة بني المُصطلق، فأصبنا سبيا من سبي العرب فاشتهينا النساء، فاشتدت علينا العُزبة، وأحببنا العزل، فسألنا رسول الله فقال: ما عليكم أن لا تفعلوا، ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلاّ وهي قائمة> ومنها ما صحّحه الألباني في غاية المرام عن جابر بن عبد الله قال:< كنا نعزل على عهد رسول الله والقرآن ينزل وقال كنا نعزل على عهد رسول الله فلم ينهنا> وهناك أحاديث كثيرة كذلك تتحدث عن الاستخصاء، ومنها ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال:< كنا نغزوا مع النبي ص وليس لنا شيء، فقلنا ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك، ثم رخّص لنا أن ننكح المرأة بالثوب ثم قرأ علينا [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ]>

وبما أن الله تعالى أحكم آياته، فجعل لكل كلمة دلالتها، وبالتالي لا يمكن لكلمتين مختلفتين أن يكون لهما نفس الدلالة، فهو جاء سبحانه بكلمة النكاح دلالة على الجماع الذي قد يؤدي إلى الإنجاب، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا باختلاط ماء الرجل بماء المرأة بطريقة شرعية، وفي هذه الحالة أي النكاح، نعت سبحانه الرجل بالزوج ويُنعت كذلك بالنِّكح في اللغة العربية أي الذي ينكح، ونعت تعالى المرأة زوجه وتُنعت كذلك بنِكحه في اللغة العربية، ولهذا في آيات الإرث جاء تعالى بكلمة أزواجكم وليس نساؤكم، لأن كلمة نساؤكم تشمل الاثنين أي المرأة التي تستمتع بشيء منها والمرأة التي تنكحها، وذلك ليحدّد سبحانه بأنه يتكلم عن الإرث في حالة النكاح، وليس في حالة الاستمتاع. وجاء بكلمة الاستمتاع دلالة على ابتغاء الشهوة فقط، بأيّ طريقة وأقصاها الدخول بالمرأة دون اختلاط ماء الرجل بمائها، ولهذا سُمّي دخول بالمرأة وليس نكاحها، وفي هذه الحالة أي الاستمتاع نعت سبحانه الرجل بالبعل دلالة على الذي لا يلد لسبب من الأسباب، كعزل أو استعمال أيّ وسيلة لمنع الحمل، أو عقم، وقد صرّف تعالى الأمثال في القرآن ومنها ما جاء في سورة هود72[قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ] وكما نرى، هنا نعت الله تعالى إبراهيم بالبعل وليس بالزوج لأنه لم يلد بعدُ مع أمرأته وليس زوجه، كما جاء في كثير من الأمثلة كذلك في القرآن، ومنها ما جاء في سورة القصص9[وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ

عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ] ولم يقل - زوج فرعون - لأنها لم تُنجب أولادا (ولهذا جاء تعالى بالتاء مبسوطة وليس مربوطة كما هو الشأن في اللغة العربية وذلك لحكمته تعالى، وهذا بيّناه في فقرة <كتّاب الوحي> .

فعندما قال تعالى[حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا] فهو هنا كما قلنا يتكلم عن الاستمتاع وليس النكاح، ولهذا تابع قوله تعالى في الآية التالية[وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا] وهنا كما نرى، حرّم تعالى المحصنات من النساء بصفة عامة، ولم يعيّن المؤمنات منهن كما فعل عندما تكلم عن النكاح كما جاء مثلا في سورة النساء25[وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ] واللاتي استثنى منهن ما ملكت يمين الرجل، وهذا دليل آخر بأن الآية تتكلم عن الاستمتاع وليس النكاح، ولهذا قال تعالى[فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ] وهناك علامات أخرى في هذه الآية تدل على ذلك والتي بيّناها في الفقرات التالية.

فالسؤال إذًا هو، لماذا حرم تعالى الاستمتاع بشيء من المحصنات من النساء كما هو الشأن بالأفراد الذي ذكرهم تعالى في الآية التي من قبل، ولم يعيّن المؤمنات فقط؟ ولماذا استثنى منهن ما ملكت يمين الرجل؟ فلهذا وجب علينا أن نتعرف على دلالة كلمة المحصنات، ثم دلالة عبارة ما ملكت أيمانكم.

فما استمتعتم به منهن(المحصنات)

قال الله تعالى في سورة المائدة25[ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ] كما نعلم جل أهل التفسير

للقرآن ذهبوا إلى القول بأن المحصنات هن المتزوجات، وهذا لا يصح لأنه يناقض اللغة العربية، وسياق الآيات التي تتكلم عن النكاح، فالله تعالى في هذه الآية يتكلم عن نكاح المحصنات، وهو سبحانه لا يُحلّ للرجل نكاح المرأة المتزوجة، وإنما المرأة التي ليس لها زوج، ولهذا قال تعالى في سورة النساء25[**وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ**]

فالله تعالى في كل آيات النكاح يتكلم عن المحصنات المؤمنات، وكلمة محصنة جذرها اللغوي هو فعل حصن، فنقول حصن المكان بمعنى عمل على وقايته، ولهذا قال تعالى في سورة الأنبياء91[**وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ**] يعني أن مريم حفظت فرجها من أيّ علاقة جنسية فهي إذًا من المحصِنات بكسر الصاد، أي هي التي أحصنت فرجها بنفسها، لكن الله تعالى قال [**ٱلْمُحْصَنَٰتِ**] بفتح الصاد، يعني أن هناك من يحصنهن من العلاقات الغير الشرعية، كأبويهن أو أحد من أفراد عائلتهن، وذلك بتربيتهن ورعايتهن، فلا يكنّ مضطرات أومكرهات على البغاء لكسب قوتهن، أو لإعالة أولادهن أو عائلتهن، كما جاء في سورة النور33[**وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**] وبما أن المرأة خرجت هي كذلك في مجتمعاتنا للشغل، فقد أصبح عملها يحصنها.

فالمحصنات إذًا هن كل امرأة لها من يكفلها ويرعاها، وقد يكون أرحامها، أو زوجها أو عملها، أو أيّ شخص يهتم بها مما لا يجعلها مضطرة أو مكرهة لأيّ علاقة غير شرعية مقابل مال لتعتني بنفسها، أو بشخص تهتم هي برعايته كأبنائها مثلا أو عائلتها، وأيّ علاقة غير شرعية تقوم بها فهي تُعدّ زنا، وأيّ امرأة لا تتوفر فيها هذه الشروط فهي إذًا من غير المحصنات.

فالنساء إذًا نوعان، ولا يوجد ثالثهما، نساء محصنات، منهن مؤمنات وغير مؤمنات، وهن اللاتي حرم الله تعالى الاستمتاع بشيء منهن، سواء كن مؤمنات أو غير مؤمنات، ولهذا قال تعالى في آية الاستمتاع ضمن لائحة التحريم في سورة النساء24 [**وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ**] وأحل الله تعالى نكاح المؤمنات منهن فقط، أي المحصنات المؤمنات، ولهذا قال تعالى في سورة النساء25[**وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ**] وهنا كما نرى، عيّن تعالى نوع المحصنات لأنه سبحانه يتكلم عن النكاح، ونفس الشيء في سورة المائدة5[**ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ**

حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ]

وهناك نساء غير محصنات، مؤمنات وغير مؤمنات كذلك، واللاتي ليس لهن من يهتمّ بتربيتهن ورعايتهن، مما يجعلهن مُكرهات أو مضطرات للعلاقات الغير الشرعية، أي البغاء وليس الزنا، وهذا بينّاه في فقرته، وهن اللاتي أحل الله تعالى الاستمتاع بشيء منهن.

ولهذا كلما تكلم تعالى عن النكاح الذي هو العلاقة الشرعية قصد الإنجاب، إلاّ واشترط فيه المحصنات المؤمنات، إلاّ عند عدم القدرة على نكاحهن، فهو سبحانه أجاز نكاح غير المحصنات، تفاديا للجوء إلى العلاقات الغير الشرعية، ولهذا قال تعالى في سورة النساء25[وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] وهنا كما نرى، ختم سبحانه الآية بقوله[وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ] يعني أن يصبر المرء حتى يستطيع طولا أن ينكح المحصنة المؤمنة، وهذا ما هو معهود به في مجتمعاتنا، فأيّ شخص أراد الزواج قصد بناء عائلة وليس ابتغاء شهوة فقط، إلاّ وبحث عن امرأة من عائلة محترمة، ومحافظة على شرفها أي مُحصنة حتى يستطيع أن ينجب منها أولادا صالحين، أما غير المحصنة فقد لا يتحقق كل هذا.

فالله سبحانه أحلّ نكاح غير المحصنة من المؤمنات عند عدم القدرة على نكاح المحصنة المؤمنة، إن خشي المرء العنت، وإلاّ أن يصبر حتي يستطيع طولا لذك تفاديا لعدم تحقيق ما قد يُحققه مع المحصنة المؤمنة، وذلك لعلمه تعالى بأن أغلبية الرجال لا يقبلون بنكاح امرأة ليس لها من يكفلها، أو ليست من عائلة محترمة مما يكون قد دفعها للقيام بعلاقات غير شرعية لكسب قوتها، كلقيطة مثلا أو عاهرة، وبالتالي قد لا تستطيع تربية أبنائها تربية صالحة، وهذا ما هو معهود به أيضا في مجتمعاتنا الإسلامية، ولهذا فضّل تعالى عدم نكاحها، وأحل الاستمتاع بشيء منها، أي عدم الإنجاب منها، وذلك حتى لا تضطر للعلاقات الغير الشرعية لكسب قوتها سواء كانت مؤمنة أو غير مؤمنة، وحرّمه على المحصنة سواء كانت مؤمنة أو غير مؤمنة، ولهذا قال تعالى في آية الاستمتاع [وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ] فما هي إذًا دلالة عبارة (ما ملكت أيمانكم)؟

فما استمتعتم به منهن(ما ملكت أيمانكم)

قال الله تعالى في سورة الإسراء70[وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا] فهنا كما نرى قال تعالى[وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ] والكل يعلم بأن بني آدم هو كل إنسان، ذكر و أنثى، أبيض وأسود، كبير وصغير، مؤمن وكافر، وكل هؤلاء كرّمهم الله تعالى. فهل عندما يستعبد الإنسان أخاه الإنسان فيحرمه من حريته، ويُذلّ الإنسان أخاه الإنسان فيُحرمه من كرامته، يظل هذا الأخير من بني آدم الذي كرمه الله سبحانه؟ أم يصير من الأنعام التي تحدث عنها تعالى في كتابه قائلا في سورة يس71[أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ72وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ]؟ فهل أصبح بعض بني آدم إذًا من الأنعام يمتلكه البعض الآخر، فيذلّ بعضه بعضا، ويبيع بعضه بعضا في أسواق النخاسة التي أوجدها الإنسان بنفسه لهذا الغرض، ويستحيي بعضه نساء بعض، فيجامع من إناثه ما شاء، وكيف شاء؟ وهل أصبح الإنسان متاع الحياة الدنيا لأخيه الإنسان وزينتها، فحقّ على بعض بني آدم قوله تعالى في سورة القصص60[وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا]؟

أم نحن رضينا بالقول الأول الذي فسّر به آباؤنا القرآن حسب نمط عيشهم وأعرافهم آنذاك، وقدسناه حتى خُيّل لنا أنه من عند الله فعلا؟ فصارت الناس تصدّ عن سبيل الله تعالى أفواجا، وتكفر برسالة محمد ص، بدعوى أنها رسالة لا تحترم حقوق الإنسان وتُقرّ العبودية، وذلك بوجود أحكام تخصّ الرق ! فهل فعلا الله تعالى الذي نعت نفسه بالرحمان الرحيم، أنزل في كتابه أحكاما لتحرير العبيد؟ فإذا كان كذلك، أليس هذا بدالّ على أنه سبحانه أعترف بها؟ فهل قرارات الأمم المتحدة التي جاءت في أواسط القرن العشرين الميلادي، والتي تمنع وتُجرّم كل نوع من أنواع العبودية، هي أرحم من أحكام الله تعالى؟ فهل الإنسان الكافر منه والمؤمن، أرحم بأخيه الإنسان من ربه؟

لكن عندما نقرأ كتاب الله تعالى بعقولنا نحن، ونتدبره بالقواعد التي وضع سبحانه بداخله متجردين من كل تقديس وتعظيم، فسوف نعلم بأن الله بريء من العبودية والسّبي ورسوله. فالله تعالى لا يظلم مثقال ذرة، وإن أباح لإنسان أن يستعبد إنسانا آخرا فقد ظلم سبحانه ذلك الذي استُعبِد، وإن أباح لرجل أن يسبي امرأة فقد ظلم سبحانه تلك المرأة، وهذا ليس من صفاته عز وجل.

فالله تعالى قال في سورة الإسراء62[قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا] وهنا كما نرى، الشيطان يتوعّد بأنه سيحنك بعضا من بني آدم، يعني سيتحكم فيهم، فيصيرون عبيدا له وليس عبادا له، ويأمرهم فيتبعونه كما يتبع العبد المملوك مولاه كما جاء في سورة النساء119[وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا] فأيّ إنسان تحكّم في حرية إنسان أو كرامته، أو حياته بغير حق، فقد قتل نفسا بغير حق، وبالتالي اتبع عمل الشيطان، وأيّ إنسان ظنّ بأن محمدا ص استعبد إنسانا، أو سبى امرأة عدوه أو ابنة عدوه، فقد أساء الظن برسول الله ص الذي اصطفاه الله تعالى، وطهّره من رجس الشيطان، وأرسله برسالة الرحمة كما قال تعالى في سورة الأنبياء107[وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ] فهل استعباد البشر وسبي النساء، والرجم، وبتر يد السارق، ونكاح الصغيرات، وقمع المرأة، وبيع البشر في أسواق النخاسة من الرحمة؟ وهل رسول قال فيه تعالى في سورة القلم4[وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ] وفي سورة آل عمران159 [فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ] يقوم بسبي النساء، ويذبح بشرا استسلموا له من بعد ما خانوه، والله تعالى قال في كتابه في سورة النساء105[وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا] وفي سورة الأنفال61 [وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا]؟

فكيف لإله يأمر رسوله علنا في كتابه بأن لا يخاصم من خانه، ويجنح للسلم إن عدوّه جنح لها، ثم يأمره سرّا بذبحهم؟ أولم يقل تعالى في سورة الأحقاف9[قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ] فهل هناك من الرسل من قبل محمد ص ذبح بشرا، أو سبى امرأة أو ابنة عدوه؟ أم فضّلنا ظن السوء بالله وبرسوله، على أن لا نتجرأ ونعيد تدبر القرآن بعقولنا نحن، ونتبع قوله تعالى في سورة البقرة170[وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ]؟ وهكذا نتحمل مسؤوليتنا، فلا يتبرأ منا آباؤنا، ولا يحملون من أوزارنا بسبب اتباعهم بغير علم من كتاب الله تعالى كما جاء في سورة النجم28[وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا]

يجب أن نعلم بأن مصطلح ملك اليمين لا وجود له في كتاب الله تعالى، وإنما هو تحريف لعبارة - ما ملكت أيمانكم - التي جاء بها تعالى في كتابه، ولهذا سنأتي بمثال لكي نعلم مدى أهمية تفسير وتدبر كلام الله سبحانه بالطريقة التي نطق بها محمد رسول الله ص.

فالله تعالى قال في سورة المائدة89[لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ] وكلمة عقدتم جذرها اللغوي هو فعل عقد، فنقول عقد الحبل يعني جعل فيه عقدة، لكن الله تعالى قال الأيمان وهي جمع يمين، وكلمة يمين في القرآن تعني الجزء المتقدم من اليد، والذي يتكون من الكف أو الراحة والأصابع، وهذا ما ننعت بلسان العرب باليد، أما كلمة يد في القرآن أي اللسان العربي، تعني الجزء الذي يمتدّ من رؤوس الأصابع إلى الكتف، ولهذا عندما ذكر تعالى عضو اليد في آية الوضوء حدّد الغسل عند المرفق.

فعندما قال تعالى[بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ] فهذا كناية عن الميثاق، أي ما تعاهدتم وتواثقتم عليه لأننا عندما نتعاهد على شيء، ونتفق عليه نتصافح، فنحن نعقد الأيمان، أي يضع أحدنا يمينه على يمين الآخر. لكن إذا نحن غيّرنا عبارة (ما عقدتم الأيمان) بمصطلح - عقدة اليمين - كما فعلنا مع عبارة - ما ملكت أيمانكم - فسيختلف معنى العبارة كلّيا وسيصير مفهومها هو ما يقوم به الملاكم، فهو يعقد يمينه ليلكم خصمه، ولا علاقة لهذا المفهوم بما قال الله تعالى في كتابه، وقد فعل آباؤنا نفس الشيء عندما قال تعالى في سورة المائدة38[وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا] فهنا الله تعالى أمرنا بأن نقطع أيدي السارق وأيدي السارقة، وهذا لا علاقة له بقطع يد السارق ويد السارقة، وهذا بينّاه في فقرة <فعل قطع> فلهذا وجب أن نضع مصطلح ملك اليمين جانبا، لأنه ليس من عند الله سبحانه، وإنما هو مفهوم آبائنا لعبارة - ما ملكت أيمانكم -

فالله تعالى قال في سورة التوبة104[أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ] فهنا كما نرى، نعتنا تعالى بعباده كما جاء في كثير من الآيات مثل ما جاء في سورة يونس107[وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ] لكن قال تعالى في سورة آل عمران182[ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ] وهنا كما نرى، قال تعالى عبيد ولم يقل عباد، وذلك لأنه يتكلم سبحانه عن يوم الحساب، وذلك اليوم ليس لنا من اختيار، وليس لنا من يحمينا، فنحن سنكون تحت رحمة الملك القدوس، كما قال تعالى في سورة طه 111[وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا] ولهذا نعتنا بالعبيد لكن في الحياة الدنيا لنا حرية الاختيار في قراراتنا كما جاء في سورة الكهف29 [وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ] لكي يحقّ لله تعالى محاسبتنا على ما قمنا به من أفعال كما جاء في سورة المدثر38 [كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ] وكل من أطاع الله تعالى بمحض إرادته فهو من عباده، وليس من عبيده،

ولهذا قال تعالى في سورة البقرة21[يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] يعني كونوا عباده، أي اتبعوا ما يأمركم به وليس عبيده، وبما أن الله تعالى جعل لكل كلمة دلالتها الخاصة بها لكي يكون كتابه قرآنا غير ذي عوج، فدلالة كلمة عباد ليس هي دلالة كلمة عبيد كما هو الشأن لكلمتي ذكور وذكران، وكلمتي أنفس ونفوس، والأمثلة كثيرة في القرآن.

فكل شخص أطاع الله تعالى في أمر الدين بمحض إرادته وليس مكرها، مقابل أجر فهو من عباد الرحمان، وليس من عبيد الرحمان، وكل شخص أطاع شخصا آخرا في أمور الدنيا بمحض إرادته مقابل أجر، فهو من عباده وليس من عبيده، لأن كلمة عبيد هي جمع لكلمة عبد مملوك، وهو الذي يطيع مالكه رغما عنه، ومكرها دون أجر، ولهذا قال تعالى في سورة النحل75[ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى [عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ] يعني عبدا في ملكية صاحبه، فهو إذًا ليس له من اختيار في قراراته، وإنما هو مكره.

فكلمة عباد مفردها عبد، وهو كل شخص يطيع شخصا آخرا بمحض إرادته، وقد يأخذ أجرا على ذلك حسب اتفاقهما، أي بما عقدا الأيمان، فالعامل هو عبد لصاحب العمل، والخادمة هي أمة لربة البيت، والشرطي هو كذلك عبد لرئيسه، وكل هؤلاء هم من العباد وليسوا من العبيد، لأن كلمة عبيد هي جمع لعبد مملوك لا يقدر على شيء، وبما أن الله تعالى أباح لنا امتلاك الأنعام، كما جاء في سورة يس71[أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ] وذلّلها لنا كما جاء في الآية التالية[وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ] وليس البشر، فهو عندما قال في سورة النور32[وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ] لم يقل سبحانه عبيدكم، ولكن قال تعالى عبادكم، يعني الذين يشتغلون عندكم مقابل أجر بمحض إرادتهم، وحسب ما عقدتم به الأيمان، وكلمة إمائكم هي جمع كلمة أمة، وهي مؤنث عبد، وليس عبد مملوك، وقد تكون العاملة أو الخادمة، ولهذا قال تعالى[إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ] يعني أن الله تعالى أمر ربّ العمل بنكاح أمته، أي المرأة التي تشتغل عنده وتطيعه في العمل مقابل أجر، وليس أمته المملوكة، ولو كانت فقيرة، وكذلك ربّة العمل بنكاح عبدها وليس عبدها المملوك، أي الرجل الذي يشتغل عندها ويطيعها في العمل مقابل أجر، ولو كان

هو كذلك فقيرا، وتحدث تعالى عن الأيامى، أي الأرامل والمطلقات ولو كنّ هن كذلك فقيرات ، فقد يغنيهم الله تعالى من فضله.

فكما نرى، كلمة عبد والتي جمعها عباد لا علاقة لها بالعبودية التي أقرّها سبحانه لنفسه يوم الحساب، ولهذا نعتنا بالعبيد، ولم يقرّها سبحانه لنفسه في الحياة الدنيا، ولهذا نعت الذين يطيعونه بعباده، فكيف يقرّها إذًا لخلقه ، ولهذا قال عبادكم ولم يقل عبيدكم.

وعندما قال تعالى في سورة النساء25[وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ] فهو قال سبحانه[مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم] ولم يقل - مما ملكتم - يعني ما عقدت أيمانكم فصاروا تحت رعايتكم، وبالتالي وجب عليهم طاعتكم، وهم كل شخص لا ينتمي لعائلتنا، وكان تحت رعايتنا، كخادم مثلا يخدمنا ويعيش معنا في بيتنا، أو يتامى نكفلهم، أو ما غير ذلك، ولهذا قال تعالى في سورة المؤمنون5[وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ] وهنا كما تبيّن في فقرة<لفروجهم حافظون> الله تعالى يتكلم عن الذين (رجال ونساء) يحفظون فروجهم من أن تُرى، ولهذا استثنى الأزواج والتي تعني كذلك الرجال والنساء، وما ملكت يمينهم كذلك، يعني الرجال وما ملكت يمينهم، والنساء وما ملكت يمينهن، وهم الخدم مثلا أوالذين يمكثون معهم في البيت ويعولونهم، ولهذا عندما قال تعالى[وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ] فصّل هذه الآية بقوله في سورة النور58[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ] ولهذا قال تعالى كذلك مخاطبا محمدا رسول الله ص في سورة الأحزاب50[يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ] يعني النساء اللاتي كان رسول الله يستمتع بشيء منهن ولا ينكحهن، وكنّ تحت رعايته، ولكن لم يؤتهن أجورهن فريضة، كما أوجب الله على عامة المؤمنين، ولهذا تابع قوله تعالى[مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ]

فكل إنسان يقيم مع شخص في بيته وهو ليس من أفراد عائلته، كيتيم أو يتيمة، أو لقيط أو لقيطة، أو خادم أو خادمة، أو ما شابه ذلك، فهو يعدّ ممّا ملكت يمين ذلك الشخص، وليس مما ملك، لأن الإنسان يملك الأنعام كما جاء في سورة يس71[أَوَلَمْ

يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ72|وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُون] والأشياء التي يتمتع بها كما في سورة القصص60[وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ] والإنسان ليس من الأنعام التي يمتلكها الإنسان نفسه، والتي ذلّلها الله سبحانه له، وليس من زينة الحياة الدنيا، وليس من متاعها، وحق قوله تعالى في سورة الإسراء70[وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا] وبطُل خلافه.

فكل ما ملكت يميننا هم من عبادنا، لكن ليس كل عبادنا هم من ما ملكت يميننا، كما هو الشأن بالنسبة للنخل والنخيل، فكل نخيل هو من النخل، لكن ليس كل نخل هو نخيل، وكل زنا هي فاحشة، لكن ليس كل فاحشة هي زنا، وكل أزواجنا هن من نسائنا، لكن ليس كل نسائنا هن من أزواجنا، ولهذا عندما تحدث الله تعالى عن الإرث استعمل كلمة أزواجكم ولم يستعمل كلمة نساؤكم، لأن هناك نساء ننكحهن، فهؤلاء أزواجنا، وهناك ما نستمتع بشيء منهن، وهؤلاء نساؤنا، وكل هذا بواسطة عقدة النكاح، وهذا ما سيتبيّن عندما نتدبر آية الاستمتاع في الفقرة التالية.

فما استمتعتم به منهن(آية الاستمتاع)

يجب أن نعلم بأن الله تعالى أحكم آياته ثم فصّلها، يعني بعد إحكامها، وهذا قد بيّناه من قبل، عمل سبحانه على تفصيلها، وذلك بتصريف أمثلة في القرآن، وهكذا عندما يتكلم تعالى عن حكم ما، أو نبأ ما، أو قصة ما، فهو لا يتكلم عن ذلك الحكم كله، أو النبأ كله، أو القصة كلها في آية واحدة، وانما يفصّلهم في آيات عدة، وبهذا لا يكفي لشخص أن يزيل كلمة أو آية أو يضيفهما لكي يغيّر حكما ما، أو يحرّف نبأ أو قصة ما.

فعندما تكلم سبحانه عن النكاح وكذلك الاستمتاع، فهو فصّلهما بتصريف أمثلة في القرآن حتى يبيّن تعالى جميع أحكامهما، وحتى لا يحتاج المسلم لأيّ شخص، أو كتاب ليبيّن له ذلك، وكذلك حتى لا يتطفل أيّ شخص فيزيل كلمة أو آية ليغيّر حكم الله تعالى، وهذا ما سوف يتبيّن من داخل كتاب الله سبحانه، فنستطيع بعد ذلك نخل الأحاديث والروايات التي جاءت في موضوع زواج المتعة، ونتعرف على الأسباب التي أدت إلى كل ذلك الخلط والتناقض في الروايات.

فالله تعالى قال في سورة النساء23[حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ

وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا24|وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا] وكما بيّنا من قبل، في هاتين الآيتين، الله تعالى لا يتكلم عن تحريم النكاح، وإنما عن تحريم الاستمتاع، الذي قد يكون بقبلة فقط، أو بلمسة من المرأة ابتغاء شهوة جنسية، وهو أدنى من النكاح الذي يدلّ على الوصول إلى ما قد يؤدي إلى الحمل، ولهذا قال تعالى[فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ] ولم يقل - ما نكحتم - وهناك دلائل أخرى تبيّن بأن الآيتين يتكلمان عن الاستمتاع، منها ما بيّنا من قبل، ومنها ما سيتبيّن في هذه الفقرة، وكل هذا سيساعدنا على فهم الآيتين بطريقة صحيحة، ولا نسيء لديننا، ولا لرسول الله ص الذي اصطفاه تعالى وأرسله مبشرا ونذيرا، وليس مشرعا ولا ناسخا لأحكامه سبحانه.

فعندما تكلم تعالى عن النساء اللاتي يُحرم علينا ابتغاء شهوة جنسية منهن، ذكر ربائب النساء اللاتي دخلنا بهن، وهذا قد بيّناه في فقرة النكاح والاستمتاع، وهذا دليل على أن الآيتين لا يتكلما عن النكاح، ولهذا قال تعالى[دَخَلْتُم بِهِنَّ] يعني دخول فرج الرجل في فرج المرأة دون اختلاط منيهما، إما بعزل، وهذه كانت الوسيلة الوحيدة الحلال آنذاك، ولهذا لم يمنعه رسول الله ص، وليس الاستخصاء والذي منعه محمد ص، وإما بالأساليب التي بين أيدينا نحن اليوم، والتي لم تكن متوفرة في عهد محمد ص كاستعمال العازل الطبي، أو تناول أقراص منع الحمل، أو طريقة الحساب التي تعتمد عليها بعض النساء لمنع الحمل، وهكذا يتبيّن بأن منع الحمل لم يحرّمه الله تعالى وكان يزاول في عهد محمد ص، وزاوله هو كذلك، إلاّ أن الأساليب تغيرت، وتغير الأساليب أو الأسماء لا يؤدي إلى التحريم.

ثم ذكر تعالى في لائحة المحرّمات، المحصنات من النساء، سواء المؤمنات منهن أو غير المؤمنات، وهذا دليل آخر على أن الآيتين لا يتكلمان عن النكاح، وذلك لأن الله تعالى أحل نكاح المؤمنات منهن فقط، كما جاء في سورة المائدة5 [ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ] وكذلك في سورة النساء25[وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ

ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ] لكنه استثنى تعالى ما ملكت أيماننا من المحصنات من النساء قبل أن يُحلّ لنا ما وراء ذلك، أي الذي لم يذكره في اللائحة، وذلك لأن عبارة - ما ملكت أيمانكم - هي دلالة على كل امرأة (بما أن الله تعالى يتكلم عن النساء) ليست من أفراد عائلتنا، وتقيم معنا ونعولها، وهذا لا يجعلها من المحصنات اللاتي حرم تعالى الاستمتاع بشيء منهن، لأنه ليس هناك من قام بتربيتها منذ ولادتها وتكفل برعايتها كأبويها، أو أحدهما، أو أحد من أفراد عائلتها، ولهذا استثنى تعالى مباشرة ما ملكت أيماننا من المحصنات من النساء، ولم يشترط تعالى كذلك المؤمنات منهن كما هو الشأن في النكاح، كما جاء في الآية 25 من سورة النساء، وهذا دليل آخر على أن الآيتين يتكلمان عن الاستمتاع وليس النكاح، ولهذا تابع قوله تعالى من بعد ما أحلّ لنا ما دون ما ذكر من المحرمات قائلا[وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ] قائلا[فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً] وهنا كما نرى، قال تعالى[فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ] ولم يقل سبحانه (فما نكحتم) وهذا دليل آخر على أن الله تعالى لا يتكلم عن النكاح، ولهذا قال تعالى قبل ذلك [مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ] لأنه عندما يتكلم عن النكاح يضيف عبارة - ولا متخذي أخدان - أو - ولا متخذات أخدان - كما جاء في آيات النكاح في سورة النساء25 [وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ] وفي سورة المائدة5 [ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ]

وكلمة أخدان هي جمع لكلمة خِدن، وهو الصديق السري، أي الذي يتواعد مع المرأة سريا في عدة الطلاق بنكاحها من بعد سراحها، وهذا حرمه الله تعالى في النكاح، لأن بعلها أحق بردها، وخصوصا إن كانت حاملة منه، كما جاء في سورة البقرة228 [وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَـٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] ولم يحرمه تعالى في الاستمتاع، لأن الرجل ليس زوجها، وإنما هو بعلها، ولهذا عندما تحدث تعالى عن الاستمتاع لم يقل[وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ] كما جاء في آيتي الاستمتاع بقوله تعالى[أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً]

وهنا بما أن الله سبحانه يتكلم في آية الاستمتاع عن الاستمتاع بشيء من المرأة، وليس النكاح، فهو قال[فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً] ولم يقل[وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ] كما هو الشأن عندما يتكلم عن النكاح كما جاء في سورة النساء25[وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ] وهنا كما نرى، قال تعالى [وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ] وذلك لأنه يتكلم عن النكاح، ونفس الشيء في سورة المائدة5[ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ]

وذلك لأن الاستمتاع لا يكون سببه الإنجاب، وبالتالي تكوين أسرة، والعيش طول الحياة كما هو النكاح، وإنما سببه ابتغاء شهوة جنسية من المرأة دون إنجاب، ولهذا نُعت بالإستمتاع، والمرأة تأخذ أجرا مقابل ذلك، ولهذا قال تعالى[أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً] وكلمة فريضة جذرها اللغوي هو فعل فرض أي أوجب، ولهذا قال تعالى في سورة التحريم2[قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ] وهنا كما نرى، قال تعالى [فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ] ولم يقل (فرض عليكم) يعني أن الله تعالى أوجب لنا ما نحل به كلّما حرمنا ما هو حلال بإلقاء اليمين عليه، ولهذا عندما تكلم تعالى عن إيتاء الزكاة في سورة التوبة قال في الآية60[إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ] وهنا كما نرى، قال تعالى فريضة، وذلك لأن حكم إيتاء زكاة المال يُوجب ويتكرّر كلما حلّ الحول وبلغ النصاب، أو كلما حصدنا ثمارنا كما قال تعالى في سورة الأنعام141[وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ] فالفريضة إذًا هي دلالة على واجب يُقام به أو يُنفّذ حسب شروط ما.

فلهذا عندما تكلم سبحانه عن الاستمتاع قال[فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً] وذلك دلالة على أن الأجر واجب، وقد يتجدد عند انتهاء المدة الزمنية أو الشروط المتفق عليها أكثر من مرة، وليس كما هو الشأن عند النكاح، والذي يكون بنيّة عدم الافتراق طيلة الحياة، وبالتالي يُعطى الأجر مرة واحدة حسب عرف المجتمع، ولهذا عند النكاح

قال تعالى[وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ] وعند الاستمتاع قال تعالى[فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً] ولهذا كذلك تابع قائلا[وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ] يعني أن الرجل قد يعطي المرأة أجرها أكثر من مرة، وقد يتغيّر ذلك حسب اتفاقه معها، وهذا كذلك دليل على أن الله تعالى يتكلم في الآيتين معا عن الاستمتاع وليس النكاح.

وهكذا يتبيّن مدى أهمية إحكام الله تعالى لآياته، وتفصيلها في أمثلة في القرآن، كما قال تعالى في سورة هود1[الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ] ولا يمكن لحكيم خبير أن يجعل كتابه عرضة لأيّ شخص كان من كان أنْ يحرّف أحكامه تعالى بزيادة حرف، أو كلمة، أو جملة، ولو كان شيطانا كما جاء في سورة الحج52 [وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ] والذي حاول ذلك ولم يفلح. ولهذا وضع الله تعالى قواعد مضبوطة داخل كتابه حتى نعلم كيف أحكم آياته ثم فصّلها، ونتدبرها بتلك القواعد حتى نتبيّن ما هو من عند الله سبحانه وما هو من عند غيره، وهذا بيّناه كذلك في فقرة <الرجم>

فالله تعالى أحلّ الاستمتاع بأشياء من النساء، كما أحلّ النكاح، وليس الاستمتاع بالنساء، ولهذا قال تعالى[فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ] ولم يقل - فما استمتعتم بهن - فنحن نستمتع بقبلة مثلا من المرأة، وقد نستمتع بملامسة منها، وكل نكاح قد يشمل الاستمتاع، لكن لا يمكن للاستمتاع أن يصل إلى النكاح، فالزوج عندما يختلط منيه بمني زوجه فهذا نكاح، وعندما يعزل بأيّ وسيلة من الوسائل التي نعرفها نحن، ويجامعها بغية شهوة جنسية فقط، فهو يستمتع بشيء منها ولا ينكحها، وفي هذه الحالة هو بعلها وليس زوجها، لأن الزوج هو الذي يلد، والبعل هو الذي لا يلد، ولهذا نعت الله تعالى العجل الذي صنعه السامري بالبعل في سورة الصافات125 [أَتَدْعُونَ بَعْلًا] أي تدعون ما لا يلد، ولهذا تابع قائلا[وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ] لكن الاستمتاع هو الذي يقف عند الدخول بالمرأة والذي كما تبيّن هو دخول فرج الرجل في فرج المرأة دون أن يختلط منيهما، وإن اختلطا فقد صار هناك نكاح. فالنّكح إذًا أي الزوج، يمكن أن يستمتع بشيء من نِكحه أي زوجه، لكن البعل لا ينكح المرأة وإنما يستمتع بشيء منها، وإلاّ فهو زوجها وهي زوجه وليست امرأته.

والآن بما أنه تبيّن الفرق بين النكاح والاستمتاع، وجب أن نبيّن شروطهما التي وضع تعالى في كتابه، وصرّفها في كثير من الآيات، وبالتالي نعلم هل فعلا الاستمتاع هو زواج المتعة؟ وهل فعلا هو زنا كما قال كثيرون بغير علم؟ وإن كان كذلك، فهذا يدلّ

على أن محمدا رسول الله ص قد أباح الزنا في وقت ما حسب ما جاء به ابن كثير في تفسيره، وكثير من الروايات، وصدق قول الله تعالى في سورة التوبة3[أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ] ولكي لا يتبرأ منا محمد وجب علينا أن نتدبر القرآن ونتجرد من كل قوللة لا تناسب قول الله تعالى.

فشروط النكاح التي ذكر الله تعالى في كتابه هي كالتالي.

1- أن تكون المرأة من المحصنات المؤمنات، أي التي تؤمن بالله واليوم الآخر إن استطاع الرجل طولا لذلك، فإن لم يستطع فمن ما ملكت يمينه من المؤمنات أي امرأة ليست من المحرّمات عليه يقوم برعايتها، وذلك حتى يحصن نفسه من العلاقات غير الشرعية، وإن استطاع أن يعدل عن ذلك حتى يستطيع نكاح المحصنة المؤمنة كان من الأفضل له .

2- أن يكون هناك أجر بالمعروف وليس فريضة، يعني أجر لمرة واحدة حسب ما هو معروف لدى المجتمع، والذي ننعته بالصداق، والذي ليس مشروطا بالمدة الزمنية أو أيّ شرط آخر، وإنما علامة على النكاح الذي يؤدي إلى بناء أسرة لمدى الحياة، وبالتالي ليس هناك نية الطلاق إلاّ في حالة الاضطرار.

3-عدم اتخاذ الأخدان من طرف الرجل أو المرأة، يعني لا يمكن للرجل أن يواعد امرأة أخرى بالنكاح سرّا إلاّ إذا أفترق مع الأولى، ونفس الشيء بالنسبة للمرأة، ولهذا قال تعالى – ولا متخذي أخدان – وكذلك – ولا متخذات أخدان – وكل هذه الشروط ذكرها تعالى في آيتي النكاح، الأولى في سورة النساء 25[وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ] والثانية في سورة المائدة5[ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ]

أما شروط الاستمتاع التي ذكرها تعالى في كتابه فهي كالتالي:

1- أن تكون المرأة من غير المحصنات، سواء كانت مؤمنة بالله وباليوم الآخر أو غير مؤمنة، وقد تكون من ما ملكت يمين الرجل، أي هو الذي يقوم بإعالتها، وقد تكون من غير ما ملكت يمينه، أي من اللاتي لا يقوم بإعالتهن.

2- أن يؤتي الرجل المرأة أجرها فريضة، يعني يكون حسب الشروط التي اتفقا عليها كالمدة الزمنية، أو قيمة الأجر، أو شروط أخرى، وقد يتكرّر هذا الأجر لأكثر من مرة حسب ما اتفقا عليه من بعد الفريضة الأولى، ولهذا قال تعالى في آية الاستمتاع[**فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا**]

3- يمكن اتخاذ الأخدان بالنسبة للرجل، يعني أن يتواعد مع امرأة أخرى سرّا، وذلك لأن الاستمتاع تُحدّد مدته حسب اتفاق الطرفين، وليس كالنكاح الذي يُعقد بنية الإنجاب وتكوين أسرة مدى الحياة، وكل هذه الشروط ذكرها الله تعالى في آية الاستمتاع التي نحن في صددها، والتي هي في سورة النساء24[**وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا**]

والآن بما أنه تبيّن لنا الشروط التي تُميّز بين النكاح والاستمتاع، وجب أن نبيّن الشروط المشتركة بينهما.

فالله تعالى قال في سورة البقرة236[**لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ**] وهنا كما نرى، جاءت كلمة فريضة، وهذا دليل على أن الله تعالى يتكلم عن الاستمتاع، وخصوصا أنه قال النساء ولم يعيّن المؤمنات منهن، والذي هو من شروط النكاح، ثم قال تعالى في الآية التالية237[**وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**] وهنا كذلك جاءت كلمة فريضة، وهذه الحالة الثانية للطلاق عند الاستمتاع، وكما نعلم بأن الطلاق يكون نتيجة إبرام عقدة النكاح كما هو الشأن عند النكاح، فالاستمتاع إذا يتمّ هو كذلك عبر إبرام عقدة النكاح، ولهذا قال تعالى في الحالة الثانية للاستمتاع[**إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ**]

وكما نعلم أيضا بأن من شروط عقدة النكاح إحضار الشهود كما جاء في سورة البقرة 282[وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ] وهذا بيّناه في فقرة <الربا> فهذا يبيّن بأن الاستمتاع يتمّ كما يتمّ النكاح، لأن الله تعالى لا يُحل العلاقات الجنسية غير الشرعية بين الرجل والمرأة، وبما أن الاستمتاع هو كذلك علاقة لابتغاء شهوة جنسية من المرأة، فالله وضع له شروطا كما وضعها للنكاح، وهي إبرام عقدة النكاح بحضور شهود، وطلاق للتأكد من عدم وجود حمل، والذي قد يكون وقع باتفاق بين الطرفين، ولهذا قال تعالى في آية الاستمتاع[وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا] واحضار الشهود كذلك عند السراح، ولهذا عندما قال تعالى في سورة الطلاق2[فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ] تابع سبحانه قائلا[وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا]

لكن يجب أن نعلم بأن الله تعالى عندما تحدث عن الإرث استعمل سبحانه كلمة أزواجكم وليس نساؤكم، وذلك ليعيّن لنا سبحانه بأن المرأة التي يعقد عليها الرجل للنكاح أي النِكح، هي التي لها الحق فيما ترك نِكحها أي زوجها، وليس بعلها كما بيّنا من قبل، والعكس صحيح.

والآن بما أننا نعلم ما جاء به الله تعالى في كتابه عن النكاح والاستمتاع بشيء من النساء، وهو بريء سبحانه من زواج المتعة ورسوله، لأن هذه العبارة لا وجود لها في كتابه تعالى الذي أنزله على رسوله، وهي عبارة خاطئة ، وتناقض نفسها بنفسها لأن الرجل لا يمكن أن يتعاهد مع المرأة على النكاح، أي الزواج والذي يؤدي إلى إنجاب أولاد، والعيش مدى الحياة دون عزم نية الطلاق، وإيتائها أجرها بالمعروف، وفي نفس الوقت يتعاهد معها بعدم الإنجاب وتحديد المدة الزمنية، وبالتالي إيتائها أجرها فريضة، وبما أن كتاب الله تعالى ليس فيه متناقضات، ومحمد رسول الله ص لا يحقّ له أن يبدّل من آيات الله شيئا كما جاء في سورة يونس15 [وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ] وجب علينا أن نخل بعض الروايات التي تتحدث عن هذا الموضوع والتي ذكرناها في أول الفقرة حتى لا نصيب قوما بجهالة.

الكل يعلم بأن محمدا رسول الله ص كان سيد قومه وحاكمهم وآمرهم، ولهذا قال تعالى في سورة الأعراف199[خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ] وهنا

كما نرى، قال تعالى[وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ] يعني أن يجعل الحلال خاضعا لما قد يُعرف عند قومه، ولهذا قال تعالى العرف وليس المعروف، و بما أن رسالة محمد جاءت بسعة في الحلال وبحدود، وهذا بيّناه في فقرة <أمة وسطا> يعني أن الحلال هو القاعدة، وهذه القاعدة ذات حدود وتخضع لما يُعرف لدى المجتمع، فمحمد ص كان يقنّن ما أحل الله تعالى لعباده لكي لا يكون الظلم بين الناس، فهو كان ينهي ولا يحرم ما أحل الله تعالى، ولا ينسخ ما أقرّه سبحانه، وهذا ما يقوم به مشرّعي القوانين في مجتمعاتنا، إلاّ أنه في أيامنا نحن نستعمل كلمة المنع، وليس النهي أو التحريم أو النسخ.

فعندما قال ابن كثير في تفسيره بأن هناك من قال بأن محمدا ص أباح، ثم نسخ، فهذا يعني أن الاستمتاع، وليس زواج المتعة، كان حلالا ومازال، لكن قومه استغلّوا هذا النوع من العلاقة مع المرأة لصالحهم، كما هو الشأن بالنسبة لتعدّد الزوجات في المجتمعات الإسلامية، والتي اضطرّ حكامها لتقنين هذا النوع من النكاح لكي لا تُظلم المرأة، ومحمد ص فعل نفس الشيء بالنسبة للاستمتاع، وكذلك أبو بكر وعمر، والسبب هو أن الله تعالى عندما قال في سورة البقرة236 [لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ] وبما أن الآية تتكلم عن الاستمتاع، فكان الرجل يعقد على المرأة ليستمتع بشيء منها لمدة ما، وقد تطول أو تقصر تلك المدة، وبما أنه لم يجامعها أي لم يختلط منيهما، فبديهيا ومنطقيا ليست بحامل، وبالتالي ليس للرجل عليها عدة، فهو يسرحها مباشرة، ثم يذهب ليستمتع بعلاقة مع امرأة أخرى كما هو الشأن بالنسبة للشيعة حاليا، والذين يستمتعون بشيء من المرأة لمدة قصيرة ودون عقد نكاح، وقد تحمل منه تلك المرأة كما كان الشأن في عهد محمد ص فينكر نسب ذلك الحمل لأن المرأة ليست من المحصنات، ولهذا قام محمد ص بالأمر بالعرف، فمنع ولم يحرم ولا يحق له كما جاء في سورة المائدة99[مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ] هذا النوع من العلاقة حتى لا تُظلم المرأة ويكثر اللقطاء في المجتمع، لأن آنذاك لم تكن وسائل منع الحمل كما هي موجودة في أيامنا نحن، والوسائل العلمية التي تستطيع أن تُنسب الولد لوالده كالحمض النووي حتى لا يستطيع هذا الأخير نفي ذلك النسب، ولهذا كان محمد ص يدعو إلى العزل، أو وضع الثوب فوق المرأة كما جاء في الحديث النبوي الذي أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال:< كنا نغزوا مع رسول الله ص وليس لنا شيء فقلنا ألا نستخصي؟ فنهانا عن

ذلك، ثم رخّص لنا أن ننكح المرأة بالثوب، ثم قرأ علينا[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ]

وعندما تولى أبو بكر الخلافة فعل نفس الشيء، وكذلك عمر والذين من بعده، فهم قنّنوا حسب عرفهم ما أحل الله تعالى ولم يحرموه، ولا يحق لهم هم كذلك، فمنعوا كليا هذا النوع من العلاقة، والذي جعله الله تعالى لمحاربة الدعارة، ووسيلة لتحصين المرأة غير المحصنة فلا تضطر أو تُكره على البغاء لكي تكسب قوتها، أو قوت عائلتها، أو أولادها ولهذا قال تعالى في سورة النور33[وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] ولهذا تقوم في أيامنا نحن كثير من الجمعيات النسوية في عديد من المجتمعات بإحصان النساء غير المحصنات، حتي لا يكنّ مضطرات للدعارة لكسب قوتهن أو مكرهات عليها، ولهذا قال تعالى في سورة النساء25[فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ]

أما ما جاءت به الأحاديث والروايات عن إباحة الاستمتاع وليس زواج المتعة للاضطرار، فهذا غير صحيح، وإن وقع فعلا فهو لا يصحّ، لأن الاستمتاع بشيء من النساء غير المحصنات، هو أمر أحله الله سبحانه، والاضطرار جعله الله تعالى لما حرمه وليس لما أحله، والذي يكون بين الله وعبده، أي ظلم الإنسان لنفسه، كأن يقوم بعلاقة غير شرعية سرّا مثلا ثم يستغفر الله كما جاء في سورة آل عمران135وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ] وليس بين الإنسان وأخيه الإنسان كأخذ مال الغير مثلا عند الضرورة، ودرجة هذا الاضطرار الذي أحل الله تعالى يحدّدها المضطر بنفسه وليس غيره، لأن كل شخص مسؤول عن فعله كما جاء في سورة المدثر38[كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ] فلو كان فعلا ابن العباس رحمه الله أفتى بما جاءت به الروايات، فهو قد أخطأ، لأن الاضطرار والإكراه لما حرم الله تعالى وليس لما أحلّه، وإلاّ فقد فعله لكي يَحدّ من ظلم الرجال للنساء وكثرة اللقطاء.

أما زواج المتعة فلا أصل له في كتاب الله تعالى، لأن كلمة الزواج تدل على النكاح وهو خاص بالمحصنات، والمتعة تدل على الاستمتاع وهو محرم على المحصنات، فبالتالي عبارة زواج المتعة تدل على الشيء ونقيضه كما ذكرنا من قبل، وهذا ليس من صفات الله سبحانه، وإنما هو من صفات بعض البشر، وأما القول بأنه زنا فهذا غير صحيح إن عُني به الاستمتاع، وإنما هو بغاء حسب ما هو متداول عند طائفة الشيعة، وبعض

من طائفة السنة، وقد بيّنا الفرق بين الزنا والبغاء، حتى لا تختلط علينا الأمور ونفتي بما لا يرضي الله تعالى لأنه فرّق بينهما، والدليل أنه جاء بكلمتين مختلفتين، مما يجعل الإختلاف في دلالتهما.

وأما ما قيل عن الإختلاف الواقع بين ما قرأ به ابن عباس آية الاستمتاع ، وكذلك أبي بن كعب، والسدي، وسعيد بن جبير، وما نقرأ به نحن حسب ما وجدناه داخل المصحف، فهذا لا يؤثر في حكم الله تعالى، لأنه لا يكفي لأيّ شخص أن يُضيف، أو يُزيل كلمة، أو أكثر لينسخ حكما من أحكام الله تعالى، أو يُضيف حكما إلى أحكامه لأنه تعالى أحكم آياته، ثم فصّلها في آيات كثيرة، حتى إذا وقع خلل في آية ما تداعت له جميع الآيات بالخلل. فإن أراد شخص أن يزيل حكم الاستمتاع، وجب عليه أن يزيل كل الآيات التي فصّل الله تعالى بواسطتها هذا الحكم، ومنها ما بيّنا في هذه الفقرة، ولهذا قال تعالى في سورة هود1 [**الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**] وقال كذلك في سورة الكهف54 [**وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا**].

والله هو العليم الحكيم الخبير.

الزنــــا

قال الله تعالى في سورة النور2[ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ] وقال تعالى في سورة النور33[وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] فكما نرى، الله تعالى في الآية الأولى ذكر الزنا، وفي الآية الثانية ذكر البغاء، وكما نعلم حسب القواعد التي وضعها سبحانه لتدبر كتابه، لا يمكن لكلمة واحدة أن تكون لها أكثر من دلالة، ولا يمكن لكلمتين مختلفتين أن تكون لهما نفس الدلالة، والاّ فما جدوى أن يأتي الله تعالى بكلمة تختلف لغويا عن أخرى لتكون لهما نفس الدلالة؟ فهل الله مثلا خلق كوكبا يختلف عن كوكب الشمس ليكون ضياءً؟ وهل الله تعالى خلق كوكبا يختلف عن كوكب القمر ليكون نورا؟ أوليس الذي أنزل القرآن هو نفس الإله الذي خلقنا وهذا الكون؟ بلى ولهذا وجب علينا أن نقدر كلام الله تعالى حق قدره، ونتدبر كتابه تدبرا يناسب عظمته، ولا نجعل خطابه لنا كخطاب بعضنا لبعض، حتى لا يكون كتابه قرآنا ذا عوج فيكون كالإنسان الذي بداخله أكثر من شخصية، وبالتالي يكون كإنسان غير سليم.

فكما تبيّن حسب ما جاء في القرآن، هناك نوعان من النساء وليس لهما من ثالث، نساء محصنات ونساء غير محصنات. فالمحصنات كما تبيّن هن اللاتي لهن من يُحصنهن من العلاقات غير الشرعية، وذلك بتربيتهن ورعايتهن والتكفل بهن كآبائهن، أو أحد من أفراد عائلتهن إلى أن ينكحن أزواجا يحصنهن هم كذلك. وغير المحصنات، هن اللاتي لا تتوفر لديهن هذه الشروط فيكنّ مضطرات للعلاقات غير الشرعية لكسب قوتهن، أو مكرهات على ذلك، ولهذا جعل الرحمان الرحيم لكل نوع منهما حكمه.

فعندما قال تعالى[ٱلزَّانِيَةُ] فذلك لأن كلمة زانية جذرها اللغوي هو فعل زنّ، فنقول زنّت المرأة يعني استرخت مفاصلها ولم تعد تقاوم، فالزانية إذًا هي المرأة التي لا تستطيع مقاومة رغبتها الجنسية، وبما أن المحصنة لها من يحصنها، فإن قامت بعلاقة غير شرعية فذلك لأنها خضعت لرغبتها الجنسية، وليس لأنها مضطرة لذلك أو مُكرهة على ذلك، ولهذا نعت الله تعالى العلاقة الجنسية غير الشرعية للمحصنة بالزنا، والرجل الذي يجامعها نعته أيضا بالزاني، لأنه جامع محصنة بطريقة غير شرعية، ولهذا قال

تعالى في سورة النور3[ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ] ثم أمر تعالى بجلدهما معا وليس المرأة لوحدها، ولهذا قال تعالى[فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ] ولم يقل (فاجلدوهما) كما جاء في آية السارق والسارقة حيث قال تعالى [فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا] لأن فاحشة الزنا لا تُعدّ كذلك، إلا بوجود زانية و زان، وبالتالي لا يجلدان إلا إذا افتضح أمرهما، ولهذا أوجب تعالى وجود أربعة شهود كدلالة على افتضاح فاحشة الزنا، ولهذا قال تعالى في سورة النور4[وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ]

وقد نعت تعالى الجلد بالعذاب، كما جاء في سورة النساء25[فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ] وكذلك في سورة النور8 [وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ] وذلك لأنه عقاب لمن افتضح أمره حتى لا تشيع الفاحشة في المجتمع، وليس بحدّ كما توارثناه، والذي لا وجود له في كتاب الله تعالى، وليس بكفارة، والتي تكون عن طريق صوم أو صدقة أو نسك، وإنما كفارة الزنا هي الاستغفار كما جاء في سورة آل عمران 135[وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ] سواء افتضح أمر الزانية والزاني أو لم يفتضح كما جاء في سورة الأعراف33[قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ]

والله تعالى عيّن فعل الجلد دلالة على العقاب الذي يكون مباشرة على الجلد، وليس من الضروري أن يكون على الظهر، فقد يكون الجلد مثلا على باطن القدم، أو باطن الكفّ، ولهذا لم يحدّد الله سبحانه مكان الجلد، وإنما تركه حسب العرف، ولهذا قال تعالى مخاطبا محمدا ص في سورة الأعراف199[خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[خُذِ ٱلْعَفْوَ] ثم تابع قائلا[وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ] يعني أن يكون العفو أولى من العقاب، كما جاء في سورة التغابن14[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] وإن كان هناك عقاب فهو يخضع لعرف المجتمع وليس لقول الجاهلين، ولهذا عندما قال تعالى [خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ] تابع سبحانه قائلا [وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ]

فالزنا إذًا هو كل علاقة غير شرعية للمحصنات فقط، ولهذا عندما قال تعالى في سورة النور4[وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ] استعمل تعالى كلمة [ٱلْمُحْصَنَٰتِ] ولم

يستعمل كلمة النساء التي تدل على المحصنات وغير المحصنات، ولهذا قال تعالى كذلك في سورة النور23 [إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ]

وبما أن كلمة المحصنات دلالة على المرأة التي لها من يُحصنها، وقد يكون الأب و الأم، أو أحد من أفراد عائلتها، أوقد يكون زوجها، وبما أن أبويها أو أفراد عائلتها لا يمكن أن يتهموها بالزنا، وإنما زوجها قد يتهمها بذلك، فالله تعالى وضع حكما لهذه الحالة كما جاء في سورة النور6 [وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ7وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ8وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ] وهنا كما نرى، قال تعالى [يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ] ولم يقل - يرمون نساءهم - وذلك لأن الله تعالى يتكلم عن النكاح، والذي من شروطه المحصنة المؤمنة، يعني المرأة التي كان لها من يحصنها من قبل زوجها، ثم أصبحت مُحصنة من طرف زوجها، فإذًا هي لم تزن من قبل، وإن اتهمها زوجها بالزنا فهذا يجعلها من غير المحصنات، وبالتالي لن يقبل أحد من بعد زوجها بنكاحها، وستكون من اللاتي يُستمتع به منهن، ولهذا أشترط تعالى أربعة شهادات بالله على المرأة لتبرئة نفسها، وكذلك على الرجل لإثبات تهمته لها في حالة عدم إحضاره أربعة شهداء، فإن أصرت المرأة على براءتها بشهادتها بالله للمرة الخامسة، وجب على الحاكم أن يعدل عن معاقبتها، أي العذاب كما قال تعالى في الآية8 [وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ] ويُترَك أمرها إلى الله تعالى، والذي قد يغضب عليها إن كان زوجها من الصادقين، ولهذا تابع تعالى قائلا9 [وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ]

وكما تبيّن في فقرة <المؤمن المشرك والذي كفر> بأن كلمة مشرك هي دلالة على كل شخص يطيع شخصا آخرا في أمور الدين بغير علم كما يطيع المؤمن ربه الذي خلقه، وكما تبيّن كذلك في فقرة <النكاح والاستمتاع> بأن النكاح هو دلالة على الجماع والذي قد يؤدي إلى الحمل، وكما تبيّن في هذه الفقرة بأن الزنا هو دلالة على كل علاقة غير شرعية بالنسبة للمحصنات، فالله تعالى عندما قال في سورة النور3 [ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ] فهذا يعني أن المؤمن عندما يجامع محصنة بطريقة غير شرعية خضوعا لرغبته الجنسية فهو زان، وإن جامعته المحصنة خضوعا لرغبتها الجنسية كذلك فهي زانية، لكن إن جامعته خضوعا لرغبته الجنسية هو وليس لرغبتها هي فهي إذًا مؤمنة مشركة، لأنها

أطاعت شخصا في معصية كما يطاع الرب في الدين، فهي إذًا ظلمت نفسها، والعكس صحيح، ولهذا ختم تعالى الآية بقوله[وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ] لأن المؤمن هو الذي لا يعصي الله تعالى، ولا يطيع شخصا في معصية الله، وهذا ما بيّنه تعالى في سورة القصص15[وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ16|قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ] وهنا كما نرى، عندما قتل موسى عدوه، نسب فعله إلى عمل الشيطان، لأن قتل موسى لعدوه لم يكن دفاعا عن نفسه والذي أحله الله تعالى كما جاء في سورة المائدة32[مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ] وإنما كان طاعة للذي من شيعته، فهو إذًا أطاع شخصا في معصية الله تعالى، فهو قد أشرك بالله، ولهذا قال تعالى متحدثا عن موسى[قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ16قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى] ثم تابع قائلا[فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

البغـــاء

قال الله تعالى في سورة النور33[وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] وبما أن الله تعالى أحكم آياته، وجب أن نحلّل كلامه تحليلا دقيقا يليق بعظمته سبحانه، فهنا في هذه الآية قال تعالى[فَتَيَٰتِكُمْ] ولم يقل - ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات- كما جاء في آية النكاح في سورة النساء25[وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ] وذلك كما تبيّن من قبل بأن ما ملكت أيماننا هم الأشخاص الذين يعيشون معنا في نفس البيت ونعولهم، وليسوا من أفراد عائلتنا، فنحن إذًا نعلم حسن أخلاقهم، ولهذا أجاز الله تعالى نكاح الفتيات المؤمنات منهن عند عدم القدرة على نكاح المحصنات المؤمنات، فعندما قال تعالى[وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ] فهذا يعني الشابات مثلا اللاتي يخدموننا مقابل أجر، ولسن من اللاتي نقوم برعايتهن، ولهذا قال تعالى[وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ] لأنهن أردن إحصان أنفسهن بالعمل حتى لا يكنّ مضطرات للعلاقات غير الشرعية لكسب قوتهن، ولهذا تابع قوله تعالى[عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا] ولم يقل -على الزنا -

فالبغاء إذًا هو كل علاقة جنسية غير شرعية تضطرّ إليها أو تُكره عليها المرأة لكسب قوتها لعدم وجود من يعولها أي يحصنها، فهي إذًا من غير المحصنات، ولهذا لم يستعمل تعالى كلمة الزنا، والتي كما تبيّن دلالة على كل علاقة غير شرعية تكون خضوعا للرغبة الجنسية فقط، وليس عن إكراه لكسب القوت، ولهذا عندما قال تعالى [وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا] تابع سبحانه قائلا[وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ]

ولهذا عندما قال تعالى في سورة مريم20[قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا] فهو سبحانه تكلم عن الزنا وليس البغاء، وذلك لأنه قال تعالى [وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ] يعني أن مريم لم ينكحها بشر، وبما أن النكاح هو خاص بالمحصنات، فقول مريم - لم يمسسني بشر- يعني كنتُ محصنة ولم ينكحني بشر، ثم تابع تعالى قائلا[وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا] يعني ولم تكن أيضا من غير المحصنات، فتضطر لكسب قوتها من العلاقات الجنسية غير الشرعية، ولهذا قال تعالى في سورة النور28[يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ

وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا] وهنا كما نرى، قال تعالى[مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ] يعني لم يكن أبوها رجل سوء فيكرهها على البغاء، ثم تابع قائلا[وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا] وهنا كما نرى، استعمل تعالى كلمة بغيا وليس زانية، يعني أن أمّ مريم لم تكن من غير المحصنات، فتكون مضطرة للعلاقات غير الشرعية لكسب قوتها، وبالتالي قد تسيء تربية ابنتها مريم فتكون هي كذلك بغيا.

فكما تبيّن من قبل، النساء نوعان، محصنات وهن اللاتي أحل الله تعالى نكاح المؤمنات منهن، وحرم الاستمتاع بشيء منهن، سواء كن مؤمنات أو غير مؤمنات، وكل مؤمنة منهن قامت بعلاقة جنسية غير شرعية مع رجل فهذه العلاقة تُعدّ زنا، سواء كانت متزوجة أو غير متزوجة، ويجلد كل واحد منهما أي الزانية والزاني مائة جلدة إن افتضح أمرهما، وهو العذاب الذي فرضه الله تعالى وليس الحدّ، ولا يعتبر كذلك كفارة، وإنما هو عقاب مجتمعي حتى لا تشيع الفاحشة بين الناس، أما إذا كانت تلك العلاقة غير الشرعية عن إكراه، فهي اغتصاب وليس زنا، وبالتالي ليس هناك عذاب.

وهناك نساء غير محصنات، وهن اللاتي أجاز الله تعالى الاستمتاع بشيء منهن سواء كن مؤمنات أو غير مؤمنات، ونكاح ما ملكت أيماننا من المؤمنات منهن عند عدم القدرة على نكاح المحصنات المؤمنات، وأيّ علاقة جنسية غير شرعية قمن بها أثناء فترة زواجهن، أو فترة الاستمتاع بشيء منهن، فهي تعدّ زنا، ويعذّبن نصف ما على المحصنات من العذاب، أي خمسين جلدة كما جاء في سورة النساء25[وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] وكل علاقة جنسية غير شرعية خارج فترة الاستمتاع أو فترة النكاح، تعدّ بغاء إن كانت لاضطرار أو عن إكراه لكسب القوت، وليس عليهن من عذاب وأمرهن إلى الله الرحمان الرحيم، وهو أعلم بحالهن، ولهذا قال تعالى في سورة النساء110 [وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا] ومن هو أرحم من الله عز وجل!

ولهذا أحلّ الله تعالى الاستمتاع بشيء من النساء غير المحصنات، حتى لا يكنّ مضطرات للبغاء، أي الدعارة لكسب قوتهن أو إعالة أولادهن أو عائلتهن.

وصدق قوله تعالى في سورة النحل89[وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ] وقوله في سورة يوسف111[مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] ولهذا قال تعالى في سورة الأنعام155[وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ] وفي سورة الجاثية6[تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

المحكم والمتشابه

قال الله تعالى في سورة آل عمران7[هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ] كما يعلم الجميع بأن هذه الآية هي مصدر فقه المحكم والمتشابه، وما نتج عنه من اختلافات في الآراء بين الفقهاء، وذلك لأزيد من ألف سنة. لكن يجب أن نعلم كذلك بأن الله تعالى أنزل كتابه فأحكم آياته، ثم فصّلها حتى لا يكون اختلاف في تدبرها، وذلك بوضعه سبحانه قواعد أساسية ومحدّدة لكي لا يكون في القرآن ما يدعو إلى الاختلاف، ولهذا قال تعالى في سورة النساء82[أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا]

فكلما وجدنا اختلافا في تفسير آية ما، أو كان تفسيرها يناقض تفسير آية أخرى، أو يناقض المنطق، أو العقل، أو إنسانية البشر، أو رحمة الرحمان، وجب أن نعلم بأن تفسير تلك الآية لا يطابق قول الله تعالى، وبالتالي وجب التجرد من كل تقديس وتعظيم لأقوال آبائنا، والتحرّر من تلك الأكنة التي سبتنا بها عقولنا، والقوللة التي ألبسنا بها قول الله سبحانه، بظنّنا أن ما عقله أسلافنا، والذي يناسب الحقبة التي عاشوا فيها والآليات المتوفرة لديهم آنذاك، هو الحقيقة المطلقة، ولا يمكن أن يكونوا قد أخطأوا، وبالتالي الاستمرار في جعل فقه المحكم والمتشابه خاضعا لأول تفسير فُسرت به الآية، وبما أن تدبرها لم يخضع للقواعد الربانية، كما الحال لجميع آيات الكتاب، وهذا ما سنبيّنه في هذه الفقرة كذلك، أدّى إلى تعدّد تعريفات المحكم والمتشابه، والتي سنذكر البعض منها بطريقة ملخصة من كتاب <الإتقان في علوم القرآن> للمرحوم جلال الدين السيوطي، والذي تحدث فيه عن أغلب التعريفات للمحكم والمتشابه التي جاء بها جل الفقهاء الذين عاشوا من قبله، أي القرن التاسع الهجري .

فقد قال في الجزء الرابع و الخامس والأربعين عن حبيب النيسابوري بأن هناك ثلاثة أقوال :

أولهم : أن القرآن كله محكم لقوله تعالى[كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ] ونحن نقول كما سيقول كل عاقل، بأن هذا قول صحيح لأن ما قاله وما استدل به لا يتناقضان.

ثانيهم : أن القرآن كله متشابه لقوله تعالى[كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ] ونحن نقول، بأن هذا قول خاطئ، كما سيقول كل من يتدبر القرآن، لأنه ينفي قول النيسابوري الأول وينفي كذلك ما استدلّ به، لأن الله تعالى لا يناقض قوله بقول آخر، فهو إله عظم شأنه ولا يمكن أن يناقض قوله.

ثالثهم : وهو الصحيح بالنسبة للسيوطي، أي انقسام القرآن إلى محكم ومتشابه، وذلك ظنا من هذا الأخير وكثير من الفقهاء كذلك، أن المحكم هو نقيض المتشابه أي المحكم لا نتوقف معرفته على بيان، والمتشابه لا يُرجى بيانه، تمّ قول النيسابوري.

ونحن يجب أن نتساءل، ما معنى قوله تعالى في سورة هود1 [الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ]؟ أم وجب علينا تفسير هذه الآية بما يناسب قول السيوطي، لكي لا نعترف بعدم صواب قوله، وكذلك قول الآخرين؟

ثم جاء السيوطي رحمه الله باختلافات أخرى لفقهاء آخرين في تعريف المحكم والمتشابه، ومنها أن المحكم ما عُرف المراد منه إما بالظهور أو بالتأويل، والمتشابه ما استأثر الله تعالى كقيام الساعة وخروج الدجال، والحروف المتقطعة في أوائل السور.

ونحن نقول، بأن كل هذا خطأ، لأن ما جاء به السيوطي هنا يتكلم عن مضمون الآيات وليس الآيات نفسها، لأن الله تعالى أحكم آياته وليس أنبائه، والتي بيّنها تعالى وفصّلها كما هو الشأن لأحكامه، وهناك من الأنباء ما أصبحنا نعلمها قبل وقوعها كقيام الساعة مثلا، وذلك بواسطة العلم، إلا أمرين لا يمكن لأحد أن يعلمهما في الحياة الدنيا، وهما الوجود المادّي لله تعالى ويوم الحساب، ولهذا أمرنا سبحانه بالظن بهما، أي الإيمان بهما وليس بتصديقهما، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة46 [ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ] وليس يعلمون، وفي سورة البقرة8 [وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ] وليس يصدّقون.

ثم جاء رحمه الله برأي آخر، وهو أن المحكم ما وضح معناه والمتشابه نقيضه. ونحن نتساءل هنا كذلك، كيف لإله سبحانه أن ينزل إلينا كتابا نحاسب على ما بداخله يوم القيامة، ويجعل فيه ما لا نستطيع توضيح معناه؟ فما جدوى إنزاله إذاً؟

ثم جاء رحمه الله برأي آخر، وهو أن المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا وجها واحدا، والمتشابه ما احتمل أوجها. وهذا القول الذي جاء به السيوطي هو الذي جعل كتاب الله تعالى قرآنا ذا عوج، وجعل بعض الفقهاء يفسرون الآيات حسب آرائهم، فيحرمون بأهوائهم وليس بما قال الله تعالى، ولهذا عندما قال سبحانه في

سورة الأنعام119 [وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ] تابع سبحانه قائلا [وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ] وعندما قال تعالى في سورة الأعراف32 [قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ] تابع سبحانه قائلا [كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ] وعندما قال في سورة النحل116 [وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ] تابع سبحانه قائلا [لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ] وعندما قال في سورة يونس59 [قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا] تابع سبحانه قائلا [قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ]

وهكذا استمرّ السيوطي في ذكر الاختلافات في تعريف المحكم والمتشابه إلى أن ذكر قول ابن العباس، وهو أن المحكمات هي ناسخه، وحلاله وحرامه، وحدوده وفرائضه، وما يؤمن به ويعمل به، والمتشابهات هي منسوخه، ومقدمه ومؤخره، وأمثاله وأقسامه، وما يؤمن به ولا يعمل به.

ونحن نقول، على أيّ قاعدة من القواعد التي وضع الله سبحانه اعتمد ابن العباس رحمه الله ليعرّف ما هي المحكمات وما هي المتشابهات، إذا علمنا كما قلنا من قبل، بأن الله تعالى أحكم آياته، وذلك من قوله تعالى - بسم الله الرحمان الرحيم - إلى آخر آية في المصحف وهي - من الجنة والناس - فهل هاتان الآيتان وأخر مثلهما في القرآن تتكلمان عن حكم من أحكام الله تعالى، أو نبأ، أو قصة؟ أم ليستا من كتاب الله تعالى الذي قال فيه في سورة هود1 [الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ]؟

فكما نرى، هذه الاختلافات كلها آراء بشرية، وليس لها أيّ صلة بكتاب الله تعالى الذي أنزله بعلمه، ووضع له قواعدا لتدبره، كما هو الشأن للعلوم التي اكتشفها الإنسان ووضع لها هو كذلك قواعدا للعمل بها، كعلوم الرياضيات والفيزياء مثلا. وبما أن الله تعالى قال في كتابه في سورة يوسف76 [وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ] وجب علينا أن نخضع لقواعد علم الله سبحانه، وهذا ما سنقوم به في آية المحكم والمتشابه كما هو الشأن في كل ما نتدبره من آيات كتابه تعالى، وسوف نرى بأن هذه الآية لا علاقة لها بكل ما قيل عن المحكم والمتشابه، وبأن كتاب الله ليس فيه متشابه، وبأن المتشابه ليس هو نقيض المحكم، وبأن كتاب الله كل آياته محكمة، وهذه الآيات منها ما هي متشابهة، يعني أن الآية محكمة والتي هي القاعدة، وقد تكون متشابهة مثاني.

قال الله تعالى في سورة ص29[كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ] وبما أننا نريد أن نتدبر آية المحكم والمتشابه، وجب علينا أن نلبّها حتى نتعرّف على معناها الحقيقي، وذلك بتحليلها تحليلا دقيقا يناسب علم الله تعالى، وطريقة إحكام آيات كتابه.

فأول شيء وجب علينا فعله هو تعريف دلالات الكلمات التي جاءت في هذه الآية بطريقة صحيحة، وذلك باستعمال القواعد الأساسية التي وضع الله تعالى في كتابه حتى نستطيع فهمها بما يوافق كلامه سبحانه فنعلم مضمونها، والذي لا يمكن أن يخرج عن مضمون كتاب الله كله.

فالله تعالى قال في سورة آل عمران7[هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ] وهنا كما نرى، ختم الآية بقوله[وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ] يعني أن هذه الآية وكل آيات الكتاب، لا يتعرف على معناها إلا الذين يلبّون كلامه سبحانه، ويتعمقون في فهمه، وهذه الآية لا يمكن تدبرها إلا باستحضار الآيات الأخر التي فصّلها تعالى، وصرّفها في أمثلة، والتي لها علاقة مباشرة بها، ومنها قوله تعالى في سورة هود1[الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ] وقوله تعالى في سورة الزمر23[ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ] حتى لا يناقض تفسير آية تفسير أخرى، وبالتالي يكون تناقض في كلام الله تعالى حاشاه سبحانه. وسوف نستحضر آية أخرى، والتي هي سبب نزول آية المحكم والمتشابه.

فالله تعالى قال[هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ] وهنا كما نرى، الله يتكلم عن الكتاب وليس القرآن، وكما بيّنا من قبل، بأن كلمة الكتاب هي دلالة على المضمون، أي ما احتوى عليه المصحف من آيات، والتي نتكلم عن ما كتبه الله لنا وما كتبه علينا، ولهذا جاء تعالى بكلمة الكتاب، لأنه يتكلم في آية المحكم والمتشابه عن الآيات التي يتضمنها المصحف، ولهذا لم يستعمل سبحانه كلمة القرآن، والتي هي دلالة على الطريقة التي تلقى بها محمد ص الوحي، والتي هي القراءة كما بيّنه تعالى في سورة العلق1[ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ] ولهذا كلما أمرنا تعالى بتدبر كتابه استعمل كلمة القرآن وليس كلمة الكتاب، وهذا ما صرّفه تعالى في كثير من الأمثلة كقوله في سورة محمد24[أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ] وقوله كذلك في سورة فصلت3[كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ]

ثم تابع قوله تعالى قائلا[ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ] وهذا قد بيّناه كذلك في فقرة <القاعدة السادسة> بقوله تعالى في سورة هود1[الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ] وهو أن الله تعالى جعل آياته مكوّنة بطريقة محكمة، أي بطريقة محددة حتى لا يكون للآية أكثر من معنى، وذلك بتحديد كلماتها وليس أحكامها، وطريقة صياغها وتركيبها حتي لا يكون اختلاف في تدبر كلامه سبحانه، أو تحريفه.

فلهذا وجب علينا أولا أن نحدد دلالات الكلمات التي جاءت في آية المحكم والمتشابه، وذلك باستعمال القواعد التي بداخل القرآن والتي ذكرنا في البداية، ثم نتدبر الآية حسب تلك الدلالات، حتى يتوافق مفهومها مع كل ما صرّف تعالى من أمثلة كتفصيل للآية التي نحن في صددها، وهذه الكلمات هي – أم الكتاب – متشابهات – ما تشابه منه – تأويله – منه وفيه - الراسخون في العلم – وكذلك متشابها مثاني.

المحكم والمتشابه (أمّ الكتاب)

قال الله تعالى[هوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ] وبما أنه تبيّن دلالة الكتاب، وجب أن نبيّن دلالة كلمة أمّ، وبالتالي دلالة عبارة أمّ الكتاب. فكلمة أمّ جذرها اللغوي هو فعل أمّ، فنقول أمّت المرأة يعني صارت أمّا، أي هي المصدر لأطفالها، وهي الأصل أو البداية، ولهذا ننعت من يقيم الصلاة في الناس بالإمام، لأنه هو الأصل في الفعل، فهو الأول الذي يقوم بالحركة ثم يتبعه الآخرون.

فعبارة أمّ الشيء إذًا، تعني أصل أو بداية شيء لم يكن موجودا من قبل، ولم يكن هناك مثيله، ولكي لا يكون كتاب الله تعالى قرآنا ذا عوج، وجب أن نضع هذه الدلالة لكلمة أمّ في بعض الأمثلة التي ضربها سبحانه في القرآن، ومنها قوله في سورة الأنعام92 [وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ] وكما يعلم الجميع بأن محمدا ص نزل عليه الوحي في مكة، وهي القرية التي جعل الله فيها بيته الذي يُحجّ إليه، وبالتالي أصبح المكان آمنا كما جاء في سورة إبراهيم35[وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ] وكذلك في سورة القصص57[وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ] وهذا ما جعل الناس تستقرّ في مكة ويعمرونها، فكانت القبائل تأتي من كل الأنحاء، ولهذا

نعتهم تعالى بقريش، وكان لكل قبيلة عرفها ولسانها، مما أدّى إلى ظهور لغة يتحاورون بها بينهم، وكانت هي اللهجة العربية، والتي تحولت إلى لغة بعد نزول القرآن. ولهذا استعمل سبحانه عبارة أمّ القرى، يعني المكان الذي كان هو الأصل في وجود اللغة العربية التي نزل بها القرآن، لأن مكة هي أول مكان ظهر فيه اللسان العربي، ولم يكن موجودا من قبل، ولهذا قال تعالى في سورة الأعراف157 [ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ] يعني الرسول النبي الذي لم يُنزل الله تعالى كتاب بلسانه من قبل، أي أن الله تعالى لم ينزل من قبل محمد ص كتابا باللغة العربية، والتي ظهرت في أول الأمر بمكة، ولهذا قال تعالى في سورة الجمعة2 [هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ] وهنا كما نرى كذلك، قال تعالى[هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ] يعني أن الله تعالى بعث في العرب الذين لم يكن لهم أيّ كتاب من قبل بلغتهم، رسولا عربيا لأول مرة، ولهذا قال كذلك في سورة القصص59 [وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ] وهنا كما نرى كذلك، قال تعالى[حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا] يعني أن الله سبحانه لا يمكن أن يُهلك قرية ليس لها أيّ كتاب بلغتها حتى يبعث فيها رسولا يتلو عليهم آيات الله تعالى بلسانهم . فالأمي في القرآن وليس في مجتمعنا، هو الذي لم يكن له كتاب بلسانه من قبل، أو الذي جاءه الكتاب بلسانه ولكن لا يستطيع قراءته.

فعندما قال تعالى[هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ] فهذا يعني بأن الكتاب الذي أنزله تعالى على محمد ص، والذي أحكم كل آياته، فهو جعل من هذه الآيات ما هن أمّ الكتاب، أي أنزلهن تعالى لأول مرة ولم ينزل مثلهن من قبل، وذلك لأن الله تعالى قد أنزل الكتاب من قبل على موسى عليه السلام وأحكم آياته، وأنزل الكتاب على عيسى عليه السلام وأحكم آياته، ولهذا قال تعالى في سورة الحجر9 [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ] وكما نرى، قال تعالى[ٱلذِّكْرَ] ولم يقل القرآن، وهذا بيّناه في فقرة<الكتاب القرآن والذكر>

فالله تعالى أحكم آيات الكتاب الذي أنزله على محمد ص، وأنزل فيه آيات لم ينزل مثلهن من قبل في أيّ كتاب، فهن إذًا أمّ الكتاب، وقد بيّنا في فقرة <المحكم والمتشابه (سبب نزول الآية> أمثلة لآيات هن أمّ الكتاب، أي الآيات التي لم ينزلهن الله تعالى في أيّ كتاب من قبل، وليس لهن مثيل في التوراة ولا في الإنجيل.

المحكم والمتشابه(متشابهات)

قال الله تعالى[هوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ] وهنا كما نرى، قال تعالى[مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ] وكلمة متشابهات جذرها اللغوي هو فعل شبه، فنقول زيد يشبه عمرا يعني إذا رأيت زيدا حسبته عمرا، وإذا رأيت عمرا حسبته زيدا، وذلك لأنهما يتشابهان، يعني صورة زيد مثل صورة عمر، ولهذا قال تعالى في سورة النساء157 [وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ] يعني أنهم قتلوا شخصا حسبوه عيسى لأنه كان يشبهه.

فكلمة متشابهات تعني أن هناك أشياء تشبه أشياء أخرى تجعل الإنسان يظن بأنها نفس الشيء، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة125 [وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ] وهنا كما نرى، الله تعالى يتحدث عن أصحاب الجنة، وأنهم سوف يُرزقون بثمار تشبه تلك التي كانوا يُرزقونها في الحياة الدنيا، ولا علاقة لهذا بالمشتبه فيه، والذي أدّى إلى القول بأن في القرآن آيات تحتمل أوجها. فنحن عندما نتهم شخصا مثلا نقول مشتبه فيه، يعني يُحتمل وليس بمؤكد أن يكون هو الجاني، ولهذا قال تعالى في سورة الأنعام99[وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ] وهنا كما نرى، قال تعالى[مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ] يعني أن هناك من ثمار الزيتون ومن ثمار الرمان ما نحسب أنها نفس الشيء، ولهذا قال تعالى[مُشْتَبِهًا] ولم يقل متشابها، لكن عندما نذوقها نكتشف بأنها ليست كذلك، ولهذا تابع تعالى قائلا[وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ] لكن في آية المحكم والمتشابه قال تعالى[مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ] وليس مشتبهات، أو ما يُشتبه فيهن. كما نقول متفاعلات وليس مفتعلات،

فعندما قال تعالى[هوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ] فهذا يعني كما قلنا في الفقرة السابقة، بأن الله تعالى أنزل على محمد ص كتابا آياته محكمات، ومن هذه الآيات المحكمات ما هن أمّ الكتاب يعني لم يسبق أن أنزل مثلهن من قبل، فهو أنزلهن لأول مرة في هذا الكتاب، ومنهن أي المحكمات ما هن متشابهات، أي هناك تشابه بينهن، وبالتالي لا يمكن أن تكون الآيات المتشابهات نقيض الآيات المحكمات، وهذا ما يؤكد قوله تعالى في سورة هود1[الٓر كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ]

لكن السؤال هو، هل الله تعالى أنزل في القرآن آيات تشبه بعضها البعض؟ فإذا كان كذلك وجب علينا أن نجدها داخل الكتاب! وكمثل على هذا عندما يقول تعالى في سورة التكوير1 [إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ] يجب أن نجد في الكتاب نفسه أي القرآن، آية تشبهها إما تعبيرا أو مضمونا، وهذا ما يُسمّى بتكرار القول، والله تعالى لا يكرّر كلامه في نفس الكتاب ولنفس القوم، فعن أيّ تشابه يتكلم سبحانه إذًا؟ وهذا ما سيتبيّن ويجعلنا نقف على الخطأ الذي ارتكبه أول من فسّر آية المحكم والمتشابه، والذي توارثناه بدون أن نعقله كما هو الشأن لجلّ آيات الكتاب، وذلك راجع لتقديس أقوال آبائنا، وجعل قولهم كقول الله تعالى، وبالتالي جعلناهم أندادا له بزعمنا أنهم لا يُخطئون، وكل ما عقلوه هو الحقيقة المطلقة، ولا يمكن لأحد أن يعقل ما لم يعقلوه هم، وبالتالي وجب الأخذ بقولهم دون الرجوع إلى قول الله تعالى، ولو كان قولهم يخالف العقل والمنطق، ويؤدّي إلى تناقض في كلام الله ، والذي رضينا به وغدونا نزعم بأنه رحمة، ولهذا عندما قال تعالى في سورة البقرة170 [وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ] تابع سبحانه قائلا[أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ]

فكما قلنا في الفقرة السابقة بأننا ذكرنا أمثلة للآيات التي هن أمّ الكتاب، فقد ذكرنا كذلك أمثلة للآيات المتشابهات.

المحكم والمتشابه (تأويله)

قال الله تعالى[هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ] كما تبيّن بأنه من الأساليب التي استعملها تعالى لإحكام آياته، هو جعله لكل كلمة دلالتها الخاصة بها، والتي لا تتغير في جميع الآيات، وهذا الذي يجعل كتابه تعالى قرآنا غير ذي عوج. فكلمة تأويله لا علاقة لها بالتفسير، وهذا ما سنراه طبقا للقواعد التي وضع سبحانه داخل كتابه.

فكلمة تأويله جذرها اللغوي هو فعل آل، فنقول آل الشيء يعني ردّه، ونقول آل إليه يعني رجع إليه، والله تعالى قد ضرب لنا الأمثال لكي نعلم دلالة كلمة تأويل التي هي مصدر لفعل آل، والتي لا تتغير حسب تغير الآية، مما يجعل كلمات القرآن كرجل سلما لرجل، ومن هذه الأمثلة ما جاء في سورة الكهف78 [قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ

سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا] والكل يعلم بقصة موسى مع العبد الصالح وما فعل هذا الأخير، فهو خرق السفينة، وقتل نفسا زكية، وأقام الجدار لقوم رفضوا ضيافتهما، وهذا كله غير منطقي، ولهذا كلما قام العبد الصالح بفعل من الأفعال التي ذكرها سبحانه، إلاّ وسأله موسى عن السبب، ولهذا قال تعالى[**سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**] يعني أنه سيخبره السبب لفعله ذلك، يعني السبب لماذا خرق السفينة، ولماذا قتل نفسا زكية، ولماذا أقام الجدار.

فدلالة كلمة تأويل هي معرفة السبب لماذا فُعل الشيء، أو السبب لماذا قيل الشيء، أو المراد من الفعل أو القول، ولهذا قال تعالى في نفس السورة82[**وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**] وهنا كما نرى، عندما بيّن العبد الصالح المراد من فعله، ختم الآية سبحانه بقوله[**ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**] يعني ذلك هو سبب ما قمت به من أفعال .

وقال تعالى في سورة يوسف36[**وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ**] وهنا كما نرى، الفتيان طلبا من يوسف تأويل رؤياهما، يعني ما هو المغزى مما رأياه في منامهما، ولهذا قال تعالى [**بِتَأْوِيلِهِۦ**] ولم يقل – تعبيره - لأن تعبير الرؤيا هو أن تأخذ كل كلمة من الرؤيا فتعبرها، يعني أن تبيّن مقياسها في الحقيقة، وهذا ما فعله يوسف مع العزيز، فهو عبر البقرة في المنام بالسنة في الحقيقة، والسنبلة بالإنتاج الزراعي، وبعد ذلك قام بتأويل الرؤيا، يعني السبب، أو المغزى من تلك الرؤيا، ولهذا عندما قال تعالى في سورة يوسف43[**وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَـٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَـٰتٍ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ**] تابع تعالى قائلا[**قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ**] وهذا ما علّمه الله تعالى ليوسف، أي تأويل الأحاديث كما جاء في سورة يوسف101[**رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ**] يعني معرفة مغزى الحديث، أو المراد من القول، وليس تدبره كما قال تعالى في سورة محمد24[**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ**] وهنا كما نرى، قال تعالى[**يَتَدَبَّرُونَ**] يعني يبحثون في معاني آيات الكتاب بقواعده، أما التأويل فهو معرفة سبب قول الشيء أو فعله. وكمثال على الفرق بين التدبر والتأويل، ما جاء في سورة آل عمران96[**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ**

مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ] فالتدبر هو أن نعرف معنى كلمة بكّة مثلا لغويا، والتأويل هو أن نعرف لماذا قال سبحانه بكّة، ولم يقل مكّة.

فعندما قال تعالى[هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ] فهو سبحانه يتكلم عن سبب وجود التشابه، ولهذا قال تعالى [تَأْوِيلِهِۦ] والهاء ضمير متصل للتشابه، ولا يتكلم سبحانه عن الآيات المتشابهات ولو كان كذلك لقال -تأويلهن - وبما أن الله تعالى أحكم آياته، فيجب علينا أن نتدبرها كما هي، وليس كما فهمها آباؤنا.

فالله تعالى قال بأنه أنزل كتابا أُحكمت آياته، ومن هذه الآيات ما هن أمّ الكتاب، يعني أنزلهن لأول مرة في القرآن ولم ينزل مثلهن من قبل، ومنهن أخر (أي الآيات المحكمات) متشابهات، يعني هناك مثيلاتهن (ولا يمكن أن يكنّ داخل القرآن) فالذين لا يريدون الإيمان برسالة محمد ص، يتبعون ذلك التشابه وليس الآيات المتشابهات، لوجود سبب له ابتغاء الفتنة، وهذا السبب الذي زعموه، ذكره الله تعالى في كتابه وهو الذي كان سببا في إنزال آية المحكم والمتشابه، وصدق قوله تعالى في سورة النحل89[وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ] وقوله كذلك في سورة يوسف111[مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ]

المحكم والمتشابه (الراسخون في العلم)

قال الله تعالى[هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا] فهنا كما نرى، قال تعالى[وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ] والسؤال هو لماذا تحدث سبحانه عن الراسخين في العلم، ولم يتحدث مثلا عن المؤمنين؟ فمنهم إذًا الراسخون في العلم، وعن أيّ علم يتحدث سبحانه؟

فالله تعالى قال في سورة البقرة120[وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ] وكما نعلم، الله تعالى يخاطب في هذه الآية محمدا ص فقال له[بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ] يعني كتابه سبحانه، أي القرآن.

وقال تعالى في سورة آل عمران19[وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ] ونحن نعلم بأن اليهود والنصارى هم الذين أوتوا الكتاب من قبلنا، فهم كذلك جاءهم علم الله سبحانه بواسطة التوراة والإنجيل. فعندما قال تعالى[ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ] فهو يتحدث سبحانه عن الراسخين في علمه الذي جاء به الرسل، أي علم الكتب السماوية، وليس العلم الذي جاء به البشر، أي علم الكتب البشرية، ولهذا قال تعالى في سورة النساء166[لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا].

كما يعلم الجميع بأن الله تعالى ذكر في كتابه عبارة الذين أوتوا الكتاب، وهي دلالة على القوم الذين جاءهم رسول بكتاب بلسانهم، فأمة موسى هم من الذين أوتوا الكتاب من قبلنا الذي هو التوراة، وأمة عيسى هم كذلك من الذين أوتوا الكتاب من قبلنا الذي هو الإنجيل، ثم جاء محمد ص بالقرآن، فأصبح العرب هم كذلك من الذين أوتوا الكتاب، ولهذا قال تعالى في سورة النساء البقرة183[يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] وقال كذلك في سورة المائدة5 [ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ]

وهكذا صارت كل أمة لها كتابها بلسانها، لكن ليس كل من أوتي كتابه يستطيع قراءته، كما هو الشأن مثلا لأمة محمد ص، فهناك من يستطيع قراءة القرآن وهؤلاء هم الذين نعتهم تعالى بأهل الكتاب، وهي ليست عبارة خاصة باليهود والنصارى، وإنما هي نعت لكل من يستطيع قراءة الكتاب باللسان الذي نزل به، وهناك من لا يستطيع قراءة القرآن أي الكتاب، وهؤلاء هم الذين نعتهم سبحانه بالأميين، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة78[وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ] .

وبما أنه ليس كل من أوتي كتابه بلسانه يستطيع قراءته، فليس كذلك كل من استطاع قراءته، أي من الذين نعتهم تعالى بأهل الكتاب، يستطيع أن يعقل ما بداخله، وبالتالي يؤمن به، وإن كان كذلك فهو إذًا من الذين أوتوا العلم، يعني من الذين فقهوا وأدركوا ما بداخل الكتاب، أي علم الله تعالى، وبالتالي يستطيعون أن يفرقوا بين كلام الله تعالى وكلام البشر، ولهذا كلما جاء رسول من عند الله صدّقوه، وآمنوا برسالته كما جاء في سورة سبأ6[وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ] وكذلك في سورة الحج54[وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ] والأمثلة كثيرة في القرآن.

لكن في آية المحكم والمتشابه، قال تعالى[ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ] ولم يقل - الذين أوتوا العلم - وذلك لأن كلمة الراسخون جذرها اللغوي هو فعل رسخ، فنقول رسخ في العلم يعني تمكن فيه، أي علمه كله وتعمق في معانيه، وبما أن التوراة هي كتاب من عند الله والذي أحكم آياته تعالى، والإنجيل هو كتاب من عند الله والذي أحكم آياته كذلك، وبما أن آية المحكم والمتشابه نزلت في عهد محمد ص، وآنذاك لم يكن بعد قد تمّ تنزيل القرآن، فعندما قال تعالى[ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ] فذلك دلالة على اليهود والنصارى الذين يعلمون ما جاءت به التوراة وما جاء به الإنجيل، وبالتالي علموا جيدا كيف أحكم الله آياته، مما يجعلهم يفرّقون بين ما هو من عند الله تعالى، وما هو من عند غير الله، ولا علاقة لهم بالعرب الذين كانوا جديدي العهد بالرسالة، ولم يكونوا قد رسخوا في علم الله تعالى الذي جاء به القرآن، ولهذا عندما قال تعالى[ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ] تابع قوله سبحانه[يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا] يعني أمنوا بكل ما جاء به محمد ص الذي هو عبارة عن آيات محكمات كما هو الشأن للتوراة والإنجيل، وبالتالي هو من عند الله وليس من عند البشر، ولو كان منه ما تشابه، كما جاء في سورة النساء162[لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ]

فعندما قال تعالى[هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا] فهذا يعني كما قلنا، بأن الله تعالى أنزل على رسوله كتابا أحكم آياته، ومن هذه الآيات ما هن أمّ الكتاب أي أنزلهن لأول مرة في القرآن، ومنهن أخر متشابهات (مثاني) فأما الذين عندهم شكّ في رسالة محمد ص، اتبعوا ذلك التشابه لإثارة الفتنة وإيجاد سبب له لتكذيب ما جاء به محمد ص، لكن الذين تمكنوا من علم الله تعالى من أهل الكتاب، آمنوا بكل ما جاء به محمد ص من آيات محكمات، سواء كنّ أمّ الكتاب أو متشابهات، ولهذا عندما قال تعالى [وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ] تابع سبحانه قائلا[كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا]

المحكم والمتشابه (منه وفيه)

قال الله تعالى[هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ

إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ] يجب أن نعلم كما قلنا من قبل، بأن فقه المحكم والمتشابه انبثق عن أول تفسير فُسرت به الآية، وبما أننا قدّسنا ما قاله الذين من قبلنا وجعلناه كقول الله تعالى، أصبح مصدرنا في فهم الآية هو ما فهمه آباؤنا وليس الآية نفسها، وهذا ما وقع بالنسبة لجميع آيات الكتاب، والذي أصبح حاجزا بيننا و بين ما قاله الله تعالى. لكن عندما نتجرد من هذا التقديس، سوف يزيل ذلك الغشاء الذي يحجب قول الله تعالى، وبالتالي نستطيع أن نتدبر آيات الكتاب كما أنزلها سبحانه على رسوله، والتي أحكمها بحكمته ثم فصّلها بخبرته.

فعندما قال تعالى[هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ] فآباؤنا لم ينتبهوا لقوله تعالى[ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ] وكذلك قوله[مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ] أي لم ينتبهوا لكلمة منه، فتدبروا الآية بقول (كتاب فيه) وقول (ما تشابه فيه) فلم يفرقوا بين فيه ومنه، وهذا الذي جعلهم يقولون بأن القرآن فيه آيات تشابه آيات أخر، ولهذا وضعنا سطرين تحت كلمة فيه في أول الفقرة، وكذلك سطرين تحت كلمة منه في فقرة <الراسخون في العلم> وذلك لنشير للخطأ الذي ارتكب عند تدبر الآية لأول مرة، زيادة على الخطأ الذي بيّنا من قبل، وهو عندما قال تعالى[تَأْوِيلَهُۥ] ظنوا أن الله تعالى يتكلم عن الآيات المتشابهات، ولو كان كذلك، لقال تعالى – تأويلهن - ولكنه سبحانه يتكلم عن ما تشابه منه (وليس عن الآيات المتشابهات من القرآن، وليس في القرآن)

ولهذا وجب أن نبيّن الفرق بين كلمة منه وكلمة فيه، والذي سيساعدنا على فهم الآية بطريقة صحيحة. فالله تعالى قال في سورة آل عمران101[وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ] وهنا كما نرى، استعمل سبحانه كلمة فيكم ولم يستعمل كلمة منكم، وذلك لأنه يتكلم سبحانه عن رسول بين مجموعة من الكافرين، فكلمة فيكم أو مشتقاتها هي دلالة على شيء ضمن مجموعة، ولهذا قال تعالى في سورة النساء102[وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ].

لكن قال تعالى في سورة البقرة184[أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ] وهنا كما نرى، قال تعالى – منكم - ولم يقل – فيكم - وذلك لأنه استثنى سبحانه المريض، والذي على سفر من الذين كُتب عليهم الصيام، ونفس الشيء كذلك في سورة المزمل20[إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ

مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ] وهنا كما نرى، استعمل سبحانه كذلك كلمة منكم وليس كلمة فيكم، وذلك دلالة على استثناء المرضى، والذين يضربون في الأرض، والذين يقاتلون في سبيل الله، ممّا أمر الله به المؤمنين آنذاك، وهو الخروج مع محمد ص ليلا لنشر الدعوة، وهذا بيّناه في فقرة <المزمل>

فكلمة منهم أو مشتقاتها هي دلالة على شيء يُستثنى من مجموعة أو من حكم عام، ولهذا عندما قال تعالى في سورة النساء102[إِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ] تابع سبحانه قائلا[فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ] فهو سبحانه استثنى فرقة من المؤمنين من الذين وجب عليهم إقامة الصلاة.

فعندما قال تعالى[هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ] فهذا يعني أن الله أنزل على محمد ص كتابا يتكون من آيات محكمات، ولهذا قال تعالى في سورة هود1[الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ] واستثنى من بين هذه الآيات ما هن أمّ الكتاب (أي لم يُنزل تعالى مثلهن من قبل) ومن بينهن كذلك، أي الآيات المحكمات، ما هن متشابهات (أي أنزل مثلهن من قبل) والذين في قلوبهم زيغ اهتموا بهذا التشابه الذي جاء به القرآن (وليس بالآيات المتشابهات) ولهذا قال تعالى [فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ] فاخترعوا له سببا (وليس معنى للآيات المتشابهات) وبالتالي زرع الفتنة بين الناس، ولهذا قال تعالى[ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ] وكما نرى، بأن الله تعالى قال[تَأْوِيلِهِ] أي التشابه وليس تأويلهن، وهذا التشابه ليس في القرآن، ولهذا قال تعالى[مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ] ولم يقل (ما تشابه فيه) يعني التشابه ليس بين آيات القرآن، ولكن التشابه هو بين آيات من القرآن وآيات أخر من خارج القرآن، ولهذا قال تعالى في سورة الزمر23[ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ] وهنا يبيّن الله تعالى نوع ذلك التشابه الذي جاء به القرآن، والذي جعل له سببا أي تأويلا، الذين في قلوبهم زيغ لإثارة الفتنة، فعندما قال تعالى[ٱلْكِتَٰبِ مِنْهُ] وكذلك[مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ] فذلك دلالة على استثناء آيات لمقارنتها مع آيات أخر خارج القرآن، ولهذا لم يقل سبحانه - الكتاب فيه - و - ما تشابه فيه -

ولهذا وجب علينا أن نبيّن نوع هذا التشابه في الفقرة التالية، وبعد ذلك الشيء الذي ألحد إليه الذين في قلوبهم زيغ لإيجاد سبب له، والذي ذكره تعالى في القرآن وأعرض سبحانه عن ذكر حقيقة سبب وجوده، ولهذا قال تعالى [وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ] لكن الذين تعمقوا في علم الله ، آمنوا بكل آيات الكتاب الذي أنزله تعالى على محمد

ص، سواء أُنزل مثلهن من قبل، أو لم يُنزل مثلهن من قبل، ولهذا تابع تعالى قائلا [وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا]

المحكم والمتشابه (متشابها مثاني)

قال الله تعالى في سورة الزمر23[ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ] يجب أن نعلم بأن الله تعالى جعل القرآن عربيا لكي نعقل قوله كما جاء في سورة الزخرف 3[إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] ونزل به الروح الأمين بلسان عربي مبين وليس بلسان العرب، أو لسان الشاعر كما جاء في سورة الشعراء193[نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ194عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ195بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ] وكذلك في سورة الحاقة41[وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ 42|وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُون] ولهذا وجب أن نتدبر آيات الكتاب كذلك، ولا يحقّ لنا أن نُخضع كلام الله تعالى لأيّ لسان آخر.

فكما يعلم الجميع بالاختلاف الذي وقع في كلمة مثاني، كما هو الحال بالنسبة لأغلب كلمات القرآن، وكأن القرآن من عند غير الله، أو كأن الله تعالى لم يحكم آياته، ولم يضع القواعد لتدبرها! أولم يجعل تعالى القرآن عربيا ونزَله بلسان عربي؟ فلماذا لا نفسّر كلماته باللغة العربية، ونتدبرها بالسياق العربي!

ففي اللغة العربية نجد كلمة مقاهي وهي جمع لكلمة مقهى، وكذلك مباني هي جمع لمبنى، ومعاني هي جمع لمعنى، وبالتالي كلمة مثاني هي جمع لكلمة مثنى، والتي تعني الجمع بين شيئين معا في وقت واحد، فنقول دخل العمال مثنى مثنى أي دخل اثنان من العمال في آن واحد، ثم أثنان آخران في آن واحد كذلك، ولهذا قال تعالى في سورة النساء3[وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ] يعني الجمع بين اثنتين في آن واحد، أو ثلاث، أو أربع، وهذا الذي يدلّ على التعدّد، ولم يقل تعالى - اثنتين وثلاثا وأربعا - لأن هذا لا يدل على التعدّد، فقد ينكح الرجل امرأة ثم يطلقها وينكح أخرى، فهو قد نكح اثنتين وليس مثنى، لأنه لم يجمع بينهما في آن واحد، ولهذا قال تعالى في سورة سبأ46[قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ] يعني أن يقوموا (اثنين اثنين) أو يقوموا (واحدا واحدا) ولهذا قال تعالى كذلك في سورة فاطر1[فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ] يعني هناك ملائكة جعل لهم الله جناحين، وهناك من جعل لهم ثلاثة أجنحة، وهناك من جعل لهم أربعة.

فعندما قال تعالى[ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ] فهذا يعني أنه عندما قال في آية المحكم والمتشابه[وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ] وكما تبيّن بأن هذا التشابه ليس في القرآن، ولكن هو تشابه بين آيات من القرآن وأخر خارجه، فنوعيته إذًا هو أنه تشابه مثاني، يعني أن الله تعالى أنزل في القرآن آيات تشابه آيات أخر خارجه مثنى مثنى، ولهذا قال تعالى[مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ] ولم يقل -متشابه المثاني - وذلك لاختلاف معناهما في اللسان العربي.

فدلالة عبارة متشابها مثاني ليست هي نفس دلالة عبارة متشابها المثاني، ولكي نبيّن الفرق بينهما سنأتي بمثال. فعندما نقول: بيتا متساوي الجدران، فهذا يعني أن جدران البيت متساوية بينها، لكن عندما نقول: بيتا متساويا جدرانا، فهذا يعني أن جدران البيت تساوي جدران بيت آخر، ولهذا قال تعالى[مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ] ولم يقل - متشابه المثاني - يعني أن التشابه الذي تكلم عنه تعالى في آية المحكم والمتشابه، ليس بين آيات القرآن، ولكنه بين آيات الكتاب أي القرآن، وبين آيات من كتابين آخرين في آن واحد، وبما أن الله تعالى أنزل الكتاب على موسى وهو التوراة، وأنزل الكتاب على عيسى وهو الإنجيل، فهو عندما أنزل الكتاب على محمد وهو القرآن، جعل فيه بعض الآيات إذا أخذنا واحدة منهن سنجد مثلها (أي آية مشابهة لها) في التوراة وكذلك في الإنجيل، يعني هناك آية أنزلها تعالى في التوراة بلسان موسى، أنزل مثلها في الإنجيل بلسان عيسى، ثم أنزل في القرآن مثيلتهما بلسان محمد، فأصبحت الآية التي في القرآن تشابه آية في التوراة، وفي نفس الوقت آية في الإنجيل، فصار القرآن متشابها مثاني، وليس متشابها المثاني.

وعندما قال تعالى[ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ] وبما أن الله أحكم آياته فهو سبحانه قال[ٱلْحَدِيثِ] ولم يقل الكتاب أو الذكر أو القرآن، وذلك لأن كلمة حديث جذرها اللغوي هو فعل حدث أي وقع، فكلمة حديث في القرآن هي دلالة على ما وقع وما سيقع، أي القصص والأنباء التي جاء بها القرآن، ولهذا عندما قال تعالى في سورة يوسف111[لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ] تابع سبحانه قائلا[مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ] أي أن القرآن جاء بقصص تصدق ما جاءت به التوراة من قبل والانجيل، ولهذا عندما قال تعالى كذلك في سورة النساء87 [ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ] تابع سبحانه قائلا[وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا] وذلك لأن الله سبحانه يتكلم عن ما سيقع أي النبأ.

فالتشابه الذي جاء به القرآن، يكمن في الآيات التي تتحدث عن ما وقع أي القصص، وما سيقع أي الأنباء، والتي جاء مثلها في التوراة والإنجيل، ولهذا قال تعالى[ٱللَّهُ نَزَّلَ

أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ] وتابع قائلا[كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ] وهنا كما نرى، قال تعالى كتابا وذلك لأنه يتكلم عن مضمون الرسالة، والذي هو عبارة عن آيات محكمات، ولهذا في آية المحكم والمتشابه استعمل سبحانه كلمة الكتاب كذلك وليس كلمة القرآن.

فالكل يعلم بأن القرآن جاء بأنباء عن خلق الإنسان مثلا، وقيام الساعة، ويوم الحساب، وقصص الأنبياء وما غير ذلك،وذلك ليبشرنا سبحانه وينذرنا، وهو الشيء الذي فعله تعالى كذلك مع الذين أوتوا الكتاب من قبلنا. فعندما قال سبحانه في القرآن في سورة الرحمان14[خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ] بلسان محمد ص، قاله تعالى كذلك في التوراة بلسان موسى عليه السلام، وقاله كذلك في الإنجيل بلسان عيسى عليه السلام، فأصبحت آية من القرآن تشابه في نفس الوقت آية من التوراة وآية من الإنجيل، ونفس الشيء عندما أنذر الله تعالى أمة محمد ص في سورة المائدة86[وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ] فهو أنذر تعالى كذلك أمة موسى بنفس الآية، وأنذر كذلك أمة عيسى بنفس الآية، فأصبحت الآيتان معا تشابه آية من القرآن، ولهذا قال تعالى[مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ] ولم يقل - ما تشابه فيه - ولهذا قال تعالى كذلك[مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ] ولم يقل - متشابها المثاني -

وكمثال على ذلك، قوله تعالى في سورة الأعراف40[إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ] فهو أنزل مثلها في التوراة بلسان عبري، وفي الإنجيل بلسان آرامي، وهما موجودتان في سفر متى صحاح 19/24 ومرقس 10/25 ولوقا 18/15 مع تغيير طفيف، وذلك لكثرة الترجمات التي خضعت لها آيات الكتاب، فأصبحت على الشكل التالي – وأقول لكم أيضا أن مرور الجمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله – وكذلك على الشكل التالي – لأن دخول جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله –

وهكذا يتبيّن بأن الله تعالى لا يمكن أن يقول قولا ثم يأتي بقول آخر يناقضه، أو يأمر بشيء ثم ينسخه تعالى، وإن وجدت ذلك في القرآن، فاعلم أنه ناتج عن فهم خاطئ لآيات الله تعالى، فآيات الكتاب كلها محكمة، ومنها ما هن أمّ الكتاب، ومنها ما هن متشابهات، وذلك التشابه ليس في القرآن (أي بين آيات القرآن) ولكن بين آيات من القرآن وآيات من التوراة والإنجيل معا، وبما أننا أتينا بأمثلة للآيات المتشابهات، سنأتي في الفقرة التالية بأمثلة لآيات هن أمّ الكتاب، أي لم يُنزل مثلهن تعالى من قبل، وكان القرآن هو المصدر الأول لهن، وهكذا يتبيّن بأن نقيض الآيات المحكمات

المتشابهات (أي هناك مثيلتهن في التوراة والإنجيل) هي الآيات المحكمات التي هن أمّ الكتاب (أي لم يُنزل تعالى مثلهن من قبل) والقرآن كان هو أول كتاب يأتي بهن.

المحكم والمتشابه (سبب نزول الآية)

قال الله تعالى[هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ] كما بيّنا من قبل، عندما قال تعالى في سورة هود1 [الٓر كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ] فهو يتكلم سبحانه عن جميع آيات الكتاب، وذلك من قوله تعالى- بسم الله الرحمان الرحيم – إلى قوله – من الجنة والناس – وبما أن الكتاب يحوي آيات جاءت بأحكام وأخر بأمثلة، وأخر بأنباء وقصص، فعندما قال تعالى[كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ] فهو يتكلم سبحانه عن الطريقة التي صاغ بها قوله، والذي جعله عبارة عن آيات تخضع لقواعد وضعها تعالى بعلمه، والتي بيّناها من قبل لكي لا يكون أيّ اختلاف في مفهومها، ولهذا قال تعالى في سورة النساء82[أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا]

لكن آباءنا جاءوا بقواعد من عندهم حسب ما عقلوه آنذاك، الشيء الذي أدّى إلى كل هذه الاختلافات في التفاسير، وبعض التناقضات بين المنطق والإنسانية، ورحمة الله وما جاء به القرآن، والتي أصبحت من المسلّمات، حتى غدونا نقول بأن الاختلاف رحمة، وبالتالي أصبحت لنا الرخصة في اختيار المفهوم الذي يناسب أهواءنا، ولم يعد الدين خالصا لله بل هناك شركاء لله في تشريعه، وأصبح الإنسان الأمي عبدا لهؤلاء الشركاء لكي يقرّبونه إلى الله زلفى كما جاء في سورة الزمر3[أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ]

فالاختلافات التي جاء بها المرحوم السيوطي في كتابه كما ذكرنا في أول الفقرة، سببها هو عدم خضوع الآية للقواعد الربانية، كما هو الشأن لكل آيات القرآن، وتوارثنا نحن تلك الاختلافات، واتخذناها كقول الله تعالى، دون أن نعقلها نتيجة تقديس أقوال آبائنا، ظنا منا أنهم لا يُخطئون، وبالتالي كل من تجرأ على تخطيئهم فقد طعن في الدين كما لو أنه طعن في قول الله تعالى، مما يجعلهم أندادا له سبحانه كما جاء في سورة

البقرة165 [وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ]

ولكي يُحمّل الله كل واحد مسؤوليته كما جاء في سورة العنكبوت8[وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ] فقد قال تعالى في سورة النجم28[وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا] ولهذا تبرأ منا الأئمة الأربعة الكبار بقولهم المعروف (لا تتبعوا قولنا حتى تعرفوا دليلنا)

فعندما قال تعالى في آية المحكم والمتشابه[هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ] وبما أنه قال تعالى في سورة هود1[الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ] فهذا يعني بأن كل آيات الكتاب محكمات بدون استثناء.

ثم تابع قوله تعالى[مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ] يعني من آيات الكتاب والتي هن محكمات، ما هن أمّ الكتاب، أي أنزلهن تعالى لأول مرة في القرآن، ولم يُنزل مثلهن من قبل في أيّ كتاب من الكتب الأولى ، ومن الآيات التي هن أمّ الكتاب بالنسبة للقرآن والتي تتعلق بالأحكام ، ما جاء مثلا في سورة البقرة 185[شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ] وذلك لأن الله تعالى خصّص أمة محمد ص بالصيام في شهر رمضان، وهو الشهر الذي أنزل فيه القرآن، ولم يفرضه تعالى على أيّ أمة من قبل، وكل كتاب أنزله تعالى إلاّ وجعل من آياته المحكمات، ما هن أمّ ذلك الكتاب، والتي هي خاصة بملة تلك الأمة ليجعل لها تعالى شرعتها ومنهاجها كما جاء في سورة المائدة48[لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ]

ثم تابع قوله تعالى[وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ] يعني من آيات الكتاب والتي هن محكمات، ما هن متشابهات، وبما أن الله تعالى قال في سورة الزمر23[ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ] وكما بيّنا من قبل الفرق بين عبارة (متشابها مثاني) وعبارة (متشابها المثاني) فهذا يعني أن هناك آيات من القرآن تشابه آيات من كتابين آخرين، وهما التوراة والإنجيل، يعني أن هناك آية مثلا أنزلها تعالى في التوراة تتحدث عن خلق آدم ليخبر بها قوم موسى بلسانهم، أنزلها كذلك في الإنجيل لقوم عيسى بلسانهم، فهاتان الآيتان معا أنزل تعالى مثيلتهما في القرآن بلسان قوم محمد ص، وهكذا يتبيّن بأن الآيات المتشابهات هن نقيض ما هن أمّ الكتاب.

ثم تابع قوله تعالى[فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ] يعني أن الذين يشكّون في رسالة محمد ص، اهتموا بما تشابه من القرآن (وليس ما تشابه فيه أو الآيات المتشابهات) لإيجاد سبب له للتكذيب بما جاء به رسول الله ص، وهذا السبب هو الذي ذكره تعالى في سورة النحل103[وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ] فهم كانوا يظنون بأن محمدا ص لم ينزَل عليه الوحي، وانما كان يذهب عند أعجمي، أي رجل غير عربي، يعلَم قراءة التوراة والإنجيل، فيعلّمه بعض الآيات ثم يتلوها على الناس، ويزعم بأن الله تعالى أوحى بها إليه، ولهذا قال تعالى[وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ] فأجابهم تعالى بأن الشخص الذي يزعمون بأنه يعلِّم محمدا هو أعجمي، وما ينطق به رسوله هو بلسان عربي مبين، ولهذا قال تعالى [لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ] وهذا كان هو سبب نزول آية المحكم والمتشابه، ولهذا عندما قال تعالى في سورة العنكبوت48[وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ] تابع سبحانه قائلا[إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ]

ثم تابع قوله تعالى[وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ] يعني أن سبب وجود التشابه بين آيات من القرآن وآيات من التوراة والإنجيل، هو الذي لا يعلمه إلا الله تعالى وليس تأويل الآيات (والذي يعلمه كل من تدبر القرآن بقواعده) ولهذا قال تعالى[تَأْوِيلَهُ] وليس - تأويلهن -لأن الله تعالى لا يمكن أن ينزل إلينا آيات لا نستطيع تدبرهن وتأويلهن، ثم يحاسبنا عليهن، فما جدوى إنزالهن إذاً؟

ثم تابع قوله تعالى[وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا] يعني الذين تعمقوا في علم الله الذي أنزله في كتبه، وعلموا كيف أحكم آياته، وبالتالي يستطيعون أن يتعرفوا على ما هو من عند الله وما هو من عند غير الله، آمنوا بكل الآيات التي جاء بها الكتاب الذي أنزله تعالى على محمد ص،

ثم ختم الآية بقوله تعالى[وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ] يعني لا يمكن أن يتعرف على مفهوم آيات الكتاب إلا الذين يلبّون، أي يتعمقون ويحلّلون كلام الله تحليلا دقيقا، وليس الذين يتدبرون آيات الكتاب بطريقة سطحية، أي عابري سبيل كما فعل كثير منا فجعلوا خطاب الله تعالى كخطاب بعضهم لبعض.

ملاحظة: عندما قال تعالى[هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ] تابع سبحانه قائلا[وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ] ولم يقل – والأخر- أي ما بقي، فهذا يعني

أن هناك آيات أخر لا هن أمّ الكتاب، ولا هن مما تشابه من القرآن، وهن الآيات التي كانت خاصة بمحمد ص، كقوله تعالى في سورة التحريم1[**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ**] والآيات الخاصة بمدة تنزيل الرسالة، والدفاع عنها كالأمر بالهجرة من مكة إلى المدينة مثلا كما جاء في سورة البقرة218[**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ**] والأمر بقتال المشركين، كما جاء مثلا في سورة الحج 39[**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ40ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**] وفي سورة البقرة190[**وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ**] وفي سورة النساء76[**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا**] وفي سورة التوبة5[**فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ**] والأمثلة كثيرة في القرآن، وكل هذه الآيات ومثلهن كانت خاصة بمحمد ص وقومه الذين أذن لهم تعالى بقتال المشركين الذين سعوا لوضع حدّ لرسالة محمد ص، ولهذا قال تعالى في سورة التوبة 33[**هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ**]

فبالتالي أصبحت هذه الآيات من القصص نأخذ منها العبر كما جاء في سورة يوسف111[**لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ**] وليست من الأحكام، لأن الله تعالى أتمّ رسالته، واصبح البيت الذي وضعه سبحانه آمنا، يأتون الناس إليه من كل فج عميق ليطوفوا بالبيت العتيق، وأصبح الدين معلوما، وصار الإنسان يميّز بين الحق والباطل، فيختار ما يشاء كما جاء في سورة الكهف29[**وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ**] ولهذا قال تعالى في سورة البقرة256[**لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

سبعا من المثاني

قال الله تعالى في سورة الحجر87 [وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ] كما بيّنا من قبل، الله تعالى أنزل كتابه على رسوله وأحكم آياته، ووضع قواعدا بداخله لكي نعقل قوله سبحانه ولا نختلف في معانيه، ولهذا قال تعالى في سورة النساء82 [أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا] لكن آباءنا لم يعتمدوا على تلك القواعد، وأولها اللسان العربي والذي أنزل به تعالى كتابه، فهم رحمهم الله كثيرا ما كانوا يعتمدون على لسان العرب ولسان الشاعر، وكانوا كذلك كثيرا ما يعبرون الكلمات كما تُعبر الرؤيا، ولا يتدبرونها باللسان العربي. فيوسف عليه السلام عبر البقرة بالسنة، لكن البقرة في اللسان العربي هي حيوان أهلي من فصيلة البَقريات، ولا علاقة لها بالسنة.

فعندما قال تعالى[سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي] اختلف آباؤنا في تفسيرها، ونحن ورثنا ذلك الاختلاف، فمنهم من قال كابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، والضحاك حسب ما جاء به ابن كثير في تفسيره، بأن السبع المثاني هي السبع الطّوَل، أي البقرة وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، وهناك من ذكر سور أخرى. فهنا وجب أن نتساءل، هل فعلا في اللسان العربي ما يقول بأن كلمة المثاني معناها السور الطول، أم الآية عبارة عن رؤيا؟ وإن كانت فعلا السبع المثاني تعني السبع الطول، فهل الله تعالى هو الذي جمع القرآن في سور وسمّاها؟ أوليس هذا من فعل البشر؟ أم الله تعالى خاطبنا بالألغاز؟ فأصبح كل واحد يقول برأيه ما شاء؟ أولم يقل في كتابه العزيز في سورة الشعراء193[نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ194عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ195بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ] فلماذا وقعت كل هذه الاختلافات إذًا في تفسير آيات الكتاب، كما هو الشأن في هذه الآية؟ وذلك لأن هناك من قال حسب تفسير ابن كثير دائما، بأن السبع المثاني هي سورة الفاتحة، فأيّ التعبير وليس التفسير هو أصحّ؟

كما بيّنا في الفقرة السابقة بأن كلمة مثاني في اللسان العربي الذي نزّل به تعالى القرآن هي جمع لكلمة مثنى، والتي تدل على جمع شيئين معا في نفس الوقت أو نفس النعت.

فعندما قال تعالى[وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ] فهو يتكلم عن سبعة من الأشياء آتاها لمحمد ص الذي هو رسول الله ونبي، وآتى مثلها لنبيين من قبله،

ولهذا قال تعالى[وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ] يعني أشياء جاء بها محمد ص قد جاء بمثلها نبيان من قبل، كما تبيّن في الفقرة السابقة لقوله تعالى في سورة الزمر23[ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ] وبما أن الله تعالى قال في سورة النحل89[وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ] وجب أن نجد هذه السبع من المثاني في كتاب الله تعالى وليس في كتب البشر.

1- فالله تعالى قال في سورة آل عمران79[مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ] وكما نعلم بأن الله تعالى، آتى محمدا ص الكتاب، وهو القرآن كما جاء في سورة البقرة176[ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ] وآتاه موسى، وهو التوراة كما جاء في سورة البقرة87[وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ] وآتاه عيسى كذلك، وهو الإنجيل كما جاء في سورة المائدة46[وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ] فالله تعالى إذًا أتى محمدا ص الكتاب كما آتاه موسى وعيسى معا عليهما السلام، وهذا واحد (من المثاني).

2- والله آتى محمدا النبوة كما جاء في سورة الأنفال64[يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ] وآتى موسى النبوة كما جاء في سورة مريم51[وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا] وآتى عيسى النبوة كذلك كما جاء في سورة مريم29[فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا30قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا] فالله إذًا آتى محمدا ص النبوة كما آتاها موسى وعيسى معا عليهما السلام، وهذا ثاني (اثنين من المثاني).

3- والله آتى محمدا ص الحكمة ليحكم بين الناس كما جاء في سورة النساء 65[إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا] وقال كذلك في سورة الإسراء39[ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا] وآتاها كذلك موسى ليحكم بين الناس كما جاء في سورة المائدة44[إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ] وكما جاء كذلك في سورة الشعراء21[فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرسلين]

وآتاها كذلك عيسى ليحكم بين الناس كما جاء في سورة آل عمران 48[**وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ**] ولهذا قال تعال في سورة المائدة47[**وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ**] فالله إذًا آتى محمدا ص الحكم كما آتاه موسى وعيسى معا عليهما السلام، وهذا ثالث (ثلاثا من المثاني).

4- والله تعالى آتى محمدا ص الفرقان كما جاء في سورة الفرقان1[**تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا**] وآتاه موسى وهارون معا كما جاء في سورة الأنبياء48[**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ**] فالله تعالى إذًا أتى محمدا ص الفرقان كما آتاه موسى وهارون معا، وهذ رابع (أربعا من المثاني).

5- والله تعالى آتى محمدا ص الهدى كما جاء في سورة البقرة1[**ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**] وآتى موسى الهدى كما جاء في سورة المائدة44[**إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى**] وجاء كذلك في سورة غافر53[**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ**] وآتى عيسى الهدى كذلك كما جاء في سورة المائدة46[**وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى**] فالله تعالى إذًا آتى الهدى محمدا ص كما آتاها موسى وعيسى معا عليهما السلام، وهذا خامس (خمسا من المثاني).

6- والله تعالى آتى محمدا ص البيّنات كما جاء في سورة الصف6[**وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ**] وكما جاء في سورة الحج16[**وكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ**] وآتاها تعالى موسى عليه السلام كما جاء في سورة البقرة87[**وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ**] وآتاها كذلك عيسى عليه السلام كما جاء في سورة البقرة253[**وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ**] فالله تعالى آتى البينات محمدا ص، وآتاها موسى وعيسى معا عليهما السلام، وهذا سادس (ستا من المثاني).

7- والله تعالى آتى محمدا سلطانا كما جاء في سورة الإسراء80[**وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا**] وآتاه كذلك موسى كما جاء في سورة النساء153[**وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا**] وآتاه كذلك هارون كما جاء في سورة القصص35[**قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ**] وكما جاء كذلك في سورة المؤمنون 45[**ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ**] فالله إذًا آتى محمدا ص سلطانا، وآتاه موسى وهارون معا عليهما السلام، وهذا سابع (سبعا من المثاني).

فالله تعالى عندما قال[وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى] تابع سبحانه قائلا [وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ] وذلك دلالة على إضافة شيء آخر لم يؤته أحدا من قبله، وهو القرآن، ولهذا جاء به منفردا، وكما بيّنا في فقرة ‹الكتاب القرآن والذكر› بأن كلمة القرآن هي دلالة على الطريقة التي أوحى بها سبحانه لمحمد ص، والتي تختلف عن الطرق الأخرى التي أوحى بها للرسل من قبله، ولهذا أضاف تعالى القرآن العظيم لسبع من المثاني.

وعندما قال تعالى [وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى] فهو بيّن سبحانه بأن هناك أشياء أخرى آتاها لنبيّين معا لم يؤتها محمدا ص، ولهذا لم يقل – السبع المثاني – ولكن قال تعالى[سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى] ولهذا تابع تعالى قائلا في الآية التالية[وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ] فهو سبحانه متّع أزواجا من النبيين، أي اثنين من النبيين بأشياء مختلفة بينهما، ولهذا قال تعالى [أَزْوَٰجًا] ولم يقل – مثنى - بما لم يُمتّع به محمدا ص، ولهذا تابع قائلا[مِّنْهُمْ] أي النبيين، ولهذا قال تعالى[وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ] يعني أن الله تعالى أمر محمدا ص بأن لا يهتم بما متّع به أزواجا، أي اثنين من النبيين من قبله بأشياء مختلفة بينهما، ومن بين هؤلاء الأزواج سليمان وداوود، كما جاء في سورة النمل15[وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ] وكما جاء في سورة ص35[قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ 36فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ 37وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاص38وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَاد 39 هَـٰذَاعَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ] وكذلك في سورة سبأ10[وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ] وكما نرى، ما متّع به تعالى سليمان ليس هو نفس الشيء الذي متع به داوود، وكل هذا الفضل الذي آتاه تعالى سليمان وداوود هو من متاع الحياة الدنيا، والذي لم يؤته محمدا ص، ولهذا قال تعالى[وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ] ثم تابع قوله تعالى[وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ] وهنا أمر سبحانه محمدا ص بأن لا يحزن على النبيين من قبله الذين آتاهم من فضله تعالى، أي متاع الحياة الدنيا، ولم يؤته هو، ولهذا قال تعالى في سورة النساء32[وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا]

فعندما قال تعالى في سورة النحل89[وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ] فذلك لكي لا نحتاج لأيّ كتاب آخر، ولكي لا نُضل بأهوائنا بغير علم من كتابه سبحانه، ولهذا قال كذلك في سورة يوسف111[مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ

وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] فهو سبحانه صدق قوله وهو أصدق القائلين، فقد بيّن كل شيء وفصّله تفصيلا، ولا يمكن أن نعلمه إلا إذا نحن اتبعنا القواعد التي أنزل تعالى في كتابه لتدبر القرآن، وأولها اللسان العربي.

فالسبع من المثاني التي آتاها الله تعالى محمدا ص هي : الكتاب، والحكم، والنبوة والفرقان، والهدى، والبينات، وسلطان مبين.

والله هو العليم الحكيم الخبير.

الربـــا

قال الله تعالى في سورة البقرة275[قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا] فهنا كما نرى، قرن تعالى الربا بالبيع، ولهذا قال تعالى[قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ] ثم تابع قوله[وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا] لكن الله تعالى قال في سورة النور 36[فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ37رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ] وهنا كما نرى، قال تعالى[لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ] وكما نعلم بأن القرآن هو علم من عند الله تعالى، والذي وضع له قواعدا لتدبره، ومن هذه القواعد هو أنه جعل سبحانه لكل كلمة دلالتها الخاصة بها، ولا تتغير حسب تغير الآيات، وبالتالي لا يمكن لكلمتين مختلفتين أن يكون لهما نفس الدلالة، فإذا قال تعالى[تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ] فذلك لأن دلالة التجارة تختلف عن دلالة البيع.

فلماذا إذًا عندما تكلم عن الربا سبحانه ذكر البيع ولم يذكر التجارة؟ ولماذا عندما قال تعالى في سورة الجمعة9[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ] قال سبحانه[وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ] ولم يقل – وذروا البيع والتجارة – كما قال في سورة النور[رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ]؟

ولماذا قال تعالى في سورة الجمعة11[وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ] ولم يقل – وإذا رأوا تجارة أو بيعا –؟ فلماذا عند النداء إلى صلاة الجمعة أمر تعالى بترك البيع ولم يأمر بترك التجارة، مع أنه كان هناك من يترك الصلاة في عهد محمد ص ويذهب إلى التجارة؟ وهذا دليل على أنه كان من يترك التجارة للذهاب إلى صلاة الجمعة دون أن يأمر الله تعالى بذلك.

ولماذا عندما قال تعالى في سورة البقرة254[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ] ذكر البيع ولم يذكر التجارة؟ ولماذا عندما قال تعالى في سورة النساء28[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ] لم يذكر هنا كذلك البيع الذي عهدناه نحن؟

ولماذا عندما قال تعالى كذلك في سورة فاطر29[إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ] لم يذكر هنا كذلك البيع والذي قرنه مع الربا، وذكر التجارة والتي لم يقرنها مع الربا؟ ولماذا عندما قال تعالى في سورة الصف10[يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ] أدلّنا سبحانه على التجارة، ولم يدلنا على البيع والذي أحله ؟ فهل البيع لا ينجينا من عذاب أليم كما هي التجارة؟ أم البيع هو التجارة؟ فإن كان كذلك، فهل الله تعالى خالف القواعد التي وضع هو بنفسه في الكتاب، والتي أمرنا باتباعها؟

بلى، ولكن نحن الذين خالفنا تلك القواعد، فجعلنا كتاب الله تعالى قرآنا ذا عوج وهو ما جعله كرجل فيه شركاء متشاكسون . ولكي لا يكون كذلك، وجب علينا أن نفرّق بين البيع والتجارة، ونبيّن دلالة كلمة التجارة، ودلالة كلمة البيع ليكون كتاب الله قرآنا غير ذي عوج، فيصير كرجل سلما لرجل، وبالتالي نستطيع أن نعلم لماذا جاء تعالى بكلمة البيع وكلمة التجارة، وحينها نستطيع كذلك أن نعلم لماذا قرن تعالى الربا بالبيع، ولم يقرنه بالتجارة، وهذا سيساعدنا على تعيين الربا الذي حرم الله تعالى، وهل فعلا المعاملات البنكية هي ربا كما أفتى كثير من الشيوخ بأهوائهم بغير علم؟ ولهذا قال تعالى في سورة الأنعام119[وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ] وقال كذلك في سورة النحل25[لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ] ولكي لا يحمل الذين يتجرؤون على الفتوى بغير علم من كتاب الله تعالى بعضا من أوزارنا، وجب علينا تحمّل مسؤولياتنا بالرجوع إلى كتاب الله تعالى وتدبره بالقواعد التي وضعها سبحانه لذلك.

ولهذا وجب علينا أن نبيّن ما هو البيع، وما هي التجارة، وما هو الربا، وهل كل ربا هو حرام؟ وإن كان كذلك، فلماذا قرنه تعالى بالبيع؟ ولم يقرنه تعالى بالقرض؟ والذي أفتى كثيرون بتحريمه دون أيّ دليل من كتاب الله تعالى، والذي قال فيه في سورة النحل89[وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ] وقال فيه كذلك في سورة يوسف111[مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] لكن نحن رضينا بقول البشر، فألبسنا به قول الله تعالى الذي هو الحق المبين!

أولم يقل في كتابه تعالى في سورة الأنعام155[وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ]؟ فلماذا نتبع الكتب الأخرى إذًا؟ أولم يقل تعالى في سورة

الجاثية28 [وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ29هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ] فهل هناك كتاب غير كتاب الله تعالى سينطق علينا بالحق يوم القيامة؟ فإن كان كذلك فقد حق لأمة موسى أن تُدعى إلى المشناه، أو التلمود، أو الجمارا بنوعيها الأورشليمية والبابلية، وحق لأمة عيسى أن تُدعى إلى العهد الجديد، وحق لنا نحن كذلك أن نُدعى إلى كتبنا، والتي إن نعدّها لا نحصيها.

فلكي نعلم الربا الذي حرم الله تعالى وجب أن نُعرّف دلالة كلمة التجارة، ودلالة كلمة البيع، ودلالة كلمة الربا، ثم نبيّن لماذا قرن تعالى الربا بالبيع ولم يقرنه بشيء آخر، وهل كل ربا هو حرام؟ وان كان كذلك، فلماذا قال تعالى في سورة آل عمران130 [يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] ولم يقل – لا تأكلوا الربا –؟ وهذا دليل على إباحة أكل الربا إن لم يكن أضعافا مضاعفة، ولماذا قال تعالى كذلك في سورة الروم39 [وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ]؟ ولماذا قال تعالى في سورة البقرة276 [يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ] ولم يقل – يحرم الله الربا –؟ أولم يقل تعالى في سورة هود1 [الٓر كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ]؟ أوليس هذا بدالّ على أن دلالة فعل محق ليس هي دلالة فعل حرّم؟

الربـــا (التجارة)

قال الله تعالى في سورة الصف10 [يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ] فهنا كما نرى، جاء تعالى بكلمة التجارة، والتي جذرها اللغوي هو فعل اْلتجر، فنقول اْلتجر زيد على عمر، يعني عمل له بأجر، ونقول تاجر زيد مع عمر، يعني كان بينهم بيع (بلسان العرب) وشراء، أي شراء واشتراء باللسان العربي الذي نزّل به تعالى كتابه. فدلالة التجارة إذًا هي إما القيام بعمل ما مقابل أجر، أو امتلاك شيء أو تمليكه لشخص آخر بثمن أي بمقابل.

فاشتغال العامل عند رب العمل مقابل أجر يُعدّ من التجارة، ولهذا عندما قال تعالى في سورة الصف10 [يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ] تابع سبحانه قائلا[تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ

خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ] يعني الإيمان بالله وما جاء به الرسول، والجهاد في سبيل الله بالمال والأنفس، أي القيام بالأعمال الصالحة في الحياة الدنيا في سبيل الله هو خير للناس، وهذا لا علاقة له بالقتال، لأن الله تعالى أحكم آياته، وجعل كتابه قرآنا غير ذي عوج، وبالتالي لا يمكن لكلمتين مختلفتين أن يكون لهما نفس الدلالة، فكلمة الجهاد هي مصدر لفعل جاهد، فنقول جاهد، يعني قاوم وكافح وأرغم نفسه، ولهذا قال تعالى في سورة العنكبوت8[**وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**] وهنا كما نرى، قال تعالى[**وَإِن جَـٰهَدَاكَ**] يعني أرغماك وقاوماك على شيء لا يرضي الله تعالى، ولا علاقة لكلمة الجهاد بالقتال، وهو المفهوم الذي ورثناه عن آبائنا، والذين أثّر لسان العرب في تفسيرهم للقرآن، وليس اللسان العربي الذي نزّل به تعالى كتابه.

فعندما قال تعالى[**تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ**] فهذا يعني بأن نقاوم شهوات الحياة الدنيا وزينتها في سبيل الله، وذلك بأموالنا وأنفسنا. فالمؤمن عندما يصوم شهر رمضان فهو يقاوم الجوع والعطش وشهواته الجنسية طول النهار ابتغاء مرضاة الله تعالى، وليس لشيء آخر، فهو إذًا يجاهد في سبيل الله بنفسه وليس بماله، وعندما يقيم الصلاة ويترك كل ما بين يديه من زينة الحياة الدنيا، فهو يقاوم ملذات الحياة الدنيا ابتغاء مرضاة الله، فهو أيضا يجاهد في سبيل الله، وعندما يقوم بعمل خيري ويترك مصلحته الشخصية، والتي له فيها منفعة دنيوية، فهو يقاوم اتباع المصالح الدنيوية ابتغاء رضوان الله، فهو أيضا يجاهد في سبيل الله، وعندما يأخذ من ماله الذي يحبه ثم يتصدق به ابتغاء مرضاة الله، فهو إذًا يقاوم حبّه للمال، فهو أيضا يجاهد في سبيل الله، ولكن ليس بنفسه وإنما بماله، وكل هذه الأفعال يؤجر عليها يوم القيامة، فهو إذًا عمل عملا في الدنيا مقابل أجر في الآخرة، كما يقوم الخادم بالعمل عند رب العمل مقابل أجر عند انتهاء العمل، أو المدة الزمنية المتفق عليها، ولهذا قال تعالى في سورة النحل97[**مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ**]

فعندما قال تعالى في سورة الصف10[**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ**] فهذا يعني أن الدين الذي رضيه لنا تعالى، هو عبارة عن تجارة بيننا وبينه سبحانه، فنحن إذا قمنا بما أمرنا تعالى في سبيله، وليس في سبيل شيء آخر، فسوف يؤتينا أجورنا يوم الحساب كما وعدنا سبحانه، وهذا نوع من التجارة، أي عمل مقابل أجر.

وهناك نوع آخر من التجارة، وهو امتلاك شيء أو تمليكه بمقابل، أي شراء واشتراء، ولا علاقة له بالبيع الذي عهدناه، ولهذا قال تعالى في سورة يوسف20[وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ] ولم يقل - باعوه بثمن- لأنه سبحانه أحكم آياته، وجعل لكل كلمة دلالتها لكي لا نزيغ عن فهم كلامه ونفتي بما لا يرضيه سبحانه، ولهذا قال كذلك في سورة النساء 74[فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا] وهنا كما نرى، قال تعالى [يَشْرُونَ] ولم يقل - يبيعون - وذلك لأن البيع لا علاقة له بامتلاك شيء أو تمليكه بثمن، ولكن التجارة هي التي تكون عبر شراء واشتراء، ولهذا عندما تحدث تعالى عن الذين يُقتلون في سبيله قال[ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ] أي يبيعون بلسان العرب الحياة الدنيا مقابل الآخرة، وعندما تحدث تعالى عن الكافرين قال في سورة البقرة86 [أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ] أي يشترون الحياة الدنيا مقابل الآخرة.

فالتجارة إذًا نوعان ،النوع الأول هو القيام بعملٍ مقابل أجر، فالموظف مثلا عندما يعمل لدى الإدارة مقابل راتب شهري، فهذا يُعدّ من التجارة باللسان العربي الذي نزل به القرآن، وكذلك العسكري أو الشرطي، والصانع عندما يصنع للزبون ما طلبه منه مقابل أجر، فهذا كذلك يُعدّ من التجارة التي ذكرها تعالى في كتابه، وهناك حالتان، فإما أن يكون الأجر فوريا، أو مؤجلا إلى حين انتهاء الشروط المتفق عليها، وهو الذي نعته تعالى بالأجل المسمى، وكل هذا لا علاقة له بالبيع الذي ذكره سبحانه في كتابه.

وهناك النوع الثاني من التجارة، وهو الذي يكون عبر شراء واشتراء، فالبقال مثلا عندما يُملّك بضاعته التي هي ملك له لزبون ما بثمن، فهذا كذلك يُعدّ من التجارة، وهناك حالتان أيضا في هذه العملية، فقد يكون هذا التبادل التجاري فوريا، أي التسليم والاستلام مباشرة، أو يكون أحدهما إلى أجل مسمى.

فالتجارة إذًا هي كل تعامل بين الناس مقابل أجر، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة 277[إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ] أو أخذ شيء أو إعطاؤه بثمن، أي اشتراء وشراء، ولهذا قال تعالى في سورة يوسف20[وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ

ٱلزَّٰهِدِينَ] وقال في سورة يوسف21[وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا] وهناك حالتان لهذين النوعين من التجارة:

ففي النوع الأول من التجارة، إما أن يكون الأجر والعمل فوريا، وإما أن يكون أحد منهما أي العمل أو الأجر، أو بعض من أحدهما، أو بعض من كليهما إلى أجل مسمى.

وفي النوع الثاني من التجارة، إما أن يكون التسليم والاستلام مباشرة، أو أن يكون فريق من أحدهما، أي التسليم أو الاستلام، أو فريق من كليهما إلى أجل مسمى، وكل هذا بيّنه تعالى في كتابه وفصّله تفصيلا، وسنبيّنه في الفقرة التالية، وصدق تعالى ومن أصدق منه قيلا كما جاء في سورة النحل89[وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ] وكذلك في سورة يوسف111[مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ و تَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ]

الربــا (أكل أموالنا بيننا بالباطل)

قال الله تعالى في سورة النساء29[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيما] وهنا كما نرى، قال تعالى[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ] ثم تابع قائلا [إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ] يعني أن الله تعالى أحلّ لنا أن نتعامل بيننا بمعاملات مالية بالباطل، إذا كانت هذه المعاملات عبر تجارة عن تراض منا، والكل يعلم بأن الباطل حرام، لأنه ينفي الحقيقة، فهو إذًا نقيض الحقيقة! ولهذا قال تعالى في سورة الأنبياء18[بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ] فهل فعلا أحلّ الله تعالى لنا أن نتعامل بالحرام إذا كان ذلك عبر معاملات تجارية عن تراض منا؟ وهل يمكن أن يكون التراضي بيننا عن الحرام في التجارة؟ وهل كل باطل هو حرام كما يزعم بعضنا بأن كل ربا هو حرام؟

لكن عندما نحلّل كلام الله تعالى تحليلا يناسب عظمته، نستطيع أن نزيل كل هذه التساؤلات وغيرها، ونتعرف على مفهوم الآية، والذي لا يخالف المنطق الذي جاء به القرآن، ولهذا قال تعالى في سورة الرعد19[أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ] ولهذا وجب علينا أن نلبّ كلام الله تعالى ونتعمق في معانيه.

قال الله تعالى في سورة الأنعام73[وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ] وكما نعلم، لا يمكن لأي شخص أن ينكر وجود السموات والأرض، لأن الله تعالى خلقهن فأصبحن موجودات، ولهذا قال تعالى[خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ] يعني هن موجودات حقيقة، فدلالة كلمة الحق هي وجود الشيء أو وقوع الفعل، ولهذا قال تعالى كمثال في سورة النساء105[تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ] يعني أن كل ما قاله تعالى في كتابه قد وقع، أو سيقع لا شكّ فيه، ولهذا قال تعالى في سورة الأنعام67[لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ] وكما نعلم بأن كلمة الباطل هي نقيض كلمة الحق، فدلالتها إذا هي عدم وجود الشيء، أو عدم وقوع الفعل.

فعندما قال تعالى[يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ] فهذا يعني بأنه لا يمكن للمؤمنين أن يتعاملوا بينهم ماليا بما هو غير موجود، إلا إذا كانت تلك المعاملات عبر تجارة عن تراض منهم، وبما أن الله تعالى قال في سورة يوسف111[مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] فهو صدق قوله تعالى وفصّل لنا كيف يمكننا أن نتعامل بهذه الطريقة حتى لا نشدّد على أنفسنا فنحرم علينا ما فيه منفعة لنا، ولهذا عندما قال تعالى[يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ] تابع قوله سبحانه[وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيما] وهذا لا علاقة له بالانتحار، وهذا قد بيّناه في فقرة <دلالة فعل قتل>

فالله تعالى قال في سورة البقرة282[يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا]

وهنا يجب أن نعلم بأن آباءنا ظنوا بأن هذه الآية تتكلم عن الدَّيْن بلسان العرب، أي القرض، وهذا خطأ لأن الله تعالى أحكم آياته، وجعل كتابه قرآنا غير ذي عوج كرجل سلما لرجل، وبالتالي لا يمكن أن تكون للكلمة الواحدة أكثر من دلالة، ولا

لكلمتين مختلفتين نفس الدلالة، وإلا فسيكون كتابه تعالى قرآنا ذا عوج كرجل فيه شركاء متشاكسون.

فعندما أراد الله تعالى أن يتكلم عن السلف بلسان عربي، قال سبحانه في سورة الحديد 11 [مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ] فنحن عندما نعطي شيئا من أموالنا في سبيل الله، فهذا قرض نقرضه الله تعالى والذي سيرده لنا يوم يوفّينا أجورنا أضعافا مضاعفة، ولهذا قال تعالى[مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ] ولم يقل - من ذا الذي يدين - لكن في آية التداين، قال تعالى[إِذَا تَدَايَنتُم] وكلمة تداينتم جذرها اللغوي هو فعل دان، فنقول دان زيد لعمر، يعني كان على زيد حق لعمر، وإذا قلنا تداين زيد وعمر بدين، يعني أن عمراعليه حق لزيد، وزيدا عليه حق لعمر، فكل واحد إذًا عليه حق للآخر، وهذا لا يمكن أن يكون في القرض، لأن القرض يكون من طرف واحد، وبالتالي ليس هناك تقارض أي تفاعل.

فعندما قال تعالى[إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ] يعني إذا كان على كل واحد حق للآخر، وبما أنه تبيّن بأن التجارة تنقسم إلى نوعين، عمل مقابل أجر، أو شراء واشتراء، أي تسليم واستلام بثمن، وبما أنه تبيّن وجود حالتين في هذين النوعين من التجارة، وهما إما أن يكون العمل والأجر فوريا، أو التسليم والاستلام بثمن، فوريا كذلك أي يدا بيد، وإما أن يكون العمل مقابل أجر، أو التسليم والاستلام بثمن، إلى أجل مسمى، أي ليس يدا بيد، فهاتان الحالتان فصّلهما تعالى في آية التداين.

فعندما قال تعالى[إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى] فهو يتكلم سبحانه عن المعاملات التجارية التي لا تتمّ فوريا، ولهذا قال تعالى[إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى] وهذه هي الحالة الأولى من التجارة، وهي التي نعت بها تعالى دين الإسلام، ولهذا قال تعالى في سورة الصف 10 [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ] وهو الدين الذي رضيه لنا تعالى، وهو عبارة عن تجارة لا تتمّ فوريا، وإنما يؤخّر إتمامها إلى أجل مسمى، وهو يوم الحساب، فنحن إذًا نتداين مع الله تعالى إلى أجل مسمى، وذلك بقيامنا بأعمال صالحة أمرنا بها تعالى، لكن لا يعطينا أجورنا عليها مباشرة بعد القيام بها، ولكن يؤجل تعالى تلك الأجور إلى يوم الحساب كما جاء في سورة البقرة277 [إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ] فهو ذلك اليوم سيعطينا سبحانه ديننا الذي هو حقنا عليه، ولهذا قال تعالى في سورة النور25 [يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ] وهذا الدين الذي هو حقنا على الله تعالى، هو أجرنا على ما قمنا به من أعمال صالحة،

ولهذا قال تعالى في سورة آل عمران57[وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ]

فعندما قال تعالى[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى] فهو سبحانه يتكلم عن المعاملات التجارية بين الأشخاص التي لا تتمّ فوريا، وإنما يكون إتمامها في وقت لاحق، إما بإتمام المدة الزمنية، أو بإتمام الطلب، فالممرض مثلا يتداين مع وزارة الصحة إلى أجل مسمى الذي يرتبط بالمدة الزمنية، فهو يقوم بعمل مقابل أجر يأخذه عند تمام الشهر، والنجار مثلا عندما يصنع طاولة، فهو قد يأخذ عربونا على ذلك باتفاق مع صاحب الطاولة، ثم يأخذ باقي أجره عند إتمام الطاولة، فالنجار إذًا قد تداين مع صاحب الطاولة إلى أجل مسمى الذي يرتبط بإتمام الطلب، وليس بالمدة الزمنية، وهذا الذي تحدث عنه سبحانه، ولهذا تابع قوله[فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ] وهذا ما يقوم به جميع الدول سواء الإسلامية أو غير الإسلامية، وصدق قوله تعالى في سورة الطلاق[إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا] وذلك لأن قول الله تعالى لا يناقض المنطق الإنساني، ولهذا كل الدول تقوم بما قاله تعالى بطريقة عفوية، لكن ما فهمه آباؤنا من الآية لا يخضع للمنطق، وبالتالي لا يمكن للإنسان أن يقوم به بطريقة تلقائية.

فالممرض، والشرطي، والعسكري، وسائق الحافلة، والمقاول، وما غير هؤلاء يوثقون عقد العمل مع مشغليهم، وهذا الذي أمر به تعالى، ولهذا قال [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ] وهذا النوع من التجارة الذي ذكره تعالى في هذه الآية، هو تفصيل لقوله سبحانه[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ] فهو تعالى فصّل لنا كيف نتعامل تجاريا على أشياء غير موجودة، يعني تجارة غير حاضرة، ولهذا عندما فصّل لنا كيف نتعامل في هذه الحالة، تابع قوله سبحانه في نفس الآية[إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا]

يعني أن يكون ما نتعامل به تجاريا موجودا، أي العمل والأجر فوريا، أو امتلاك الشيء ودفع ثمنه مباشرة يعني يدا بيد.

فالتجارة إذًا هي عمل مقابل أجر، وشراء واشتراء بثمن، وهناك حالتان:

تجارة غير حاضرة، ولهذا قال تعالى[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ] وهي التي اشترط فيها تعالى المكاتبة والشهود حتى لا يظلم طرف طرفا آخرا، ولهذا عندما قال تعالى في سورة البقرة188 [وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ] تابع سبحانه قائلا[وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ] وكمثال على هذا، أن يعطي زبون عربونا للخياط ليخيط له قميصا (وهذه المعاملة تعدّ تجارة غير حاضرة، أي أن القميص غير موجود) لكن هذا الأخير قد لا يوفي بوعده لسبب ما، ويمتنع عن إرجاع العربون لصاحبه.

وتجارة حاضرة كشراء سلعة معروضة مثلا ودفع ثمنها مباشرة، والتي لم يشترط فيها تعالى المكاتبة أو الشهود، ولهذا قال تعالى[إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَا] وكمثال على هذا، هو عندما يذهب المرء لسوق الخضر، فيشتري ما هو حاضر، أي موجود ويدفع ثمنه مباشرة أي يدا بيد.

ثم ختم تعالى آية التداين قائلا[وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ] وهذا بيّناه في فقرة <البيع> والذي قرنه تعالى بالربا، والذي لا علاقة له بالتجارة التي هي عمل مقابل أجر، أو سلعة بثمن.

الربـــا (البيع)

قال الله تعالى في سورة التوبة111 [إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ] فهنا كما نرى، قال تعالى[إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ] يعني أن الله تعالى تداين مع المؤمنين بدين إلى أجل مسمى، فهو اشترى منهم أنفسهم وأموالهم في الحياة الدنيا، أي القتال في سبيله دفاعا عن الرسالة، وذلك مقابل أجر، وهو الجنة، والذي أجله تعالى إلى يوم القيامة، اي إلى أجل مسمى، وهذه العملية هي عبارة

عن نوع من التجارة غير الحاضرة، كما تبيّن في آية التداين، ولهذا قال تعالى في سورة الصف10 [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ 11 تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ]

ثم تابع قوله تعالى[يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ] يعني هؤلاء الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة كما جاء في سورة النساء74 [فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا] ليسوا فقط أولئك الذين ناصروا رسوله، ولكن كان هناك أمثالهم مع موسى، وأمثالهم مع عيسى عليهما السلام، ثم تابع قوله تعالى[وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ] يعني لا يمكن لأحد أن يوفي بعهده كما يوفي هو بعهده سبحانه.

ثم تابع قوله تعالى[فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ] وهنا كما نرى، قال تعالى [بِبَيْعِكُمُ] أي البيع، ثم تابع قائلا[ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ] يعني العهد الذي عاهدوا عليه الله، وهو القتال في سبيله تعالى لنصرة رسالة محمد ص، كما جاء في سورة الفتح10 [إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ] يعني المعاهدة (البيع) التي يعاهدون الرسول عليها (قتال المشركين) هي معاهدة مع الله تعالى وليس مع محمد ص، ولهذا تابع قوله تعالى[يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ] اي أن الله تعالى هو كذلك يعاهدهم بالجنة، ثم قال تعالى [فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا]

و هكذا يتبيّن بأن كلمة البيع هي مصدر لفعل بايع، فدلالة كلمة البيع إذًا هي كل مبايعة بلسان العرب، أي معاهدة بين طرفين أو أكثر، تكون عبر وعود يلتزم بها المتعاهدون، ولهذا قال تعالى في سورة المائدة9 [وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ] فنحن إذًا عندما نؤمن بالله واليوم الأخر، فهذا دليل على وعدنا له بأن نتقيه، ووعده هو تعالى لنا بأن يدخلنا الجنة، ولهذا قال تعالى في سورة التوبة72 [وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ] ومن لم يوف بوعده فمصيره جهنم، ولهذا قال تعالى في سورة التوبة68 [وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ] وذلك لأنه نقض الميثاق الذي صدر عن ذلك البيع أي المعاهدة، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة27 [ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ] وقال كذلك في سورة النساء 155 [فَبِمَا

نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا]

فالبيع إذًا هو ربط معاهدة بين طرفين أو أكثر، وعندما يتعاقد المتعاهدون الأيمان على ذلك البيع (المعاهدة) أي يوثقونه، يصير ميثاقا، وبالتالي لا يحق لأحد من المتعاهدين نقضه، ولهذا قال تعالى في سورة المائدة89[لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ] أي أن الله تعالى لا يؤاخذنا إلاّ بما التزمنا بفعله، بأيّ توثيق ما كما جاء في سورة يوسف66[قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ]

فعندما ختم تعالى آية التداين بقوله[وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ و لا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ] فهو سبحانه يتكلم عن البيع (أي المعاهدة) الذي يكون بين الأشخاص على شيء ما، والذي يكون عبارة عن عهود يلتزم بها هؤلاء الأشخاص، أي يعقدون الأيمان لأخذ ميثاق بعضهم من بعض كما جاء في سورة آل عمران81[وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ]

وبما أن عقدة النكاح هي كذلك عبارة عن معاهدة بين الرجل والمرأة، والتزام كل واحد منهما بوعوده للآخر، أي أخذ الرجل ميثاقا من المرأة، وأخذ المرأة ميثاقا من الرجل، كما جاء في سورة النساء20[وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا 21وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا] فهذا كذلك يُعدّ من البيع، لأن المرأة تبايع الرجل على القيام بما اشترطه عليها، والرجل كذلك يبايعها على القيام بما اشترطته عليه، وبالتالي يُستلزم إحضار الشهود والكاتب كما أمر الله تعالى، لتوثيق تلك المعاهدة أي البيع، وهذا الذي علمه محمد ص من كتاب الله تعالى فأمر قومه بذلك، أما الوليّ فهو غير واجب إحضاره كما جاء في سورة البقرة237[وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ] وهنا كما نرى، ذكر تعالى الحالتين فقال [إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ] فقد يكون هناك من يتولّى أمرها وقد لا يكون، والذي أوجبه تعالى في عقدة النكاح الذي هو بيع، إحضار الكاتب والشهود، ولهذا قال تعالى[وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ولا

يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ] وهذا ما يقوم به الناس في سائر دول العالم، وصدق قوله تعالى في سورة الطلاق3[إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا]

وهكذا يتبيّن بأن دلالة كلمة التجارة لا علاقة لها بدلالة كلمة البيع كما عهدنا بلسان العرب، وبأن التجارة هي كل عمل مقابل أجر، أو شراء واشتراء بثمن، والبيع هو كل معاهدة تُلزم الوفاء بوعود بين طرفين أو أكثر، وبالتالي يمكننا الإجابة على الاستفسارات التي أتينا بها في الفقرة الأولى .

فعندما قال تعالى في سورة النور36[فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ37رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ] فهو ذكر سبحانه البيع والتجارة معا، وذلك لأنه يتكلم عن الذكر عامة، من صلاة وإقامة الصلاة، ولم يحدّد الوقت، وإيتاء الزكاة، والذي يكون كذلك في كل الأوقات، وبالتالي يمكن للمؤمن ترك البيع أو التجارة حسب وسعه، وحسب ما فرضه الله تعالى.

وعندما قال تعالى في سورة الجمعة9[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ] فهو سبحانه ذكر البيع ولم يذكر التجارة، وذلك لعلمه تعالى بأنه سيكون من الممرضين والأطباء مثلا من يعالج المرضى عند وقت الصلاة من يوم الجمعة، ولا يحق لهم ترك المرضى للذهاب إلى الصلاة، وكذلك نفس الشيء بالنسبة للشرطي، والعسكري، وربان الطائرة، وسائق الحافلة، وما غير ذلك من العمال والموظفين، ولو ذكر تعالى التجارة مع البيع لحقّ على ربّان الطائرة مثلا، أن يترك عمله، أي قيادة الطائرة، ويسعى لذكر الله، وهذا لا يمكن فعله، ولهذا لم يذكر تعالى التجارة وذكر البيع، والذي هو عبارة عن معاهدة على شيء كعقدة النكاح مثلا، أو إبرام معاهدة بين العامل وربّ العمل، أو إبرام عقدة شراء واشتراء، والذي يمكن تأخيره إلى ما بعد الصلاة، لكنه تعالى قال من بعد ذلك في الآية11 من نفس السورة[وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ] وذلك لعلمه كذلك سبحانه بأن هناك من يتاجر، ويستطيع ترك تجارته عند النداء إلى الصلاة، كالشرطي الذي ليس في دوريته، أو الطبيب الذي ليس في ساعات عمله، أو الشخص الذي يتاجر تجارة حاضرة كالبقال مثلا، أو التاجر الذي يتاجر تجارة غير حاضرة، كالخياط مثلا أو النجار، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة286[لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا]

وعندما قال تعالى في سورة البقرة254[يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ] فهو سبحانه ذكر البيع ولم يذكر التجارة، وذلك لأن يوم القيامة لا يمكن لأحد أن يواعد الله تعالى على فعل شيء ما، أي ليس هناك معاهدة بين الله تعالى وبين عباده، والتي تكون في الحياة الدنيا، ولهذا قال تعالى متحدثا عن يوم القيامة في سورة طه111[وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا112وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا] ولكن ستكون تجارة ذلك اليوم، لأن الله تعالى سيوفّي كل واحد أجره على ما عمل في الحياة الدنيا كما جاء في سورة النساء173[فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا] ولهذا قال تعالى في سورة النور25[يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ]

فكتاب الله تعالى هو من علمه، وبما أننا نعلم بأن كل علم له قواعده، فكذلك الله تعالى أنزل في كتابه قواعدا لتدبر علمه حتى لا نزيغ عن فهم قوله، وبالتالي نُنسب إليه سبحانه ما لم ينزل به من سلطان. فهو عندما ذكر تعالى الربا قرنه بالبيع ولم يقرنه بالتجارة، ولا بالقرض، ولهذا لا يحقّ لنا نحن أن نفعل ذلك، لأن القرآن ليس من علم البشر، ولكنه من علم الله سبحانه، ولهذا قال تعالى في سورة هود1[الٓر كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ]

فعندما قال تعالى في سورة البقرة275[قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ] فهو سبحانه يتكلم عن ربا البيع، ولا يتكلم عن ربا التجارة، أو ربا القرض، ولهذا لم يحرم تعالى الربا عامة، ولكن حرم ربا البيع الذي كان يتعامل به قوم محمد ص، ولهذا كان خطاب الله تعالى موجها لهم وليس للعالمين كما جاء في الآية[قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ] فهم الذين قالوا وليس نحن، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة276[يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ] ولم يقل -يحرم الله الربا – لأنه هو بنفسه يربي، ولا يمكن أن يحرم على عباده ما أحله لنفسه، لأنه إله سبحانه وليس كالبشر، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة44[أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ] فالبشر هو الذي يأمر الناس بالبر وينسى نفسه، وهذا ليس من صفات الله تعالى، ولهذا وجب أن نبيّن ما هو الربا؟ وما هو ربا البيع؟ ولماذا قال تعالى[يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ] ولم يقل- يحرم الله الربا-؟

الربـــا (يمحق الله الربا)

قال الله تعالى في سورة البقرة275[ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ] وبما أنه قد تبيّن دلالة كلمة البيع بقي أن نبيّن دلالة كلمة الربا، والتي هي مصدر لفعل ربا، فنقول ربا الشيء، يعني زاد ونما، فالربا هو كل زيادة أو نموّ أو ربح. فالشخص مثلا عندما يعمل ثم يأخذ أجرا مقابل عمله، فهو ماله قد زاد على ما كان عليه من قبل، والتاجر مثلا عندما يشتري بضاعة ثم يشريها أي يبيعها فهو ماله يزداد كذلك، لأنه كسب ربحا من شرائه أي بيعه البضاعة، فهو ماله نما وزاد على ما كان عليه، وبالتالي فماله قد ربا ، فهو إذًا قام بفعل الربا، وهذا الربح أو الزيادة أو النموّ في المال أي الربا، لم يحرمه الله تعالى، ويتعامل به كل البشر، وهو يعدّ وسيلة من الوسائل التي جعل الله تعالى لكي يكسب الناس رزقهم، وتنموا أموالهم وممتلكاتهم.

وكما نعلم ليس كل وسيلة لكسب المال هي حلال، فالسارق يكسب مالا من وراء السرقة، وهذا حرام كما نعلم، وهناك من يستعمل وسائل أخرى غير شرعية كذلك لكسب المال كالغشّ أو التزوير، فهو إذًا يُربي ماله، أي يقوم بفعل الربا، لكن هذا الكسب أي الربح أو الربا يعدّ من الحرام، ولهذا عندما بيّن ما حرمه تعالى بالمفهوم العام، قال في سورة الأعراف33[قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ] وهنا كما نرى، لم يذكر تعالى الربا، وإنما ذكر ممّا حرم البغي بغير حق، يعني أن يبغي الأنسان شيئا لا يحق له، فالسارق عندما يسرق شيئا فهذا يُعدّ من البغي بغير حق، فهو ماله قد زاد، إذًا قد قام بفعل الربا، لأنه كسب مالا لا يستحقه، وعندما يغشّ إنسان في سلعة ليبيعها، فهو إذًا بغيَ مال المشتري بغير حق، لأن المشتري لو علم بحقيقة السلعة لما اشتراها، فالبائع إذًا قد ربح مالا، فهو أيضا قام بفعل الربا.

فكل ربا يكون بطريقة شرعية فهو حلال، وكل ربا يأتي بطريقة غير شرعية، فهو حرام، ولهذا عندما قال تعالى[قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ] تابع قائلا[وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ] وبما أن الله تعالى لا يكرّر كلامه، فهو عندما قال[وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ] فهو هنا يخاطب قوم محمد ص، وعيّن نوعا من أنواع الربا، أي الزيادة أو الربح أو الإضافة التي كانوا يضيفونها بطريقة غير شرعية عبر البيع الذي أحلّه تعالى، ولهذا قال[ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ] فقوم محمد ص هم الذين قالوا وليس كل الناس، وذلك لأنهم كانوا يكسبون أرباحا غير شرعية عن طريق

البيع الذي كان يُتداول آنذاك حسب أعرافهم وطريقةعيشهم، ولهذا قال لهم تعالى هم، وليس نحن[وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ]

فعندما قال تعالى في سورة البقرة276[يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ] فهو سبحانه هنا قال[يَمْحَقُ] ولم يقل يحرم، وكلمة يمحق جذرها اللغوي هو فعل محق، فنقول محق الله الفعل، يعني لم يزكّيه أي لم يعطي مقابله أجرا، فهو تعالى في هذه الآية يتكلم عن الربا المتداول بين الناس مقابل مصالح بينهم، يعني شخص يدفع ربحا لشخص آخر مقابل مصلحة، والذي أحلّه سبحانه، ولكن ليس لدافعه من أجر عند الله تعالى، وأما الذي فيه أجر عند الله ويضاعفه أضعافا مضاعفة هي الصدقات، أي دفع مال في سبيل الله، وليس في سبيل مصلحة دنيوية، ولهذا قال تعالى[يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ] ولم يقل - يحرم الله الربا -

ولهذا قال تعالى كذلك في سورة آل عمران141[وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ] اي يميّز بين المؤمن الصبور وغير الصبور ليجزي كل واحد حسب عمله، وذلك لأن الآية التي قبلها تتحدث عن الصبر، وهي قوله تعالى140[إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ] أما الذين كفروا، فالله تعالى لا يهتمّ بما عملوا من الصالحات كما جاء في سورة النور39[وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ] ولهذا قال سبحانه[وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ]

فالربا إذًا هو حلال، ويبغيه كل إنسان أي يسعى وراءه، ولهذا فصّل تعالى قوله [يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ] قائلا في سورة الروم39[وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ] يعني كل زيادة، أي ربا أضافه شخص لشخص آخر لينمّي أمواله، كربّ عمل مثلا يعطي أجرا كحق لعامل على عمله، أو كشخص يشتري سلعة بثمن كحق للبائع على تلك السلعة مما يكسّبه ربحا، فهذا الربح أو الزيادة، أي الربا بين الناس ليس له من أجر عند الله تعالى، ولهذا تابع قائلا[فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ] والذي له قيمة عند الله تعالى، أي يؤجَر عليه فاعله، هو كل مال دفعه شخص كحق لله على ما رزقه كما جاء في سورة الأنعام141[وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا

وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِين] أي إيتاء الزكاة، وليس لحق على مصلحة دنيوية، ولهذا قال تعالى[وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ] يعني أن ما يدفعه الناس لحق على ما كسبوا من أرباح يريدون به وجه الله، هو الذي يضاعفه تعالى يوم القيامة، وأما ما يدفعه الناس لحق على مصلحة دنيوية، فهذا لا يزكّيه الله تعالى، وبالتالي لا يؤجر عليه صاحبه يوم القيام.

فبما أن قوله تعالى[ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ] خاصّ بقوم محمد ص، وجب أن نبيّن هذا النوع من الربا الذي حرمه تعالى، والذي كان متداولا في عهد محمد ص، و يأتي بواسطة البيع الذي أحله سبحانه، والذي كما تبيّن هو كل معاهدة بين أشخاص على وعود يلتزمون بها.

الكل يعلم بأن محمدا ص أرسله الله تعالى في القرن السابع الميلادي في منطقة الحجاز، والتي كانت منطقة صحراوية ومازالت، مما أدّى آنذاك إلى اعتماد سكانها على زراعة النخل وتربية الإبل، الشيء الذي جعلهم يضطرون إلى استيراد ما يحتاجونه من مواد أساسية كالحبوب، مثل البرّ والشعير، وذلك بواسطة القوافل التجارية التي كان يمتلكها كبار تجّار قريش، ولهذا قال تعالى في سورة قريش1 [لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ2إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ] وهذا يدلّ على أن القوافل كانت تقوم برحلتين، فتأخذ منتوجات الحجاز الصيفية أو الشتوية، وترحل بها إلى مناطق لا تنتج مثلها لتقايضها بمنتوجات تلك المنطقة، والتي لا تُنتج في الحجاز.

فكان القاطن في مكة أو المدينة يتعاهد مع صاحب القافلة على أن يدفع له مما يُنتج في منطقة الحجاز، ليأتيه بما يحتاج مما يُنتَج في المناطق الأخرى، وهذه هي الطريقة التي كانت تعتمد عليها آنذاك التجارة، وهي المقايضة عبر البيع، أي المعاهدة، والتي كانت هي الوسيلة لربح المال، ولهذا قال تعالى[ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ]

لكن صاحب القافلة التجارية عندما يأتي بما طلبه الزبائن، والذين دفعوا رؤوس أموال تلك البضاعة ممّا ينتجون، أو فريقا منه مسبقا لمقايضته في المناطق الأخرى حسب المعاهدة، يُرغَم أصحاب تلك البضاعة بدفع زيادة إضافية عند سحبهم بضاعتهم، فيضطرّ الزبائن لدفع زيادة لم يتعاهدوا عليها مع التاجر، وهذا الذي نسميه ابتزاز، وهو الذي حرم الله تعالى، ولهذا قال لهم سبحانه في سورة البقرة[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ

ٱلرِّبَوٰٓاْ] وذلك لأنه كان يخاطب قوم محمد ص، والذين كانوا يتعاملون بهذا الطريقة، أي فرض زيادة لم يتعاهد عليها الزبون مع التاجر في أول الأمر، وعندما حرم تعالى هذا النوع من الربح أي الزيادة، أمر سبحانه التجار بترك ما بقي من الزيادة التي أضافوها على الزبون من بعد المعاهدة إن هم آمنوا بما جاء به محمد من تحريم، ثم تابع قوله تعالى279 [فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ] وذلك لأنه يخاطب دائما قوم محمد ص، ولهذا تابع قوله تعالى[وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ] يعني إن هم تابوا أخذوا رؤوس أموالهم فقط، أي ما تعاهدوا عليه في أول الأمر كثمن لتلك البضاعة وسلموها لأصحابها، وإن كانوا قد سلموا البضاعة من قبل نزول الآية، وبقي ما زِيد من بعد المعاهدة كدين على أصحابها، وجب عليهم عدم إجبارهم على الدفع، والإنتظار إلى حين آخر، ولهذا تابع تعالى قائلا [وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ] واما أن يتصدقوا به إن أرادوا ما فيه الخير لهم، ولهذا تابع قائلا[وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ]

ولهذا قال محمد ص كما جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي سعد الخدري قال:< لا ربا إلا في النسيئة > و كما جاء كذلك في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أسامة بن زيد قال:< إنما الربا في النسيئة> وذلك لأن محمدا ص كان يحكم قومه الذين كان يعيش بينهم، فهو كان يأمر بعرفهم هم، وليس بعرفنا نحن، ولهذا قال تعالى في سورة الأعراف199 [خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ] فهو عندما قال ص <إنما الربا في النسيئة> فهو يتكلم عن الزيادة التي كان يضيفها التجّار بعد المعاهدة، أي يؤجلونها إلى حين رجوعهم بالبضاعة، فيضطرّ الزبائن إلى دفعها لاستلام بضاعتهم، وإلا ضاع لهم ما دفعوه من قبل، وهذا الذي حرمه الله تعالى، وذكره بصفة عامة بقوله في سورة الأعراف33[وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ] وربا البيع هو نوع من البغي بغير حق، وليس هو البغي بغير حق، وكان يزاول في عهد محمد ص، ولهذا خصّ به سبحانه قوم رسوله ص.

أما في أيامنا نحن فهناك أنواع أخرى من الربا الحرام، كربا التجارة، والذي يكون مثلا عبر تغيير تاريخ صلاحية المواد الغذائية، وربا النشر والذي يأتي عبر نشر عورات الناس عن طريق المواقع الاجتماعية، وأنواع شتّى من الربح الحرام، والتي تتغير حسب المجتمعات والأعراف، والتي تمنعها القوانين كما منعها محمد ص.

فالربا إذًا هو كل زيادة أو ربح يجعل ممتلكات الناس تنموا، وهذا كله أحله الله تعالى إلا في حالتين:

1- أن يكون الربا، اي الربح أو الزيادة أضعافا مضاعفة، أي أن يشتري التاجر بضاعة بمائة درهم، ثم يشريها، أي يبيعها بلسان العرب، بثلاثمائة درهم، ولهذا قال تعالى مخاطبا العالمين أجمعين في كل مكان وزمان بقوله في سورة آل عمران130 [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً] ولم يقل - لا تأكلوا الربا - كما جاء نفس النهي في سورة الفرقان67 [وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا] وهنا كما نرى، لم يحرم تعالى علينا النفقة، وإنما الإسراف أو التقتير في الإنفاق، ولم يحرم علينا الربا، وإنما حرم الربح الذي يضاعف أضعافا مضاعفة.

2- أن يكون الربا، أي الإضافة، أو نموّ المال، بطريقة غير شرعية، ولهذا قال تعالى مخاطبا المؤمنين في كل مكان وزمان في سورة الأعراف33 [قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ] وهنا كما نرى، وكما ذكرنا من قبل، قال تعالى[وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ] أي أن يبغي المؤمن شيئا بغير حق، كأن يربح مالا عن طريق رشوة، فهذا يعدّ من الربا الحرام، أو أن يقوم بتزوير عقدة شراء ليملك شيئا ليس من حقه، فهذا يُعدّ كذلك من الربا الحرام، أو أن يكسب مالا عن طريق الابتزاز، وهذا الذي كان يُزاول عن طريق البيع، أي المعاهدة في عهد محمد ص حسب عرفهم آنذاك وطريقة تجارتهم، وهو فرض زيادة إضافية لم يتفق عليها الزبون مع التاجر عند إبرام المعاهدة، أي البيع، والتي يُكره الزبون على دفعها.

ولهذا وجب علينا أن نُخضع الأحاديث النبوية لمفهوم آيات الكتاب حتى نعلم سياقها كما هو الشأن لأحاديث الربا، والتي جاءت حسب ما كان متداولا في عهد محمد ص كما تبيّن بالنسبة للحديثين اللذين ذكرتهما من قبل، وهناك حديث آخر لا يمكن لعاقل أن يتقبّله، إذا لم نُخضعه لمفهوم الربا الذي حرمه تعالى، والذي كان يفرضه تجار قريش وهو الحديث الذي عُرف بالأصناف الستة، والذي اختلف فيه أئمة الفقه كلهم دون أن ينتبهوا لمضمونه، وهذا الحديث هو الذي أخرجه ابن الملقن في البدر المنير عن عبادة بن الصامت قال:< لا تبيعوا الذهب بالذهب، ولا الورق بالورق، ولا البرّ بالبرّ، ولا الشعير بالشعير، ولا التمر بالتمر، ولا الملح بالملح، إلا سواء بسواء، عينا بعين يدا بيد، ولكن بيعوا الذهب بالورق والورق بالذهب والبر بالشعير والشعير بالبر والتمر بالملح والملح بالتمر يدا بيدا كيف شئتم> وأنا أقول حسب ما جاء به سياق الحديث النبوي، كيف لعاقل أن يقبل مثل هذا الكلام؟ فكيف لإنسان أن يأخذ تمرا مثلا من منزله ويذهب به إلى السوق ليقايضه بمثله وبنفس وزنه، فما الجدوى من

هذه المقايضة؟ أولم يكن من الأفضل له أن يحتفظ بتمره، ويتجنب مشقة الذهاب إلى السوق إذا كان لا يحلّ له أن يقايضه بتمر غيره؟ وبوزن يخالفه؟

لكن عندما نُخضِع سياق الحديث لما جاء به كتاب الله تعالى، فسوف نعلم مفهومه والذي كان موجها لقوم محمد ص الذين كان حاكمهم، وآمرهم حسب عرفهم كما قال تعالى في سورة الأعراف199 [**خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ**] فعندما قال محمد ص:< فبيعوا كيف شئتم > فهو يعني المعاهدة، أي تعاهدوا كيف شئتم، وهو البيع الذي أحل الله تعالى، لكن وضع لهم قيودا حتى لا يكون هناك إكراه على إضافة زيادة من طرف التاجر عند استلام الزبون بضاعته، فهو عندما قال ص:<التمر بالتمر> فهو يعني إذا كانت مثلا المعاهدة بين التاجر والزبون على التمر، وجب على التاجر أن يأتي بالتمر الذي تعاهد عليه مع الزبون. نفسه وليس غيره، وعينه ووزنه أو كيله حسب المعاهدة، ويسلمه له يدا بيد أي هاء وهاء، مما لا يترك أي فرصة أو علّة للتاجر لابتزاز ربح زيادة من الزبون، وهذه القيود ما نسميها نحن بالقوانين، والتي تخضع لعرف المجتمعات، وطريقة عيشهم، والتي تتغير حسب هوية المجتمع وملته، وتغير الأزمنة.

أما الحديث الذي رُوي عن علي بن أبي طالب والذي يقول< كل قرض جر منفعة فهو ربا > فهو كذب على رسول الله ص، وقد ضعّفه كثير من أصحاب الحديث كابن حجر العسقلاني في بلوغ المرام، والسيوطي في الجامع الصغير، والعجلوني في كشف الخفاء، وابن باز في مجموع فتاوى ابن باز، والألباني في إرواء الغليل وآخرون كثيرون، وذلك لأن محمدا ص كان يعلم ما نوع الربا الذي حرم الله تعالى، والذي كان يتداول في عهده،والذي كان له علاقة مع البيع، وليس مع القرض. لكن الذين يميلون إلى التحريم، اي العسر بدل اليسر، خلافا لما قاله تعالى في سورة البقرة 185 [**يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ**] ولما قاله محمد ص حسب ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك قال:< يسروا ولا تعسروا وسكّنوا ولا تُنفّروا> ويحملون على الناس الإصر الذي وضعه تعالى على عباده كما جاء في سورة البقرة286 [**رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ**] اتبعوا ما نُسب إلى محمد ص أي< كل قرض جر منفعة فهو ربا> وهو بريء منه، ويخالف كتاب الله تعالى، وكرهوا ما هو صحيح < لا ربا إلا في النسيئة > < إنما الربا في النسيئة > ويطابق قوله سبحانه، وصدق الحديث الذي أخرجه ابن حزم في كتابه <أصول الأحكام> عن الأصبغ بن

محمد أبو منصور قال: < الحديث عني على ثلاث، فأيما حديث بلغكم عني تعرفونه بكتاب الله تعالى فاقبلوه، وأيما حديث بلغكم عني لا تجدون في القرآن ما تنكرونه به، ولا تعرفون موضعه فيه فاقبلوه، وأيما حديث بلغكم عني تقشعرّ منه جلودكم، وتشمئزّ منه قلوبكم، وتجدون في القرآن خلافه فردوه >

فالله تعالى لا يحرم شيئا فيه منفعة لشخص إلاّ إذا كانت تلك المنفعة تضرّ بشخص آخر، وهذا الذي بيّنه تعالى فيما حرم على عباده في سورة الأعراف33[قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ] فالبغي بغير حق، هو أن يسعى الإنسان وراء شيء فيه منفعة له لا تحق له، أي منفعته تضر شخصا آخرا، فالسرقة مثلا فيها منفعة للسارق، لكن هذه المنفعة تضر من سُرق ماله، والابتزاز فيه منفعة لمن يبتزّ، لكن هذه المنفعة تضر المُبتزّ منه.

فالله عندما تكلم عن الربا الحرام الذي كان يُزاول في عهد محمد ص، فهو قرنه سبحانه بالبيع، ولم يقرنه بالقرض، والذي فيه منفعة للقارض والمُقرض، والله تعالى لا يحرم على عباده ما يحله لنفسه، ولهذا قال تعالى في سورة الحديد11 [مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ] ولهذا شرّعت جميع الدول، سواء الإسلامية أو (غير الإسلامية) القوانين لتمنع البنوك من الغلوّ في الفوائد لتحمي المقترض، ومنعت القروض العشوائية بالفوائد، لكي لا يستغل المُقرِض من هو في حاجة للقرض.

أما الحديث الذي صححه الألباني في <إرواء الغليل> عن عبد الله بن مسعود والذي يقول: <آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهداه إذا علموا به ملعونون على لسان محمد ص يوم القيامة> فهذا غير صحيح، لأن النبي ص كان يعلم ما هو الربا، وكان يعلم بأن الله تعالى لا يؤاخذ بذنوبه المضطرّ والمكره، ولو كان في ما حرمه تعالى أو الكفر به، فكيف يلعن من اضطر للقرض بفائدة، إن افترضنا بأن هذا حرام، وكيف يلعن من يدفع رشوة مضطرّا أو مكرها لاسترجاع أو أخذ ما يحق له، أولم يقل تعالى في سورة النحل106[مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ] وفي سورة الأنعام119 [وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ] فبأيهما يأخذ المؤمن العاقل، بما جاء به الألباني عن ابن مسعود، أم بما جاء به رسول الله عن ربه؟

فالربا الحرام، اي الربح الحرام لا يُحاسَب عليه إلا آخذه، وليس دافعه، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة275[ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ] ولم يقل مثلا – الذين يربون – وبما أن الله تعالى أحكم آياته وجب علينا أن نتدبرها كما نزلت على رسوله ونطق بها، وليس كما يتمنى بعضنا، وصدق تعالى عندما قال في سورة البقرة78[وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ] ثم تابع قائلا[فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

القصاص في القتلى

قال الله تعالى في سورة البقرة178 [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ] كما يعلم الجميع، حسب ما نقلناه وعهدناه، وهو أن الله الرب الرحمان الرحيم، يأمرنا في هذه الآية بقتل القاتل.

ونحن يجب أن نتساءل، كما يحق لكل مسلم عاقل ويؤمن برحمة الله تعالى أن يتساءل، إن كان كذلك، فلماذا قال تعالى[ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى] ولم يقل مثلا - القتلى بالقتلى -؟ ولماذا قال تعالى في الآية نفسها[فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ]؟ فأيّ اتباع بالمعروف يتحدث عنه سبحانه؟ وأيّ تخفيف منه تعالى ورحمة ؟ فهل في قتل القاتل رحمة من الله عز وجل؟

وإن كان معنى القصاص لغة هو ردّ الفعل بالفعل نفسه، أي السيئة بالسيئة؟ فلماذا قال تعالى في الآية التالية179 [وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ]؟ فكيف تكون حياة بعد القتل؟ ولماذا قال تعالى في سورة البقرة 194 [ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ]؟ فهل هذا يعني أن نردّ فعل الحرام بنفس فعل الحرام؟ أولم يقل سبحانه في سورة آل عمران110 [كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ]؟ وقد بيّنا في فقرة <أمة وسطا> بأن المعروف هو ما استحسنه المجتمع ورضيه، وهي القوانين بلسان العرب! فهل قتل القاتل يستحسنه الناس ويرضونه؟

فإن كان كذلك، فلماذا ألغت أكثر من ثلثي بلدان العالم حكم الإعدام؟ أم هم أكثر رحمة من الله تعالى بعباده؟ أم آباؤنا تأثروا عند تفسير هذا الآية كذلك بما كان يُعرف لديهم آنذاك؟ والذي كان ناتج عن ما فهمه أهل الكتاب من قوله تعالى في سورة المائدة32 [مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ]؟ وهل فعلا يأمر تعالى في

هذه الآية بعدم قتل النفس إلا قصاصا؟ أي من قتل نفسا بغير سبب من قصاص، كما جاء في تفسير ابن كثير؟ فلماذا قرن ذلك سبحانه مع الفساد في الأرض؟ ثم جاء بعد ذلك بقوله تعالى[وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا]؟

وإن كان كل هذا يُحِلّ قتل القاتل؟ فلماذا قال تعالى في سورة المائدة45[وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ]؟ فهل الله عز وجل كرّر نفس الحكم بعبارة أخرى؟ وهل جاء في هذه الآية ما يدلّ على القتل؟ ولماذا تابع قائلا[وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ]؟ فهل الله تعالى يُبيح فعلا تعوير عين من عوّر عين آخر؟ فإن كان كذلك، فلماذا قال سبحانه[وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ]؟ ولم يقل - الجروح بالجروح -؟ فهل أن تقطع أذن من قطع أذنك هي من رحمة الله تعالى؟ فإن كان كذلك، فلماذا لم نرض بهذا نحن؟ أم نحن أرحم من الله تعالى بأنفسنا منه؟

فإن كان كذلك، فلماذا نعت نفسه بالرحمان الرحيم، والرؤوف بعباده، والعفو الغفور؟ ولماذا قال تعالى في سورة فصلت34[وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ35وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ]؟ وقال كذلك في سورة النور22[وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ]؟ فكيف بإله يأمرنا بالإحسان لعدونا، والعفو والصفح لمن أساء إلينا،أن يأمرنا بقتل القاتل، ولا يستطيع فعله أغلب مجتمعات العالم؟ ويأمرنا بقطع أذن من تسبّب في قطع أذن شخص آخر؟ وهذا عند سماعه فقط دون القيام به، تقشعرّ جلودنا، وتشمئزّ عقولنا!

أم صار الشيطان أقوى من العزيز القوي، فأصبح كل العالم يتّبع حكم الشيطان، ويتولّى عن حكم الرب الرحمان ؟ أولم يقل تعالى في سورة الإسراء23[وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا]؟ وقال كذلك في سورة البقرة117[وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ]؟ ثم قال تعالى في سورة الحجر49[إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ]؟ أولا يستثني هنا تعالى القليل من الكثير، وقال في سورة الطلاق3[إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا]؟ بلى، وهو الرحمان الرحيم، ولهذا كلما وجدت حكما لا يدعو إليه إلا القلّة القليلة من العالمين، و تقشعرّ منه جلود جلّ الآدميين، وتشمئز منه قلوبهم، فاعلم بأن الله تعالى بريء منه ورسولَه.

فلكي لا نسيء الظن بالرحمان الرحيم، وبالتالي نجعل الناس تصدّ عن سبيل الله وجب علينا تدبر هذه الآيات بالقواعد الربانية، والتجرد من كل تقديس لأقوال آبائنا، لكي نخرج من تلك الأكنة التي مازلنا بداخلها، وتلك القوللة التي ألبسنا بها قوله تعالى، وصدق قوله سبحانه في سورة البقرة170[وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ]

ولهذا سنبدأ بتدبر أول حكم في القتل، وهو قوله تعالى في سورة المائدة32[مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ] لنبيّن هل فعلا يبيح هنا تعالى قتل القاتل!

ثم الآية التي جاءت في سورة المائدة45[وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ] لنبيّن هل فعلا يتكلم سبحانه في هذه الآية عن قتل النفس بالنفس؟ وهل فعلا يتكلم عن عين الإنسان، وأنفه وأذنه وسنّه؟ وهل فعلا كلمة الجروح هو ما عهدناه؟ وإن كان كذلك، فلماذا لم يقل تعالى - الجروح بالجروح - كما قال - العين بالعين -؟ ثم بعد ذلك نتدبر آية القصاص في القتلى، لنبيّن هل فعلا أباح لنا سبحانه قتل القاتل!

القصاص في القتلى (نفسا بغير نفس)

قال الله تعالى في سورة المائدة32[مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا] وهنا كما نرى، قال تعالى[مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ] يعني هناك سبب لنزول هذا الحكم، وهو ما ذكره سبحانه من قبل، كما جاء في الآية27 [وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ] والكل يعلم بما ورثناه من حكايات، وهي أن الله تعالى يتكلم عن هابيل وقابيل، وهما من أولاد آدم، لكن الله تعالى لم يذكر هذا في كتابه، ولم يقل تعالى - ولدي آدم - وإنما قال تعالى[ٱبْنَىْ ءَادَمَ] فهل عندما قال تعالى في سورة الإسراء70[وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ] يعني بها أولاد آدم؟ وعندما قال تعالى في الآية32[مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ] فهل اليهود هم أولاد إسرائيل،

أم هم من سلالة إسرائيل؟ ألا نعلم بأن بني إسرائيل لم يظهروا إلا من بعد إبراهيم ونوح من قبله؟ وكان ذلك بعد آلاف السنين من خلق آدم؟ ومن أين أتينا بأسماء هابيل وقابيل؟ أم نحن نعلم الغيب؟ أولم يقل سبحانه في سورة يوسف111 [لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] ثم قال تعالى في سورة الجاثية6[تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ]؟

فعندما قال تعالى[ٱبْنَيْ ءَادَمَ] فذلك ليبيّن سبحانه بأن الحكم الذي يتكلم عنه هو خاص فقط بالإنسان، أي عندما يقتل إنسان أخاه الإنسان، وليس عندما يقتل إنسان حيوانا، أو حيوان إنسانا، ولهذا قال تعالى في سورة المائدة30[فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ] أي إنسان قتل أخيه الإنسان، وهذا سوف نجده كذلك في آية القصاص في القتلى.

فعندما قال تعالى[وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ] فهذا يعني أن اثنين من بني آدم أي إنسانين، قرّبا قربانا فتقبل الله تعالى من أحدهما، ولم يتقبل من الآخر، وقد يكونا من نفس العائلة، أو غرباء عن بعضهما، ولهذا لم يذكر تعالى أسماء، لأنه يتكلم سبحانه بالمفهوم العام، وهذا كان قد وقع من بعد إبراهيم عليه السلام.

ثم تابع قوله تعالى[قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ] يعني أحدهما لم يُتقبل منه قربانه، فأراد قتل الذي تُقبِّل منه، لأن الله تعالى يتقبل من المتقين، والله تعالى ذكر هذا ليبيّن عدم وجود أيّ سبب حقيقي يدفع أحدهما لقتل الآخر، وإنما كان بغيا من الذي توعّد بالقتل.

ثم تابع قوله تعالى في الآية28 [لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ] يعني أن المتقي لن يدافع عن نفسه، أي لن يقاتل من أراد قتله، خشية أن يكون هو القاتل، ولهذا تابع تعالى قائلا[إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ]

ثم تابع قوله تعالى في الآية29[إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ] يعني أن القاتل سيبوء بإثمه وإثم المقتول، فماهما هذان الإثمان إذًا؟

فالإثم الأول، أي إثم القاتل، هو أنه بغي قتل أخيه الإنسان بغير حق، أي لم يكن هناك ما يجعله مضطرا للقتل، والإثم الثاني، إي إثم المقتول، هو عدم دفاع هذا الأخير عن نفسه، فبالتالي ليس هناك قتال بين القاتل والمقتول، وانما كان القتل عدوانا، ولهذا تابع تعالى قائلا[**فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ**] وهنا كما نرى، قال تعالى [**وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ**] وكما بيّنا في فقرة<المغضوب عليهم والضالين> بأن الظلم قد يكون بالقول، وهذا يستحق لعنة الله تعالى، وعندما يكون بالفعل، فهو تعدّ لحدود الله تعالى، وبالتالي يغضب سبحانه على فاعله، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة173 [**فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**] فالقاتل عندما يبغي قتل أخيه الإنسان بغير حق، فهذا إثم، وإن قتله دون أن يكون هناك دفاع عن النفس من طرف المقتول، فهذا عدوان، وبالتالي فهو إثم آخر، ولهذا قال تعالى [**إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ**]

فالله تعالى بيّن في هذه الآيات، القتل الذي حرّمه بين الإنسان وأخيه الإنسان، وهو كلّ قتل بغير حق، وقع دون قتال، أي دون أن يكون سببه الدفاع عن النفس، أو سببه القضاء على الفساد في الأرض، ولهذا قال تعالى في الآية 32[**مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ**] وهنا كما نرى، قال تعالى[**مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ**] يعني من قتل نفسا دون دفاع عن نفس أخرى أي عدوانا، ثم تابع تعالى قائلا[**أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ**] يعني قتل النفس للفساد في الأرض فقط، اي بغيا بغير حق.

ثم تابع قوله تعالى[**فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا**] يعني أن كل من قتل نفسا دون دفاع عن النفس، أو لكي يفسد في الأرض، فكأنه قتل الناس جميعا، ومن دافع عن نفس لكي لا تُقتل، أو لكي لا يكون الفساد في الأرض، فكأنه أنقذ الأنفس جميعا من القتل، وهذا يبيّن ما هي قيمة النفس عند الله تعالى، وقيمة السّلم بين الناس.

فالله تعالى حرّم كل أنواع القتل بالنسبة لبني آدم، إلا أن يكون دفاعا عن النفس، أو منع الفساد في الأرض لكي لا يُقتل الأبرياء، ولهذا قال تعالى في سورة الإسراء33 [**وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ**] وهذا الحق، هو الذي بيّنه سبحانه في الآية32من سورة المائدة، وصرّف تعالى أمثلة لهذين النوعين من الحق، وهما:

1- كيف يكون القتل دفاعا عن النفس كما جاء في سورة القصص15[**وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ**

عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ] وهنا كما نرى، قال تعالى[فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ] يعني أن موسى وجد شخصا من بني إسرائيل يقاتل عدوا لهما، أي شخصا من آل فرعون، والذين كانوا يذبّحون أبناء بني إسرائيل ويستحيون نساءهم، ثم تابع تعالى قائلا[فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ] يعني أن اليهودي طلب الإغاثة من موسى لينقذه من عدوه لكي لا يقتله، ثم تابع تعالى قائلا[فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ] يعني أن موسى قتل عدوه ليغيث الذي من شيعته، لكن الله تعالى تابع قائلا[قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ] وهنا كما نرى نسب موسى فعله لعمل الشيطان، وذلك لأن قتله لعدوه لم يكن دفاعا عن نفسه هو، وانما استجابة وطاعة لطلب الذي من شيعته، ولهذا تابع تعالى قائلا في الآية التالية16[قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ] وهنا كما نرى، قال تعالى[قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى] يعني أنه أطاع شخصا في ما حرمه الله تعالى (وهذا قد بيّناه في عدة فقرات)، وهو أنه قتل نفسا دون دفاع عن نفسه هو، لأن عدوه لم يكن يقاتله، وانما كان يقاتل الذي من شيعته، ولهذا تابع تعالى قائلا[فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ] ولهذا قال كذلك في سورة طه40[وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا] وقال تعالى كذلك في سورة القصص33[قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ]

2- كيف يكون القتل لمنع الفساد في الأرض، أي القتال لمحاربة المفسدين، كما جاء في سورة البقرة216[كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ] ولهذا قال تعالى في سورة البقرة246[قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا] وهذا يُعدّ من الفساد في الأرض، ولهذا قال تعالى في سورة الحج39 [أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ40ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ] فأن يُخرج الناس من ديارهم بغير حق، وأن تُهدم الصوامع، والبيع، والصلوات، والمساجد، أي بيوت الله التي يذكر فيه اسمه، فهذا كذلك يُعدّ من الفساد في الأرض،

وقال تعالى كذلك في سورة البقرة204[وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ 205وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا

وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ] وهذا كذلك يُعدّ من الفساد في الأرض، ولهذا تابع تعالى قائلا[وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ] ولهذا وضع تعالى كيفية عقوبة المفسدين في الأرض عند التمكّن منهم أحياء للحدّ من فعلهم، دون القضاء على حياتهم بقوله تعالى في سورة المائدة33[إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ] وهذا قد بينّاه في فقرة <فعل قتل>

وأيّ قتل نتج عن سبب آخر فهو قتل ظلم، كما جاء في سورة النساء93[وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا] إلاّ أن يكون عن طريق الخطأ، فالله تعالى قال في سورة النساء92[وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا] وهذه كفّارة للقتل عن خطأ، وليس فدية عن العقاب المجتمعي الذي يخضع للمعروف أي القانون، والذي تحدث عنه تعالى في آية القصاص في القتلى.

القصاص في القتلى (النفس بالنفس)

قال الله تعالى في سورة المائدة45[وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ] كما يعلم الجميع بأن الله تعالى خلق هذا الكون وأبدعه، وخلق الإنسان وأحسن خلقه، وخلق من كل شيئين زوجين، ولم يخلق من كل شيئين اثنين، ولم يجعل خلقه مثنى، فهو سبحانه لم يكرّر خلقه، ولا يمكن أن يكرّر كلامه في كتابه، وبالتالي يكرّر أحكامه، ولكن بيّن سبحانه كل شيء وفصّله تفصيلا، حتى لا يحتاج المرء لكتب أخرى.

فإذا كان قد بيّن سبحانه في الآية32 من سورة المائدة ما هو قتل النفس بغير حق وجزاؤه، فلا يمكن أن يأتي بآية أخرى تبيّن نفس الحكم، وإنما ليبيّن سبحانه حكما آخرا، ولهذا لم يذكر قطّ في هذه الآية التي نحن في صددها فعل القتل، وإنما قال

تعالى[وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ] وكما بيّنا في فقرة<أمة وسطا> بأن الله تعالى أنزل على موسى عليه السلام وصايا، أي أحكاما معينة، ومحددة يجب عليه هو وقومه اتباعها كما هي، ولهذا ختم سبحانه الآية بقوله [وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ] وليس كما أمر محمدا ص بقوله تعالى في سورة الأعراف199 [خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ] وذلك لأن الله تعالى أوحى إلى محمد ص ما فيه سعة في الأحكام، ولهذا قال تعالى في سورة الشورى40[وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا] ولم يقل تعالى – سيئة بسيئة - لكن هذه السعة لها حدود بيّنها تعالى في كتابه، ولا يجب على المؤمن تعدّيها.

كما يعلم الجميع بأن حمورابي، حكم بابل في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وكان من أول الملوك الذين قاموا بتشريع قوانين اقتصادية واجتماعية، وكان هذا عبارة عن بداية التحضر الإنساني آنذاك، ومن بين هذه القوانين التي شرعها حمورابي، والتي كانت تناسب ذلك العصر، حسب ما خُطّ على اللوحة التي عُثر عليها في إيران، والتي تتضمن 282 بندا قانونيا، قانون التعويض، والذي عُرف ب (العين بالعين والسن بالسن) ومن بنوده مثلا:

- إذا شخص فقع عين شخص آخر من حق المتضرر أن يفقع عين المُضِر.

- إذا شخص كسر سِنّ شخص آخر من حق المتضرر أن يكسر سن المضر.

- إذا ضرب شخص امرأة حاملا، ومات الجنين في بطنها تُقتل بنت الرجل الذي ضرب المرأة الحامل.

فهذه كما نرى، أمثلة لما كان يشرعه الإنسان من قوانين من قبل إرسال موسى عليه السلام بحوالي أربعة قرون.

فعندما بُعث موسى عليه السلام، كان قومه يطبّقون هذه الأحكام التي شرعها الإنسان حسب طبيعة فكره، ومستوى وعيه آنذاك، ولهذا عندما أنزل تعالى قوله[وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ] ظن بنو إسرائيل بأن الله عز وجل يتكلم عن قتل القاتل، وفقع عين من فقع عين آخر، وقطع أنف من قطع أنف آخر، وقطع أذن من قطع أذن آخر، وكسر أو قلع سنّ من كسر أو قلع سنّ آخر، ولم ينتبهوا بأن الله تعالى لم يذكر اليد والرجل.

وهذا وقع كذلك مع آبائنا، عندما أنزل تعالى قوله في سورة النور32[وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ] ظنوا بأن الله سبحانه يتكلم عن العبيد ففسروا الآية وكذلك الآيات الأخر، حسب ما كان يتداول آنذاك، وهو استعباد البشر، وبيعه وشرائه في سوق النخاسة، والله بريء من هذا ورسولُه.

فالله تعالى قال[وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ] وهنا كما نرى، قال تعالى [وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ] أي في التوراة، وذلك ليقول لنا بأن هذا الحكم هو خاصّ بأهل الكتاب الذين رفضوا ما جاء به القرآن من سعة، ولهذا قال تعالى في آخر الآية[وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ] يعني من لم يرض من أهل الكتاب (أي اليهود والنصارى، لأن الإنجيل هو امتداد للتوراة) بما جاء به القرآن، وجب عليه أن يحكم بما أنزله تعالى من قبل وليس بما جاءت به الكتب البشرية، ولهذا قال سبحانه في سورة المائدة43[وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ] وقال كذلك في سورة المائدة68[قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ]

ثم تابع قوله تعالى[أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ] وهنا كما نرى، لم يأت الله تعالى بأيّ فعل يدلّ على القتل أو البتر، وإنما قال تعالى[ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ] ولم يقل - قتل النفس بالنفس - وذلك لأنه يتكلم سبحانه عن الشيء بالشيء، وهذا ما جاء به حديث الأصناف الستة، والذي رواه عبادة بن الصامت <التمر بالتمر> يعني النفس بالنفس، أي إذا أضاع شخص أو أفسد حاجة شخص آخر، وجب عليه أن يغرم نفس تلك الحاجة، فإن سرق أو قتل عجلا مثلا، فعليه أن يغرم نفس العجل، أو إذا عاهد شخص شخصا آخرا بشيء كأجر مثلا، وجب عليه إعطاؤه نفس الشيء الذي عاهده عليه وليس غيره،وهذا هو معنى قوله تعالى[ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ] وذلك لأن الإقتصاد كان يعتمد آنذاك على المقايضة.

ثم تابع قوله تعالى[وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ] وهذا كذلك جاء به الحديث الذي رواه عبادة، عندما ذكر الأصناف الستة قال: <إلا سواء بسواء> يعني نفس الكيل أو الوزن، ثم تابع الحديث قائلا <عينا بعين> يعني نفس العينّة، وكذلك قول الله تعالى، أي إذا كان العجل من نوع جيّد، فعلى المُغرم أن يغرم نفس نوع ذلك العجل، وهذا هو معنى قوله تعالى[وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ]

ثم تابع قوله تعالى[وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ] والكل يعلم كما بيّنا في فقرة <الربا> بأن الاقتصاد في عهد محمد ص ومن قبل، كان يعتمد على الزراعة وتربية المواشي وبالتالي لم يكن آنذاك ما هو معروف لدينا، فكانت أحكامهم الاقتصادية تهتم بما هو زراعي ورعاوي، وكما بيّنا من قبل، بأن ليس كل كلمة نساء في القرآن هي لجمع لكلمة امرأة، وإنما قد تكون كمصدر لفعل نسأ، ويتبيّن ذلك حسب سياق الآية، فكذلك كلمة أنف هنا لا تعني عضو حاسة الشم، ولكن هي كمصدر لفعل أنف، فنقول أنفت الماشية، يعني وطئت كلأً أُنُفا، والأنف هو أول الشيء، ولهذا نقول أَنَف المسافر، يعني سافر أول النهار أو أول الليل. فعندما قال تعالى [وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ] يعني إذا أكلت أو وطئت ماشية شخص، أول ظهور أو مقدّمة زراعة شخص آخر، وجب على صاحب الماشية تعويض ما أنفت ماشيته، وهذا هو معنى قوله تعالى[وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ]

ثم تابع قوله تعالى[وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ] وهنا كذلك كلمة أُذَن لا تعني عضو حاسة السمع، وإنما هي لجمع لكلمة أذنة، وهي ورقة الحبة أول ما تنبت، ولم تثمر بعدُ، يعني إذا أفسدت ماشية شخصٍ حرث شخص آخر، عند بداية ظهور ورقة الحبة أي الأَذَن، وجب على صاحب الماشية غرامة ذلك الأذَن، وليس أكثر أو أقلّ، وهذا هو معنى قوله تعالى[وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ]

ثم تابع قوله تعالى[وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ] وهنا كذلك كلمة السَّن ليست كمفرد لكلمة أسنان، ولكن كمصدر لفعل سنَّ، فنقول سُنّت الأرض، أي أُكِل نباتها، يعني إذا أكلت ماشية شخص كل نبات حقل شخص آخر، وجب على صاحب الماشية غرامة كل ذلك النبات لصاحب الحقل، وهذا هو معنى قوله تعالى[وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ]

وكما نرى، عندما قال تعالى[وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ] فهو سبحانه جاء بأحكام معيّنة ومحدّدة لكي يستطيع الإنسان آنذاك، أن يحكم بين الفلاحين وأصحاب المواشي، لأن الزراعة ورعاية المواشي، كانا آنذاك أساس الاقتصاد، والذي كان يعتمد على المقايضة، ولهذا عندما قال تعالى في سورة الأنبياء78[وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ]تابع تعالى قائلا79[فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ] ولم يقل تعالى – وعلّمناها سليمان – وذلك لأن الله تعالى ذكر كيفية الحكم في التوراة، لأن سليمان جاء من بعد موسى، إلاّ أن بني إسرائيل تأثّروا بأحكام حمورابي، ففهموا الآية طبقا لما كان يتداول آنذاك من أحكام، ولهذا قال تعالى[فَفَهَّمْنَـٰهَا] والهاء

ضمير متصل دلالة على الآية التي نحن في صددها [وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ]

فالله تعالى جعل سليمان يفهم الآية لكي يحكم بين صاحب الغنم وصاحب الحرث ولهذا لن تجد أية طائفة من اليهود تقوم بما فهمه آباؤهم من الآية، كما لن تجد أية دولة مسلمة ترضى ببيع البشر، أو سبي النساء، أو رجم المرأة، أوقمعها أو بتر يد السارقة، أو رمي المثليين من أعالي السطوح، ولو كان ذلك من عند الله تعالى لرضي به أغلب الناس، وما اقشعرت منه جلودهم، وما اشمأزت منه قلوبهم، ولهذا قال تعالى في سورة الحجر42[إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ] وكما نعلم حرف إلاّ يستثني القليل من الكثير، وبالتالي لا يمكن أن يكون عباد الله تعالى أقلّ بكثير من الغاوين، وإلا فالشيطان صار أقوى من الله تعالى، لكن الله عز وجل قال في سورة الطلاق3[إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا] وأمره سبحانه هو أن يكون عباده الذين يتبعون كتابه، والذي لا يناقض إنسانية الإنسان ورحمة الرحمان، أكثر بكثير من الغاوين والضالين.

ثم تابع قوله تعالى[وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ] وهذا بيّناه في الفقرة التالية، ثم ختم الآية بقوله تعالى[فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَة له] يعني إذا تخلى صاحب الحق عن طلب حقه فهذا يُعتبر صدقة عند الله تعالى كما جاء في سورة البقرة219[وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ] وكذلك في سورة البقرة237[وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ] ولهذا أمر سبحانه محمدا ص بقوله في سورة الأعراف199 [خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ] وهنا كما نرى، أمر سبحانه النبي ص بأخذ العفو أولا، ثم بالأمر بالعرف، وليس بأن يحكم بما أنزل الله، لكنه عندما قال تعالى[فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ] تابع قائلا[وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ] وذلك لأن أحكام التوراة والإنجيل كانت عبارة عن وصايا، وليس كالقرآن الذي هو عبارة عن السعة في الحلال، والتي تخضع للمعروف والمنكر، دون تعدّي الحدود التي بيّنها تعالى في كتابه.

القصاص في القتلى (الحر بالحر)

قال الله تعالى في سورة البقرة178[يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ذَ‌ٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَ‌ٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ] بما أن

الله تعالى جعل كتابه قرآنا عربيا، ونزل به الروح الأمين بلسان عربي مبين، وليس بلسان العرب، فوجب إذًا أن نتدبره كذلك. فهنا الله تعالى قال[يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِى ٱلۡقَتۡلَى] ولم يقل – كتب عليكم القتلى بالقتلى – أو – كتب عليكم قتل القاتل – ولهذا وجب أن نبيّن دلالة كلمة القصاص.

فالله تعالى قال في سورة الكهف63[قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلۡبَحۡرِ عَجَبًا] ثم تابع قائلا[64قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا] وهنا كما نرى، قال تعالى [قَصَصًا] ولم يقل – قصاصا – وذلك لأن كل كلمة لها جذرها اللغوي، وبالتالي لكل واحدة دلالتها.

فكلمة قصصا هي مصدر لفعل قصّ، فنقول قصّ عليه الرؤيا، يعني أخبره بها، ولهذا قال تعالى في سورة هود100[ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَ] يعني نخبرك بها، وقال كذلك في سورة القصص11[وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ] وهنا قال تعالى[قُصِّيهِ] يعني ابحثي عن أخباره، أي استخبري عنه.

لكن الله تعالى عندما تكلم عن القتلى قال[ٱلۡقِصَاصُ] وذلك لأن كلمة القصاص هي مصدر لفعل قاصّ، فنقول زيد قاصّ عمرا في دين، يعني أن زيدا عوّض الحق الذي عليه لعمر بشيء يعادله أو يساويه، ولهذا نقول صندوق المُقاصّة، يعني صندوق التعويض، فدلالة كلمة القصاص إذًا هي تعويض الشيء بشيء آخر يساويه أو يعادله.

فعندما قال تعالى[يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِى ٱلۡقَتۡلَى] فذلك ليضع حدا لقتل القاتل، كما كان يسود من قبل، ويوجب سبحانه القصاص، أي الحكم بما يُعوّض فعل القتل، ولهذا قال تعالى في سورة الشورى40[وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَا] وهنا كما نرى، قال تعالى[سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَا] ولم يقل – سيئة بسيئة – وهنا الله تعالى يتكلم بالمفهوم العام، وبما أن الله تعالى حرّم جميع أنواع قتل الإنسان لأخيه الإنسان، والذي يُعدّ من كبائر السيئات، إلا أن يكون ذلك القتل دفاعا عن النفس، أو لمحاربة الفساد في الأرض، كما جاء في سورة الإسراء33[وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ] فهو سبحانه جاء بآية القصاص ليبيّن كيف نحكم على القاتل بفعل سيء مثل فعله، وليس بنفسه، ولهذا قال تعالى[يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِى ٱلۡقَتۡلَى]

ثم تابع تعالى قوله[ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ] وكما بيّنا من قبل، بأن الله تعالى، لا يعترف بالعبودية، والتي صنعها الأقدمون و قضى عليها المعاصرون، وبالتالي لا يمكن أن يُنزل تعالى أحكاما لذلك، أو ما يُقرّ بذلك. فعندما قال تعالى[ٱلۡحُرُّ] فذلك دلالة على الذي هو حرّ

في تصرفه، أي في حالة ما إذا كان القاتل قام بفعل القتل بمحض إرادته هو، فيقوم عليه الحكم هو بنفسه، وهذا هو معنى قوله تعالى[ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ]

ثم تابع تعالى قوله[وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ] وهذا كذلك لا علاقة له بالعبد المملوك، ولكن هو دلالة على الذي قتل طاعة لشخص ما، أي في حالة ما إذا كان القاتل مأمورا من طرف شخص آخر، فيجب إقامة الحكم عليه هو بنفسه، وليس من أمره بذلك، وهذا هو معنى قوله تعالى[وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ]

ثم تابع تعالى قوله[وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ] يعني إذا كان القاتل امرأة حرة، أي قامت بفعل القتل بمحض إرادتها، يقام عيلها الحكم هي بنفسها، وإن كانت أمة، أي قامت بفعل القتل طاعة لشخص ما، يقام عليها الحكم كذلك هي بنفسها، وليس من أمَرها بذلك، وهذا هو معنى قوله تعالى[وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ]

فعندما قال تعالى[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ] فذلك ليقول سبحانه، عندما يكون هناك قتل، يجب محاكمة القاتل، وذلك بتعويض فعله السيء بفعل سيء مثله أي يُعادله، وليس بنفسه، ويُحاكم الذي قام بفعل القتل، سواء قام بجريمة القتل بمحض إرادته أو كان مأمورا من طرف شخص آخر، ذكراً كان أو أنثى.

ثم تابع تعالى قوله[فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ] وكلمة عُفي جذرها اللغوي هو فعل عفا، فنقول عفا الشيء، يعني خفي أو أطال، ونقول عفا عن الشيء أي امتنع عنه، فعندما قال تعالى[فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ] يعني إن استعصى على وليّ المقتول أخذ حقه من القاتل، والذي نعته تعالى ب[أَخِيهِ] أي أخيه الإنسان، لأن الله تعالى هنا يتكلم عن قتل إنسان لأخيه الإنسان، فيجب أتباع ما امتُنِع من القاتل بالمعروف، أي حسب ما تعارف عليه المجتمع ورضي به، وهو القانون.

ثم تابع تعالى قوله[وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ] وكلمة أداء جذرها اللغوي هو فعل أدّى فنقول أدّى إليه الشيء، يعني أوصله إليه، فعندما قال تعالى[وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ] يعني يجب الوصول إلى ما امتُنِع من القاتل، كتسليم نفسه للقضاء مثلا، بطريقة حسنة وليس بطريقة سيئة، وهذا ما تنصّ عليه قوانين جميع دول العالم، والتي تحمي القاتل من إنتقام أولياء المقتول منه، وهذا ما أمر به سبحانه، ورضي به أغلب الناس.

ثم تابع تعالى قوله[ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ] وهنا كما نرى، قال تعالى[تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ] أي القصاص في القتلى عن طريقة محاكمة القاتل بالمعروف أي القانون والذي

جاء به ربنا، هو أخفّ من قتل القاتل الذي جاء به البشر، ولهذا تابع تعالى قائلا [وَرَحْمَةٌ] ثم تابع تعالى قائلا[فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ] يعني إن انتقم وليّ المقتول بنفسه من القاتل بعد الحكم عليه بالمعروف، فهو قد تعدّى حدود الله تعالى ومصيره جهنم خالدا فيها وساء مصيرا.

فالله تعالى جاء بآية القصاص في القتلى ليضع حدّا لقتل القاتل، ويوجب محاكمته بالمعروف بدل قتله، فهو سبحانه عوّض فعل القتل الذي قام به القاتل، بفعل سيء يماثله، وليس نفسه كما جاء في سورة الشورى40[وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا] فأن يُسجن القاتل هو فعل سيء بالنسبة له، لأنه سيُحرم من حريته، وهذا لا أحد يرضى به. ولهذا عندما تكلم سبحانه عن كيفية القصاص، تابع في الآية التالية قائلا[وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] أي محاكمة القاتل بالمعروف دون قتله، فيها حياة لمن يتعمق في كلام الله تعالى ويتقيه سبحانه، فأيّ حياة تكون إن كان القصاص هو قتل القاتل؟

فعندما قال تعالى في سورة المائدة45 [وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ] تابع سبحانه قائلا[وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ] وكلمة الجروح جذرها اللغوي هو فعل جرح، فنقول جرح لعياله، يعني اشتغل ليكسب لهم قوتهم، فالجروح إذًا هي كل تعب أو شغل يكسب به المرء قوته، وهذا ما جاء في سورة الأنعام60[وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ] يعني ما أتعبكم من عمل، أو شغل لكسب قوتكم في النهار، ولهذا قال تعالى[وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ] وليس - الجروح بالجروح – لأن الإنسان يشتغل مقابل أجر، وليس ليُغرم بنفس العمل الذي قام به هو بنفسه، وهذا هو معنى قوله تعالى[وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ] أي العمل يُقاص بما يساويه كأجر، وليس العمل بالعمل.

وقال سبحانه نفس الشيء في سورة البقرة194[ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ] وهنا كما نرى، قال تعالى[ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ] يعني إن فرض المؤمن الحج في الشهر الحرام، ثم تعذّر عليه ذلك، فلا يحقّ له أن يعوض الحج الذي فاته، إلاّ في الشهر الحرام، يعني لا يُعوَّض الشهر الحرام إلاّ بالشهر الحرام.

لكن تابع تعالى قوله[وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ] يعني إن كان مؤمن من ذي حجر، وأتى ما حرّمه تعالى، كصيد مثلا، فلا يمكن له أن يفديه بصيد آخر، كأن يصطاد أسدا ثم يفديه بأسد آخر، ولكن وجب عليه أن يعوّض ذلك الصيد، بما يعادله ممّا أحله

تعالى، ولهذا قال سبحانه في سورة المائدة95[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ] ولهذا قال تعالى[وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ] ولم يقل - الحرمات بالحرمات - وهذا ما جاء به الحديث الذي صحّحه الألباني في <إرواء الغليل> عن عكرمة مولى ابن عباس قال:<أنزل رسول الله ص ضبعا صيدا وقضى فيها كبشا>

فالله تعالى هو أرحم الراحمين، ولا يمكن أن يكون الإنسان أرحم منه سبحانه، ولا يمكن أن يكون الغاوون أكثر من الراشدين، وبالتالي يكون الشيطان أقوى منه عز وجل، فهو قال سبحانه في سورة الإسراء23[وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا] وكذلك في سورة الحجر42[إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ] ثم قال تعالى في سورة الطلاق3[إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا] فالله تعالى جعل الأسباب ليبلغ أمره، ويضع حدّا لكل أحكام الجاهلية، فمنها ما قد منعتها جميع دول العالم، كالعبودية، وهضم حقوق المرأة وتعنيفها، ونكاح الصغيرات، وبتر يد السارق، ومنها ما يزال قائما في قليل من دول العالم، كالإعدام مثلا، ولا يكون إلا في حالات الفساد في الأرض، وصدق قوله تعالى في سورة النحل 89[وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ] ولا يمكن أن تكون رحمة خارج كتاب الله تعالى، أرحم من رحمته، وهو الرحمان الرحيم.

ملاحظة: كما بيّنا من قبل في فقرة <فعل قتل> بأن دلالة فعل قتل هو وضع حدّ لشيء، أو فعل ليكون ضده، فعندما قال سبحانه[وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ] فهو تعالى يتكلم هنا عن القتل بالمفهوم العام، فأن يُسجن إنسان لوضع حدّ لحريته ظلما، أو يُذلّ لوضع حدّ لكرامته بغيا أو عدوانا، أو يُقضى عليه لوضع حدّ لحياته دون أن يكون دفاعا عن نفس أخرى، أو منع الفساد في الأرض، فهذا يُعدّ قتل النفس بغير حق، وهذا حرمه تعالى.

فعندما قال تعالى في سورة الإسراء33[وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ] تابع سبحانه قائلا[وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورا] وهنا كما نرى، قال تعالى[فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ] ولم يقل - فلا يسرف في قتله - وبما أن القضاء على الحياة ليس فيه درجات، وبالتالي ليس فيه إسراف، وإنما هو من الكبائر إن كان بغير حق، فالله تعالى لا يتكلم هنا عن وضع حدّ لحياة القاتل،

وإنما عن وضع حدّ لحريته مثلا، كوضعه في السجن، والذي تختلف مدته حسب ظروف جريمة القتل، ولهذا أمر تعالى بعدم الإسراف في القتل، أي عدم سجنه مثلا مدة تفوق ما يستحقه.

وصدق قوله تعالى في سورة البقرة170[وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ] ولهذا قال تعالى في سورة البقرة78[وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ] وقال تعالى في سورة النجم28[وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا] وحقّ قوله سبحانه في سورة الملك10[وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

الناسخ والمنسوخ (تعريفه وأسبابه)

قال الله تعالى في سورة البقرة106[مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ] كما يعلم الجميع بأن هذه الآية هي التي انبثق عن مفهومها فقه الناسخ والمنسوخ، وما نتج عنه من أفكار وآراء لم ينزل بها تعالى من سلطان، مما جعلنا نظن بتبديل الله تعالى قوله بقول يخالفه بعد حين، ونسينا قوله سبحانه في سورة ق29[مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ]

يجب أن نعلم بأن آباءنا تأثروا كثيرا بتفاسير أهل الكتاب لكتبهم، وهذا يتجلى كثيرا في تفسير آيات القصص والأنباء التي جاءت في القرآن، ووقع نفس الشيء بالنسبة للناسخ والمنسوخ، والذي ليس وليد القرآن، ولكن جاء به اليهود في أول الأمر بعد نزول التوراة، إلاّ أنهم اختلفوا فيه، فافترقوا إلى ثلاث فرق، وهي بطريقة مختصرة:

الشمعونية نسبة إلى شمعون بن يعقوب، وهو أحد أبناء يعقوب ، وتقول بمنع النسخ سمعا وعقلا.

العنانية نسبة إلى عدنان بن داوود، وهو أحد الحاخامات العراقيين، والمؤسس لليهودية القرائية، وتقول بمنع النسخ سمعا، وليس عقلا.

العيسوية نسبة إلى أبي عيسى الأصفهاني، وتقول بجواز النسخ عقلا، ووقوعه سمعا.

أما آباؤنا فقد اختلفوا في قراءة الآية، ممّا أدى بدوره إلى وجود الاختلاف في معناها، وهكذا مرة أخرى كما عهدنا، صار الاختلاف في تفسير آيات الكتاب من ثوابت الدين وأصول الفقه. ومن هذه الاختلافات في قراءة آية (النسخ) ما جاء به ابن كثير في تفسيره حيث قال: عن ابن عباس – ما ننسخ من آية أو ننسأها – يقول ما نبدل من آية أو نتركها لا نبدلها، وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود – أو ننسأها – نثبت خطها ونبدل حكمها، وقال أبو العالية – ما ننسخ من آية أو ننسأها – نؤخرها عندنا.

ونحن نتساءل، أيّ القراءة أصح؟ ما نقرأه نحن أم ما قرأ به ابن عباس، وأصحاب ابن مسعود، وأبو العالية، وآخرون كما جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد شاكر في عمدة التفسير، عن القاسم بن ربيعة قال:<سمعت سعد بن وقاص يقرأ – ما ننسخ من آية

أو ننسها – قال: قلت له: فإن سعيد بن المسيب يقرأ أو ننسأها قال: فقال: إن القرآن لم يُنزل على المسيب ولا على آل المسيب، قال الله جل ثناؤه: سنقرئك فلا تنسى <الأعلى6> واذكر ربك إذا نسيت>

ونحن نتساءل هنا كذلك، هل القرآن نزل لآبائنا فقط، وخصّهم تعالى بتدبره، ولا يحق لنا أن نتدبره نحن كذلك؟ أم الله تعالى جعلهم وكلاء علينا؟ فإن كان كذلك، فلماذا قال تعالى في سورة البقرة170 [**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُون**]؟ ولماذا قال كذلك في سورة الإسراء13 [**وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا**]؟ ولماذا قال تعالى كذلك في سورة الملك10 [**وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ**]؟ أم نحن كرهنا ما أمرنا به تعالى، وهو استعمال العقل، ورضينا ما أمر به آباؤنا، وهو الاعتماد على النقل، كما قال ابن حزم في كتابه <الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم>؟ فهو رحمه الله قال بأن هذا الفن من العلم أي الناسخ والمنسوخ، من تتمات الاجتهاد، إذ الركن الأعظم في باب الاجتهاد في معرفة النقل، ومن فوائد النقل، معرفة الناسخ والمنسوخ.

وأنا احتراما لقول الإمام ابن حزم الظاهري، بحثت في القرآن كله، فلم أجد أيّ آية تقول بهذه القاعدة، التي اعتبرها رحمه الله وآخرون، من الركن الأعظم في باب الاجتهاد، ولم أجد ما يدلّ على الناسخ والمنسوخ، أو ما يدلّ على أن في كتاب الله تعالى آية معيّنة من آيات الكتاب تنسخ آية أخرى معيّنة من عند الله، ولكن وجدت قوله تعالى[**مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**] والذي لا علاقة له بكل ما قيل عن الناسخ والمنسوخ، والذي كان سببا في سفك الدماء، واستحياء نساء الآخرين، والدعوة إلى كره اليهود والنصارى، ووجدت قوله تعالى في سورة ق29 [**مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ**] وقوله تعالى في سورة طه129 [**وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى**] وبما أن الله سبحانه لا يبدل قوله، فهو لم يُعجّل العذاب للذين يستحقونه، ولكن أخره إلى أجل مسمى كما قضى عندما خلق السماوات والأرض، ولهذا قال تعالى في سورة العنكبوت53 [**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**] فكيف بإله لا يبدل حكما قضاه منذ أن خلق السماوات والأرض، يبدل قولا بقول آخر بعد حين؟ أليس هذا من فعل البشر؟

فكما يعلم الجميع بأن الناسخ والمنسوخ حسب مفهوم آبائنا، والذي لم يتجرأ أحد على إعادة النظر فيه، ينقسم إلى ثلاثة أنواع، كما جاء به ابن حزم في كتابه، وهي:

1- نسخ الخط والحكم، وهوما يُعرف بنسخ القول والحكم، يعني لا وجود للآية في كتاب الله تعالى الذي بين أيدينا التي نزل بها الروح الأمين على محمد ص، وبالتالي لا وجود لحكمها. وجاء ابن حزم بمثال على ذلك فقال عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:< كنا نقرأ سورة تعدل سورة التوبة ما أحفظ منها إلا هذه الآية – لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثا، ولو أن له ثالثا لابتغى إليه رابعا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب >

ونحن نقول بأن أيّ إنسان يقرأ كتاب الله تعالى ، وليس عقله غُلف، فسوف يعلم بأن الله سبحانه بريء من هذا الكلام، لأنه سبحانه أحكم آيات الكتاب ثم فصّلها، ففرّق تعالى بين فعل بغي وفعل ابتغى، والذي لا علاقة له بما نُسب إليه عز وجل. ففعل بغي في القرآن يعني أن تسعى وراء شيء بعينه، ولهذا قال تعالى في سورة المائدة50 [**أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**] لكن فعل ابتغى يعني أن تفعل شيئا تسعى من ورائه شيئا آخرا، ولهذا قال تعالى في سورة النساء 114 [**لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**] فالذي جاء به ابن حزم كمثال على النوع الأول من الناسخ والمنسوخ، والذي نُسب لأنس بن مالك لا يخضع لأبسط قاعدة من القواعد التي جعلها تعالى في كتابه لكي نميّز بين ما هو من عنده سبحانه، وما هو من عند غيره، فضلا عن زعمه بأن المصحف الذي بين أيدينا لا يحوي كل ما أنزله تعالى على محمد ص، لكنه قال تعالى في سورة الحجر9[**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ**] فهو صدق قوله عز وجل، ولهذا لا يوجد أيّ أثر لهذا الكلام داخل المصحف الذي بين أيدينا، وكذلك ما جاء به الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت:< كان فيما أُنزل من القرآن: عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نُسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ص، وهن فيما يُقرأ من القرآن>

ونحن نتساءل، أوليس هذا باتهام لعثمان بن عفان كتمانه ما أنزل الله تعالى على رسوله؟ لكن أيّ إنسان يتدبر القرآن بقواعده، إلاّ وعلم بأن عائشة أم المؤمنين بريئة من هذا القول، وعثمان بن عفان بريء من هذا الاتهام،وقد بيّنا في فقرة <رضاعة الكبير> بأن الله تعالى بيّن جليا مدة الرضاعة التي تحرم، والتي هي تُطعم.

2- نسخ الخط دون الحكم، يعني نسخ القول وبقاء الحكم، أي وجود أحكام شرعية لا توجد آيات داخل الكتاب الذي بين أيدينا تدل عليها، فجاء ابن حزم بمثال على ذلك عن عمر رضي الله عنه قال: < كنا نقرأ – ألا ترغبون الرغبة عنها – بمعنى الإعراض عن آبائكم، ومن ذلك (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم) معناه المحصن والمحصنة >

ونحن نقول مرة أخرى، بأن كل إنسان يعلم ولو أبسط قاعدة من القواعد الربانية فسيعلم بأن كلمة شيخة ليست من كلام الله تعالى، لأنه نعت سبحانه المرأة الكبيرة في السن داخل كتابه بالعجوز، وقد تكون محصنة وغير محصنة، وهذا قد بيّناه في فقرة <الاستمتاع> فضلا عن باقي الجملة، الذي لا علاقة له بآيات الله تعالى، وهذا بيّناه كذلك في فقرة <الرجم> فالله تعالى أحكم آيات الكتاب ثم فصّلها، وهذه هي الوسيلة التي حفظ بها سبحانه كتابه حتى لا يكون بداخله، أو خارجه كلام يُنسب إليه لم ينزل به من سلطان، وهذا لا يعلمه إلا الذين يتدبرون القرآن بالقواعد التي وضعها تعالى لذلك.

3- نسخ الحكم دون الخط، يعني نسخ الحكم دون القول، أي وجود الآية داخل الكتاب الذي بين أيدينا، والذي أمرنا تعالى باتباعه كله كما جاء في سورة الأنعام 155[وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ] لكن عدم الأخذ بمضمونها أي حكمها، مع أن القرآن لم يأت بأحكام فقط، ولكن جاء كذلك بأنباء وقصص، فلماذا لم ينسخ الله تعالى أيّ آية من هذه الآيات، ونسخ فقط من آيات الأحكام؟ فإن كان كذلك، فمن الذي أخبر آباءنا بهذا؟ ومن الذي عيّن الآية المنسوخة والتي نسختها؟ فهل الله تعالى أنزل كتابا أحكم آياته ثم فصّلها، وبعد ذلك أمرنا بنسخ البعض منها؟ فلماذا أنزلها إذاً؟ أم الله عزّ وجلّ قضى حكما ثم تراجع عن قضائه؟ أوليس هذا من فعل البشر؟ بلى، هو من فعل البشر، والذي قد يغير رأيه من حين لآخر لسبب من الأسباب، ولهذا وُجد فقه الناسخ والمنسوخ، وكان هناك سببان أساسيان لوجوده:

أولهما، عدم تقبل اختلاف الآخر، وبالتالي رفض كل أمة تخالف أمة محمد ص وثانيهما، تناقض مفهوم آية مع مفهوم آية أخرى، وبالتالي حذف واحدة منهما، ولهذا سنأتي بمثال لكل واحد من هذين السببين.

فكمثل للسبب الأول لوجود الناسخ والمنسوخ، ما جاء به ابن حزم في كتابه <الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم> بالنسبة لحكم القبلة فقال: أمر الله تعالى المصلي في أول

الأمر بالتوجه حيث شاء لقوله تعالى في سورة البقرة115 [فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ] فنسخ ذلك التوجه لبيت المقدس بقوله تعالى في سورة البقرة144 [فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ]

يعني حسب قول ابن حزم رحمه الله، لم تعدْ هناك أيّ قبلة أخرى سوى قبلة البيت الحرام، وبالتالي أصبحت أمة محمد ص هي أربى أمة، وهذا ما نهى عنه بقوله تعالى في سورة النحل92 [وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ93 وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ94 وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ] وقوله تعالى في سورة المائدة48 [وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ] فهل نحن إذاً رضينا بما كرهه آباؤنا، وسخطنا ما رضيه تعالى؟

فلهذا وجب أن نبيّن هل فعلا قوله تعالى في سورة البقرة115 [فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ] نُسخ بقوله في سورة البقرة144 [فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ]؟ فإن كان كذلك، فما جدوى قوله تعالى في الآيات الأخر التي تتكلم عن الملل، والتي شاء تعالى أن تكون مختلفة؟ هل وجب علينا نسخها هي كذلك ليكون ما نشاء نحن؟ وهل أصبح الدين بأمانينا نحن، وليس بما شاء أن يكون سبحانه؟ أم ما جاء به ابن حزم وغيره من نسخ لآيات الله تعالى هو نتيجة عصبية، وعدم تقبل اختلاف الآخر؟

الكل يعلم بأن محمدا ص عندما أمره الله تعالى بإقامة الصلاة، وبما أنه كان من الأميين، فقد اتبع ملة إبراهيم، فأقام الصلاة كما كان يقيمها خليل الله عليه السلام، ولهذا قال تعالى في سورة النحل123 [ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ] وبما أن الراسخين في العلم والذين أوتوا العلم من أهل الكتاب، كانوا هم كذلك يتبعون ملة إبراهيم، فقد كانت صلاة محمد ص كصلاتهم، وتوجه نحو قبلتهم، وهي الوجهة التي عيّنها تعالى لموسى وقومه، كما جاء في سورة يونس87 [وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ] وبما أن مسجد الأقصى كان من بيوتهم، فهم ولّوا وجوههم شطره، ولهذا ولّى محمد ص وجهه شطره لمدة تفوق السنة، وهو غير راضٍ عن ذلك، لأنه

كان يريد وجهة إبراهيم عليه السلام، وهي وجهة المسجد الحرام، وهي أول قبلة، وليس المسجد الأقصى ، ولهذا عندما قال تعالى في سورة البقرة144 [قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ] تابع قوله سبحانه[وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ] يعني يعلمون بأن المسجد الحرام كان فعلا قبلة للصلاة منذ عهد إبراهيم عليه السلام، وحتى مجيء موسى عليه السلام كما جاء في سورة البقرة125 [وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ]

فعندما ولّى محمد ص وجهه شطر المسجد الحرام كما أمره تعالى، وأصبحت هناك قبلتان، تبيّن الذين آمنوا حقا من أهل الكتاب من الذين كانوا يزعمون الإيمان نهارا ويكفرون ليلا، كما جاء في سورة آل عمران72 [وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ] وذلك لأنهم كانوا يقيمون نفس الصلاة، ويتجهون إلى نفس القبلة، فلا يتبيّن المؤمن من المنافق منهم، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة143 [وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ] فصار الذين لا يعلمون الكتاب يتساءلون عن تولّي محمد ص عن القبلة التي كان عليها هو وأصحابه من قبل، كما جاء في سورة البقرة142 [سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ] وأصبح أصحاب محمد ص ينكرون قبلة أهل الكتاب، والذين هم كذلك ينكرون قبلة أمة محمد ص، ولهذا نزل قوله تعالى في سورة البقرة 115 [وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ] فصارت كل أمة تفتخر بقبلتها، وتعدّها من فضل الله عليها، ولهذا نزل قوله تعالى في سورة البقرة177 [لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ]

وهكذا يتبيّن بأن الله عز وجل لم ينسخ أيّ قبلة، ولا أيّ ملة، ولكن خالف بينهم ليبلو كل أمة فيما آتاها، وليتسابقوا في الخيرات، وليس ليتسابقوا في الكره، ولا في سفك الدماء، ولا في نسخ ملة بعضهم بعضا، وكل هذا قد بيّنه تعالى في عدة آيات

من الكتاب، ومنها قوله تعالى في سورة المائدة48[وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ] وقوله تعالى في سورة الحج34 [وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ] وقوله تعالى في سورة البقرة183[يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] ولهذا قال تعالى في سورة المائدة66[وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ] وكذلك في سورة النساء 125[وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا]

فالدين عند الله هو واحد وهو دين الإسلام، وهو ما يتعلق بالنهي والأمر، والحلال والحرام، والملة هي طريقة القيام بما أمر به تعالى، ولهذا جعل لكل أمة شرعتها ومنهاجها كما جاء في سورة المائدة48[لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا] أي طريقة صلاتها وقبلتها، وطريقة صيامها ومدته، والبيت الذي تحجّ إليه ومناسكها، وكل أمة مازالت ملتها قائمة ولم تُنسخ قطّ، وهذا ما بيّناه في فقرة <الإسلام ودين الإسلام> وفي فقرة <أمة وسطا> طبقا لما بيّنه سبحانه وتعالى في كتابه الذي أمرنا باتباعه، والذي سوف نحاسب على ما بداخله، والذي ينطق بالحق، وكل من خالفه فهو باطل، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة42[وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ]

وكمثال للسبب الثاني للناسخ والمنسوخ، هو ما جاء به الطبري في تفسيره، والذي لا يختلف عن ما جاء به كثيرون من فقهاء النسخ، فقال:< عن سعيد بن مرجانة قال: جئت عبد الله بن عمر فتلا هذه الآية[لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ] ثم قال ابن عمر: لئن آخذنا بهذه الآية، لنهلكنّ! ثم بكى ابن عمر حتى سالت دموعه! فقال ابن عباس: يغفر الله لعبد الله بن عمر! لقد فَرِق (فزع وخاف) أصحاب رسول الله ص منها كما فرق ابن عمر منها، فأنزل الله: [لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ] فنسخ الله الوسوسة، وأثبت القول والفعل> تمّ قول الطبري.

فهل فعلا، رب عظيم خلق السماوات والأرض فأبدعهما، وخلق الإنسان فأحسن خلقه، ينزل أحكاما في كتابه ثم يغيرها من بعد أن يتبيّن له عدم صلاحيتها؟ أو عدم قدرة عباده تحملها؟ أولم يعلم سبحانه بقساوة أو عدم صلاحية تلك الأحكام من قبل أن ينزلها؟ وهل هذا يليق بإله قال سبحانه في كتابه في سورة الأنعام59 [**وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ**] أم الكتاب المبين ليس فيه ما كتب لنا سبحانه، وما كتب علينا؟ أم آباؤنا هم الذين أخطأوا كما يخطأ الإنسان؟

بلى، قد أخطأوا، وهذا أمر طبيعي بالنسبة للحقبة التي عاشوا فيها، والآليات المتوفرة حينها، لكن غير الطبيعي هو أن نقدس أقوالهم، ولا نتبيّن ما عقلوه آنذاك كما جاء في سورة البقرة170 [**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ**] ولهذا وجب أن نبيّن ذلك الخطأ.

فعندما قال تعالى في سورة البقرة284 [**وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ**] ظن آباؤنا بأن الله تعالى يتكلم عن الوسوسة، أي ما يفكر فيه الإنسان، وقد يكون خيرا أو شرا، وأنه تعالى سيحاسبنا على ما نفكر فيه، ثم عندما علم سبحانه بقساوة ذلك الحكم، أنزل قوله تعالى بعد ذلك في سورة البقرة286 [**لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ**] وذلك لينسخ حسابه لنا بما نفكر فيه ويجعله بما نقول و بما نفعل، وهذا ما يُعرف بنسخ الحكم دون الخط، يعني قوله تعالى [**وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ**] مازلنا نتلوه، لكن لا يُؤخذ بحكمه. ولهذا سنبيّن بأن الآية لم يُنسَخ حكمها، ولكن مفهوم آبائنا هو الذي وجب علينا نسخه.

فعندما قال تعالى [**وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ**] فهو سبحانه يعني، إن نحن أظهرنا ما نكتم، أو لم نظهره سيحاسبنا به، لأنه سبحانه يعلم ما نسرّ وما نعلن، وكمثال على ذلك، السارق عندما يسرق ويُقبض عليه، فهو ينكر فعل السرقة وقد لا يعاقب، لكن الله تعالى لن يحاسبه بما أبدى، وهي براءته المزعومة، ولكن سيحاسبه تعالى بما أخفى، وهي الحقيقة التي نفاها، وإن اعترف بالسرقة فسيحاسبه تعالى بما أبدى، وهي الحقيقة، يعني سواء اعترف بفعله أي أبدى، أو لم يعترف به أي أخفى، فالله تعالى سيحاسبه به ، وهذا كمثال من الأمثلة الكثيرة لمعنى قوله تعالى [**وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ**] وكذلك المنافق، فالله تعالى سيحاسبه بما أخفى وليس بما أبدى، ولهذا قال تعالى في سورة النحل19 [**وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ**] وكذلك في سورة النمل25 [**أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**

وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ] وكذلك في سورة التغابن4[يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ] وكل هذه الآيات وأخر هي تفصيل لقوله تعالى[وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ] وكلها ما تزال أحكامها قائمة كما هو خطّها، وإلى يوم القيامة.

أما عندما قال تعالى في سورة البقرة286[لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ] فهذا لا علاقة له بقوله تعالى[وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ] وإنما يتكلم سبحانه عن استطاعة المؤمن بالقيام بما أمره سبحانه من أحكام، ولهذا قال تعالى[لَا يُكَلِّفُ] يعني أن الله تعالى لا يحمّل الإنسان ما لا طاقة له به، ولهذا قال تعالى في نفس الآية[رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ] فهو سبحانه عندما أمرنا بالصيام في سورة البقرة183[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] لم يكلفنا إلا ما نطيق، ولهذا قال تعالى بعد ذلك[أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ] وعندما أمرنا سبحانه بالكفارة في الظهار بقوله في سورة المجادلة3[وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ] قال تعالى بعد ذلك[فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ] وهذه الآيات وأخر مثلها، هي تفصيل لقوله تعالى في سورة التغابن16[فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ]

وهكذا يتبيّن بأن قوله تعالى[وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ] لا علاقة له بقوله تعالى[لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ] وبالتالي لا تناقض بينهما، ففي الآية الأولى، يبيّن سبحانه بأنه سيحاسبنا على حقيقة القول والفعل سواء أبديناه كما هو، أو أخفيناه وأبدينا غيره، ولهذا قال تعالى في سورة النجم39[وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ40وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ] وأما في الآية الثانية، يبيّن تعالى بأنه لا يكلفنا أكثر من طاقتنا بالقيام بما يأمرنا به، وأنه سيحاسب كل إنسان على ما قام به من فعل هو بنفسه، خيرا كان أم شرا، ولهذا قال تعالى في سورة فصلت46[مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ]

فلكي لا نسيء الظن بالله تعالى، ويتبرأ منا آباؤنا يوم القيامة، وجب علينا أن نعيد تدبر آية (النسخ) بالقواعد الربانية، والتي توجد بداخل القرآن، حتى لا نضلّ بأهوائنا عن مفهوم الآية، والذي لا يمكن أن يناقض مفهوم الآيات الأخر، وصفات الله العظيم.

الناسخ والمنسوخ (تدبر آية النسخ)

قال الله تعالى في سورة البقرة106 [مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ] كما بيّنا من قبل، من القواعد التي وضعها تعالى ليُحكِم بها آياته، هي ترتيب الأفعال حسب سياق الآية، فهو عندما قال تعالى[مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا] تابع قائلا[نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ] يعني كلما نسخ آية يأتي بخيره منها، وكلما أنسى آية يأتي بمثلها، وهذا مهم جدا في تدبر الآية عندما نعلم عن أيّ آية يتكلم سبحانه. وبما أن الله تعالى جعل كتابه قرآنا غير ذي عوج، وجب أن نبحث عن دلالة كلمة[نَنسَخْ] والتي تكون خاصة بفعل نسخ في جميع آيات الكتاب، وإلاّ سيكون كتاب الله تعالى قرآنا ذا عوج.

فكلمة ننسخ جذرها اللغوي هو فعل نسخ، يعني أزال، فنقول نسخت الريح آثار الأقدام، أي أزالت آثار الأقدام التي كانت موجودة، فدلالة كلمة نسخ هي إزالة شيء كان موجودا بطريقة كلية، ولهذا قال تعالى في سورة الحج52 [وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ] يعني أن الشيطان كان يلقي في ما كان يتلوه النبيون والمرسلون من آيات الكتاب، ليحرّف كلام الله تعالى، فكان الله عز وجلّ يعلم به، فيزيله كليا لتبقى آيات كتابه محكمة كما أنزلها تعالى، وهي التي بين أيدينا ونعلمها، وليس فيها ما ألقى الشيطان، والذي أزاله كليا سبحانه، وبالتالي فعندما قال تعالى[مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ] فهذا يعني أن الآية التي يتكلم عنها سبحانه لم تعد موجودة، فإن كانت آية من آيات الكتاب، فهذا يعني أنها لم تعد موجودة في الكتاب، وبالتالي لا نعلمها، وهذا ينفي القول بأن في القرآن آيات نتلوها، ولا نأخذ بحكمها.

ولهذا عندما قال تعالى[مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ] قال حسب ترتيب الأفعال[نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ] وذلك لأنها لم تعد موجودة، وإذا كان الله تعالى يتكلم عن آيات الكتاب، فهذا يعني بأنه أزال آية أو أكثر من القرآن، وبالتالي ليست موجودة بداخله، وجاء بأخرى أو أخر خيرا منها أو منهن، وهي أو هن موجودات داخل القرآن، وبما أن الله تعالى يتكلم حسب ما فهمه

آباؤنا عن آيات الكتاب نفسها، وليس مضمونها، والذي قد يكون عبارة عن أحكام، أو قصص، أو أنباء، فهذا ينفي كذلك القول بأن هناك آيات نُسخ حكمها وبقيت تلاوتها، أو آيات نسخت تلاوتها وبقي حكمها، لأنه يناقض قوله تعالى في آية النسخ.

وعندما قال تعالى[أَوْ نُنسِهَا] فهذا يعني أننا لم نعد نذكرها، فهي إذًا ليست بداخل المصحف، إن كان الله تعالى يتكلم فعلا عن آية قرآنية، أما آيات الكتاب التي بين أيدينا فنحن نقرأها ونعلمها، وبالتالي لم ننساها، أي علمنا بها ثم لم نعد نذكرها، ولهذا قال تعالى حسب ترتيب الأفعال[مِثْلِهَآ] أي التي يُنسيها يأتي بمثلها أي ما يشبهها، وهذا يدل على أن الآية قد ينسيها تعالى ويأتي بمثلها حاليا أو بعد حين، وذلك لأنه استعمل فعل المضارع في الأفعال كلها، وهذا يدلّ على أن فعل النسخ أو النسيان مستمر منذ نزول القرآن، وقد يكون كذلك في المستقبل، لكن الله تعالى أكمل دينه، ولن يُنزل أيّ كتاب من بعد القرآن.

ثم ختم سبحانه الآية بقوله[أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ] وكل إنسان تدبر القرآن وعلم كيف أحكم الله تعالى آيات كتابه، فسوف يعلم، وكما بيّنا من قبل، بأن الله تعالى لا يمكن أن يختم آياته بما يناقض مضمون الآية نفسها، فإذا كان سبحانه يتكلم في آية النسخ عن آيات الكتاب، وختم الآية بقوله تعالى[أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ] فهذا يعني أن القرآن شيء مخلوق كما قالت المعتزلة، وإلاّ فإن الله تعالى لا يتكلم عن آية قرآنية، لأن القرآن هو قول الله تعالى، وكلمة القول هي مصدر لفعل قال، وقول الله تعالى هو من علمه سبحانه، و مضمونه من حكمته، وطريقة تفصيله من خبرته، ولهذا كلما تكلم سبحانه عن آيات الكتاب، إلاّ واستعملها في صيغة الجمع، وختم الآية بصفة من صفاته، والتي تتعلق بعلمه وحكمته وخبرته، وهي العليم، الحكيم، الخبير، وكذلك العزيز، وكمثال على ذلك ما جاء في سورة الحج52 [وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ] وهنا كما نرى، ختم الآية بالعليم الحكيم، وذلك لأنه يتكلم تعالى عن آيات الكتاب، وكذلك في سورة هود1 [الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ] وهنا كما نرى مرة أخرى، ختم الآية بالحكيم الخبير، وذلك لأنه يتكلم سبحانه عن آيات الكتاب، وكذلك ما جاء في سورة البقرة129 [رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ] وهنا كما نرى، ختم أيضا الآية بالعزيز الحكيم، لأنه يتكلم سبحانه عن آيات الكتاب، ودائما بصيغة الجمع، وليس بصيغة المفرد، وكذلك ما جاء في سورة النساء56 [إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ

ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا] وهنا نفس الشيء، فهو سبحانه ختم الآية بالعزيز الحكيم، لأنه يتكلم عن آيات الكتاب، والتي هي كذلك بصيغة الجمع، وهناك أمثلة كثيرة صرّفها تعالى في القرآن حتى لا نزيغ عن فهم آيات الكتاب.

فعندما ختم آية النسخ بقوله تعالى[**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ]** فذلك لأنه يتكلم سبحانه عن آية كونية أي الخلق، أو المعجزات، ولهذا جاء بها في صيغة المفرد، وختم الآية بقوله[**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ]** وليس بصفاته العليم، أو الحكيم، أو الخبير، أو العزيز مع أحد من هذه الصفات، ولهذا لا يمكن لآية النسخ أن تتكلم عن نسخ أو نسيان آية قرآنية، أي قول الله تعالى وحكمته، وإنما عن نسخ ونسيان آية كونية، أي خلق الله تعالى وقدرته.

فعندما يتكلم سبحانه عن معجزات خلقه يستعمل كلمة آية بصيغة المفرد كما جاء مثلا في سورة البقرة259[**أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ]** وهنا كما نرى، الله تعالى يتكلم عن قدرة خلقه، ولهذا قال آية، ولم يقل آيات، وختم الآية بقوله تعالى[**قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ]** كما ختم آية النسخ قائلا[**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ]** وكما جاء في سورة الأنعام124[**وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ]** وهنا كما نرى، جاءت كلمة آية بصيغة المفرد، وذلك لأن الله تعالى يتكلم عن معجزة، وليس آية قرآنية، وكما جاء في سورة الأعراف132 [**وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ]** والأمثلة كثيرة التي صرّفها تعالى في القرآن.

فعندما قال تعالى[**مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ]** فهو عز وجل لا يتكلم عن آيات الكتاب، ولكن يتكلم عن آية كونية أي شيء من خلقه، أو معجزة، والسياق الذي جاءت ضمنه الآية يبيّن ذلك جليا، ولهذا وجب أن نأخذ الآية التي قبل آية النسخ والآيتين من بعدها.

فالله تعالى قال[105**مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ 106مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ107أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ**

مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ108أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ] وهنا كما نرى، الله تعالى يخاطب قوم محمد ص الذين كانوا يريدون أن يأتيهم بمعجزات كما جاء بها موسى عليه السلام، ولهذا قال تعالى[أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ] فالله تعالى آتى موسى عدة معجزات، ومنها قوله تعالى في سورة البقرة60[وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ] لكن هذه العيون لم تعد موجودة، فهي إذًا مما نسخ سبحانه، ومنها قوله تعالى في سورة الشعراء63[فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ] وهذه آية نُسخت كذلك ولم تعد موجودة.

فآية النسخ إذًا تتكلم عن خلق الله تعالى، والذي لا يزيله إلاّ ليأتي بخير منه، وإذا أنساه جاء بمثله كما جاء في سورة الكهف27[فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا] أما كتاب الله تعالى، فآياته كانت موجودة منذ أن خلق الله تعالى هذا الكون ولم تنسخ، ولم يُنس منها شيئا كما جاء في سورة الأنعام59[وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ] وكما جاء في سورة هود6[وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ] ولهذا قال تعالى في سورة النمل 1[طسٓ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ] وكما بيّنا بأن كلمة القرآن دلالة على الطريقة التي أوحى بها تعالى لمحمد ص، فهو أنزل تعالى آيات من الكتاب المبين على محمد ص وجعلها عربية كما جاء في سورة الزخرف3[إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] وأنزل كذلك آيات من الكتاب المبين على موسى وجعلها بلسانه ، والتي كانت جميعها في كتاب مبين مكنون كما جاء في سورة الواقعة77[إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ78فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ79لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ80تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ] والذي يحوي كل ما أنزله تعالى على رسله، ولا يبدّله تعالى عند نزوله لأنه إله عليم حكيم خبير، ولا يخطأ، ولا ينسى، ولا يندم ولا يغيّر قوله بقول آخر، ولكن كل هذا من صفات البشر، وصدق قوله تعالى في سورة ق29[مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ] وقوله تعالى في سورة طه129 [وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى] وقوله تعالى في سورة مريم64 [وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا]

ففقه الناسخ والمنسوخ بُني إذًا على فهم خاطئ للآية، والذي كان متأثرا بما نقله آباؤنا عن أهل الكتاب، كما هو الشأن بالنسبة للقصص، والأنباء التي جاء بها القرآن، وكان السبب الأول لهذا النوع من الفقه، الإكراه في الدين، وعدم تقبل اختلاف الآخر، ولهذا نسخ آباؤنا أكثر من مائة آية تدعوا إلى حرية الاعتقاد، وتقبّل اختلاف الملل، بآية نعتوها بآية السيف، تدعو لمحاربة المشركين، وهي خاصة بمحمد ص وقومه، والذين أذن لهم سبحانه بقتلهم باللسان العربي، والذي بيّناه في فقرة <فعل قتل> وليس بلسان العرب، ولم يأذن لنا نحن بذلك. والسبب الثاني، عدم تدبر آيات الكتاب بالقواعد الربانية، مما أدّى إلى وجود تناقض بين آيتين أو أكثر، وهذا جعل أباءنا يضطرون إلى نسخ آية بآية أخرى، عوض إعادة النظر في تدبرهما.

ملاحظة: هناك آية ذكر فيها تعالى آيات الكتاب بصيغة المفرد، وذلك لأنه يتكلم سبحانه عن تبديل آية مكان آية، وليس آية بآية، ولهذا قال تعالى في سورة النحل101 [وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ] فهو سبحانه هنا يخاطب أهل الكتاب، والذين أنزل عليهم آيات ذات أحكام معيّنة ومحدّدة، وعندما أنزل القرآن على محمد ص، أنزل فيه آيات ذات أحكام عامة تخضع للمعروف، وهذا بيّناه في فقرة <أمة وسطا>

وكمثال على هذه الآيات، قوله تعالى في سورة المائدة45[وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ] وهنا كما نرى، حدّد تعالى لبني إسرائيل وعيّن لهم نوعية الحكم، لكنه عندما أرسل محمدا ص جعل الأحكام حسب المعروف، كما جاء في سورة الأعراف 199[خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ] ولهذا قال تعالى في سورة الشورى40[وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا] ولم يقل - جزاء سيئة بسيئة نفسها - فهو سبحانه بدّل ما حدّده وعيّنه في التوراة والإنجيل، بما هو عام في القرآن ويخضع لمعروف المجتمعات أي قوانينهم، ولهذا لم يأمر تعالى أمة القرآن بالحكم بما أنزل سبحانه، ولكن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والله هو العليم الحكيم الخبير.

سورة المزمل

قال الله تعالى في سورة المزمل[يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ1قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا2نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا3أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا4] كما يعلم الجميع، لم تسلم هذه السورة هي كذلك من النسخ، حسب ما جاء به المفسرون ، والذين اعتمدوا على ما فهمه الأولون من الآية، وهو أن أول السورة نُسخ بآخرها بقوله تعالى [إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] وكمثال على هذا القول ما جاء به الطبري في تفسيره حيث قال:

حدثني علي، قال: ثنا أبو صالح، قال: ثنا معاوية، عن علي، عن ابن عباس، في قوله[قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا2نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا3أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا4] فأمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلاّ قليلا، فشقّ ذلك على المؤمنين، ثم خفّف عنهم فرحمهم وأنزل الله بعدها[عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ]... إلى قوله[فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ] فوسّع الله وله الحمد، ولم يضيّق. وفي رواية أخرى، دائما عن الطبري، نخفّف الله عنهم بعد عشر سنين، وفي رواية أخرى نخفف الله عنهم بعد حول أو حولين، تمّ قول الطبري.

فكما يعلم الجميع، ما بُني على خطأ فهو خطأ، وفقه الناسخ والمنسوخ بُني على خطأ وقع في تدبر آية النسخ لعدم اعتماد آبائنا على القواعد التي وضعها تعالى بداخل كتابه، وهناك سببان أدّيا لنسخ عديد من آيات الكتاب كما ذكرنا في فقرة <الناسخ والمنسوخ> أحدهما الإكراه في الدين، وعدم تقبّل وجود أمة تختلف عن أمة محمد ص مما أدّى إلى نسخ الآيات التي يأمر فيها تعالى بحرية الاعتقاد، وتقبل اختلاف الملل، والذي شاء سبحانه أن يكون. والآخر هو تناقض مفهوم آية مع آية أخرى، وذلك لعدم اتباع القواعد الربانية، مما دفع آباءنا لنسخ واحدة منهما، عوض الشك في وقوع خطأ في

تدبر إحداهما كما وقع في سورة المزمل! ولهذا وجب أن نبيّن ما هو الخطأ الذي وقع في تدبر هذه السورة، والذي أدّى إلى القول بأن آخرها نسخ أولها.

فالله تعالى قال[يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ] والكل يعلم بأن المخاطَب هنا هو محمد ص، لكن هل فعلا هو الذي زُمِّل أم هو الذي زَمَّل؟ فإن كان هو الذي زُمِّل، وجب أن نقرأ – يا أيها المزمَّل – بنصب الميم ليكون هو المفعول به، وإن كان هو الذي زَمَّل، أي قام بفعل التزميل، فإذًا ما نقرأ به هو صحيح، ويوافق سياق الآيات، وهذا ما سيتبيّن.

فكلمة المزمل جذرها اللغوي هو فعل زمل، فنقول زمّل الشيء يعني أخفاه، أو ستره لكي لا يراه الناس أو يعلمون به، وليس بالضروري أن يُخفى أو يُستر بثوب، وقد يكون ما يُزمَّل خبرا مثلا، فالسؤال إذاً، هل محمد ص هو الذي سُتر أم هو الذي ستر شيئا ما؟ وبما أن الآية نقرأها[يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ] فمحمد ص هو الفاعل، فإن كان هو الذي ستر وأخفى، فالسؤال إذًا، ما هو هذا الشيء الذي أخفاه محمد ص أو ستره، أو بالأحرى كتمه؟

فعندما قال تعالى[يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ] تابع قائلا[قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا] وهنا وقع الخطأ، وذلك لأن آباءنا كانوا كثيرا ما يتدبرون آيات الكتاب بلسان العرب، وليس باللسان العربي الذي نزّل به تعالى كتابه، وضرب لنا بداخله الأمثلة لكي لا يكون قرآنا ذا عوج. فعندما قال تعالى[قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا] ظن آباؤنا بأن الله تعالى أمر محمدا ص بالقيام ليلا للصلاة، وهذا خطأ.

فالله تعالى عندما أمر محمدا ص بإقامة الصلاة قال في سورة هود114[وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ] وهنا كما نرى قال تعالى[أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ] ولم يقل – قم – وكذلك في سورة الإسراء78[أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ] وهنا كذلك[أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ] وليس – قم – وكذلك عندما خاطب تعالى موسى قال في سورة طه14[إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ] دائما[أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ] وليس – قم – وعندما تحدث تعالى عن لقمان قال في سورة لقمان17[يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ] وهنا كذلك[أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ] وليس – قم – وعندما أمرنا نحن قال تعالى في سورة البقرة43[وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ] وهنا كذلك[أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ] وليس – قوموا – وعندما تحدث سبحانه عن الذين يقيمون الصلاة قال في سورة النساء162[وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ] وهنا كذلك[ٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ] وليس – القائمين – وذلك لأننا نقيم الصلاة، ونقوم إلى الصلاة، كما جاء في سورة

المائدة6[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ] ولا نقوم بالصلاة، لأن كلمة صلاة تدل على ربط صلة مع الله تعالى، وعندما تحين الأوقات التي عيّنها سبحانه لذلك، نقيم تلك الصلة، ولا نقوم بتلك الصلة، فنحن إذًا نقيم الصلاة في وقت ما، ولا نقوم في وقت ما لنصلي، أو نقوم في وقت ما لإقامة الصلاة، ولا نقوم في وقت ما لقيام الصلاة، ولهذا استعمل تعالى فعل أقام، والذي يقرنه بالصلاة، وليس فعل قام، والذي يدلّ على القيام بفعل ما، ولهذا قال تعالى في سورة المدثر1[يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ2قُمۡ فَأَنذِرۡ] وهنا كما نرى، قال تعالى[قُمۡ فَأَنذِرۡ] فهو أمر سبحانه محمدا ص بالقيام لينذر، ولا علاقة له بإقامة الصلاة، لكن عندما قال تعالى في سورة المزمل[يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ2قُمِ] فهو سبحانه لم يأت مباشرة بالفعل الذي وجب على محمد ص القيام لأجله كما فعل في سورة المدثر، ولكن حدّد سبحانه الوقت والمدة الزمنية للقيام به قبل تعيينه، وهذا هو اللسان العربي الذي نزّل به تعالى القرآن، فنحن نقول مثلا، قم فراجع دروسك كما جاء في سورة المدثر، لكن عندما نريد تحديد الوقت والمدة لذلك، نقول مثلا: قم في الصباح ساعة أو نصفها وراجع دروسك، وهذا ما جاء به سبحانه في سورة المزمل[يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ2قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا3نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا4أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا] ولهذا قال تعالى[وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا] - ولم يقل - فرتل القرآن - كما فعل في سورة المدثر، وذلك لأن فعل رتّل لم يأت مباشرة بعد فعل قام.

فالكل يعلم بأن سورة المزمل مكّية، وهي من أوائل السور التي نزلت على محمد ص، ولم يكن آنذاك يعلم بأنه أصبح رسول الله، فكان يتلقى الوحي ولا ينشره، ولهذا نعته تعالى بالمزمّل، أي الذي يستر ويكتم ما نُزّل عليه من القرآن ولا ينشره ليعلمه الناس، ولهذا أمره تعالى بالقيام ليلا لينشر الرسالة، ولهذا قال تعالى[يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ2قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا3نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا4أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ] فهو سبحانه حدّد المدة الزمنية التي وجب على محمد ص أن يستغرقها كل ليلة حسب طاقته لنشر القرآن، وهي[قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا] أي ثلثي الليل[نِّصۡفَهُۥٓ] أي نصف الليل[أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا] أي ثلثه، ثم أمره تعالى بالفعل الذي وجب عليه القيام ليلا لأجله، وهو قوله تعالى[وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا]

وكلمة رتّل جذرها اللغوي هو فعل رتل، يعني نسق ونظم، فنقول رتّل الأشياء أي رتّبها ونظّمها، ونقول رتّل الكلام بمعنى أحسن ترتيب كلماته ليفقه السامع قوله، وهذا لا علاقة له بترتيل القرآن الذي عهدناه، لأننا نحن نرتّل حروف كلمات القرآن وليس القرآن، والذي رتّله عثمان بن عفان رحمه الله في المصحف على شكل سور.

فالله تعالى لم ينزل القرآن على محمد ص ليحسن قراءته، ولكن نزّله سبحانه على رسوله ليبلغه للناس ليكون لهم هدى، فعندما قال تعالى[وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا] فهذا يعني بأن ينظّم وينسّق بين الآيات، والتي كانت مفرّقة بين الصحف، لكي يفقه الناس ما يقرأ من القرآن ويستوعبوا معنى الكلام ، وهذا ما فعله تعالى مع رسوله كما جاء في سورة الفرقان32 [وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا] فهو سبحانه بيّن هنا لرسوله سببين لعدم تنزيل القرآن دفعة واحدة، أولهما ليثبّت فؤاده حتى لا يظن بأن ربه ودّعه، وثانيهما لينظّم سبحانه تنزيل القرآن حسب الوقائع، وهي ما نسميها بأسباب النزول، ولهذا رتّل تعالى القرآن ترتيلا، أي رتّب ونظّم تنزيل الآيات حسب الوقائع، والذي دام حوالي ثلاثا وعشرين سنة.

ثم تابع قوله تعالى[إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا] وهذا دليل آخر على أن محمدا لم يكن يعلم من قبل نزول سورة المزمل بأنه رسول الله، وذلك لأن الله تعالى يُخبره هنا بعظمة ما سيلقي عليه.

ثم تابع قوله تعالى[إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا] يعني فعل قراءة القرآن على الناس ليلا هو أكثر تأثيرا عليهم، لأن الناس تسكن فيه وتسبت، وبالتالي ينتبه المرء لما يُقال له، ولهذا ختم الآية تعالى[وَأَقْوَمُ قِيلًا]

ثم تابع قوله تعالى[إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا] يعني بما أنه تعالى أمر رسوله أن يخصّص الليل لنشر الرسالة، فهو أباح له فعل ما يشاء في النهار، وكان هذا في بداية الوحي في مكة.

ثم تابع قوله تعالى[وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا9رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا] وهنا كما نرى، أمر تعالى محمدا ص بأن يذكر اسم ربه، أي يبدأ قراءته ودعوته بقول (بسم الله الرحمان الرحيم) كما قال تعالى في سورة العلق1 [ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ] وهذا قد بيّناه في فقرة <بسم الله الرحمان الرحيم> ثم قال تعالى [وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا]

وكلمة تبتّل جذرها اللغوي هو فعل بتل، فنقول بتل عمله لله يعني أخلصه، فهو سبحانه أمر محمدا بأن يخلص في تبليغ رسالته، وينقطع عن كل ما كان يقوم به من قبل لأنه أصبح رسول الله، وهذا بيّناه كذلك في فقرة <إنا أعطيناك الكوثر>

ثم تابع قوله تعالى[وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا] وهنا كما نرى، أمر تعالى محمدا ص بالصبر على ما سيُقال له من طرف المكذبين، كما وقع للرسل من قبله كما

جاء في سورة الأحقاف35[فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ] وكما جاء كذلك في سورة القلم48[فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ]

وهكذا يتبيّن بأن الله تعالى أمر محمدا ص لوحده فقط في أول سورة المزمل بالقيام ليلا لقراءة القرآن على الناس للتعريف به، وليس بإقامة الصلاة، لأننا عندما نقيم الصلاة نتلوا القرآن ولا نقرأه، ولهذا قال تعالى في آخر آية من سورة المزمل[إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ] وهنا كما نرى، قال تعالى[فَٱقْرَءُواْ] ولم يقل – فاتلوا - لأن القراءة هي من فعل قرأ، يعني معرفة ما هو مخطوط، وقد يكون حرفا، أو كلمة، أو أكثر، أما التلاوة فهي من فعل تلا، فنقول تلاه يعني تبعه، فالتلاوة إذًا هي عبارة عن سرد الكلمات أو الآيات بطريقة متتالية، وهذا ما نقوم به أثناء الصلاة، فنحن لا نقرأ القرآن لتدبره أثناء الصلاة، ولكن نتلوا آيات الكتاب للتخشع، ولهذا قال تعالى في سورة مريم58[إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا] ولم يقل – تُقرأ – لأن القراءة تكون لفهم واستيعاب ما هو مخطوط، ولهذا قال تعالى في سورة الأعراف204[وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ] وذلك لأن الله تعالى يتكلم عن فهم قوله، ولا علاقة له بإقامة الصلاة كما عهدناه، ولهذا قال تعالى[وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ] ولم يقل – وإذا تُليت آيات الكتاب - لأن الآية لها علاقة بمعرفة ما جاء به محمد ص، ولهذا تابع تعالى قائلا[فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ] ولم يقل – تخشعوا- كما قال تعالى في سورة المؤمنون 2[ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ] وقد بيّنا هذا بطريقة مفصّلة في فقرة <القراءة والتلاوة>

فعندما قال تعالى[إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ] فهو سبحانه يثبت هنا (ولم ينسخ) بأن رسوله قام فعلا بما أمره تعالى في أول السورة، أي قراءة القرآن على الناس للتعريف به، وذلك حسب ما عيّنه سبحانه من أوقات لذلك، وهي [ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ] وهو ما يعادل قوله تعالى في أول السورة[ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا] أو[نِّصْفَهُۥ] كما أمر تعالى في أول السورة، أو[ثُلُثَهُۥ] وهوما يعادل قوله تعالى في أول السورة [ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا] يعني قليلا

من النصف، ولم يقم محمد ص بهذا الأمر لوحده كما أمره تعالى في أول السورة، ولكن كان يساعده طائفة من المؤمنين الذين يستطيعون ذلك، وليس كلهم، ولهذا قال تعالى[إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ]

ثم تابع قوله تعالى[وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ] يعني أن الله تعالى يعلم عبء ما أمر رسوله القيام به ليلا، والذي خُصِّص للنوم، عوض القيام به نهارا، والذي خُصِّص للنشور.

ثم تابع قوله تعالى[عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ] وهنا وجب أن نبيّن دلالة كلمة[تُحْصُوهُ] فكلمة تحصوه جذرها اللغوي هو فعل أحصى، فنقول أحصى عددهم يعني علم المجموع الإجمالي لعددهم، وكمثال على هذا ما جاء في سورة النحل18[وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ] يعني يمكن لكل مؤمن أن يعدّ نعم الله تعالى، أي يعدّ مثلا، نعمة الصحة، ونعمة البصر، ونعمة السمع، ونعمة الشمس إلى آخره، لكن لا يمكن لأيّ إنسان أن يعلم كل نعم الله تعالى على عباده.

فعندما قال تعالى[عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ] فهذا يعني عِلمه تعالى بعدم استطاعتهم قراءة كل ما نزّل على رسوله آنذاك من الآيات، وذلك لعدم توفر محمد ص وطائفة من الذين يقومون معه ليلا على كل الصحف التي خُطّ عليها القرآن، ولهذا تابع قوله تعالى[فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ] يعني أن الله تعالى لن يؤاخذهم إن هم قرأوا ما وُجد لديهم من صحف فقط، ولهذا تابع قوله تعالى[عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ] وذلك لأن الصحف القرآنية كانت موزّعة بين عدد من الأشخاص، والذين قد تكون طائفة منهم، إما من المرضى، أومن الذين يخرجون من مكة لمصالحهم، أومن الذين يقاتلون في سبيل الله، ولهذا قال تعالى[فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ] يعني يكفيهم قراءة ما في الصحف المتوفرة لدى محمد ص ومجموعة من الذين يستطيعون الخروج معه ليلا في مكة.

ثم تابع قوله تعالى[وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] وهنا كما نرى، يذكر تعالى لأول مرة في سورة المزمل في آخر آية منها [وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ] لأن كل ما ذكره تعالى من قبل لا علاقة له بإقامة الصلاة، وإنما

بأمره تعالى لرسوله محمد ص بالقيام ليلا لنشر الرسالة وعدم كتمانها، لأن محمدا ص لم يكن يعلم بعدُ بأن الله تعالى اصطفاه وأرسله للناس رسولا، فكان يتلقى الوحي ولا ينشره، وسورة المزمل تعدّ هي أول سورة يفرض فيها تعالى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وكان ذلك في بداية الرسالة، ولم يأمر قطّ تعالى في كتابه بالقيام ليلا لإقامة الصلاة، ولكن أمر تعالى بإقامة الصلاة لخمس أوقات كما جاء في سورة النساء103[إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا] وعيّن لكل صلاة وقتها، فهو قال تعالى في سورة هود114[وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ] يعني وقت الفجر، ووقت العصر، ووقت المغرب، وقال كذلك في سورة الإسراء78 [أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ] يعني وقت الظهر، ووقت العشاء. وجعل ما دون ذلك من النوافل وتلاوة القرآن والتسبيح حسب استطاعة المؤمن، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة238[حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ] وهذا قد بيّناه في فقرتي<الصلاة وإقامة الصلاة> و<الصلاة الوسطى> من بعد ما بيّنا لماذا نعت تعالى أمة القرآن بأمة وسطا في فقرتها.

وهكذا يتبيّن بأن عدم تدبر القرآن بقواعده يجعلنا نظن بأشياء لم ينزل الله تعالى بها من سلطان، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة78[وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ] وقال تعالى في سورة النجم28[وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا] ولكي نعلم الحق يجب أن ندع النقل، والذي نهى عنه تعالى كما جاء في سورة البقرة170 [وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ] ونستعمل العقل كما أمر تعالى في أغلب آيات الكتاب، ومنها ما جاء في سورة الأنفال22[إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ] وكذلك في سورة الفرقان44[أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا] وكذلك في سورة الملك10[وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ] وذلك بإعادتنا تدبر كتاب الله تعالى، الذي هو من علمه سبحانه، واتباعنا القواعد التي وضعها لذلك، وليس القواعد التي وضعها أسلافنا، وهكذا لن يتبرأ منا محمد ص يوم القيامة، وكذلك أصحابه.

والله هو العليم الحكيم الخبير.

الجلد أم الرجم ؟

قال الله تعالى في سورة النور2[ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ] وهنا كما نرى، حسب الكتاب الذي بين أيدينا، والذي أمرنا تعالى باتباعه وليس غيره كما جاء في سورة الأنعام155[وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ] وكما جاء في سورة الأنبياء50[وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ] يأمر سبحانه بجلد الزانية والزاني معا، كل واحد منهما مائة جلدة، وليس الزانية فقط، وذلك عندما يفتضح أمرهما، وهذا بيّناه في فقرتي <الزنا> و<البغاء> لكن حسب ما جاءت به كتب البشر، والذي نُسب إلى قول الله تعالى، يأمر بحكم آخر، أو بالأحرى بأحكام أخرى. وكمثال على هذه الأقوال والتي تختلف حسب اختلاف الروايات ما يلي:

- أخرج الألباني في كتاب السلسلة الصحيحة عن زر بن حبيش قال:<قال أبي بن كعب: كائن تقرأ سورة الأحزاب، أو كائن تعدها، قال: قلت ثلاثا وسبعين آية، قال: قطٌّ، لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة، ولقد قرأنا فيها الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم>

فيجب أن نتوقف هنا قبل أن نسرد بعض باقي الأقوال، ونتساءل كما يحق لكل مسلم عاقل أن يتساءل، إذا كان ما جاء به الألباني يُعدّ من الصحيح، والذي يقول بأن سورة الأحزاب تعادل سورة البقرة التي تحتوي على 286 آية، فأين هي باقي الآيات إذًا؟ أولا يدلّ هذا على أن الكتاب الذي بين أيدينا لا يحوي كل ما أنزله تعالى على رسوله؟ وإن كان كذلك، فمن المسؤول إذًا؟ أولم يقل في كتابه تعالى في سورة المائدة 67[يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ]؟ أم هذه الآية نُسخت هي كذلك؟ أم عثمان بن عفان رضي الله عنه لم يرض ببعض ما أُنزل على محمد ص، وبالتالي لم يجعله بداخل المصحف الذي بين أيدينا؟ أم نقلنا بدون أن نعقل؟

- أخرج ابن حزم الظاهري في كتاب المحلى بإسناد صحيح كالشمس حسب قوله، عن زر بن حبيش دائما، عن أبي بن كعب قال:<إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم>

ويجب أن نتوقف هنا كذلك لنتساءل أيّ الروايتين أصحّ؟ التي أخرجها الألباني <الشيخ والشيخة إذا زنيا> أم رواية ابن حزم <إذا زنى الشيخ والشيخة>؟ أم قال رجل ما شاء؟

- أخرج البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة، وكذلك النسائي في السنن الكبرى وقالا بأن الرواية صحيحة، والتي تقول < الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله ورسوله>

- أخرج ابن حبان في المقاصد الحسنة، وأبو نعيم في معرفة الصحابة، وقالا هما وآخرون كالبيهقي مثلا، بأن الرواية صحيحة، وهي عن العجماء الأنصارية خالة أبي أمامة بن سهل قالت:< الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة>

ويجب أن توقف هنا كذلك لنتساءل، أيّ الرواية أصحّ من هذه الروايات الصحيحة ؟ أم قال رجل ما شاء؟

- أخرج الهيثمي في مجمع الزوائد، وأبو نعيم في معرفة الصحابة، وكذلك الطبري والحاكم، دائما عن العجماء خالة أبي أمامة بن سهل قالت:< الشيخ والشيخة إذا زنيا فاجلدوهما البتة مما قضيا من اللذة>

- أخرج ابن حجر العسقلاني في فتح الباري عن عمر قال:< الشيخ والشيخة إذا زنيا فاجلدوهما البتة>

ومرة أخرى يجب أن نتوقف هنا كذلك ونتساءل، ولو أننا مللنا من الأسئلة، كيف للعجماء رحمها الله تعالى أن تأتي برواية تقول بالرجم، وأخرى تقول بالجلد؟ وكيف لرواية تُنسب إلى عمر في فتح الباري تقول بالجلد، وأخرى في إتحاف الخيرة المهرة للبوصيري عن سعيد بن المسيب تقول:< والذي نفس عمر بيده، لولا أن يقول الناس: أحدث عمر في كتاب الله، لكتبتها، فإنا قد قرأنا:(الشيخ والشيخة فارجموهما البتة) قال سعيد: فما انسلخ ذو الحجة حتى قُتل عمر رضي الله عنه>؟ فأيهما وجب أن تكون بداخل القرآن؟ رواية الجلد أم رواية الرجم؟ أولم يعقل ناقلي هذه الرواية بأنهم يتهمون عمر رضي الله عنه بخشيته قول الناس إحداثه في كتاب الله، وبعدم خشيته ربه كتمانه ما أنزل تعالى على رسوله؟

فمنهم إذًا الذين قال فيهم تعالى في سورة آل عمران172[**ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ173ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ**

ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ 174|فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ] أم عمر رحمه الله تعالى الذي عُرف بالدفاع عن الرسالة، لم يكن من بينهم؟ أم نحن اتبعنا الظن؟ والظن لا يغني من الحق شيئا!

فلكي لا نسيء لكتاب الله تعالى الذي بيّن فيه كل شيء، وجعله رحمة للمسلمين كما جاء في سورة النحل89[**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ]** ولا نتهم رسولنا بالتقصير في إبلاغ رسالة ربه، ولا الصحابة بتحريف القرآن، أو بكتمان بعض الآيات، وجب أن نتحرى من كل ما يصلنا من روايات وأحاديث نبوية، فنجعل كتاب الله تعالى الذي هو الحق، السند الوحيد لتصحيح كل ما وصلنا عبر سند الرجال، لأن الله تعالى نسخ كل ما ألقى الشيطان في قوله، ثم أحكم آياته، أما الروايات فهي قول البشر، وقد تنقل عن فهم خاطئ، وهذا بيّناه في فقرة <القرآن والحديث النبوي> والشيطان ألقى فيها ما شاء، ولهذا وجب أن نبيّن هل فعلا رواية الرجم هي من آيات الكتاب التي نزل بها الروح الأمين بلسان عربي مبين، والتي أحكمها الله تعالى ثم فصّلها؟ أم هي قول البشر الذي هو بلسان العرب، ويلقي الشيطان فيه ما يشاء؟ وذلك بتدبرها طبقا للقواعد التي وضعها تعالى في كتابه لكي نعلم هل الرجم هو فعلا من أحكام الله تعالى؟ أم الجلد كما جاء في سورة النور2 [**ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ]**؟

الجلد أم الرجم ؟ (الشيخ والشيخة)

قال الله تعالى في سورة النساء166[**لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا]** وهنا كما نرى، قال تعالى[**أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ**] يعني كتاب الله هو من علمه، وكما يعلم الجميع، كل من أتى بعلم إلاّ ووضع له قواعدا، وبما أن الله تعالى هو أعلم العالمين، فيجب أن نتبع القواعد التي وضعها سبحانه لهذا العلم حتى لا نزيغ عن فهم قوله.

فعندما قال تعالى في سورة هود1 [**الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ]** فهذا يعني أنه سبحانه جعل آياته مقيّدة بقواعد معيّنة، لا يمكن تدبرها وفهم معانيها إلاّ باستعمال تلك القواعد، وكل كلام زُعم أنه من عند الله لا يخضع لهذه القواعد فهو ردّ على قائله، وهذه هي الطريقة التي حفظ بها تعالى كتابه لكي لا ينسب إليه ما ليس

من عنده سبحانه، ولهذا وجب أن نتدبر رواية الرجم المشهورة وهي <الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيزحكيم> كلمة كلمة وسياقا، بالقواعد التي وضعها تعالى في كتابه، لكي نعلم هل فعلا الرجم هو من عند الرحمان الرحيم؟

فكلمة الشيخ جذرها اللغوي هو فعل شاخ، فنقول شاخ النبات يعني يبس جوفه، وشاخ الرجل يعني كبر في السن وتعدّى سن الكهولة، فدلالة الشيخ إذًا هي الرجل الكبير في السن، والذي تعدّى سن الكهولة، ولا علاقة لهذه الدلالة بحالته، ولهذا قال تعالى في سورة غافر67[**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**] وهنا كما نرى، جاء تعالى بكلمة الشيخ دلالة على آخر طور من أطوار العمر فقط، ولا علاقة لها بحالة الرجل أثناء هذا الطور، فقد يكون عازبا، متزوجا، عاقلا، سفيها، إلى آخره.

وكلمة الشيخة طبقا لما جاءت به الرواية، هي مؤنث لكلمة شيخ، وكما نعلم بأن الله تعالى أنزل القرآن بلسان عربي مبين، وجعل لكل كلمة دلالتها الخاصة بها، ولا تتغير حسب تغير الآيات، وبالتالي لا يمكن أن يكون لكلمتين مختلفتين نفس الدلالة، وإلاّ فسيكون كتاب الله تعالى قرآنا ذا عوج، كرجل فيه شركاء متشاكسون، ولهذا وجب أن نبيّن كيف نعت الله تعالى المرأة التي بلغت آخر طور من أطوار عمرها في القرآن.

فالله تعالى قال في سورة هود72[**قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ**] وهنا كما نرى، نعتها تعالى بالعجوز وليس بالشيخة، والتي لا توجد في أيّ آية من آيات الكتاب، فلماذا إذًا نعتها تعالى بالعجوز ولم ينعتها بالشيخة؟

فالله تعالى قال في سورة النجم45[**وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ**] وهنا كما نرى، قال[**ٱلذَّكَرَ**] يعني الذي لا يلد، كما نقول الذكر من النخل، يعني النخل الذي لا يثمر، ونقول قول ذكر، يعني قول قويّ، فالله تعالى نعت الإنسان بالذكر دلالة على القوّة والصلابة، وعدم الحمل.

وقال تعالى[**ٱلْأُنثَىٰ**] وهي التي تلد، وكلمة أنثى جذرها اللغوي هو فعل أنث، فنقول أنث الشيء، يعني لان، فالله تعالى نعت الإنسان بالأنثى دلالة على الذي يحمل الجنين وليّن، أي ليس بالقويّ والشديد، ولهذا عندما تكبر الأنثى في السن تصبح عاجزة عن الولادة، أما الذكر فهو لا يعجز عن الولادة مهما كبر سنه، فالله تعالى نعت الرجل الكبير في السن بوهن عظمه منه كما قال تعالى في سورة مريم4[**قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ**

ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا] ونعت المرأة الكبيرة في السن بعجزها عن الولادة على وزن فعول، لأنها أصبحت عاجزة عن الولادة بصفة نهائية كما جاء في سورة هود72[قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ] ولهذا لم ينعت الرجل بالعجوز، ولكن نعته بالشيخ، ولهذا ليس هناك مؤنث كلمة العجوز في اللسان العربي، وليس هناك مؤنث كلمة الشيخ في اللسان العربي الذي نزّل به سبحانه كتابه، ولكن قد يكون في لسان العرب، والذي كان كثيرا ما يُتدبر به القرآن، وهكذا يتبيّن بأن كلمة شيخة ليست من عند الله تعالى، لأنها ليست من القرآن الذي نزل به الروح الأمين بلسان عربي مبين، ولكن من عند البشر الذي يتكلم بلسان العرب، والقرآن بريء من لسان العرب.

الجلد أم الرجم ؟ (إذا زنيا)

كما بيّنا من قبل في فقرة <الاستمتاع> بأن النساء ينقسمن إلى قسمين، محصنات وغير محصنات، وهناك نوعان من العلاقات الجنسية، منها ما هي شرعية وتنقسم إلى قسمين، استمتاع ونكاح، ومنها ما هي غير شرعية، وتنقسم إلى قسمين كذلك، زنا وهو خاص بالمحصنات، وهذا قد بيّناه في فقرة <الزنا> وبغاء وهو خاص بغير المحصنات، وهذا قد بيّناه في فقرة <البغاء>.

فالله تعالى أحلّ نكاح المحصنات من المؤمنات وحرّم الاستمتاع بشيء منهن، وكل علاقة غير شرعية قامت بها المحصنة فهي زنا وليس بغاء، ووجب جلدها هي والذي جامعها أي الزاني مائة جلدة إن افتضح أمرهما، وأحلّ تعالى الاستمتاع بشيء من غير المحصنات من النساء، ونكاح المؤمنات منهن عند عدم القدرة على نكاح المحصنات المؤمنات، وكل علاقة غير شرعية قامت بها غير المحصنة فهي بغاء وليس زنا، ولا تُوجب العذاب، ولهذا قال تعالى في سورة النور33[وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] أما إذا كانت هذه العلاقة من بعد إحصانها، وُجب عقابها بخمسين جلدة كما جاء في سورة النساء25[فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ]

فعندما قيل في الرواية <إذا زنيا> فهذا دليل على أن (الشيخة) من المحصنات، وقد تكون متزوجة أو غير متزوجة، وقد تكون شابة أو عجوزا، ولهذا قال تعالى في سورة

النور2[ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ] يعني أن الجلد لا يكون إلا للزانية، أي امرأة محصنة من طرف شخص ما، وقد يكون أرحامها قبل زواجها، أو زوجها عندما يعقد عليها، ولا علاقة لعمرها بإحصانها، والذي يجامعها في هذه الحالة هو كذلك زان ويُجلد مثلها، لكن الرواية قيّدت الرجم بالإحصان، وذلك لأن آباءنا ظنوا بأن المحصنة دلالة على المرأة المتزوجة، وكلمة الشيخة دلالة على ثبوت إحصانها، وهذا يوجب الرجم، وهذا ما تبيّنه الرواية التي جاء بها ابن جرير الطبري في مسند عمر بإسناد صحيح عن عمر بن الخطاب قال:< كان ابن العاص وزيد بن ثابت يكتبان المصاحف فمرا على هذه الآية فقال زيد سمعت رسول الله ص يقول: الشيخ والشيخة فارجموهما البتة، فقال عمر لما أنزلت أتيت النبي فقلت أكتبنيها فكأنه كره ذلك قال: فقال عمر ألا ترى أن الشيخ إذا زنى وقد أُحصِن جُلِد ورُجِم، وإذا لم يُحصن جُلِد، وأنَّ الشاب إذا زنى وقد أُحصِن رُجِم> وتؤكده الرواية التي جاء بها ابن حزم في كتابه <الناسخ والمنسوخ> عن عمر رضي الله عنه قال:< كنا نقرأ (ألا ترغبون الرغبة عنها) بمعنى الإعراض عن آبائكم، ومن ذلك (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم) معناه المحصن والمحصنة>

لكن يجب أن نحمد الله تعالى على وجود القرآن بين أيدينا كما أنزله عز وجل على رسوله، فأحكم آياته ثم فصّلها، فعندما قال سبحانه في سورة النور2[ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ] فهو ذكر هنا عقاب الزنا، والذي لا يكون إلاّ للمحصنة بصفة عامة، سواء كانت متزوجة أو غير متزوجة، ثم جاء تعالى بعد ذلك بكيفية إثبات تهمة الزنا للمحصنة بصفة عامة كذلك في قوله تعالى في سورة النور4 [وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ] ثم جاء تعالى بكيفية إثبات الزوج تهمة الزنا على زوجه، أي المحصنة المتزوجة، وقد تكون شابة أو عجوزا وذلك بقوله تعالى في سورة النور6[وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ 7|وَٱلْخَـٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ 8|وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ] أي الجلد، ولم يقل سبحانه - الرجم - أي القتل حسب لسان العرب، وصدق قوله تعالى في سورة النحل89[وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ] وقوله تعالى في سورة يوسف111[مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] ولهذا

قال تعالى في سورة الجاثية6[تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ]

يجب أن نعلم بأن من وضع رواية الرجم، لم يكن يعلم بالقواعد التي وضعها تعالى في كتابه ليحفظ سبحانه القرآن من كل تحريف، كما حفظ التوراة والإنجيل، ولهذا قال تعالى في سورة الحجر9[إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ] وذلك لأن القرآن هو ذكر، وكذلك التوراة والإنجيل، ولهذا أمرنا سبحانه بتدبر القرآن حتى نستطيع أن نميّز بين ما هو من آيات الكتاب التي أحكمها تعالى ثم فصّلها، وما هو من قول البشر.

فالله تعالى قال في سورة الإسراء54[رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا] وهنا كما نرى، قال تعالى[إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ] ثم قال[أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ] يعني هناك حالتان إما الرحمة أو العذاب، ولهذا قال تعالى[إِن يَشَأْ] ولم يقل - إذا شاء - لكنه قال تعالى في سورة عبس21[ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ22ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ] وهنا كما نرى، قال تعالى[إِذَا شَآءَ] ولم يقل – إن شاء – وذلك لأن يوم القيامة واجب وقوعه وليس فيه اختيار، أي هناك حالة واحدة، وكمثال آخر على هذا ما جاء في سورة الطلاق1[يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[إِذَا طَلَّقْتُمُ] ولم يقل – إن طلقتم – وذلك لأن إكمال العدة واجب بعد الطلاق وليس فيه اختيار، لكنه قال تعالى في سورة البقرة 236[لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[إِن طَلَّقْتُمُ] ولم يقل – إذا طلقتم – وذلك لوجود حالتين للطلاق بدون عدة في حالة الاستمتاع عند عدم مسّ الرجل المرأة المطلقة، أولاهما قبل فرض الفريضة كما جاء في الآية[مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً] وثانيهما قوله تعالى في الآية التالية[وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ] أي بعد فرض الفريضة، وبما أن الله تعالى أوجب الحلال ولم يوجب الحرام، والذي هو من اختيار الإنسان دون إكراه أو اضطرار كما جاء في سورة الكهف29[وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ] فقد قال تعالى في سورة النساء25[فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ] وهنا كما نرى، قال تعالى[فَإِذَآ أُحْصِنَّ] ولم يقل – إن أحصن- وذلك لأن الإحصان حلال أوجبه تعالى، ثم تابع قائلا[فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ] وهنا كما نرى، قال تعالى[فَإِنْ] ولم يقل – فإذا – وذلك لأن الفاحشة حرام، وبما أن الزنا دلالة على أيّ علاقة غير شرعية ابتغاء شهوة جنسية فقط، وهذا

لا يقوم به إلاّ المحصنات بمحض إرادتهن أي باختيارهن، فلذلك قال تعالى[فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَـٰحِشَةٍ] ولم يقل - فإذا أتين بفاحشة - وبما أن الزنا من الفواحش، كان واجب على واضع رواية الرجم أن يقول <إن زنيا> حسب القواعد الربانية وليس <إذا زنيا> حسب لسان العرب، وصدق قوله تعالى في سورة هود1[الٓر كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ]

الجلد أم الرجم ؟ (فارجموهما)

هنا كذلك يجب أن نتبيّن إن كانت دلالة كلمة - فارجموهما - هي نفس دلالة فعل رجم في كتاب الله تعالى الذي جعله قرآنا غير ذي عوج، وبالتالي فهي من قول الله تعالى الذي نزل به الروح الأمين على محمد ص بلسان عربي مبين، وإلاّ فهي من لسان العرب، وبالتالي فهي من قول البشر.

فالله تعالى قال في سورة الكهف22[سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا] وهنا كما نرى، قال تعالى[رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ] وكلمة رجما جذرها اللغوي هو فعل رجم، فنقول رجم فلانا بالحجارة يعني رماه بالحجارة بطريقة عشوائية لطرده، ونقول رجم فلانا بالكذب يعني رماه بغير الحقيقة لطرد الحقيقة، فعندما قال تعالى[رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ] يعني يقذفون بأعداد لا يعلمون حقيقتها، ليثبتوا معرفة عدد أصحاب الكهف، فدلالة فعل رجم في كتاب الله تعالى هي الرمي بشيء، أو القذف بشيء لطرد شيء آخر، ولا علاقة له بالقتل، ولهذا قال تعالى في سورة يس18[قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ] يعني إن لم ينتهوا سيطردونهم برميهم بشيء ما كالحجارة مثلا، ولهذا قال تعالى[لَنَرْجُمَنَّكُمْ] ثم قال[وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ] وكما نعلم، العذاب ليس له علاقة بالقتل، ولهذا قال تعالى في سورة آل عمران88[خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ] وذلك لأن العذاب هو دلالة على ما يسبّب ألما في جسم الإنسان، ولهذا قال تعالى كذلك في سورة آل عمران177[إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ]

وكمثال آخر من الأمثلة التي ضربها تعالى في القرآن لكي لا يكون كرجل فيه شركاء متشاكسون، أي للكلمة أكثر من دلالة، ولكن لكي يكون كرجل سلما لرجل، أي

كل كلمة لها دلالتها الخاصة بها، ما جاء في سورة الحجر34[قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ] وكما نعلم، الله تعالى طرد الشيطان من الجنة برميه بلعنته، ولن يغفر له، ولهذا قال تعالى[رَجِيمٌ] على وزن فعيل كصيغة للمبالغة، وقال كذلك في سورة مريم46 [قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا] وهنا كما نرى، قال تعالى[لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا] يعني أن أبا إبراهيم ألزم ابنه بترك ما جاء به، وإلاّ طرده ليبتعد عنه نهائيا، فهو توعّده بالرجم أي طرده وليس قتله.

وهكذا يتبيّن بأن دلالة فعل رجم لا علاقة لها بالقتل رميا بالحجارة، كما جاءت به الرواية، وكما عهدناه بلسان العرب، وإنما هي دلالة على الطرد بأيّ وسيلة، وبما أن الله تعالى أحكم آيات كتابه، وجعله تعالى قرآنا غير ذي عوج، ونزل به الروح الأمين بلسان عربي مبين، فكلمة – ارجموهما – حسب ما جاءت به الرواية، ليست من عند الله سبحانه، ولكن هي من عند البشر.

الجلد أم الرجم ؟ (سبب وجود الرجم)

قال الله تعالى في سورة آل عمران93[كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ] وهنا كما نرى، يبيّن تعالى جليا بأن النبي قد يُشرع أحكاما من تلقاء نفسه، لكن عندما ينزّل هو تعالى آياته فيشرع غيرها، وجب على الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يتركوا ما شرّعه النبي ويتبعوا ما شرعه هو سبحانه، ولهذا قال تعالى في سورة الشورى21[أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ]

فالكل يعلم بأن محمدا ص لم يكن يعلم شيئا عن الدين من قبل أن ينزل الله تعالى عليه الكتاب، ولهذا قال سبحانه في سورة الضحى7[وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ] لكن ذلك الهدي لم يكن جملة واحدة، ولكن دام ثلاثا وعشرين سنة، وبما أن محمدا ص كان حاكم قومه، وكان يعيش بين الذين أوتوا الكتاب من قبل، فهو كان ينقل من أهل الكتاب ما لم ينزل عليه تعالى بعدُ حكمه، ولهذا قال تعالى في سورة طه 114 [وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا] وذلك لأن قومه كانوا كثيرا ما يستعجلونه معرفة ما هو حلال وما هو حرام، ولهذا قال تعالى في سورة المائدة101 [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ

عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ] فكان محمد ص كثيرا ما يأخذ من أهل الكتاب أحكاما لم تُنزل عليه بعد حقيقتها، ظنا منه أنها فعلا من عند الله تعالى كما كان يزعم أهل الكتاب، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة79**[فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ]**

ومن بعض هذه الأحكام التي كان يشرعها أحبار اليهود ويزعمون أنها من عند الله تعالى، ما جاء في سفر الخروج الإصحاح21/32< إن نطح الثور عبدا أو أمة يعطي سيده ثلاثين شاقل فضة والثور يُرجم> وما جاء في سفر التثنية الإصحاح13/9< بل قتلا تقتله، يدك تكون عليه أولا لقتله ثم أيدي جميع الشعب أخيرا 10 ترجُمُه بالحجارة حتى يموت، لأنه التمس أن يطوّحك عن الرب ألهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية> وما جاء في سفر التثنية الإصحاح17/2< إذا وجدت في وسطك في أحد أبوابك التي يعطيك الرب إلهك رجل أو امرأة يفعل شرا في عيني الرب إلهك بتجاوز عهده....5 فاخرج ذلك الرجل أو تلك المرأة الذي فعل ذلك الأمر الشرير إلى أبوابك الرجل أو المرأة وارجمه بالحجارة حتى يموت>

فهذه كما نرى، بعض أحكام الرجم التي كانت سائدة في عهد محمد ص، والتي كان يظن أنها من عند الله تعالى، ولهذا قام هو كذلك بحكم الرجم، وكان هذا من قبل أن ينزل الله تعالى حكم الجلد، ولهذا جاءت الرواية التي أخرجها الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن أبي أوفى قال عن الشيباني:< سألت عبد الله بن أبي أوفى: هل رجم رسول الله ص؟ قال: نعم، قلت: قبل سورة النور أم بعدها؟ قال: لا أدري..>

فعندما قال تعالى في سورة المائدة101 **[يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ]** فذلك لأن الرجم كان من بين الأحكام التي أوجبها أهل الكتاب وزعموا أنها من عند الله، ولهذا أنزل تعالى سورة النور لينسخ حكم البشر ويبدي سوء فعله، ويُقرّ حكم الجلد ويعفو عن ما كانوا يحكمون به.

فقال تعالى في سورة النور1**[بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ]** وكما يعلم الجميع، هذه هي السورة الوحيدة التي بدأها تعالى بقوله**[سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ]** وذلك لكي لا يكون للناس حجة عليه سبحانه يوم القيامة، ثم تابع مباشرة قائلا**[ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ]** فهو هنا سبحانه نسخ حكم الجاهلية وهو الرجم، وأثبت حكمه

الذي هو رحمة للعالمين وهو الجلد، وقد يكون على باطن اليمين مثلا، أو باطن القدم، وليس من الضروري على الظهر، ولهذا لم يحدّد الله تعالى مكان الجلد، ولم يجعله مطلقا كذلك، وإنما مقيّدا بفضيحته، ولهذا اشترط تعالى أربعة شهداء، ولعلمه سبحانه بقساوة هذا العذاب تابع قائلا[وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ]

ولهذا وجب أن نتساءل، كيف لإله يأمر بعدم الرأفة في الجلد فقط داخل كتابه لكثرة قساوته على الإنسان، أن يأمر بالرجم بلسان العرب، أي الرمي بالحجارة حتى الموت في كتب أخرى؟ فإن كان الرجم من عند الرحمان الرحيم؟ وبما أنه تعالى أحكم آيات كتابه ثم فصّلها، فأين هي إذًا الآيات التي تفصّل حكم الرجم، كما هناك آيات داخل الكتاب محكمة وتفصّل حكم الجلد تفصيلا؟

لكن واضع رواية الرجم لم يكن يعلم، فضلا عن القواعد التي أحكم بها تعالى آياته، بأن الله عز وجل نسخ حكم الرجم في كتابه، وذلك بقوله في سورة النور11 [إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ]

فالكل يعلم بأن الإفك الذي جاءوا به، أي اتهام زوج النبي بالزنا، لا يمكن أن يكون الخير فيه للمؤمنين بذاته، ولكن الخير في جعله سببا لنزول حكم الجلد، ولهذا قال تعالى[إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ] وذلك لينسخ حكم الرجم الذي زعم أهل الكتاب أنه من عند الرحمان الرحيم، وفعلَه رسول الله ص من قبل أن تُنزَّل سورة النور، ولهذا ليس هناك أيّ آية تفصّل حكم الرجم، ولكن هناك آيات صرّفها تعالى في كتابه وليس خارجه، تفصّل حكم الجلد.

فلهذا أحكم الله تعالى آياته، ووضع قواعدا لتدبر كتابه، لكي لا يكفي كما بيّنا في فقرة <الاستمتاع> بإضافة رواية لتشريع حكم لم ينزل الله تعالى به من سلطان، أو محو آية أو كلمة من كتاب الله تعالى لنسخ حكم من أحكامه سبحانه، ولهذا قال تعالى في سورة الحجر9 [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ] ولهذا جاء سبحانه بفعل حفظ في المضارع.

وكما يعلم الجميع بأن محمدا ص منع أن تُكتب أقواله كما جاء في الحديث الذي أخرجه الألباني في صحيح الجامع عن أبي سعيد الخدري قال: <لا تكتبوا عني شيئا إلا القرآن، فمن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار> وذلك حتى لا يُنسب إليه ما لم ينزل الله به من سلطان، وهذا قد بيّناه في فقرة <القرآن والحديث النبوي> ولهذا قال تعالى في سورة التوبة3[أَنَّ ٱللَّهَ

بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ] ولهذا عندما قال تعالى في سورة البقرة78[**وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ]** تابع سبحانه قائلا[79**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ]**

فيجب أن نعلم بأن هذه الرواية خرجت للوجود من بعد مائة سنة من وفاة النبي ص عندما بدأ تدوين الحديث لأول مرة، ظنا من رواتها أنهم يحسنون صنعا كما فعل قوم داعش في بغداد، عندما شرّعوا حكم رمي المثليين من أعالي السطوح ونسبوه إلى الله تعالى، استدلالا بما فعل هو سبحانه بقوم لوط في سورة الحجر74[**فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ]** ونسوا بأن الله عز وجل يفعل ما يريد، لكن المؤمن يجب أن يتبع ما أمره الله به، وهو قوله سبحانه في سورة النساء16 [**وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا]** وهنا كما نرى، قال تعالى[**فَـَٔاذُوهُمَا]** وليس – اقتلوهما أو عذبوهما - وذلك لأن الأذى يكون عبر الكلام كالتوبيخ مثلا، ولهذا أخذ واضع رواية الرجم آية السارق والسارقة لينقل عليها سياق الرواية لكي تُنسب إلى كتاب الله تعالى، ظنا منه هو كذلك أنه يحسن صنعا ويسدي إلى الإسلام والمسلمين معروفا!

فالله تعالى قال في سورة المائدة38[**وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ]** ورواية الرجم تقول<الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم> وهنا كما نرى، غيّر واضع الرواية قول الله تعالى[**وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا]** ب<الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة> ونقل النصف الثاني من الآية [**نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ]** كما هو< نكالا من الله والله عزيز حكيم>

ولهذا جاء الحديث الذي أخرجه ابن جرير الطبري في مسند عمر عن عمر بن الخطاب، وأخرجه ابن حزم في المحلى عن زيد بن ثابت، وأخرجه كذلك الألباني في السلسلة الصحيحة دائما عن زيد بن ثابت والذي يقول:<الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، فقال عمر: لما أُنزلت أتيت رسول الله ص فقلت: أكتبنيها قال شعبة: فكأنه كره ذلك، فقال عمر: ألا ترى أن الشيخ إذا لم يحصن جُلد، وأن الشاب إذا زنى وقد أحصن رُجم>

وكما نرى، الرواية تقول بأن النبي ص كره أن تُكتب رواية الرجم، وذلك لعلمه بأنها ليست من آيات الكتاب، وإلاّ ما كره ذلك، لأن الرسول لا يحقّ له أن يكره كتابة

ما أنزل الله تعالى عليه من آيات الكتاب (إن كان فعلا أصحاب محمد ص هم الذين خطّوا القرآن، وهذا بيّناه في فقرة< كتّاب الوحي>) ولا يحقّ كذلك لأيّ رسول أن يغيّر حكما من أحكام الله عز وجل، وهذا ما بيّنه تعالى جليا في كتابه في سورة يونس 15 [وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ]

لكن البعض منّا استحبّ نقل الروايات بدون أن يعقلها، وهذا دليل على تقديسه لرواتها، أولا نقرأ قوله تعالى في سورة يونس36 [وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ]؟ وقوله في سورة النجم28 [وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا]؟ أولا يجب علينا أن نعيد تصحيح الروايات والأحاديث، فنجعل كتاب الله تعالى هو السند الوحيد بدل سند الرجال، وبالتالي لا يتبرأ منا محمد ص ولا أصحابه؟

أم نحن فضّلنا ما هو خارج كتاب الله تعالى على ما بداخله؟ أولم يقل سبحانه في سورة الأنعام155 [وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ]؟ وفي سورة النحل89 [وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ]؟ وفي سورة يوسف111 [مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ]؟ فأيّ كتاب هو أبين من كتاب الله تعالى، وأهدى من هدي القرآن، وأرحم من رحمة الرحمان؟ أولم يقل تعالى في سورة البقرة42 [وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ]؟

فصدق الله تعالى عندما قال في سورة الفرقان30 [وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا] وصحّ الحديث النبوي الذي جاء به الألباني في صحيح الجامع عن عقبة بن عامر قال:< سيخرج أقوام من أمتي يشربون القرآن كشربهم اللبن> وكذلك الحديث الذي أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد عن عبد الله بن مسعود قال:< يوشك أن يقرأ القرآن قوم لا يُجاوز تراقيهم، يشربونه كشربهم الماء لا يجاوز تراقيهم، ثم وضع يده على حلقه، فقال: لا يجاوز ههنا> وكما نرى،هاتان الروايتان يوافقان قوله تعالى في سورة محمد24 [أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

أمة وسطا

قال الله تعالى في سورة الشورى13 [شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ] هنا كما نرى، الله تعالى يتكلم عن تشريع الدين وليس الملة، والذي بدأه مع إرسال نوح عليه السلام إلى أن أكمله مع إرسال محمد ص كما جاء في سورة المائدة 3 [ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا]

ولهذا قال تعالى [شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ] ولم يقل - شرع لكم الدين الذي وصى به - وبما أن الله تعالى أحكم آياته ثم فصّلها، فيجب علينا أن نتساءل، لماذا عندما تكلم سبحانه عن ما شرع من الدين لنوح قال [مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا]؟ ولم يقل - ما وصينا به نوحا - ولماذا جاء بمحمد ص مباشرة بعد نوح؟ وليس بعد عيسى كما هو الترتيب الزمني لإرسال الرسل؟ ولم يخصّصه بالوصايا كما قال تعالى [وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ] وخصّصه بالوحي بقوله تعالى [وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ]؟ ونحن نعلم بأن الله تعالى قال في سورة النساء163 [إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا]! فما هو الفرق إذًا بين الوصايا والوحي؟ وهل الوصايا ليست من الوحي؟

قال الله تعالى في سورة النساء11 [يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ] وهنا كما نرى، قال تعالى [يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ] وكلمة يوصيكم جذرها اللغوي هو فعل وصي، فنقول وصّى بالشيء فلانا، يعني أمره به وفرضه عليه، ولهذا قال تعالى في آخر الآية11 من سورة النساء [فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا] وعندما قال تعالى في أول الآية [يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ] تابع مباشرة [لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ

ٱلسُّدُسُ] فهو سبحانه هنا حدّد نسبة الإرث لمستحقيه، ولهذا قال تعالى[يُوصِيكُمُ] ولم يقل مثلا – كتب عليكم – وذلك لأن دلالة فعل وصّى هي فرض شيء معيّن ومحدّد، ولهذا حدّد تعالى نسبة حق الذكر من الإرث بضعف نسبة حق الأنثى، وجعله كقاعدة، ثم حدّد تعالى نسب الحقوق الأخرى، وهي الثلثان، والنصف، والثلث، والسدس، وكذلك الربع والثمن في الآية التالية للإرث، ولهذا عندما قال تعالى في سورة الأنعام152 [وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ] لم يقل يوصيكم، لأنه لم يحدّد قدر المال الذي يحقّ للمتكلف بمال اليتيم أكله .

وعندما قال تعالى في سورة النساء1 [وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ] فهو سبحانه هنا يتكلم عن الأرحام بصفة عامة، وكما بيّنا من قبل بأن كلمة الأرحام هي جمع رحم، وهو كل متكلف برعاية وعناية شخص أو أكثر بدون مقابل ولكن رحمة فقط، كالوالدين بأولادهم، أو الأبوين بأبنائهم، أو الأقارب بقربائهم، لكنه قال تعالى في سورة العنكبوت8 [وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا] وهنا كما نرى، قال تعالى [وَوَصَّيْنَا] وذلك لأنه عيّن نوعا من الأرحام أي الوالدين.

فعندما قال تعالى[شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا] فذلك لأنه تعالى بدأ بتشريع أول أمر من الدّين محدّد ومعيّن مع إرسال نوح كما جاء في سورة المؤمنون23 [وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ] وهو الإيمان بالله وعدم الشرك به، ولهذا أهلك تعالى الذين لم يؤمنوا من قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم شعيب، وقوم لوط، ونعتهم سبحانه بالمجرمين، لأنهم أنكروا وجود الله تعالى وهو أساس الدين، ولهذا عندما بيّن تعالى أحكام الدّين لأهل الكتاب قال في سورة الأنعام151 [قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّـٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] وعندما بيّنها سبحانه لأمة محمد ص قال تعالى في سورة الإسراء23 [وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا] وكما نرى، بدأ تعالى في الآيتين معا بالأمر بعبادته وحده وعدم الشرك به، وهذه كانت الوصية الأولى والوحيدة التي وصّى بها تعالى نوحا عليه السلام، ولهذا قال[شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا]

ثم تابع قوله تعالى[وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ] وهذا سنبيّنه من بعد، ثم تابع قوله تعالى [وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَمَا وَصَّيْنَا] ولم يقل – وما وصى – وذلك

لأن الدين أصبح يشتمل على أكثر من وصية، وبالتالي دام تشريعه لمدة معينة، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة124[وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ] ومن هذه الكلمات (أي الأوامر) ما جاء به العهد القديم، في سفر التكوين مثلا الإصحاح 17|9| وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي، أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم |10|هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك، يختن منكم كل ذكر|11|فتختنون في لحم غرلتكم، فيكون علامة عهد بيني وبينكم|12|ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر في أجيالكم، وليد البيت والمبتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك| تمّ.

ومنها ما جاء به القرآن، كقوله تعالى في سورة البقرة124[وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ125وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ] وقوله في سورة الحج26[وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ27وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ]

وهنا كما نرى، عيّن تعالى وحدّد كل شيء وجب على إبراهيم وقومه القيام به، ولهذا قال تعالى[وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ] وفعل نفس الشيء سبحانه مع موسى كما جاء في سورة الأعراف145[وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً] وكلمة موعظة جذرها اللغوي هو فعل وعظ، فنقول وعظه يعني عيّن له ما يجب فعله وما يجب تركه، كما فعل لقمان مع ابنه عندما قال تعالى في سورة لقمان13[وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ] ولهذا تابع قائلا في الآية16[يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ17يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ18وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ19وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ]

ومن الأحكام التي عيّنها تعالى وحدّدها لموسى أي الوصايا، ما جاء في العهد القديم في سفر التثنية مثلا الإصحاح5/11|لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا، لأن الرب لا يبرء من نطق باسمه باطلا12|احفظ يوم السبت لتقدسه كما أوصاك الرب إلهك 13| ستة

أيام تشتغل وتعمل جميع أعمالك14|وأما اليوم السابع فسبت للرب إلهك لا تعمل فيه عملا ما لأنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وثورك وحمارك وكل بهائمك ونزيلك الذي في أبوابك لكي يستريح عبدك وأمتك مثلك15|واذكر أنك كنت عبدا في أرض مصر فأخرجك الرب إلهك من هناك بيد شديدة وذراع ممدودة. لأجل ذلك أوصاك الرب إلهك أن تحفظ يوم السبت16|أكرم أباك وأمك كما أوصاك الرب إلهك لكي تطول أيامك ولكي يكون لك خير على الأرض التي يعطيك الرب إلهك17|لا تقتل18 |ولا تزن19|ولا تسرق20|ولا تشهد على قريبك شهادة زور21|ولا تشته امرأة قريبك ولا تشته بيت قريبك ولا حقله ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا كل ما لقريبك22|هذه الكلمات كلّم بها الرب كل جماعتكم في الجبل من وسط النار والسحاب والضباب وصوت عظيم ولم يزد. وكتبها على لوحين من حجر وأعطاني إياها| تمّ.

ومنها ما جاء في القرآن كقوله تعالى في سورة المائدة45[وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ] وهذه من الأحكام المحدّدة والمعيّنة، ولا علاقة لها بما عهدناه، وهذا بيّناه في فقرة <القصاص في القتلى>

وبما أن كتاب موسى أي التوراة جعله الله تعالى إماما كما جاء في سورة هود17 [أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ] وعلّمه تعالى لعيسى لكي يبيّن ما اختلف فيه بنو إسرائيل من بعد موسى كما جاء في سورة الزخرف63[وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ] ولكي يحلّ لهم بعض الذي حرّمه الأحبار بأهوائهم بغير علم ونسبوه إلى الله تعالى كما جاء في سورة البقرة79 [فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ] ولهذا قال تعالى في سورة آل عمران50[وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ]

فهكذا صار كتاب الإنجيل كتبيان لما جاء به موسى، ولهذا قال تعالى في سورة آل عمران48[وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ] فكتاب الإنجيل هو كامتداد للتوراة بلسان قوم عيسى، ولهذا قال تعالى في سورة الأحقاف29[وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا

مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ30قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ] وهنا كما نرى، قال تعالى[إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ] ولم يذكر كتاب عيسى والذي هو عبارة عن تفسير ما جاء به موسى بالآرامية، ولهذا نعت تعالى كتاب عيسى بالإنجيل، وهذا بيّناه في فقرة <الكتاب القرآن والذكر>

فعندما قال تعالى[وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ] فهذا يعني أن ما شرعه تعالى لإبراهيم وموسى وعيسى، كان عبارة عن وصايا أي أوامر محدّدة ومعيّنة بذاتها ولا يمكن الزيغ عنها، ولهذا عندما قال تعالى في سورة المائدة 45[وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ] تابع سبحانه قائلا[وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ] وعندما قال تعالى في سورة المائدة47 [وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ] تابع كذلك قائلا[وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ]

لكن الله تعالى لم يوص محمدا ص، يعني لم يحدّد له الأحكام بعينها، ولكن أوحى إليه القرآن ليضع الإصر الذي حمله تعالى على الذين أوتوا الكتاب من قبلنا، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة286[لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا] وهي الوصايا التي وصّى بها إبراهيم وموسى وعيسى، وليضع كذلك الأغلال التي حملها الأحبار والرهبان على أتباعهم، وهي تحريمهم ما لم يحرمه تعالى على عباده، ولهذا عندما قال سبحانه في سورة الأعراف157[ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ] تابع سبحانه قائلا[وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ] أي الوصايا [وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ] أي ما حرّم الأحبار والرهبان من تلقاء أنفسهم ليشدّدوا على الأميين منهم، ولهذا تابع تعالى قائلا[فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ]

فعندما قال تعالى[شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا] تابع مباشرة قائلا [وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ] وذلك لأن القرآن جاء بأحكام غير محدّدة وفيها سعة، ولهذا قال تعالى في سورة المائدة48[وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ] وهنا كما نرى، قال تعالى[مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ] ولم يقل - ناسخا - وقال

تعالى[وَمُهَيْمِنًا عَلَيه] يعني أحكام القرآن هي أوسع من أحكام التوراة والإنجيل، ولهذا ذكر تعالى ما أوحى لمحمد ص قبل ما وصّى به إبراهيم وموسى وعيسى، يعني كل من أراد السعة في الدين وليس الوصايا من الذين أوتوا الكتاب من قبل أمة محمد ص، وجب عليه اتباع ما جاء به القرآن، لكن لم يجعل تعالى هذه السعة فيما وصى به نوحا عليه السلام، وذلك لسببين:

أولهما أن الإيمان بالله وعدم الشرك به ليس فيه سعة، وبالتالي ليس هناك من حدود ولا يخضع للمعروف، وانما هو حكم معيّن ومحدّد إلى قيام الساعة، ولهذا قال تعالى في سورة النساء48[إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا]

وثانيهما أن في عهد نوح كان الإسلام اعتقادا فقط، أي من آمن بالله وحده دخل الجنة، لأنه لم تكن قد فرضت بعد الأحكام كإقام الصلاة مثلا وإيتاء الزكاة، أما عند مجيء إبراهيم أصبح الإسلام دينا، أي بدأ تشريع الأحكام كإقامة الصلاة والحج، ولهذا قال تعالى في سورة المائدة3[وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا] وليس اعتقادا فقط، ولهذا قال تعالى[وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ] بعد قوله سبحانه[شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا] وقبل قوله عز وجل[وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ]

فالله تعالى لم يُنزل القرآن على محمد ص لينسخ به الكتب السابقة، ولهذا قال تعالى في سورة فاطر31[وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ] ولكن أنزله ليجعل في الدّين سعة حتى لا يظلّ المؤمن مقيّدا وإلى الأبد بأوامر معيّنة ومحدّدة، ولهذا جعل القرآن خاتم الكتب، وجعل سبحانه تلك السعة حسب معروف المجتمعات، ولهذا قال تعالى مخاطبا محمدا ص في سورة الأعراف199[خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ] ولم يأمره بأن يحكم بما أنزله تعالى، لكن لم يجعل تلك السعة مطلقة، وانما جعل لها حدودا لا يحقّ للمؤمن تعدّيها، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة229[وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ] ولم يقل – ومن لم يحكم بما أنزل الله -

فالله تعالى قال في سورة النساء166[لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا] ولا يمكن أن نعرف عظمة هذا العلم إلاّ إذا اتبعنا قواعده التي وضعها هو سبحانه وليس غيره، وهو غني عن ذلك، وصدق قوله سبحانه في

سورة النحل89[وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ] وقوله عز وجل في سورة يوسف111[مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ]

فهو عندما قال تعالى[شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ] لم يجعل ذلك الترتيب عشوائيا، وإنما جعله بعلمه سبحانه، وجعل لكل كلمة دلالتها، وهذا من الطرق التي أحكم بها تعالى آياته، ثم فصّل هذه الآيات في كثير من الأمثلة في القرآن لمن أراد أن يتدبره، وهكذا يتبيّن بأن الوصايا هي وحي من الله تعالى كما هو القرآن، إلاّ أن وحيه لمحمد ص هو عبارة عن سعة الحلال، لكن هذه السعة ليست مطلقة، ولكن ذات حدود وتخضع للمعروف والمنكر، ولهذا قال تعالى في سورة آل عمران110 [كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ] فما هو هذا المعروف والمنكر؟ وما هي الحدود لهذه السعة التي جاء بها القرآن؟

أمة وسطا (المعروف والمنكر)

قال الله تعالى في سورة الحجر61[فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ62قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ] وهنا كما نرى، الله تعالى يتكلم عن المرسلين الذين أرسلهم إلى لوط، فقال سبحانه[قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ] وكلمة منكرون جذرها اللغوي هو فعل نكر، فنقول نكر الشيء يعني جهله ولم يعرفه أو استنكره، فلوط إذًا لم يتعرّف على المرسلين لأنهم كانوا غرباء عن قومه ولم يرهم من قبل، ولهذا قال تعالى في سورة الذاريات 25[إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ]

فالمنكر إذًا هو ما لم يعتد عليه الإنسان في مجتمعه ويستنكره، ولهذا قال تعالى كذلك في سورة المؤمنون69[أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ] وبما أن المعروف هو نقيض المنكر، فهذا يعني أن المعروف هو ما عهده الناس واعتادوا عليه واستحسنوه، ويخضع للحلال بالنسبة للمؤمنين، وهذا ما جاء به الحديث النبوي الذي أخرجه ابن حجر العسقلاني في الأمالي المطلقة عن زر بن حبيش (بطريقة ملخصة) قال:< عن عبد الله بن مسعود قال: ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون سيئا فهو عند الله سيء> فالمعروف والمنكر يتغيران حسب المجتمعات والأزمنة، أما ما نهى عنه تعالى وما حرّمه على عباده فهو ثابت ولا يتغير، ولهذا بيّنه وعيّنه سبحانه

في كتابه حتى لا يكون المعروف مما حرمه تعالى ونهى عنه، وإلاّ فهو ليس من دين الإسلام الذي رضيه تعالى لعباده.

فقد أخرج أبو داود في سننه حديثا عن سعيد بن زيد أن رسول الله ص قال:<من أحيا أرضا ميتة فهي له> لكن هذا الحديث كان حسب المعروف الذي كان سائدا في عهد محمد ص، وهو حلال، لأن أغلب الأراضي لم يكن لها مالك، فكانت تُملك بإحيائها، أما في عهدنا فقد أصبح امتلاك الأراضي بهذه الطريقة من المنكر، وذلك لأن الأراضي أصبحت تُملك باشترائها وليس بإحيائها، فصار القانون يجرّم ما شرعه محمد ص في عهده، ولا يحرّمه لأنه ليس ممّا حرم الله تعالى، أي أصبح ما كان من المعروف ويتقبله الناس في عهد محمد ص، ممّا يستنكره الناس ولا يتقبّلونه في أيامنا.

والكل يعلم كذلك بأن في عهد محمد ص كان حمل السلاح للعام من المعروف، لكن في عهدنا وفي أغلب المجتمعات أصبح من المنكر أن يُحمل السلاح من طرف شخص عام، والمعروف لدينا والذي ينصّ عليه القانون، هو أن يُحمل السلاح من طرف رجال الأمن. وهكذا يتبيّن بأن المعروف هو ما أقرّته قوانين المجتمعات، والمنكر هو ما جرّمته، وهذه القوانين قد تختلف من مجتمع لآخر، وتخضع لعادات وتقاليد تلك المجتمعات.

فكل ما نهى عنه تعالى وكل ما حرمه في كتابه هو منكر، ولكن ليس هو المنكر، وكل ما لم ينه عنه تعالى ولم يحرّمه في كتابه فهو حلال، وكل حلال هو من المعروف، ولكن قد يكون من هذا الحلال ما هو منكر حسب المجتمعات والأزمنة، فكل معروف وجب أن يكون من الحلال، لكن ليس كل حلال وجب أن يكون من المعروف، وكل حرام هو منكر، لكن ليس كل منكر هو حرام.

فالله تعالى قال في سورة الأعراف199[خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ] ولم يقل - وأحكم بحكم الله- وذلك لأن القرآن ليس عبارة عن وصايا، كما هو الشأن بالنسبة للتوراة والإنجيل كما جاء في سورة المائدة45[وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ] وفي سورة المائدة47[وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ] ولكن هو سعة في الحلال، والذي يخضع لعرف المجتمعات، ولهذا قال تعالى[وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ] ولم يقل - أمر بالمعروف - وذلك لأن محمدا ص كان هو حاكم قومه، وهو الذي كان ينصّ القوانين، فكان يشرع ما قد يتقبّله المجتمع ولا يستنكره، ثم بعد ذلك يصير من المعروف فيأمر به الساهرون عليه.

وهذا ما يقع في مجتمعاتنا، فالمشرّع يشرّع القوانين حسب المجتمع الذي يعيش فيه، ثم يقوم أناس تكلفهم الدولة بتطبيق تلك القوانين، وكمثال على هذا، قانون السير، والذي هو من الميزان ليقوم الناس بالقسط، فالدولة تشرّع قوانين السير طبقا لعرف المجتمع، فهي إذًا تأمر بما فيه مصلحة للجميع ويستحسنه المجتمع، فهي إذًا تأمر بالعرف، وعندما يطبّق شرطي المرور هذه القوانين على الناس، فهو إذًا يأمر بالمعروف، أي ما صار معروفا لدى عامة الناس ووجب عليهم احترامه، حتى لا تكون فوضى في الشوارع فتصير فتنة مما يؤدي إلى حوادث سير تسبّب في عاهات و قتلى، وهذا ما حذّر منه تعالى بقوله في سورة البقرة 191[وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ]

فالله تعالى عندما بدأ تنزيل الأحكام، جعلها على شكل وصايا، فكان يتكفّل هو سبحانه بتحديد وتعيين ما وجب على المسلم فعله، وذلك لأن عقل الإنسان لم يكن ناضجا بعدُ كما هو حاليا لكي يستطيع تشريع قوانين متحضرة بنفسه، وهذا ما تفعله الأمّ مع ابنها في صغره، فهي تحدّد له كل ما يجب فعله وما يجب تركه، فهي إذًا توصيه، لكن عندما يكبر وينضج، ويستطيع التمييز بين الحسن والسيء، فهي تضع له حدودا لكي لا يتعدّاها، وتترك له حريته التي تخضع لما هو معروف في المجتمع.

وهذا ما فعله سبحانه في أول الأمر، فقد كان يوصي من آمن بالله واليوم الآخر بما يجب فعله وما يجب تركه، ثم أرسل محمدا ص بالقرآن الذي جعله خاتم الكتب، وذلك لعلمه تعالى بأن عقل الإنسان سينضج وسيستطيع تشريع قوانين متحضرة، وفي مصلحة الإنسان نفسه، كمنع استعباد البشر، والذي أصبح من المنكر، وقمع الحريات، وهضم حقوق الإنسان الذكر منه والأنثى، وإلى آخره، ولهذا جعله صالحا لكل زمان ومكان، فبيّن سبحانه ما هو حرام سرمدا إلى قيام الساعة، كما جاء في سورة الأنعام 119[وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ] وكذلك في سورة النساء23[حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا24وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

عَلِيمًا حَكِيمًا] وأيضا في سورة المائدة3[حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] وفي سورة الأنعام145[قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] ولخصّ كل هذا تعالى في قوله في سورة الأعراف33[قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ]

وجعل ما وراء ذلك من الحلال ولم يعيّنه، ولا يحقّ لأيّ بشر أن يحرّم منه شيئا كما جاء في سورة الأعراف32[قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ] وكذلك في سورة يونس59[قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ] وأيضا في سورة النحل 116[وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ] ولخصّ كل هذا سبحانه بقوله في سورة البقرة79[فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ] لكن جعل تعالى هذا الحلال يخضع للمعروف والمنكر حسب المجتمعات ولم يجعله مطلقا، بل وضع له حدودا لا يجب على المتقين تعدّيها، فما هي إذًا هذه الحدود؟

أمة وسطا (الحدود)

قال الله تعالى في سورة البقرة187[أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ] وهنا كما نرى،

نهى سبحانه عن مباشرة الرجل زوجه أو امرأته في أوقات الصيام، وعند اعتكافه في المكان الذي يخصّصه للصلاة فقال سبحانه[**تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ**] لكنه تابع قائلا[**فَلَا تَقْرَبُوهَا**] ولم يقل – فلا تعتدوها – لأنه يتكلم عن وقت الصيام بذاته وليس خارجه، ومكان الاعتكاف بعينه، أي مكان إقامة الصلاة، وليس محيطه، ولهذا قال تعالى كذلك في سورة الإسراء32[**وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا**] لأن الله تعالى نهى عن الزنا بعينه، أي مجامعة محصنة بطريقة غير شرعية، وليس ما يؤدي لتلك المجامعة كالقول مثلا أو النظر، ولهذا قال تعالى [**وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ**] ولم يقل غيره.

فعندما قال تعالى [**تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ**] وبما أن مباشرة الرجل لزوجه حلال مطلق، فهو سبحانه عيّن أماكنا وحدّد أوقاتا يحرم فيها وعندها ما هو حلال دونها، ولهذا قال تعالى[**تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا**] ولم يقل – تلك حدود الله فلاتعتدوها - وهي وقت الصيام ومكان الاعتكاف، أي كل مكان طاهر مخصّص لإقامة الصلاة أو الصلاة كما جاء في الآية، ومدة الحج كذلك كما جاء في سورة البقرة197[**ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ**] وكل من قرب هذه الحدود فقد ظلم نفسه، ووجب عليه الاستغفار كما جاء في سورة آل عمران135 [**وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**]

وقال تعالى في سورة البقرة229[**ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ**] وهنا كما نرى، قال تعالى[**تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا**] وذلك لأن الله سبحانه لا يتكلم هنا عن حدود معيّنة، أي ما حرّمه سبحانه، ولكن يتكلم عن حدود فعلية عامة، أي ما نهى عنه لكي لا يظلم الإنسان أخاه الإنسان، وبالتالي ليقوم الناس بالقسط كما جاء في سورة الحديد25[**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ**] ولهذا قال تعالى[**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ**] يعني إن خاف الحاكم أن يظلم أحدهما الآخر، حقّ له أن يفصل بينهما، أي الزوج وزوجه، ثم تابع قائلا[**تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ**] فكل من ظلم أخاه الإنسان فقد تعدّى حدود الله تعالى.

فأن يقيم المؤمن حدود الله، ليس هو أن يعاقب تارك الصلاة مثلا، أو من لم يصم شهر رمضان، أو غير ذلك، لأن هذا يعدّ من الإكراه في الدين، والله حرّمه تعالى على العالمين بقوله سبحانه في سورة البقرة256[لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ] ونهى محمدا ص على فعله بقوله تعالى في سورة يونس99[وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ] وبقوله كذلك في سورة ق45[نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ] والأمثلة كثيرة في القرآن، ولكن أن يقيم المؤمن حدود الله تعالى، هو أن لا يظلم نفسه، ولا يظلم الآخر، وذلك بتحريم ما حرمه تعالى، واجتناب ما نهى عنه سبحانه.

فكل شخص اجتنب ما نهى الله تعالى عنه في كتابه ليقوم بالقسط، وحرّم ما حرّمه تعالى في كتابه، وأحلّ ما أحلّه طاعة له سبحانه وليس لغيره، فقد أقام حدوده عز وجل، وكل شخص ظلم الآخر فذلك لأنه لم يجتنب ما نهى عنه سبحانه في كتابه، فهو إذًا تعدّى حدود الله تعالى، وإن أحلّ ما حرمه تعالى في كتابه دون اضطرار أو إكراه، أو حرّم حلالا طاعة لشخص ما، فقد ظلم نفسه، وبالتالي قرب حدود الله سبحانه.

فالله تعالى قال في سورة الأنعام82[ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[بِظُلْمٍ] ولم يقل – بالظلم – وذلك لأن المؤمن قد يلبس إيمانه بنوعين من الظلم:

- فقد يلبس إيمانه بظلمه لنفسه، وذلك بأكل لحم ما حرمه تعالى مثلا دون اضطرار كما جاء في سورة الأنعام119[وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ] وفي هذه الحالة وجب عليه الاستغفار كما جاء في سورة النساء110[وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا] أو بارتكاب فاحشة، وفي هذه الحالة وجب عليه الاستغفار كذلك كما جاء في سورة آل عمران135[وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ] وكل هذا يعدّ من الشرك، وذلك لأنه لم يحلّ ما حرمه تعالى مضطرا أو مكرها، وإنما طاعة لهوى نفسه، أو طاعة لغيره.

- وقد يُلبس إيمانه بظلمه لأخيه الإنسان، وذلك بأكل مال اليتيم مثلا بغير حقّ كما جاء في سورة النساء10[إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ

نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا] وفي هذه الحالة وجب عليه التوبة، وإرجاع ما أكل من أموال وليس الاستغفار فقط، ولهذا عندما قال تعالى في سورة المائدة 38[وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] تابع سبحانه قائلا[فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] ولم يقل - واستغفر لذنبه - وذلك لأن ظلم الآخر يعدّ من السيئات التي تُكفّر، وليس من الذنوب التي تُغفر، ولهذا قال تعالى في سورة النساء31[إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا] وهنا كما نرى، قال تعالى[إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ] أي ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وهذا ما جاء مثلا في سورة الإسراء33[وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ] وقد تبيّن من قبل، بأن دلالة فعل قتل هي وضع حدّ لشيء وهبه الله تعالى للإنسان، كالحرية والكرامة والحياة ليكون ضده، فأن يسجن أيّ إنسان ظلما فهذا يعدّ كقتل للنفس بغير حق، وقد تكون مدة سجنه قصيرة، فهذا يكفّره تعالى لأنه من السيئات وليس من الذنوب، لكن إن سُجن طوال حياته ظلما فهذا يعدّ من كبائر السيئات، وإذا قضى إنسان على حياة إنسان متعمدا فهذه كذلك من الكبائر ولا يكفّرها تعالى كما جاء في سورة النساء93[وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا]

فالظلم إذًا هو تعدّي حدود الله تعالى، والعدل هو إقامة حدود الله تعالى، ولا علاقة لكل هذا بالعذاب أي العقاب، والذي توارثناه عن آبائنا دون الرجوع إلى كتاب الله تعالى.

وهكذا يتبيّن حسب ما جاء به القرآن، بأن الحدود هي كل ما نهى عنه تعالى حتى لا يكون الظلم بين الناس، وكل ما حرّمه تعالى حتى لا يظلم الإنسان نفسه.

أمة وسطا (كنتم خير أمة)

فعندما قال تعالى في سورة الشورى13[شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ] فهو سبحانه يتكلم عن الدّين، الذي هو واحد وليس الملّة، وبدأ تشريعه مع إرسال نوح بأول أمر، وهو عبادة الله تعالى وعدم الشرك به، وبعد ذلك شرع تعالى تدريجيا وصايا، أي تحديد وتعيين الحلال، مع إرسال إبراهيم وموسى وعيسى لمدة مؤقتة إلى أن ينضج عقل الإنسان، ثم بعث محمدا بالقرآن خاتما للكتاب ليجعل الحلال ذا سعة مقيّدة

بالمعروف والمنكر، أي ما استحسنه المجتمع وما استنكره، وهذا ما ننعته بالقوانين بلسان العرب، ثم بيّن سبحانه الحدود لسعة هذا الحلال حتى لا يكون مطلقا، وهي ما نهى عنه وما حرّمه، ومن أجتنب ما نهى عنه سبحانه، أي لم يتعدّ حدود الله، ومن لم يُحلّ ما حرمه عز وجل، أي لم يقرب حدود الله، فقد أقام تلك الحدود.

ولهذا قال تعالى في سورة البقرة143 [وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا] يعني أمة لا تتبع أحكاما معيّنة ومحدّدة من عند الله سبحانه (وصايا) ولكن أمة تشرّع القوانين بنفسها حسب ما هو معروف وما هو منكر، ولكن دون تعدّي ما حدّده تعالى في القرآن من نواهي، وإحلال ما حدّد من حرام أو تحريم ما لم يحرّمه هو سبحانه في كتابه.

ثم تابع قائلا[لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ] يعني أن هذه الأمة التي تتّبع ما جاء به القرآن، وليس ما جاءت به كتب شيوخها وأئمتها، سوف تشهد بما دعت به ربها، وهو قوله تعالى في سورة البقرة286[رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ] واستجابته سبحانه لدعائهم بقوله في سورة المؤمنون62[وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ]

ثم تابع قوله تعالى[وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا] يعني أن الرسول سيشهد بأنه جاء بالقرآن ليضع الإصر الذي حمله تعالى على أهل الكتاب من قبل، وهي الوصايا، وكذلك الأغلال التي حملها الأحبار والرهبان على أتباعهم ليشدّدوا عليهم، وذلك بتحريمهم ما لم يحرّمه تعالى في التوراة والإنجيل، ولهذا قال سبحانه في سورة الأعراف157[ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ] كما جاء في سورة الأعراف199[خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ] ولم يقل سبحانه - يحكم بما أنزل الله -

فالله تعالى لم يُنزل القرآن على محمد ص لينسخ التوراة والإنجيل، وإنما ليثبت ما جاء به موسى وعيسى عليهما السلام، أي الوصايا، وليجعله مهيمنا عليه، أي سعة الحلال، لكن ذات حدود عبارة عن نهي محدّد وحرام معيّن، ولهذا قال تعالى في سورة

المائدة 48[وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ] ثم تابع قائلا[فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ] وهنا كما نرى، قال تعالى[فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ] ولم يقل - احكم بما أنزل الله - وذلك لأنه يتكلم سبحانه عن الحكم بين الناس، أي أن يعدل بينهم بما أنزل الله تعالى، وهو الميزان كما جاء في سورة الحديد25[لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ]

ثم تابع تعالى قوله[لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً] أي أن الله تعالى جعل لكل أمة ملّتها، ثم تابع قائلا[وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ] وهنا الله تعالى بيّن جليا بأنه هو الذي شاء فجعل عباده عبارة عن أمم مختلفة، أي ملل مختلفة، وذلك ليتسابق اليهود والنصارى والمسلمون في فعل الخيرات، وليس في نسخ ملّة الآخر وتزكية النفس كما جاء في سورة النحل92[وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ] وكذلك في سورة النساء49[أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا]

فالله تعالى جاء بالقرآن ليجعل الحلال ذا سعة مطلقة وليس لينسخ ما قبله، وجعله مقيّدا بالمعروف والمنكر، وهي القوانين بلسان العرب، وجعل له حدودا وبيّنها سبحانه، وهي ما نهى عنه وما حرّمه، وكل من أراد من أهل الكتاب سعة في أمر دينه وليس في ملّته، ويضع عنه الإصر، أي الوصايا التي وصّى بها تعالى إبراهيم و موسى وعيسى، وكذلك الأغلال التي حمّلها الأحبار والرهبان أتباعهم، وهو ما فيه خير له إن هو علمه، أتبع ما جاء به محمد ص، ولهذا عندما قال تعالى في سورة آل عمران 110[كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ] تابع سبحانه قائلا[وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ]

وكل من تولّى من بني إسرائيل، وجب عليه اتباع ما جاءت به التوراة وليس كتب الأحبار، ولهذا عندما قال تعالى في سورة المائدة45[وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ] تابع تعالى قائلا[وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ] ومن تولّى من النصارى، وجب عليه اتباع الإنجيل وليس كتب الرهبان،

ولهذا عندما قال تعالى في سورة المائدة 47[وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ] تابع سبحانه قائلا[وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ]

وكما نرى، في الآيتين معا قال تعالى[وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ] وهي الوصايا فهو إما من الظالمين، وإمامن الفاسقين، ولهذا قال تعالى في سورة المائدة68[قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ] لكنه لم يأمر محمدا بأن يقيم القرآن، أي بأن يحكم بما أنزل الله تعالى في القرآن، ولكن قال سبحانه في سورة الأعراف199[خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ] ولهذا جعل تعالى أمة القرآن (وليس أمة الكتب الأخرى) أمة وسطا، ولهذا تابع قائلا[وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ]

فكل أمة تؤمن بالله وتُشرّع قوانينا لكي لا يكون الظلم بين الناس، وتجعل تلك القوانين تحترم حقوق الإنسان الذكر منه والأنثى، وتحمي حريته الشخصية والعقائدية، وتحفظ كرامته، فهي خير أمة أخرجت للناس التي ذكرها تعالى بقوله في سورة آل عمران 110[كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ] وأيّ كتاب يدعو لغير ذلك فقد ألبس الحق بالباطل، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة42[وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ]

ولهذا قال تعالى في سورة في سورة الجاثية28[وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا] أي أن أمة موسى سوف تدعى يوم الحساب إلى التوراة وليس القرآن، أو كتب أحبارها، وأمة عيسى إلى الإنجيل كذلك وليس القرآن، أو كتب رهبانها، وأمة محمد ص إلى القرآن وليس كتب شيوخها وأئمتها، ولهذا تابع تعالى قائلا[هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ] أي أن التوراة سينطق على أمة موسى عليه السلام بالحق، والإنجيل على أمة عيسى عليه السلام بالحق، وبالتالي القرآن على أمة محمد ص كذلك بالحق، وصدق قوله تعالى في سورة الجاثية6[تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ]

ملاحظة: قال الله تعالى في سورة البقرة229[ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ] وهنا كما نرى، قال تعالى[بِمَعْرُوفٍ] ولم يقل – بالمعروف - وذلك لأنه يتكلم سبحانه عن العلاقة الخاصّة بين الرجل والمرأة، والتي تكون حسب تراضٍ بينهما، وقد تختلف من عائلة إلى أخرى، ولهذا عندما قال كذلك في سورة البقرة231 [وَإِذَا طَلَّقْتُمُ

ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ] تابع عز وجل قائلا[فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ] ونفس الشيء عندما قال تعالى في سورة الطلاق2[فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ] تابع سبحانه قائلا[فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٍ مِّنكُمۡ] ونفس الشيء أيضا عندما قال في سورة الطلاق6[أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ] تابع عز وجل قائلا[وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ]

لكن قال تعالى في سورة البقرة180[كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ] وهنا كما نرى، قال تعالى [بِٱلۡمَعۡرُوفِ] وليس – بمعروف - وذلك لأنه يتكلم عن حقوق الناس بصفة عامة، فعرّف كلمة معروف، أي ما هو معروف لدى العامة، وهو القانون، والذي وجب على كل أفراد المجتمع احترامه، ولهذا عندما قال تعالى كذلك في سورة البقرة228 [وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗا] تابع تعالى قائلا[وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] وهنا كذلك قال تعالى [بِٱلۡمَعۡرُوفِ] أي القانون العام، وكذلك عندما قال في سورة البقرة233[وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ] تابع سبحانه قائلا[وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ] وذلك لأنه يتكلم عز وجل عن حقوق الناس، والتي يحفظها القانون، والأمثلة كثيرة في القرآن.

وعندما قال تعالى في سورة النساء11[يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا] فهو سبحانه هنا حدّد نسبة الإرث لمستحقيه، لكن لم يجعل هذه النسب أحكاما بعينها، ولكن حدودا للوصية التي جعلها سعة للموصي، والتي تخضع كذلك لما هو معروف وما هو منكر، ولهذا ختم قوله تعالى في الآية13 من سورة النساء[تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ] ولم

يقل سبحانه – تلك أحكام الله – وذلك لأنه هو الرحمان الرحيم الذي قال في سورة النساء40[إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ]

فهو سبحانه جعل الوصية كوسيلة للموصي ليعدل بين مواليه حسب ظروفهم واحتياجاتهم، وحدّد تعالى نسبا كحدود إذا ما كان هناك ظلم في الوصية، لكن نحن نسخنا الوصية، فصارت النسب أحكاما معينة، أي وصايا، وبالتالي لم يعدْ هناك عدل بين موالي الهالك، وصار الظلم في تقسيم الإرث لم يُنزل به تعالى من سلطان، ولهذا قال سبحانه في سورة يونس44[إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ]

فالله تعالى علم بأنه سيكون من الموالي ما هو أحقّ من الآخر بما ترك المتوفى وكمثال على ذلك، أن يكون للهالك ولدان كذكر وأنثى، لكن هذه الأخيرة هي أكثر حاجة لمال الهالك من الذكر، فحقّ إذًا على الوالد أن يوصي للأنثى بما فيه خير لها، دون أن يكون تعمّدا لحرمان الذكر من نصيبه أو بعضه، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة182[فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ] ولا يحقّ في هذه الحالة للولد الذكر أو شخص آخر أن يبدّل تلك الوصية، ولهذا عندما قال تعالى في سورة البقرة180[كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ] تابع تعالى قائلا[فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ] وصدق قوله تعالى في سورة الحديد25[لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ]

فالله سبحانه وتعالى بريء من كل ظلم تعرّض إليه أحد من موالي الهالك ورسولُه، ولهذا أمر أمة محمد ص باتباع القرآن وحده الذي هو رحمة للعالمين كما جاء في سورة الأنعام96[وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ] وليس الكتب الأخرى التي كانت سببا لظلم العباد، وصدق قوله سبحانه في سورة الأنعام 153[وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

الصلاة الوسطى

قال الله تعالى في سورة البقرة238[حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ] كما يعلم الجميع بأن آباءنا اختلفوا كعادتهم في تعريف الصلاة الوسطى، ومن هذه التعاريف ما جاء بطريقة مختصرة في تفسير ابن كثير رحمه الله عن مالك عن ابن عباس في الموطأ، بأن الصلاة الوسطى هي صلاة الصبح، وعن أبي رجاء العطاردي قال: صليت خلف ابن عباس الفجر فقنت فيها ورفع يديه ثم قال: هذه الصلاة الوسطى التي أمرنا الله أن نقوم فيها قانتين.

ودائما عن ابن كثير عن أبي العالية عن ابن عباس أنه صلى صلاة الغداة في مسجد البصرة فقنت قبل الركوع وقال: هذه الصلاة الوسطى التي ذكرها الله في كتابه، وهذا ما قاله كذلك أبو العالية عندما صلى خلف عبد الله بن قيس، لكن أبا داود الطيالسي في مسنده دائما عن ابن كثير، قال بأنها صلاة الظهر، وهذا ما قاله كذلك الإمام أحمد وسعيد بن المسيب، لكن الترمذي، والبغوي، والماوردي، وآخرين، وما جاء به الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي في كتابه المسمى <كشف المغطّى> عن عمر وعلي وابن مسعود، وأبي أيوب، وعبد الله بن عمر، وابن عباس، وعائشة، وكذلك الشافعي، قالوا بأنها صلاة العصر. تمّ قول ابن كثير.

وهنا أيضا يجب أن نتساءل، هل القرآن رؤيا؟ أم هو الحقّ من ربنا كما قال تعالى في سورة البقرة119[إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا] وجعل سبحانه هذا الحق علما كما جاء في سورة آل عمران19[فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ]؟

بلى هو كذلك، وكما نعلم كل علم له قواعده، والله تعالى وضع هو كذلك قواعدا لعلمه لكي نعقله، فلا يكون فيه اختلاف، ومن أهمّ هذه القواعد، أنه جعل القرآن عربيا، ونزّله على محمد ص بلسان عربي مبين، فأحكم سبحانه آيات الكتاب ثم فصّلها، فضرب لنا الأمثال وصرّفها في القرآن، ولهذا قال تعالى في سورة النساء82[أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا]

لكن آباءنا كثيرا ما كانوا يعبرون كلمات القرآن كما تُعبر الرؤيا، ولا يتدبرونها بالقواعد التي وضعها تعالى لذلك، ولهذا اختلفوا في تفسير كثير من كلمات آيات الكتاب، ومنها

الصلاة الوسطى، فمنهم رحمهم الله من عبرها بصلاة الفجر، ومنهم من عبرها بصلاة الظهر، ومنهم من عبرها بصلاة العصر، وهناك من عبرها كذلك بصلاة المغرب.

فإن كانت فعلا الصلاة الوسطى هي واحدة من الصلوات الخمس، فهل الله تعالى يفضّل صلاة عن صلاة أخرى؟ فإن كان كذلك! ألا يحقّ أن نُعرّفها بصلاة الجمعة، والتي عيّنها تعالى وأمر المؤمنين بترك البيع عندها للسعي لذكره سبحانه؟ أم قال رجل برأيه ما شاء؟

فالله تعالى قال[**حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ**] وهنا كما نرى، قال تعالى[**حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ**] فهو سبحانه يأمرنا بأن نحافظ على الصلاة، أي لا نضيعها ولا نهملها، وهنا جاءت كلمة الصلاة على صيغة الجمع، ثم أضاف سبحانه صلاة أخرى قائلا[**وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ**] وقد بيّنا من قبل، بأن الصلاة تنقسم إلى قسمين، صلاة تقام ولها مواقيت محدّدة ومعيّنة، ولها بداية ونهاية ، وتحتاج إلى الوضوء والطهارة، وهي الصلوات الخمس التي نقيمها كل يوم، ولهذا قال تعالى [**ٱلصَّلَوَٰتِ**] وهناك صلاة بدون مواقيت محددة ومعينة، ولا تُلزم الوضوء والطهارة، وهي تلاوة القرآن والتسبيح والدعاء، وجعلها تعالى حسب سعة المؤمن وطاقته، وهي التي نعتها تعالى بالصلاة الوسطى، كما نعت أمة القرآن بأمة وسطا، وذلك لأن كلمة وسطا جذرها اللغوي هو فعل وسط، فنقول وسط المكان يعني توسّطه، ونقول دخل وسط الدائرة يعني دخل مساحة يحدّها خطّ دائري، وكلّما تجول داخل ذلك الخط، فهو مازال وسط تلك الدائرة، فهو إذًا له سعة في تحركه ما لم يتجاوز الخط الدائري.

فعندما قال تعالى[**وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ**] فهذا يعني النوع الثاني من الصلاة، والتي فيها سعة، وبدون مواقيت معلومة، وتكون حسب طاقة المؤمن وسعته، وقد يزيد فيها أو ينقص، ولهذا قال تعالى في سورة الأنفال45[**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**] وهنا كما نرى، قال تعالى[**وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا**] وذلك لأنه يتحدث عن الصلاة التي لا تقام، أي الصلاة الوسطى، وهي التي نذكر الله عندها قليلا أو كثيرا، وليست الصلاة التي لا تقام، والتي هي محدّدة ومعيّنة.

فعندما قال تعالى[**حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ**] فهذا يعني أن نحافظ على الصلوات الخمس، ولهذا جعل كلمة الصلاة في صيغة الجمع، ونحافظ كذلك على تلاوة القرآن والتسبيح والدعاء، ولهذا جاء بكلمة الصلاة بصيغة المفرد، وذلك لأنها صلاة واحدة، وليس هناك أوقات تفرّق بين صلاة وأخرى، ثم تابع قائلا[**وَقُومُواْ لِلَّهِ**

قَٰنِتِينَ] وكلمة قانتين جذرها اللغوي هو فعل قنت، فنقول قنت لله يعني تواضع لله ولزم طاعته، فعندما قال تعالى[وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ] فهذا يعني أن نكون من المتواضعين واللازمين لطاعته، وذلك باتباع أوامره، ومنها الحفاظ على الصلوات الخمس والصلاة الوسطى.

فالله تعالى قال في سورة الأنعام92[وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ] ولم يقل – على صلواتهم يحافظون – وذلك لأنه يتكلم عن الصلاة بصفة عامة، أي الصلاة التي تقام والصلاة التي لا تقام، لكنه قال تعالى في سورة المؤمنون9 [وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ] ولم يقل كما جاء في الآية السابقة[عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ] وذلك لأنه يتكلم سبحانه عن الصلاة التي تقام فقط، ولهذا جاء تعالى بالاثنين معا في سورة البقرة238[حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ]

فالصلاة الوسطى لا علاقة لها بالصلوات الخمس، وعندما يأمرنا تعالى بهذه الصلاة يقول كما جاء في سورة البقرة200[فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ] وهنا كما نرى، قال تعالى[فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ] وليس صلّوا، أو أقيموا الصلاة، وكما جاء كذلك في سورة النساء103[فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا] وهنا كما نرى، قال تعالى[فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ] وهي الصلاة التي فيها سعة وحسب طاقة المؤمن، ولهذا نعتها تعالى بالصلاة الوسطى، كما نعت أمة القرآن بأمة وسطا.

والله هو العليم الحكيم الخبير.

المغضوب عليهم والضالين

قال الله تعالى في سورة الفاتحة7[صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ] كما يعلم الجميع، كل من سُئل عن تعريف المغضوب عليهم إلا وعرّفهم باليهود، والضالين بالنصارى، وهنا يجب أن نتساءل، هل نحن نتدبر القرآن، أم نعبُره كما تُعبر الرؤيا؟ فنحن عندما نعبُر الرؤيا نقيس ما رأيناه في المنام بما يساويه في الحقيقة، وهذا ما فعله يوسف عليه السلام عندما عبر رؤيا العزيز، فهو قاس البقرة بالسنة والسنبلة بالمنتوج الزراعي، وقد يختلف تعبيرهما حسب الأعراف والعصور، لكن بالنسبة للغة العربية، الكلمات لا تُعبر ولكن يُفسّر معناها لغويا، فالبقرة في اللغة العربية ليست هي السنة، ولكن هي حيوان أهلي من فصيلة البقريات، والسنبلة ليست هي المنتوج الزراعي، ولكن هي ساق نبات يتكوّن الحبّ في جزئه الأعلى.

وكما يعلم الجميع، هذا التعريف للمغضوب عليهم والضالين، والذي عهدناه منذ ولادتنا سببه الحديث النبوي، ومن بين الذين أخرجوه، الهيثمي في مجمع الزوائد بطريقة ملخصة عن من سمع النبي قال:<سمع النبي ص يقول وهو بوادي القرى وهو على فرسه وسأله رجل من بلقين فقال لرسول الله ص من هؤلاء؟ قال هؤلاء المغضوب عليهم، وأشار إلى اليهود، فقال من هؤلاء؟ قال الضالون يعني النصارى>

فلنفترض بأن هذه الرواية صحيحة، فالنبي ص أشار إلى الذين عادَوه وأخرجوه من دياره هو والذين آمنوا من أهل مكة، وظاهروا على إخراجهم، ومن بعد ذلك حاولوا نقض ما تعاهدوا عليه مع محمد ص، لكن ما ذنب اليهود والنصارى الذين لم يعادوه ولم يحاربوه هو والذين معه، وكذلك الذين جاؤوا من بعدهم؟ أولم يقل سبحانه في سورة المدثر38[كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ]؟

أم بعضنا اتّبع ما أسخط الله تعالى كقوله في سورة الأعراف152[إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ]؟ وكره رضوانه كقوله تعالى في سورة البقرة62[إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ]؟ وهل كل اليهود وإلى يومنا هذا يدعون عجلا؟ فلماذا نحن عندما تقوم طائفة

من المسلمين لتزرع الرهب في العالمين باسم الإسلام، لا نرضى بأن يُنعت الإسلام بدين الرهب، والمسلمون بالإرهابيين؟ أم نحن فكّرنا وقدّرنا فقُتِلنا كيف قدّرنا؟

فلكي لا نسيء للنبي ص، ونضع حدّا لكره كل من خالف ملتنا، والذي شاء سبحانه لجعل مللا مختلفة كما جاء في سورة المائدة48[وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ] وكذلك في سورة النحل92[وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ93|وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ] وجب أن نتدبر القرآن ولا نعبره كما فعل الأولون، وذلك باتباع القواعد التي وضعها سبحانه، وأولها اللسان العربي.

فالله تعالى قال في سورة الفاتحة6[ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ7|صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ] وهنا كما نرى، الله تعالى يتكلم عن الصراط المستقيم، أي الهدي الذي جاء به القرآن كما قال تعالى في سورة البقرة 185[شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ] وكل من اتّبعه فقد اهتدى إلى الصراط المستقيم، وبالتالي فقد أنعم الله عليه، ولهذا قال تعالى في سورة المائدة3[ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى] وكل من أعرض عنه فقد اتبّع صراط الطاغوت كما جاء في سورة النحل36[وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ] لكن الكل يعلم بأن جهنم هي عاقبة الكافرين والمنافقين، والفاسقين والظالمين، والفجار والمشركين، فلماذا ذكر سبحانه المغضوب عليهم والضالين، ولم يذكر هؤلاء؟

فالله تعالى قال في سورة النور6[وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ] ثم تابع قائلا7 [وَٱلْخَـٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ] لكنه تابع قائلا8[وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ] ثم قال سبحانه9[وَٱلْخَـٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ]

وهنا كما نرى، قال تعالى[أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ] فلماذا لعن تعالى الرجل، وغضب على المرأة؟

فالرجل لعنه تعالى في حالة الكذب، فهو إذًا قال غير الحقيقة، وهذا إثم، والمرأة غضب عليها سبحانه في حالة الزنا، فهي إذًا قربت حدود الله، وهذا كذلك إثم، والله تعالى قال في سورة البقرة173[فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ] فالله تعالى يلعن من يغيّر الحقيقة باغ وليس مكرها، ولهذا قال تعالى في سورة آل عمران 61[فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ] وعندما قال كذلك في سورة الأحزاب60[لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا] تابع تعالى قائلا[61مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا] وعندما قال كذلك في سورة البقرة161[إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ] تابع سبحانه قائلا[أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ] وعندما قال كذلك في سورة آل عمران86[كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ] تابع عز وجل قائلا[أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ] فاللعنة إذًا تكون على من يغيّر الحقيقة بالقول بغيا منه وليس عن إكراه، ولهذا قال تعالى[وَٱلْخَـٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ] وغضبُ الله تعالى يكون على من قرب أو تعدّى حدوده دون اضطرار أو إكراه، ولا يكون هذا إلاّ بالفعل، ولهذا غضب الله على الزانية، لأن الزنا فعل حرام، وهو دلالة كما بيّنا من قبل على كل علاقة غير شرعية تقوم بها المحصنة ابتغاء شهوة جنسية فقط، وليس لاضطرار أو عن إكراه كما هو الشأن لغير المحصنات، ولهذا قال تعالى[وَٱلْخَـٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ]

وهكذا يتبيّن بأن كل من غضب الله عليه قد لعنه، وذلك لأنه تعدّى حدود الله تعالى دون إكراه أو اضطرار، أي باغ وعاد، لكن ليس كل من لعنه سبحانه قد غضب عليه، لأنه قد يكذب وينافق ويظلم بالقول فقط ولكن لا يقوم بالفعل، فكل مغضوب عليه هوملعون، لكن ليس كل ملعون هو مغضوب عليه، فلعنة الله لها شروطها، وغضب الله تعالى له شروطه، وهذا من علمه سبحانه، ولهذا قال تعالى في سورة هود1[الٓر كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ]

فعندما قال تعالى في سورة الفاتحة[غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ] فذلك ليشمل تعالى الملعونين كذلك، أي الكافرين، وهم الذين كذبوا على الله أو كذّبوا بما جاء به الرسل كما جاء في سورة الزمر32[فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى

جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ] ولهذا عندما قال تعالى في سورة البقرة89[وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ] تابع سبحانه قائلا[فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ]

والمنافقين، ولهذا عندما قال تعالى في سورة الأحزاب60[لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا] تابع سبحانه قائلا[مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا]

والظالمين، ولهذا عندما قال تعالى في سورة هود18[وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ] تابع سبحانه قائلا[أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ] وهنا يتكلم سبحانه عن الذين يظلمون بالقول وليس بالفعل، ولهذا عندما قال تعالى في سورة غافر52[يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ] تابع سبحانه قائلا[وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ] وذلك لأن الغضب يكون على الذين يتعدّون حدود الله تعالى بالفعل وليس بالقول فقط، ولهذا قال تعالى في سورة آل عمران112[ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ] ثم تابع قائلا[ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ] فالله تعالى يلعن الذين يكفرون بآياته، أي يعصون أمره، ولهذا قال[ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ] ويغضب عندما يتعدون حدود الله تعالى بالفعل، ولهذا تابع قائلا[وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ] ولهذا ختم الآية سبحانه بقوله[ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ]

فالله تعالى يلعن كل من كذِب أو كذّب بالصدق، أي كفر بما جاء به الرسل، وكل من نافق، وكل من ظلم بالقول، ويغضب على كل من تعدّى حدوده بالفعل، ولهذا قال تعالى في سورة النساء93[وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ] وذلك لأن القتل هنا كان متعمدا، أي أن القاتل قام بفعل القتل باغ وعاد، وإن كان غير ذلك فهو يعدّ قتلا خطأ، وهذا جعل له الله تعالى كفّارة كما جاء في سورة النساء92[وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ

رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا]

فعندما قال تعالى[ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ] وبما أن كل مغضوب عليه يشمل كذلك من هو ملعون، فالله تعالى يعني بالمغضوب عليهم: كل الكافرين والمنافقين والظالمين والفاسقين كذلك كما جاء في سورة الكهف50[وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ] ولهذا عندما قال تعالى في سورة الحجر34[قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ] تابع سبحانه قائلا[وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ] وهؤلاء الأصناف هم من الملعونين، أي الذين عصوا ربهم، فإنهم قاموا بما عصوا فقد تعدّوا حدود الله تعالى، وبالتالي صاروا من المغضوب عليهم كالفجار، كما جاء في سورة ص28[أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ] والظالمين بالفعل كما جاء في سورة المائدة33[إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ] وهؤلاء هم الذين قال فيهم تعالى ما جاء في سورة البقرة206[وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ]

وبما أن كل مغضوب عليه هو ملعون، وليس كل ملعون هو مغضوب عليه، فلهذا قال تعالى[غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ] ولم يقل – غير الملعونين -

ثم تابع تعالى في سورة الفاتحة[وَلَا ٱلضَّآلِّينَ] وكلمة الضالين جذرها اللغوي هو فعل ضلّ، أي لم يهتدِ، وذلك لأنه لم يعلم بما جاء به الكتاب، فإما أن يكون من الذين يطيعون البشر ظنا بغير علم، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة78[وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ] وهذا يعدّ من الشّرك، كما جاء في سورة لقمان15[وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا] واما أن يكون من الذين يتبعون أهواءهم بغير علم كما جاء في سورة الروم29[بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ] ولهذا عندما قال تعالى في سورة الأعراف179[وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ] تابع سبحانه قائلا[بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ] وهؤلاء هم الضالون والذين قال فيهم تعالى ما جاء في سورة الأحزاب67 [وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا] وما جاء في سورة الملك10 [وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ

مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ] وكذلك ما جاء في سورة طه 125[قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا 126قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ]

فالضالون إذًا هم الذين يتبعون الظن، أي الذين لا يستعملون عقولهم، فإما يتبعون أشخاصا ويتخذونهم أربابا من دون الله، وبالتالي يطيعونهم كما يُطاع الرب الإله، فهم إذًا من المشركين، وإما أن يتبعون أهواءهم بغير علم، وهؤلاء هم الذين يضلّهم الشيطان، فهم إذًا من العمّي، كما جاء في سورة النمل81[وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ] ولهذا قال تعالى في سورة الفرقان29[لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا]

فهناك حديث نبوي أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري يقول:< أن رجلا سمع رجلا يقرأ: قل هو الله أحد يردّدها، فلما أصبح جاء رسول الله ص، فذكر ذلك له وكأن الرجل يتقالُّها، فقال رسول الله ص: والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن> فمحمد ص هنا لا يعني بأن تلاوة سورة الإخلاص تعادل تلاوة ثلث القرآن، وإلاّ فهذا ظلم، أن يتهجّد مؤمن بتلاوة ثلث القرآن، وقد يستغرق ذلك الليل كلّه، ثم يتلو آخر سورة الإخلاص في بعض دقائق فيعادل من تهجّد بالتلاوة الليل كله، ولكن محمدا ص يعني أن مضمون سورة الإخلاص لخصّ مضمون ما جاء به ثلث القرآن، والذي يتكلم عن عبادة الرب الإله وليس الشيطان أو الأرباب البشر، ودعوة الإله الربّ وليس ما اتخذه البشر إلها.

فكذلك سورة الفاتحة تعادل أكثر من ثلث القرآن، ليس قراءة ولكن مضمونا، لأن مضمونها لخصّ مضمون ما جاء به أكثر من ثلث القرآن من تفصيل لصراط الهدى وأجر من اتبعه، وصراط الضلالة وعاقبة من سلكه.

فالله تعالى لا يغضب على الأمم، ولكن على كل شخص علم بما جاء به الرسول بلسانه فعصى وتعدّى، سواء كان يهوديا أو نصرانيا أو مسلما، ولهذا قال تعالى في سورة النساء123[لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا] ويرضى عن كل شخص آمن بما جاء به الرسول بلسانه كذلك فاتبعه، ولهذا تابع قائلا124[وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا] وكل من أطاع شخصا بغير علم واتخذه وليا ليقرّبه إلى الله زلفى كما جاء في سورة الزمر3[أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ

يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ] أو اتبع هواه بغير علم، كما جاء في سورة الجاثية23 [أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ] فهو إذًا من الضالين، سواء كان يهوديا أو نصرانيا أو مسلما، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة62 [إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ]

وصدق قوله تعالى في سورة البقرة78 [وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ 79فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

القضاء والقدر أم القدر والقضاء ؟

قال الله تعالى في سورة الإسراء30[إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا] وهنا كما نرى، الله تعالى يتكلم عن الرزق بالمفهوم العام، فقد يكون هذا الرزق عبارة عن الصحة، أو السعادة أوالذرية أو المال إلى آخره، فالرزق إذًا هو كل شيء يسعى من ورائه الإنسان ويكون في مصلحته، وليس من الضروري أن يكون مالاً.

والكل يعلم بالتعريف الذي توارثناه عن آبائنا بالنسبة للقضاء والقدر، وهو بطريقة ملخصة: أن القضاء ما أمر وشاء تعالى أن يكون منذ أن خلق الكون، والقدر هو تنفيذ وإيجاد ما قضاه تعالى، وهذا يعني بأن كل ما يصيبنا هو ما فرضه تعالى علينا وشاء أن يكون، وكل فعل قمنا به فهو تنفيذ فقط لقضاء الله سبحانه ومشيئته، وبالتالي ليست لنا الخيرة في أمرنا، ولهذا نقول القضاء والقدر، أي كل ما قضاه تعالى لنا وجب وقوعه حتميا.

لكن إذا أخذنا هذا التعريف فسوف نجد تناقضات كثيرة بين آيات الله تعالى، وكذلك ما هو منطقي ونعيشه حقيقة، ولهذا وجب أن نأتي ببعض الأمثلة على هذه التناقضات.

فالله تعالى قال[إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَيَقْدِرُ] فهل الله سبحانه هو الذي يقدر، أي ينفّذ ما قضاه لكل شخص من رزق؟ فإن كان كذلك، فلماذا فرّق الله تعالى بين العباد في الرزق؟ فلماذا جعل زيدا فقيرا وعمرا غنيا؟ أليس هذا بظلم لزيد؟ ولماذا يُسجَن السارق؟ أوليس الله تعالى هو الذي قدر له رزقه، والذي كان عن طريق السرقة؟

والله تعالى قال في سورة الكهف29[وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ] وهنا كما نرى، ترك لنا سبحانه الإختيار، فمن آمن بالحق فله الجنة ومن كفر به فله جهنم، فالسؤال هنا هو، لماذا سيعذب الله تعالى من كفر بالحق، إن هو قدر له أن يكون من الكافرين، أليس هذا بظلم للعباد؟

والله تعالى قال في سورة الشورى49[لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُور50أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا

إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ] وهنا نفس السؤال يطرح نفسه، إن كان القضاء هو ما شاء الله تعالى، والقدر هو تنفيذه، فلماذا نحن مثلا نعالج أنفسنا من العقم؟ أولم نرض بقضائه وقدره تعالى؟ فبدّلناهما بمحض إرادتنا! أليس هذا بتحدٍّ لمشيئة الله تعالى؟ وكيف استطاع الإنسان بالعلم أن يختار بين الذكر والأنثى؟ فهل صارت مشيئة الإنسان تتحكم في مشيئة الله عز وجل بواسطة العلم؟ أولم يقل سبحانه في سورة الإسراء85 [**وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**]؟

فلكي نزيل كل هذه التساؤلات، ولا نسيء الظن بالله سبحانه، وذلك بقولنا أشياء تناقض آيات كتاب الله تعالى، والمنطق الإنساني كما جاء في سورة الزخرف20 [**وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ**] وجب علينا أن نقدر كلام الله تعالى حق قدره، فنتدبر آياته بالقواعد التي وضعها سبحانه، ونلبّ كلماته، أي نحلّلها تحليلا عميقا، لكي نتعرف على دلالة مشيئة الله، ودلالة كلمة القدر، وكذلك دلالة كلمة القضاء، وبالتالي نعلم هل هناك قضاء وقدر؟ أم قدر وقضاء؟

1- مشيئة الله تعالى: فالله تعالى قال في سورة الشورى49[**لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ50|أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ**] وهنا كما نرى، قال تعالى[**لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**] يعني أنه هو الذي يتحكم في السماوات والأرض ومن فيهن، وجعلهما كيف شاء كما جاء في سورة البقرة117 [**بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ**]

ثم تابع قوله تعالى[**يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ**] فهو سبحانه شاء أن يخلق الأرض فخلقها، وشاء أن يخلق الإنسان فخلقه، لكن وضع لكل خلق أحكاما يخضع لها، فلا يمكن للأرض مثلا، أن تنبت الشجر بدون ماء، ولا يمكن للماء أن ينزل من السماء بدون سحاب، ولا يمكن للإنسان أن يتكاثر إلا عن طريق التزاوج بين الذكر والأنثى، ولهذا قال تعالى في سورة الشورى11 [**فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ**] فهو إذًا شاء أن تكون هذه القواعد أو الأحكام، والتي نعتها سبحانه بالفطرة، فهو تعالى قضى هذه الفطرة، ولا يمكن لأحد أن يبدّلها، ولهذا قال تعالى في سورةالروم30 [**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**] ولهذا عندما قال تعالى[**لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ**] تابع قوله

[يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ] ثم تابع قائلا[أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا] وكما نرى، فهو سبحانه جاء بالحالات التي شاء أن تكون على وجه الأرض، وهي إما أن يكون الإنسان عقيما، وإما أن ينجب ذكورا وإما إناثا، وإما أن ينجب الاثنين معا، ولا توجد على وجه الأرض حالة أخرى غير هذه الحالات، ولن يستطيع الإنس والجن إيجادها.

فإن كان الإنسان عقيما، فهذه من الحالات التي شاء سبحانه أن تكون، وإن استطاع العقيم تبديل حالة العقم بحالة الخصوبة بأي وسيلة كانت، وأنجب ذكرا أو أنثى، أو الاثنين معا، فهو لم يخرج عن الحالات التي شاء الله تعالى أن تكون، ولا يستطيع، وبالتالي لم ينفطر، أي لم يخرج عن مشيئة الله، ولهذا قال تعالى في سورة الأنعام79 [إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ] يعني جعل للسماوات والأرض منطقا حسب لسان العرب، كما شاء هو سبحانه، فلا يمكن للإنسان أن يُرزَق بأولاد دون أن يسعى لذلك، أي يتخذ أسبابا، ولا يمكن للإنسان أن يكون عقيما إلا إذا وُجد الأسباب لذلك، وقد يتسبّب فيها بنفسه هو، أو يُتَسبب له بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ولهذا عندما قال تعالى في سورة يس 47[وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ] تابع سبحانه قائلا[قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ] أي ظن بعضهم بأن الله تعالى هو الذي اختار بعض الناس فجعلهم فقراء، وبالتالي وجب عليهم أن يظلوا فقراء، وذلك لأنهم لم يعقلوا معنى مشيئة الله تعالى.

فمشيئة الله تعالى، هي ما فطر عليه سبحانه السماوات والأرض كيف شاء هو، وهو الذي ننعته بالمنطق، والذي يخضع له كل الكون ومن فيه، والإنسان حر في اختياراته حسب رغبته وإمكانياته، لكن داخل هذا المنطق الذي فطره تعالى، ولا يمكن أن يخرج عنه، ولن يستطيع، ولهذا قال تعالى في سورة التكوير29[وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ] فالإنسان يشاء هو كذلك ويختار، لكن طبقا لمشيئة الله تعالى، فإن كان هناك عقيم، فذلك لأن الله تعالى شاء أن يكون العقم، فإن عالج العقيم نفسه وأنجب ذكرا، فذلك لأن الله تعالى شاء أن يكون هناك من يُنجب ذكرا، وإن أنجب أنثى، فذلك لأن الله تعالى شاء أن يكون من يُنجب أنثى، وإن أنجب ذكرانا وإناثا، فذلك لأن الله تعالى شاء أن يكون من ينجب ذكرانا وإناثا، فالإنسان غير مُسير في حياته ورزقه، وله الاختيار في ذلك حسب رغبته، وما توفر لديه من آليات،

لكن اختياره مقيّد بما شاء تعالى وفطره، أي المنطق، ولهذا قال تعالى في سورة التوبة51[قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ] وذلك لأن الله تعالى فطر السماوات والأرض كيف شاء، فوضع منطقا بمشيئته، فكتب أن يكون في هذه الأرض العقم والإنجاب، إما ذكر، أو أنثى، أو الاثنان معا، وليس هناك حالة أخرى، وأيّ حالة وقع فيها الإنسان فهي ممّا أوجب تعالى للإنسان، أي كتب له، وليس مما أوجب عليه، أي كتب عليه سبحانه، فهو عز وجل لم يكتب على زيدٍ العقم وعلى عمر الخصوبة، ولكن كتب أن يكون العقم والخصوبة، ولكل واحد الحرية في تبديل حالة مكان حالة حسب رغبته وما لديه من إمكانيات إن هو استطاع ذلك، ولهذا قال تعالى[قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا] ولم يقل – ما كتب علينا –

و قال تعالى في سورة آل عمران129[وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ] يعني هو الذي يتحكم في كل شيء، وبالتالي هو الذي يضع الأحكام كيف يشاء، ومنها أنه هو الوحيد الذي يغفر الذنوب لمن يستحق المغفرة، وهو الوحيد الذي يعذب من يستحق العذاب كما جاء في سورة آل عمران135[وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ] ولم يمنح هذه الرخصة لأيّ بشر أو ملك، ولهذا قال تعالى في سورة النساء123[لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا124وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا] ولهذا وضع تعالى الاختيار لعباده فيما شاء هو أن يكون، أي الاختيار بين الجنة والنار، ولهذا قال تعالى في سورة الكهف29[وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ]

2- القضاء: فالله تعالى قال في سورة البقرة200[فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا] وهنا كما نرى، قال تعالى[فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ] يعني أنهيتم مناسككم حسب ما فرض هو عز وجل، وقال تعالى في سورة النساء103 [فَإِذَاقَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا] وهنا كما نرى، قال تعالى[فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ] يعني أنهيتم الصلاة حسب ما أمر تعالى، وقال كذلك في سورة القصص28[قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ] وهنا كما نرى، قال تعالى[أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ] يعني أيما الأجلين أنهى مدته حسب الاتفاق، وقال تعالى في سورة البقرة117[بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ

لَهُۥ كُن فَيَكُونُ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا] يعني إذا اتخذ قرارا نهائيا حسب مشيئته، ثم تابع قائلا[فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ] يعني يجعل له الأسباب ليخرج للوجود كما جاء في سورة القمر49[إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ] وقال تعالى في سورة الأنعام8[وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى [لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ] يعني لوقع ما كان من الواجب وقوعه حسب ما شاء تعالى، وانتهى الريب، ولهذا نحن ننعت المحكمة التي تصدر الأحكام بدار القضاء، أي المكان الذي يُنهى فيه الخصام والنزاع حسب ما استُدلّ به من الحُجج، وقال تعالى في سورة يوسف41[يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ] وهنا كما نرى، قال تعالى [قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ] يعني تبيّن تأويل الرؤيا حسب ما جاءت به من دلالات، فدلالة كلمة القضاء هي النهاية الحتمية للشيء حسب استعماله، أو النتيجة الفرضية للفعل حسب ما استُعمِل له من أسباب.

3- القدر: فالله تعالى قال في سورة العنكبوت62[ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَيَقْدِرُ] وكلمة يقدر جذرها اللغوي هو فعل قدر، فنقول قدر على رفع الطاولة، يعني أمكنه رفع الطاولة، فهو إذًا استعمل أسبابا ليرفع تلك الطاولة ولم تُرفع لوحدها، فدلالة فعل قدر إذًا، هي استعمال أسباب للوصول إلى الشيء أو إيجاد أسباب للوصول لنتيجة ما، فعندما قال تعالى[ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ] تابع قائلا[وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ] فهذا يعني أن الله تعالى يمدّ الرزق لمن يشاء من عباده، ويجعل الأسباب والإمكانيات ليُمكن للإنسان الاستفادة من ذلك الرزق، ولهذا قال تعالى[وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ] أي الرزق، وليس العباد.

فالله تعالى ينزّل الماء من السماء، وهو نوع من الرزق لبعض العباد، ولهذا عندما قال تعالى[ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ] تابع سبحانه قائلا[لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ] ويضع الأسباب للانتفاع من ذلك الرزق، ومن هذه الأسباب الزراعة مثلا، والتي شاء تعالى أن تكون عبر اختلاط الماء بالأرض، ولهذا قال تعالى[وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ] لكن الإنسان يختار من هذه الأسباب ما يشاء حسب رغبته، والإمكانيات المتوفرة لديه، وهكذا يحقّ لله تعالى أن يحاسبه حسب اختياره، ولهذا قال تعالى في سورة النحل67[وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ]

فعندما قال تعالى في سورة الشورى50[أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا] ختم الآية بقوله[إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ] وذلك لأن هناك حالات عديدة، ويمكن للإنسان

تبديل حالة مكان حالة، لكن عندما قال تعالى في سورة الكهف 45 [وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ] ختم الآية سبحانه بقوله[وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا] وهنا كما نرى، قال تعالى[مُّقْتَدِرًا] ولم يقل - قديرا – وذلك لأنه يتكلم سبحانه عن حالة واحدة حدّد لها منطقا معينا، فهو إذًا فرض هذه الحالة، وليس للإنسان فيها الاختيار، فهو الذي شاء أن ينزل الماء من السماء، وشاء كذلك أن يخرج النبات عند اختلاط ماء السماء بالأرض، وشاء أيضا أن يصير ذلك النبات هشيما، ولا يمكن بأيّ حالة أن يظلّ مخضرّا إلى الأبد، فهو الذي إذًا قدّر وليس قدر، يعني افتعل الأسباب والإمكانيات لتكون نتيجة معيّنة ولا يمكن تغييرها، فهو إذًا مفتعل أي مقتدر، ولهذا قال تعالى في سورة النمل57 [فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[قَدَّرْنَٰهَا] ولم يقل – قدَرنا لها – أي هو المقتدر وليس القدير، وذلك لأنه هو الذي تسبّب في طريقة هلاك قوم لوط، وشاء أن تُهلك امرأة لوط بنفس الطريقة بسبب خيانتها بعلها.

وقال تعالى في سورة يس39 [وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ] وهنا كما نرى، قال تعالى[قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ] وذلك لأنه سبحانه هو الذي تسبّب في أن يكون القمر منازل، أي وضع أقدارا لقضاء معيّن كما شاء هو تعالى، وذلك لكي يستطيع الأنسان أن يعلم عدد السنين، ولا يمكن بأيّ حالة من الحالات تغيير هذه النتيجة التي شاء أن تكون، ولهذا قال تعالى في سورة يونس5 [هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ]

فدلالة كلمة القدر إذًا هي الأسباب والإمكانيات، ودلالة فعل يقدر هي توفير الأسباب وإيجادها للوصول إلى نتيجة ما، ودلالة القضاء كما تبيّن، هي النهاية الحتمية أو النتيجة المفترضة حسب ما استُعمِل من أسباب، وكما نعلم لا يمكن أن تكون نهاية لشيء أو نتيجة لفعل ما، إلاّ إذا اتخذنا الأسباب لذلك، فلا يمكن أن يكون الفقر إلاّ إذا وُجدت الأسباب التي تؤدي إلى ذلك، ولا يمكن أن تكون العافية إلا إذا اتخذنا أسبابا لذلك، ولهذا وجب أن نقول القدر والقضاء، وليس القضاء والقدر، ولهذا قال تعالى في سورة القمر49 [إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ] يعني أن كل شيء خلقه تعالى، فهو جعل له أسبابا لكي يخرج إلى الوجود، أي القدر ليكون القضاء، فالله تعالى أمر أن يكون بشر في الأرض بالكلمة، ثم وضع أسبابا لكي يُخلق، فهو خلقه تعالى

بأشياء مادية وأولها التراب، وقد ذكر سبحانه باقي المواد في القرآن كما جاء في سورة الطارق6[فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ 6خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ7يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ] حتى يستطيع الإنسان التوصل بالعلم كيف بدأ سبحانه الخلق، ولهذا قال تعالى في سورة العنكبوت 20[قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ]

ولهذا وجب علينا أن نؤمن بالقدر والقضاء، أي نؤمن بأن النتيجة مقيّدة بالأسباب التي نتخذها نحن بمحض إرادتنا، فإن كانت نتيجة حسنة فذلك لأننا اتخذنا ما هو حسن من الأسباب، وبالتالي اتبعنا ما أمر به تعالى، ولهذا قال سبحانه في سورة النساء79 [مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ] وإن كانت نتيجة سيئة، فذلك لأننا اتخذنا ما هو سيء من الأسباب، وبالتالي اتبعنا أهواءنا، ولهذا تابع تعالى قائلا[مَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ] وبما أن الله تعالى أوجد السيء والحسن كما جاء في سورة الذاريات49[وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ] وترك الاختيار للإنسان في أخذ الأسباب حسب رغبته، فإما أن تكون النتيجة حسنة واما سيئة، ولا يمكن أن تكون نتيجة أخرى، ولهذا قال تعالى في سورة التوبة51[قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ] وبالتالي، وجب على الإنسان تحمّل نتيجة ما اختاره من الأسباب ولا يحقّ له أن يلوم الله تعالى، فيقول ربي لما كتبت عليّ هذا، لأنه لم يقدّر له تعالى ذلك وانما الإنسان قدّره لنفسه، أو قُدّر له، أي افتعل الأسباب أو افتُعلت له، ولهذا قال تعالى في سورة الحج11[وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ]

فالله تعالى أمر بأن يكون الفقر والغنى، والسعادة والشقاء، والمرض والعافية، أي كتب لنا كل هذه الأشياء ولم يكتبها علينا، فشاء أن يكون الفقير والغني، والسعيد والشقي، والمريض والمعافى، وقدر لكل هذه الأشياء أي وضع أسبابا تؤدي إليها يعني القدر، وترك الحرية للإنسان ليقدّر لنفسه، حتى يكون مسؤولا على نتيجة ما وصل إليه، أي القضاء حسب ما استعمل من أسباب لذلك، ولا يلومنّ إلاّ نفسه وبالتالي يحقّ عليه الحساب يوم القيامة، ولهذا عندما قال تعالى في سورة البقرة281[وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ] تابع سبحانه قائلا[ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

ليلة القدر

قال الله تعالى في سورة القدر1[إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ2وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ3لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ4تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ5سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ] وهنا كما نرى، قال تعالى[إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ] والهاء كما نعلم ضمير متصل دلالة على القرآن. لكن الكل يعلم بأن القرآن لم ينزل دفعة واحدة، ولكن دام تنزيله حوالي 23 سنة، ولهذا قال تعالى في سورة الفرقان32[وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا] لكن في هذه الآية قال تعالى[لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ] ولم يقل – لولا أنزل عليه القرآن – ونفس الشيء في سورة الشعراء 192 [وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ] قال تعالى[لَتَنزِيلُ] ولم يقل – إنزال - وتابع تعالى قائلا[193نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ] وهنا كذلك قال تعالى[نَزَلَ] ولم يقل – أنزل –

وبما أن الله تعالى أحكم آياته، وجعل لكل كلمة دلالتها، فوجب أن نبيّن دلالة فعل أنزل، لنعلم لماذا قال تعالى[إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ] ولم يقل – نزلناه في ليلة القدر؟ ودلالة فعل نزل، لنعلم لماذا قال تعالى[نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ] ولم يقل – أنزل به الروح الأمين -؟

فالله تعالى قال في سورة الزمر6[وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ] وهنا كما نرى، قال تعالى[أَنزَلَ لَكُم] والكل يعلم بأن الأنعام لم تنزل من السماء وانما خُلقت في الأرض، وقال تعالى في سورة الأعراف26[يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ] وهنا كذلك قال تعالى[أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ] ونحن نعلم بأن ما ذكره تعالى في هذه الآية لم ينزل علينا من السماء وإنما أمر به تعالى، فهو سبحانه أمر بأن تكون الأنعام فأنزل أمره أي كلمته، فكانت هناك أسباب لتُخلق هذه الأنعام، وقد يأخذ خلقها مدة زمنية، وقد تدوم آلاف السنين أو أقل، فدلالة فعل أنزل هي نزول أمر الله تعالى، يعني كلمته كما جاء في سورة البقرة117[بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ] ولهذا قال تعالى في سورة آل عمران7[هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ] والكل يعلم عندما نزلت هذه الآية لم يكن القرآن قد اكتمل تنزيله، ولهذا قال تعالى [أَنزَلَ عَلَيْكَ

ٱلۡكِتَٰبَ] ولم يقل – نزل عليك – يعني أن الله تعالى أنزل أمره بأن يكون الكتاب على ذلك النحو.

والله تعالى قال في سورة البقرة23[وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ] وهنا كما نرى، قال تعالى[مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا] ولم يقل – أنزلنا – وذلك لأنه يتكلم عن القرآن الذي علم به البشر، فهو إذًا خرج للوجود ولم يعد كلمة فقط أي أمرا، ولكن صار قولا يعلمه الناس، فدلالة فعل نزل هي نزول الملائكة بما أمر تعالى لإخراجه للوجود، ولهذا قال تعالى[نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ] ولهذا قال تعالى كذلك في سورة الإسراء106[وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ] يعني جعله فرقا ولم ينزله جملة واحدة، ولهذا تابع قائلا[لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ] ثم ختم الآية قائلا[وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا] أي نزل به الروح الأمين على محمد ص حسب الوقائع ليعلمه الناس كما جاء في سورة الفرقان32[وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا] وهكذا يتبيّن بأن القرآن أنزله تعالى في ليلة القدر، ودام تنزيله وليس إنزاله 23 سنة

فدلالة الإنزال إذًا هي نزول الملائكة بأوامر الله تعالى من عنده، ودلالة التنزيل هي نزول الملائكة بتلك الأوامر إلى الأرض لتخرج للوجود لكي يعلمها الناس، ولهذا عندما ينزّل تعالى شيئا معلوما من السماء مباشرة، وليس كلمة فقط التي تحتاج إلى وقت معين لتكون حقا، فهو يبيّن ذلك كما جاء في سورة المائدة 114[قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ] وهنا كما نرى، قال تعالى[أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ] وذلك لأنه أنزل شيئا معلوما من السماء وليس كلمة، ولهذا قال تعالى في سورة يونس24[إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ] وذلك لأنه يتكلم سبحانه عن شيء معلوم ينزل من السماء مباشرة، ولهذا قال تعالى[أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ] ولم يقل – أنزلناه – فقط.

فعندما قال تعالى في سورة القدر1[إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ] فذلك دلالة على نزول أمره سبحانه، أي كلمته بإخراج القرآن للوجود، وكان ذلك في ليلة القدر، ولهذا تابع تعالى قائلا[فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ] والتي هي ليلة من ليالي شهر رمضان كما جاء في سورة البقرة185 [شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ] وتتنزّل فيها الملائكة بأوامر الله تعالى، وكما تبيّن بأن دلالة كلمة القدر هي الأسباب والإمكانيات، والتي باستعمالها يقدر أي يستطيع الإنسان الوصول لشيء ما أو نتيجة ما، وبما أن القرآن هو سبب يستطيع المرء أن يهتدي به إلى الصراط المستقيم كما جاء في الآية

السابقة[ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ] فليلة القدر إذًا هي ليلة جعلها تعالى لينزل فيها الأسباب والإمكانيات للوصول لما خلق سبحانه في أول الأمر، ولهذا قال تعالى في سورة فصلت9[قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ10وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ] وهنا كما نرى، عندما خلق تعالى الأرض تسبّب حسب مشيئته وعلمه في أقواتها، أي ما يحتاج الإنسان، وذلك إلى قيام الساعة، ولهذا ختم الآية بقوله سبحانه[سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ] فهو أمر أن يكون في الأرض معدن الحديد، ولهذا قال في سورة الحديد25[وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ] فجعل أسبابا لوجوده، وأمر أن تُخلق الأنعام كما جاء في سورة الزمر 6[وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ] فجعل كذلك أسبابا لوجودها، ولهذا قال تعالى في سورة القمر49[إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ] كما جعل أسبابا لخلق الشمس، وأسبابا لوجود مادة البترول في الأرض، لكنه تعالى جعل وقتا محدّدا يُنزّل فيه الأسباب والإمكانيات للوصول إلى ما قدّره من أقوات، وذلك حسب تطور الإنسان وازدياد عدده واحتياجاته، ولهذا أصبحنا نستخرج طاقات أخرى غير الطاقات التي كان يستعملها آباؤنا من قبل، كالطاقة الشمسية، مع أن الشمس كانت موجودة منذ أن خلق الله الأرض، لكن لم تكن قد نزلت الأسباب، أي العلم للوصول لتلك الطاقة.

ثم تابع قوله تعالى[وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ] وهنا يبيّن سبحانه عظمة تلك الليلة ولهذا تابع قائلا[لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ] لكن لماذا قال تعالى[خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ]؟ ولم يقل مثلا – خير من ألف ليلة – بما أنه يتكلم عن ليلة من ليالي شهر رمضان؟ وعن أيّ شهر يتكلم سبحانه؟ ولماذا قال تعالى[أَلْفِ شَهْرٍ] ولم يقل عددا آخرا؟ فهل الله تعالى جاء بعدد عشوائي؟ وهل يليق هذا بعظمة الله عز وجل؟ أوليس ما جاء به محمد ص هو من علم الله تعالى؟ وهل فعلا قيام ليلة القدر خير من صيام وقيام ألف شهر كما جاء عن سفيان الثوري عن مجاهد في تفسير ابن كثير؟ فهل الله تعالى ذكر في القرآن ما يدلّ على قيام ليلة القدر؟ أولم يقل سبحانه في سورة النحل89[وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ]؟ وفي سورة يوسف111[مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ]؟ فتصديقا لقوله تعالى وجب علينا أن نبحث داخل كتابه لكي نعلم لماذا قال سبحانه[خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ] ولم يقل غير ذلك.

فالله تعالى قال في سورة الحج47[وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ] يعني أن الله تعالى عندما قال في سورة الأعراف54[إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ] فهذا يساوي ستة آلاف من السنين بما نعدّ نحن على وجه الأرض، ولهذا قال تعالى في سورة السجدة5[يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ] وهنا كما نرى، يتكلم سبحانه عن الأمر الذي يدبره بين السماء والأرض ثم يعرج إليه في يوم، والذي يعادل ألف سنة عندنا نحن، وقال تعالى في سورة الرحمان29[يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ] وهنا كما نرى، قال تعالى[كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ] يعني أن الله تعالى يدبّر أمر من يسأله في السماوات والأرض كل يوم، فهناك أمر ينزل من السماء إلى الأرض، و أمر يعرج إليه، ولهذا قال تعالى[كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ] وبما أن اليوم عند الله تعالى يعادل ألف سنة عندنا، وبما أن كل سنة يكون فيها شهر رمضان، فهو عندما قال سبحانه[خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ] يعني أن هناك ألف شهر رمضان ليس فيه ليلة مباركة، أي ليلة القدر التي يُفرق فيها كل أمر، كما جاء في سورة الدخان3[إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ 4فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ] وإنما ليلة القدر التي تتنزّل فيها الملائكة من كل أمر، تأتي كل ألف سنة وليس كل سنة، وذلك لأن الله تعالى يدبّر كل يوم شؤون من في السماوات والأرض، والذي يعادل ألف سنة، لينزل ما يحتاجه الإنسان من أسباب وإمكانيات لاكتشاف ما قدّره تعالى منذ أن خلق الأرض حسب تطور الإنسان وكثرة عدده واحتياجاته، فالله تعالى لا يضع للإنسان برامجا لمدة سنة، أو خمس سنوات، أو عشر كما تفعل أكثر الدول، ولكن يضع سبحانه برامجا لمدة ألف سنة للعالمين.

فالله تعالى بعث موسى في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وألف سنة بعد ذلك أي القرن الرابع قبل الميلاد، بدأ اكتشاف العلوم كعلوم الرياضيات، والفلسفة، والمنطق، والفيزياء وما غير ذلك، وكان هذا كما يعلم الجميع على يد سقراط وأفلاطون وأرسطو، والذين ظهروا في القرن الرابع قبل الميلاد، وبعد ألف سنة أي القرن السابع الميلادي، بُعث محمد ص، وبعد ألف سنة أي القرن السابع عشر ميلادي، بدأ ظهور علوم أخرى كعلوم الكسمولوجيا، والتي أدّت إلى اكتشافات جديدة، كدوران الأرض على يد العالم الإيطالي غاليليو غاليلي، والذي أكدّ ما وصل إليه من قبله العالم الفلكي البولوني نيكولاس كوبرنيكوس، واكتشاف الجاذبية على يد العالم

الإنجليزي إسحاق نيوتن، واكتشاف نظرية النسبية العامة على يد العالم الألماني ألبرت أينشتاين، واكتشافات أخرى مما أدّى إلى النهضة الأوروبية، والتي أدّت إلى تقدّم المستوى الاجتماعي، وإلى ما وصل إليه الإنسان من علوم واكتشافات. وهكذا يتبيّن بأن كل ألف سنة يحدث تغيير على وجه الأرض ليستمرّ الإنسان في التقدم الفكري والحضاري والاقتصادي.

فالله تعالى يضع كل يوم عنده برنامجا للبشرية، والذي يعادل كل ألف سنة عندنا وبالتالي ليلة القدر أي الليلة التي تتنزّل فيها الملائكة بالأمر الذي دبّره تعالى، لا تكون إلاّ كل ألف سنة، وليس كل سنة التي تعادل جزء من الألف من اليوم عنده سبحانه، ولهذا قال تعالى[خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ] يعني هناك ألف شهر رمضان ليس فيه الليلة المباركة التي يُفرق فيها كل أمر، فنحن نحيي ذكرى ليلة القدر من شهر رمضان من كل سنة، ولكن لا تعادل بركة الليلة التي تتنزّل فيها الملائكة، ولهذا عندما قال تعالى [لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ] تابع قائلا[تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ] يعني الليلة التي تتنزّل فيها الملائكة بكل الوسائل التي يستطيع بها الإنسان الوصول إلى ما وضعه تعالى من أقوات منذ أن خلق الأرض، وذلك لمدة ألف سنة، ثم تابع قائلا[سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ] يعني عند نزول الملائكة في الليلة المباركة، والتي تأتي كل ألف سنة وليس كل سنة، سيعمّ السلام إلى أن يطلع الفجر، وهذا لن يكون إلا عند حلول القرن السابع والعشرين الميلادي، وهو ما يعادل القرن العشرين الهجري.

والله هو العليم الحكيم الخبير.

أجل وأجل مسمى - موتى وأموات

قال الله تعالى في سورة الأنعام2[هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[قَضَىٰٓ أَجَلًا] ثم تابع قائلا[وَأَجَلٌ مُّسَمًّى] فكلمة أجل الأولى منصوبة لأنها مفعول به، لكن كلمة أجل الثانية والتي جاءت مقرونة بكلمة مسمى، جاءت مرفوعة، وذلك ليبيّن سبحانه بأنه جعل أجلين لحياة الإنسان، ولكن لكل واحد حكمه، يعني أن الله تعالى قضى أجلا، وهناك أجل مسمى عنده، فالسؤال إذًا، ما هو هذا الأجل الذي قضاه؟ وما هو هذا الأجل المسمى الذي عنده؟

والله تعالى قال في سورة الشورى9[أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ] وهنا كما نرى، قال تعالى[يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ] لكنه قال في سورة البقرة28[كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ] وكما نعلم بأن كتاب الله تعالى هو من علمه، ولكل علم قواعده، ومن قواعد علمه سبحانه أن كل كلمة لها دلالتها مما يجعل كتابه تعالى قرآنا غير ذي عوج كمثل رجل سلما لرجل، فلهذا وجب علينا أن نتبيّن دلالة كلمة أجل، ودلالتها عندما تكون مقرونة بكلمة مسمى، ودلالة كلمة موتى، وكذلك دلالة كلمة أموات، وما هي العلاقة بين كلمتي أجل وأجل مسمى وكلمتي موتى وأموات.

فالله تعالى قال في سورة البقرة231[وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ] وهنا كما نرى، قال تعالى[فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ] يعني وصلن إلى نهاية مدة عدتهن التي فرضها تعالى، وقال تعالى في سورة الأعراف34 [وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ] وهنا كما نرى قال تعالى[وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ] يعني وقت محدّد، ثم تابع قائلا[فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ] يعني عندما يحلّ ذلك الوقت المحدّد، ولهذا قال تعالى[لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ] وهكذا يتبيّن بأن دلالة كلمة أجل هي حلول وقت نهاية حتمية لشيء ما.

وقال تعالى في سورة الرعد2[ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَسَخَّرَ

ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ] يعني جعلهما كيف شاء سبحانه، وجعل لكل منهما دوره كما جاء في سورة يونس5[هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ] ثم تابع قائلا[كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى] يعني جعل كليهما يسيران لوقت تكون فيه نهاية العالم، لكن الله تعالى هنا قرن كلمة الأجل بكلمة مسمّى، يعني أن الله تعالى جعل شروطا لتلك النهاية كما جاء في سورة التكوير 1[إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ] وفي سورة القيامة7[فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ8وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ9وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ] وهنا كما نرى، كلما تكلم سبحانه عن قيام الساعة إلاّ واستعمل أداة الشرط ‹إذا›، يعني أن نهاية العالم حتمية ولا تكون إلاّ بوقوع ما وضعه من شروط لذلك، ولا يمكن أن يغيّرها الإنسان لتفادي أو تأخير قيام الساعة، ولذلك استعمل سبحانه أداة الشرط ‹إذا› ولم يستعمل‹إن› وقد بيّنا الفرق بينهما في فقرة ‹الرجم› وجاء تعالى بالأفعال مبنية للمجهول دلالة على طبيعية ومنطقية وقوعها، فدلالة عبارة أجل مسمى هي حلول وقت نهاية حتمية لشيء طبق شروط ما، ولهذا في أية التداين كما تبيّن في فقرة ‹الربا› قال تعالى في سورة البقرة282[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ] يعني حلول وقت نهاية تنفيد أو إيجاد ما اشترط عليه المتداينون، وذلك لأن الله تعالى يتكلم في هذه الآية عن تجارة غير حاضرة.

فعندما قال تعالى في سورة الأنعام2[هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ] فذلك دلالة على أنه جعل أجلين حتميين لحياة الإنسان أجل قضاه تعالى، أي وقوع نهاية للحياة بسبب ما، وأجل مسمى عنده، أي وقوع نهاية للحياة طبق شروط وضعها هو تعالى، ولا يمكن للإنسان تغييرها، ولهذا لم يعطف سبحانه الجملة الأولى على الجملة الثانية، لأن الأجل الأول قضاه تعالى، أي كتبه لنا ولم يكتبه علينا، لكن لم يضع له شروطا معيّنة ليحين وقته، أما الأجل الثاني فهو جعل له شروطا منطقية، وليست متعمّدة تؤدّي إلى حلول وقته، ولهذا قال تعالى في سورة غافر67[هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] وهنا كما نرى، بيّن تعالى الشروط التي وضعها لحلول الأجل المسمى، فهو قال سبحانه[ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا] وهذه هي الأطوار التي يمرّ بها الإنسان إلى أن يصير شيخا، لكنه تابع قائلا[وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ] يعني هناك من يتوفى من قبل أن يصل إلى الشيخوخة وليس الكلّ، ثم تابع قائلا[وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى] يعني من لم يتوفّ قبل الشيخوخة يمكنه الوصول إلى الأجل مسمى، وهو

الذي ذكره تعالى في سورة النحل70[وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ] وهنا كما نرى، قال تعالى[يَتَوَفَّىٰكُمْ] يعني تكون نهاية للحياة، ثم تابع قائلا[وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا] يعني أن هناك، وليس الكلّ، من يصل إلى مرحلة أقصى العمر، والتي تكون من بعد الشيخوخة، وهي عندما يكبر الإنسان حتى يصل بطريقة طبيعية ومنطقية إلى مرحلة لا يعقل شيئا، وعندها يحين وقت الأجل المسمى، وهي الموت الطبيعية التي لا ينفع معها علاج، وذلك لأن جسم الإنسان وصل إلى آخر طور من أطوار الحياة.

فنهاية حياة الإنسان إذًا تخضع لأجلين:

- أجل يكون قبل بلوغ الإنسان إلى آخر طور من أطوار الحياة، وهو الذي ننعته بالوفاة بلسان العرب، وهذا الأجل لم يضع له تعالى شروطا لحلوله، وانما قضاه فقط أي أوجب أن يكون، وشروط وقوعه تختلف، فقد يكون عبر قتل بأيّ وسيلة ما، أو مرض، أو ما غير ذلك الذي يؤدّي إلى توقف الإنسان عن التنفس والذي يمكن تأخيره أو تعجيله، ولهذا قال تعالى في سورة الأنعام61[وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً] يعني أن الله تعالى يرسل علينا إن شاء من يحفظنا من نهاية الحياة التي تكون قبل بلوغ الإنسان إلى أقصى عمره، وهذا بيّناه في فقرة <القسم> وقد يحفظ الإنسان كذلك نفسه أو أخاه الإنسان من هذا الأجل باتخاذ الأسباب لذلك، لأن الله تعالى أوجب أن يكون فقط، ولم يوجبه على عباده.

- وأجل مسمى، وهو الذي يحين عند توفر الشروط الطبيعية التي وضعها تعالى وهي بلوغ الإنسان إلى أقصى عمره، وهذا لا يكون إلاّ بعد الشيخوخة، ولهذا عندما قال تعالى[وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ] تابع قائلا[وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا] وهذا الأجل لا يمكن للإنسان تعجيله أو تأخيره أو اجتنابه، ولهذا عندما قال تعالى[وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ] تابع سبحانه قائلا[حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ] يعني عندما يحين الأجل المسمى لا ينفع حفظ الحفظة، ولا ينفع حفظ الإنسان لنفسه أو أخيه الإنسان، لأن ملك الموت قد حضر ليُرجع النفس إلى ربها، ولهذا قال تعالى في سورة المنافقون11[وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ]

والله تعالى قال في سورة البقرة72[وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَءْتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا] يعني أجل قبل الأجل المسمى، ثم تابع قائلا73 [فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ] ولم يقل - الأموات - وذلك لأنه يتكلم سبحانه عن توقف عملية التنفس عن إكراه، وبالتالي لم يصل الإنسان إلى أقصى عمره.

لكن الله تعالى قال في سورة البقرة28 [كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا] ولم يقل – كنتم موتى – ثم تابع قائلا[فَأَحْيَٰكُمْ] وذلك لأنه يتكلم سبحانه عن المرحلة التي لم يكن فيه الإنسان موجودا بعدُ على وجه الأرض كما جاء في سورة الإنسان1 [هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا] وهنا كما نرى، قال تعالى[لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا] يعني لم يكن هناك جسد ولا نفس (وليس الروح كما عهدنا، والتي لا علاقة لها بحياة الإنسان) ثم أوجد تعالى الجسد والنفس، ولهذا عندما قال تعالى[وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا] تابع قائلا[فَأَحْيَٰكُمْ] أي خلق جسدا وزوّجه بنفس لتحييه فصار الإنسان حيا، ثم بعد ذلك يموت الإنسان وليس يتوفى، وهو عندما ترجع النفس إلى ربها كما جاء في سورة الفجر27 [يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ28ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً] ليزُوّجها بجسدها الذي يبعثه تعالى يوم الحساب لإحياء الأموات مرة أخرى كما جاء في سورة التكوير7 [وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ8وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ9بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ] وهنا كما نرى، قال تعالى[ٱلنُّفُوسُ] ولم يقل – الأنفس – وذلك لأنه يتكلم عن نفس دون جسد في الحياة الآخرة، ولهذا عندما قال تعالى في سورة غافر11 [قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ] فهذا يعني بأنه لم يكن هناك وجود للجسد والنفس معا في الحياة الدنيا، وهذه موتة وجمعها أموات، ثم خلق تعالى جسدا فزوّجه بنفس، وهذه حياة، ثم افترق الجسد عن النفس فرجعت إلى ربها، وهذه موتة أخرى، ثم يبعث الله سبحانه ذلك الجسد فيزوّجه بنفسه، وهذه حياة أخرى.

والله تعالى قال في سورة الأنعام60 [وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ] وهنا كما نرى، الله سبحانه يتكلم عن النوم الذي يجعلنا نفقد وعينا بما يحيط بنا، وبعد ذلك نستيقظ، أي نُبعث مرة أخرى في الحياة الدنيا، ولهذا تابع قائلا[وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ] وهذه الحالة نعتها تعالى بالمنام كما جاء في سورة الصافات102 [قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ] لكن الله تعالى قال في سورة الزمر42 [ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى

لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا] وهنا كما نرى، يتحدث تعالى عن المنام الذي لا يُبعث صاحبه إلاّ بعد الحياة الدنيا.

وهكذا يتبيّن بأنه عندما يتوفى الله العباد فذلك دلالة على انفصال الإنسان عن الحياة الدنيا، وبالتالي خموده وسكونه، وهذه الحالة نعتها تعالى بالمنام، لكن هناك منام جزئي نفقد عنده وعينا فقط مما يجعلنا نُبعث مرة أخرى في الحياة الدنيا، وهناك منام كلّي نفقد فيه حياتنا ولا نُبعث إلاّ من بعد الحياة الدنيا.

وبما أن الله تعالى جعل أجلين للمنام الكلّي، أجلا قضاه وأجلا مسمى عنده، فهو بيّن سبحانه ماذا يقع عندما يكون هذا المنام عن أجل، وماذا يقع عندما يكون عن أجل مسمى، ولهذا قال تعالى في سورة الزمر42[ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[يَتَوَفَّى] يعني يُخمد الإنسان، أي يُسكنه فيصير في حالة المنام الكلّي، ولهذا تابع قائلا [ٱلْأَنفُسَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[ٱلْأَنفُسَ] وهي جمع لنفس الإنسان، ولم يقل النفوس التي هي كجمع للنفس لوحدها في الحياة الآخرة، ففي هذه الحالة أي المنام الكلّي، إما أن يكون لأجل مسمى أو لأجل، ولهذا عندما قال تعالى[ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ] تابع قائلا[حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى فِى مَنَامِهَا] يعني أن الله تعالى يُدخل الإنسان في حالة المنام الكلّي عند الأجلين معا، سواء عندما يحين الأجل المسمى الذي عنده، أو الأجل الذي قضاه، ثم تابع قائلا[فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ] يعني في الحالة الأولى، أي الأجل المسمى، يمسك النفس لأنها واكبت الإنسان إلى أقصى عمره، وهو أجلها للرجوع إلى ربها، ثم تابع قائلا[وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى] يعني في الحالة الثانية، أي الأجل، فهو سبحانه يتركها على وجه الأرض حتى حين الأجل المسمى، أي حلول الوقت الذي حدّده تعالى لكي ترجع إلى ربها، والذي كان من المفترض بلوغه الإنسان حيّا.

وهكذا يتبيّن بأن المنام الكلّي يكون عند حالتين، عندما يكون عن أجل مسمى، النفس تترك الجسم الذي كانت بداخله منذ أن خلقه تعالى لترجع إلى ربها راضية بمواكبتها ذلك الجسم إلى آخر طور من أطوار الحياة، وعندما يكون المنام الكلّي عن أجل، فالنفس تُكره على ترك الجسم الذي لم يستمر في الحياة للوصول إلى نهايته الطبيعية لتنتظر، بدون جسد في الحياة الدنيا، الأجل المسمى للرجوع إلى ربها برضاها.

فعندما قال تعالى في سورة البقرة72[وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰءْتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ] فهو سبحانه يتكلم هنا عن الموت (الوفاة) التي تأتي قبل الأجل المسمى، وبالتالي فالنفس تترك الجسم الذي دخل في منام كلّي وتبقى على وجه الأرض، ولهذا تابع قائلا[73فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[ٱلْمَوْتَىٰ] ولم يقل - الأموات -

وهكذا يتبيّن بأن دلالة كلمة الموتى، هي توقف الإنسان عن الحياة وبقاء نفسه تُرزق، أي موجودة في الحياة الدنيا، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة154[وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ] وذلك لأنهم موتى، أي أن أنفسهم مازالت على وجه الأرض لكن لا يشعرون بوجودها، ولهذا تابع سبحانه قائلا[بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ]

ودلالة كلمة الأموات، هي عدم وجود النفس في الحياة الدنيا، إما أنها لم توجد قطّ، وإما أنها وُجدت ثم رجعت إلى ربها بعد قضاء نحبها، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة28[كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ] ولهذا قال تعالى كذلك في سورة آل عمران169[وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ] وذلك لأن أنفسهم مازالت موجودة على وجه الأرض تنتظر الأجل المسمى، فبالتالي هم موتى وليسوا أمواتا، وذلك لأنهم قُتلوا ولم يصلوا إلى النهاية الطبيعية، مما جعل انفسهم تترك أجسامهم مكرهة قبل بلوغ أجلها للرجوع إلى ربها راضية بما قضاه تعالى، ومرضية من الله سبحانه.

فلكي يخلق الله تعالى الإنسان، أوجد جسدا ووضع فيه نفسا لبداية حياته، ثم جعل نهايتين حتميتين لتلك الحياة، واحدة تكون طبيعية حسب شروط وضعها تعالى لذلك ولا يمكن للإنسان تغييرها، وهي مرور الجسم بجميع أطوار الحياة إلى أن يبلغ إلى ما بعد الشيخوخة حتى يهرم ممّا يجعل الإنسان يُعمّر، وترجع حينها النفس إلى ربها، وهذا هو الأجل المسمى، وأخرى قضى تعالى أن تأتي قبل الأوان ، ولم يقضها على الإنسان، وإنما الإنسان هو الذي يُقدّرها أو تُقدّر له، وبالتالي يستطيع هذا الأخير تأخيرها أو تعجيلها أو اجتنابها، وهذه الحالة تكون قبل وصول الإنسان إلى آخر طور من أطوار الحياة التي ذكرها تعالى، ممّا يجعل الإنسان يُنقَص من عمره، وهذا هو الأجل الذي قضاه تعالى، وبالتالي النفس تترك الجسد عن إكراه وتنتظر على وجه الأرض النهاية الحتمية التي كان من المفترض للإنسان بلوغها حيّا، لكي

ترجع إلى ربها برضاها ويرضى عنها سبحانه كما جاء في سورة الفجر27[يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ28ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً] ولهذا قال تعالى في سورة فاطر11 [وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ] يعني أن الله تعالى كتب بأن يكون من يبلغ إلى الأجل المسمى الذي جعله طبيعيا وحتميا، فيكون من الأموات أي يُعمّر، ومن لا يبلغه لأسباب اصطناعية، فيكون من الموتى أي يُنقَص من عمره.

فالأجل إذًا هو خاصّ بالموتى، وذلك لأن الإنسان دخل في حالة منام قبل النهاية الطبيعية، وذلك سرمدا إلى أن يُبعث يوم القيامة، وخرجت النفس منه مكرهة على البقاء لوحدها على وجه الأرض لتنتظر أجلها الذي حدّده تعالى لذلك، وبالتالي فالموتى هم من توقف جسمهم عن الحياة الدنيوية وبقيت أنفسهم حية تُرزق في الدنيا، ولهذا قال تعالى في سورة آل عمران169[وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ]

والأجل المسمى هو خاصّ بالأموات، وذلك لأن الإنسان دخل في حالة منام لبلوغه النهاية الطبيعية، وذلك سرمدا أيضا إلى أن يُبعث يوم القيامة، ممّا يجعل النفس ترجع إلى ربها راضية بمواكبتها الإنسان حيّا حتى حين حضور ملك الموت لأخذها، وبالتالي فالأموات هم من توقف جسمهم عن الحياة ولم يعدْ لأنفسهم من وجود في الحياة الدنيا، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة28[كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

خلق من ماء دافق

قال الله تعالى في سورة الطارق5[فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ6خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ7يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ8إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ] الكل يعلم بما جاءت به كتب التفاسير عن قوله تعالى[خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ7يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ] والذي نُسب إلى ولادة الإنسان وليس خلقه أول مرة، ومن هذه التفاسير ما جاء به ابن كثير مثلا في تفسيره فقال: في قوله تعالى[خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ] يعني المني يخرج دفقا من الرجل والمرأة، وفي قوله تعالى[يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ] عن ابن عباس: صلب الرجل وترائب المرأة أصفر رقيق، لا يكون الولد إلا منهما، وكذا قال سعيد بن جُبير وعكرمة وقتادة والسدي وغيرهم، وهناك قول آخر لابن عباس، دائما عن تفسير ابن كثير قال: هذه الترائب، ووضع يده على صدره، لكن الضحاك قال: الترائب بين الثديين والرجلين والعينين.

وكما نرى، هنا كذلك وقع الاختلاف بين آبائنا، وكلما وُجد اختلاف في تفسير آيات الله تعالى، فذلك لعدم اتباع القواعد التي وضعها سبحانه لتدبر القرآن، ولهذا قال تعالى في سورة النساء82[أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا]

الكل يعلم حسب ما توصل إليه علم الطب، والذي هو الحقيقة المطلقة، بأن مني الرجل يتكون من سائل وحيوانات منوية، فالحيوانات المنوية تصنعها الخصيتان، والسائل المنوي، والذي بواسطته تحيا تلك الحيوانات المنوية، تصنعه البروستات، ولا علاقة لهم بظهر الرجل، ولهذا نعت تعالى المني بماء مهين كما جاء في سورة السجدة8[ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ] وهنا كما نرى، قال تعالى[نَسْلَهُۥ] لأنه يتكلم سبحانه عن التوالد، ولهذا تابع قائلا[مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ] وهنا كما نرى، قال تعالى[مَّآءٍ مَّهِينٍ] وكلمة مهين جذرها اللغوي هو فعل مهن يعني صنع، وبما أن الله تعالى قال في سورة الأنبياء30[وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ] فهو سبحانه جعل للإنسان الذكر أعضاء تصنع المني لكي يكون النّسل، ولا علاقة لهم بالظهر، والمرأة كذلك جعل لها تعالى أعضاء لصنع البويضات، والتي تقع على جانبي الرحم، ولا علاقة لهما بصدرها، وهذا يعلمه في أيامنا نحن الصغير والكبير ولم يكن يعلمه آباؤنا.

فعندما قال تعالى في سورة البقرة170 [وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ] فذلك لأن عقل الإنسان يتطور حسب تطور العصور، وهذا ما بيّنه سبحانه في سورة التين، وبالتالي لا يمكن لمن عاش في القرن العشرين الميلادي مثلا، أن يعقل مثل من يعيش في القرن الواحد والعشرين الميلادي، وإلاّ فسيكون من المعجزات، لأنه خرج عن المنطق، فآباؤنا كانوا يتدبرون القرآن حسب مستوى فكر الحقبة التي كانوا يعيشون فيها، والآليات التي كانت متوفرة لديهم آنذاك، ولهذا قال تعالى في سورة الأنعام98 [لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ] وكيفية خلق الإنسان لأول مرة وطريقة تناسله، كانت من الأنباء بالنسبة لهم، كما هي كثير من الأنباء التي جاءت في القرآن، ولكل نبأ زمان يستقر فيه، يعني يعلم فيصير خبرا، ولهذا عندما قال تعالى[لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ] تابع قائلا[وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ] وها نحن الآن نعلم بأن المني لا يخرج من ظهر الرجل ولا من صدر المرأة.

فلكي لا نجعل الناس تصدّ عن سبيل الله تعالى، وتُكذّب برسالة محمد ص بسبب تفاسير تناسب حقبتها، وجب أن نتدبر قوله تعالى[فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ6خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ7يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ8إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ] لنعلم هل فعلا هذه الآيات تتحدث عن كيفية تناسل الإنسان؟ وهل فعلا ما قاله آباؤنا، والذي يناقض ما اكتشفه علم الطب، هو الحقيقة المطلقة؟ فنجعل قولهم من المسلمات ونؤمن به، ونكفر بما جاء به العلم، وبالتالي نجعل الناس تسيء الظن بالله العلي العظيم، وتُكذّب برسالة محمد ص؟

فالله تعالى قال[فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ] يعني يبحث لكي يعلم، ثم تابع قائلا[مِمَّ خُلِقَ] وهنا كما نرى، جاء تعالى بالفعل في الماضي المبني للمجهول، وذلك ليبيّن سبحانه الطريقة الطبيعية التي خُلق بها الإنسان في أول الأمر كما جاء في سورة الأنبياء37 [خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ] وذلك ليبيّن سبحانه هنا كذلك بأن الطريقة التي خلق بها الإنسان هي التي أدّت إلى كونه مستعجلا في الوصول إلى مبتغاه، ولهذا قال تعالى[مِمَّ خُلِقَ] ولم يقل - مم خلقه -

فعندما قال تعالى[فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ] فهو سبحانه يحثّ الإنسان على اكتشاف كيفية خلقه لأول مرة من التراب كما جاء في سورة فاطر11 [وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ] وليس على اكتشاف كيفية تناسله، والتي تكون عبر نطفة من مني كما جاء في سورة

القيامة37[أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ] وكذلك في سورة الإنسان2[إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا] وهنا كما نرى، قال تعالى[إِنَّا خَلَقْنَا] ولم يقل خُلق.

ثم تابع قوله تعالى[خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ] وهنا كذلك استعمل سبحانه فعل خلق في الماضي المبني للمجهول كتتمّة لسياق الآية، ولهذا قال تعالى[مِن مَّآءٍ] ولم يقل من ماء مهين أو مني، لأنه يتكلم سبحانه عن بداية خلق الإنسان، والتي كان من أهم عناصرها الماء الذي جعل منه تعالى كل شيء حيّ، ولهذا عندما قال تعالى[مِن مَّآءٍ] تابع قائلا[دَافِقٍ] ولم يقل مدفوق أو يُدفق، وذلك لأنه يتكلم سبحانه عن ماء جاري الدفقان، يعني يفجر بقوة بطريقة متواصلة، وليس ماء يُدفق من طرف شخص ما لمدة معيّنة.

ثم تابع تعالى قوله[يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ] وهنا كما نرى، قال تعالى [يَخْرُجُ] يعني كان في مكان ما وخرج منه، وفعل الخروج في استمرار، ولهذا استعمل تعالى فعل المضارع، ثم تابع تعالى قائلا[بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ] يعني خروج الماء يكون من بين شيئين، وهما الصلب والترائب، وليس خروج ماء من الصلب وخروج ماء آخر من الترائب.

فالله تعالى قال في سورة الروم20[وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ] وهنا كما نرى، قال تعالى[خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ] ثم قال سبحانه في سورة السجدة7[ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ] ولم يقل من تراب، وذلك لأن الماء كما نعلم هو أصل الحياة، ولهذا قال تعالى في سورة النور45[وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ] وعندما يُضاف الماء إلى التراب يصير هذا الأخير طينا، فالله تعالى لم يجعل التراب لوحده هو بداية الخلق، ولكن اختلاط الماء بالتراب هو الذي كان سببا في بداية خلق الإنسان، ولهذا وجب أن نعلم لماذا عندما قال تعالى[خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ] تابع سبحانه قائلا[يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ]

فكلمة الصّلب جذرها اللغوي هو فعل صلب، فنقول صلب الشيء، يعني صار قويا ولم يعد ليّنا، وكما نعلم الحديد هو من المواد الصلبة كما هو الفحم، وجسم الإنسان يتكون من هذه المعادن وأخرى، وكلمة ترائب هي جمع لكلمة تِرابة كما هي قلائد جمع لقلادة، والتِرابة هي نوع من التراب الذي يحتوي على مواد عضوية كالفسفات مثلا، والبروتينات وما غير ذلك، وجسم الإنسان يتكون كذلك من هذه المواد وغيرها.

فعندما قال تعالى[خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ] فهذا يعني أن الماء الذي اختلط مع التراب فصار طينا، كان يأتي من باطن الأرض، وليس من السماء مباشرة، ممّا يجعله يحتوي على مواد صلبة كالحديد والفحم، ومواد كيماوية عضوية وغير عضوية، وبعد ذلك يبس ذلك الطين فصار صلصالا واسودّ لونه، وصار نتنا بسبب تواجد البكتيريا، والتي تعدّ من أولى أشكال الحياة التي ظهرت على سطح الأرض، ولهذا قال تعالى في سورة الحجر26[وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ] وهنا يبيّن تعالى بأن الإنسان خُلق كما يخلق الدود من الجثة عندما تصير نتنة، إلاّ أن الإنسان خُلق من تراب وليس من لحم، ولهذا قال تعالى في سورة الروم20[وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ]

فالله تعالى أمرنا بالبحث عن كيفية بداية الخلق، ومنها خلق الإنسان كما جاء في سورة العنكبوت20[قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ] وذلك لأنه جعل لكل شيء سببا لخلقه، ولم يخلقه من عدم كما جاء في سورة القمر49[إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ] حتى يستطيع البشر الوصول علميا إلى كيفية خلق الكون ومن فيه، وبالتالي يعترف بعظمة علم الله تعالى، ولهذا عندما قال عز وجل في سورة فاطر 27[أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ28وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ] تابع سبحانه قائلا[إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ] وهنا كما نرى، استعمل سبحانه كلمة العلماء معرّفة، وذلك لأنه يتكلم عن العلماء الذين يكتشفون علوما توصلهم إلى معرفة حقيقة خلق الله تعالى، كعلم الفيزياء، وعلم الرياضيات، وعلم الكوسمولوجيا، وعلم الطب، وليس علماء الدين، لأن الدين علم الله تعالى، وهو الذي وضع قواعده سبحانه، والذين يتدبرونه ويفقهون ما بداخله، وليس ما بداخل الكتب الأخرى، نعتهم تعالى بالذين أوتوا العلم، أي فقهوا علم الله سبحانه، فهم إذاً من الفقهاء وليسوا من العلماء، لأنهم لم يكتشفوا علم القرآن، ولهذا أمرنا تعالى بتدبره كما أنزله على رسوله.

فعندما قال تعالى[فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ6خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ7يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ] فهو سبحانه يتكلم عن كيفية بدء خلق الإنسان، وليس كيفية تناسله، ليبيّن سبحانه المواد الطبيعية التي خُلق منها جسم الإنسان أول مرة، وهذا ما توصّل إليه العلم الذي اكتشفه البشر، ولهذا تابع قائلا[إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ] يعني كما خلق الله تعالى الإنسان أول مرة في الحياة الدنيا، قادر على أن يخلقه مرة أخرى في الحياة

الآخرة، ولهذا قال تعالى في سورة الأنبياء104 [يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ] وكذلك في سورة طه55 [مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ]

فالله تعالى بريء مما نُسب إليه ورسوله، وأما آباؤنا فهم قالوا ما عقلوه آنذاك، والذي كان يُعدّ من الصواب، لأنه كان يناسب مستوى فكر حقبتهم، والآليات المتوفرة لديهم، ولهذا وجب علينا أن ندع أقوالهم جانبا حتى لا نجعل الناس تُكذّب برسالة محمد ص، ونتدبر القرآن بعقل القرن الواحد والعشرين، والذي يستوعب دوران الأرض حول الشمس، وسرعة الضوء، والبعد الثلاثي والرباعي، وكذلك كيفية تكوين المني لدى الرجل، والبويضات لدى المرأة.

والله هو العليم الحكيم الخبير.

إنا أعطيناك الكوثر

قال الله تعالى في سورة الكوثر1[إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ2فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ3إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ] كما يعلم الجميع، اختلف آباؤنا هنا كذلك في تعريف الكوثر، فمنهم من قال بأنه نهر في الجنة كما رواه الإمام أحمد حسب ما جاء به ابن كثير في تفسيره، لكن ابن عباس جاء بقولين، دائما حسب تفسير ابن كثير، أحدهما نهر في الجنة، والآخر الخير الكثير، أما عكرمة فقال بأن هو النبوة والقرآن وثواب الآخرة.

فكما نعلم، القرآن هو من علم الله تعالى، وكل علم له قواعده، ومن القواعد الأساسية للقرآن هي اللغة العربية، والأساليب التي استعملها سبحانه لإحكام آياته، ومنها أنه جعل تعالى لكل كلمة دلالتها الخاصة بها لكي لا يكون كتابه قرآنا ذا عوج.

فالله تعالى قال[إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ] وهنا كما نرى، استعمل سبحانه فعل أعطى وليس فعل آتى، وذلك لأن لكل فعل دلالته الخاصة به، ولهذا جاء تعالى بأمثلة لكي نميّز بينهما، فهو قال سبحانه في سورة التوبة29[حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[يُعْطُواْ] وذلك لأنه يتكلم عن ما هو مادّي، ولهذا استعمل سبحانه فعل أعطى كما هو الشأن في سورة التوبة58[وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ] وهكذا يتبيّن بأن دلالة فعل أعطى هي التمكين من ما هو حق أو جزاء مادّي، ولهذا قال تعالى في سورة هود108[وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ] وكذلك في سورة النبأ36[جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا]

أما دلالة فعل آتى، فهي المجيء بما هو معنوي وليس مادّي، كنعمة أو رحمة أو أمر أو غير ذلك كما جاء في سورة الحشر7[وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ] يعني ما جاءكم به الرسول من أوامر من عند الله تعالى فاتبعوها، وما جاءكم به مما ينهى عنه فانتهوا، وكما جاء كذلك في سورة آل عمران79[مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ] ولهذا قال تعالى في سورة إبراهيم34 [وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ] وكذلك في سورة الكهف65[فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا] وهذا بيّناه كذلك في فقرة <دلالة فعل قطع>

فعندما قال تعالى[إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ] فذلك لأنه يتكلم سبحانه عن ما هو مادّي وفيه منفعة في الحياة الدنيا، ولهذا تابع قائلا[ٱلْكَوْثَرَ] وكلمة الكوثر هي صيغة مبالغة لكلمة كثير، يعني أن الله تعالى أعطى لمحمد ص كل ما ينفعه في الحياة الدنيا كي لا يحتاج لأيّ عمل يكسب به رزقه كما جاء في سورة طه132[وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ] ولهذا جعل تعالى أسبابا لذلك الرزق كما جاء في سورة الحشر7[مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ] وفي سورة الأنفال41[وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ] وفي سورة المجادلة12[يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] وهذا ما يوافق أحد قولي ابن عباس رحمه الله تعالى.

ثم تابع قوله تعالى[فَصَلِّ لِرَبِّكَ] وكما بيّنا بأن الصلاة تنقسم إلى نوعين، صلاة تقام حدّد تعالى أوقاتها، وعندما يأمر بها فهو يقول – أقم الصلاة - أو - أقيموا الصلاة – وهناك صلاة لا تقام وليس لها أيّ وقت محدّد، وتكون حسب طاقة المسلم، ولهذا نعتها تعالى بالصلاة الوسطى، وعندما يأمر بها سبحانه فهو يقول – اذكروا الله – وعندما أمر محمدا ص بالدعاء للناس والاستغفار لهم، قال في سورة التوبة84[وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم] يعني لا تدع لهم ولا تستغفر لهم.

فعندما قال تعالى[فَصَلِّ لِرَبِّكَ] فهذا يعني أن يصلَ ربه كما أوصى عيسى عليه السلام بقوله في سورة مريم31[وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ] ولم يقل – وأوصاني بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة – وذلك دلالة على أن الله تعالى أوصى عيسى بأن يصله بما أمر سبحانه كما جاء في سورة البقرة27[ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ] وهي الصلاة بصفة عامة، أي أن يقيم الصلاة، ويتلو آيات الكتاب، ويسبّح الله تعالى، ويدعوه ويستغفره، فقوله تعالى [فَصَلِّ لِرَبِّكَ] يعني أن يصل محمد ص ربّه بما أمر سبحانه أن يوصل، وهو إقامة الصلاة، وتلاوة القرآن، والتسبيح، والدعاء والاستغفار، وهذا ما جاء مفصّلا بقوله تعالى في سورة هود114[وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ] وفي سورة الإسراء78[أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ

مَشْهُودًا79وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا80وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا] وفي سورة العنكبوت45[ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ] وفي سورة غافر55 [فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ]

ثم تابع تعالى قوله[وَٱنْحَرْ] وهذا لا علاقة له بالذبح، وذلك لسببين رئيسين، أولهما أن الله تعالى عندما يأمر بذبح الأنعام فهو يقول كما جاء في سورة الحج36 [وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ] وليس اذبحوا - وذلك لأن الله تعالى لا يستعمل لسان العرب في كتابه، ولا يستعمل كلمتين مختلفتين ليأتي بنفس الدلالة، وإنما هذا من فعل البشر، وثانيهما أن الله تعالى لم يأمر بالاحتفال بعيد الأضحى، وإنما هو سنة نبوية، ولهذا قيل بأن أبا بكر ترك سنة الأضحية، كما هو الشأن لبعض الصحابة، حتى لا يظن الناس أنها واجبة.

فكلمة[وَٱنْحَرْ] جذرها اللغوي هو فعل نحر، فنقول نحر الأمور علما، يعني أتقنها، ولهذا نقول فلان نحر، يعني حاذق ويتقن عمله، فعندما قال تعالى[فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ] فهذا يعني بأن يصل محمد ص ربّه بما أمر سبحانه من إقامة الصلاة، وتلاوة آيات الكتاب، والتسبيح، والدعاء والاستغفار، وأن يتقن ويخصّص أغلب وقته لذلك، وكمثال آخر على هذا ما جاء في سورة النصر3[فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا]

ثم تابع قوله تعالى[إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ] وهنا كذلك وجب أن نضع جانبا ما عهدناه من تفاسير لهذه الآية، لأن الله تعالى لا يعيب خلقه ولو كفروا به، وإنما هذا من عمل البشر، فكلمة شانئك جذرها اللغوي هو فعل شنئ، فنقول شنئ له حقّه، يعني اهتم به وأعطاه إياه، فكلمة شانئك معناها مهمتك وشأنك وما يشغلك، ولهذا قال تعالى في سورة المائدة2[وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ] وهنا كما نرى، قال تعالى[شَنَـَٔانُ قَوْمٍ] يعني شؤون قوم أي مصالحهم (ولا علاقة له بما عهدناه، والذي يخالف سياق ما جاءت به الآية) وكما يعلم الجميع بأن قريشا منعت محمدا ص وأصحابه من الحج في القرن السادس الهجري، وعندما فُتحت مكة في القرن الثامن الهجري، أصبح المهاجرون يتولّون أمور أهل مكة، فلهذا أنزل الله تعالى هذه الآية لينهاهم عن استغلال تولّيهم شؤون قريش للانتقام منهم لصدّهم عن الحج من قبل، ولهذا قال تعالى[وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ] يعني لا تجعلوا

تولّيكم شؤون القوم الذين صدّوكم عن المسجد الحرام وسيلة للاعتداء عليهم، ولهذا تابع قائلا[أن تَعۡتَدُواْ] ثم أمرهم سبحانه بالتعاون معهم على المصلحة العامة والتقوى، ولهذا تابع قائلا[وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ] وليس على الظلم والتعدّي، ولهذا تابع سبحانه قائلا[وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ]

فعندما قال تعالى[إِنَّ شَانِئَكَ] فذلك يعني مهمتك، أي ما يجب على محمد ص القيام به، ولهذا تابع قائلا[هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ] وكلمة أبتر جذرها اللغوي هو فعل بتر، فنقول أبتر فعل الشيء، يعني أنقطع عن فعله، فعندما قال تعالى[إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ] فهذا يعني أن مهمة محمد ص هي الانقطاع عن كل ما يُشغله عن الرسالة والنبوة.

فعندما قال تعالى[نَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ2فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ3إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ] فهذا يعني أن الله تعالى أعطى لمحمد كل ما يحتاجه للحياة الدنيا لكي يخصّص كل وقته ليصل ربّه، لأنه أصبح نبيا ورسولا، فينصره الله تعالى، ويتمّ رسالته، ويبعثه مقاما محمودا، وهذه هي المهمة التي وجب عليه القيام بها، وهذا هو ما جاءت به سورة الكوثر، ولا علاقة لها بما قيل، والذي استغلّه بعض الناس للإساءة إلى الله تعالى وتكذيب ما جاء به رسوله.

والله هو العليم الحكيم الخبير.

القسم

قال الله تعالى في سورة الحاقة38[فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ39وَمَا لَا تُبْصِرُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[بِمَا تُبْصِرُونَ] وكلمة تبصرون جذرها اللغوي هو فعل بصر، فنقول بصر الشيء يعني علم بوجوده، ولهذا قال تعالى في سورة الواقعة85[وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ] فأن نبصر ليس هي أن نرى، لأن فعل بصر دلالة على إدراك الشيء أي استيعابه، ولهذا عندما قال تعالى في سورة الأعراف179[وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ] تابع سبحانه قائلا[أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ] وذلك لأن الأنعام ترى بعيونها، لكن لا تبصر بها، أي لا تعي ما تراه، ولهذا قال تعالى في سورة يونس 67[هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا] وهنا كما نرى، قال تعالى [وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا] يعني أن النهار يجعلنا ندرك ونميّز بين الأشياء، وبالتالي الليل أي الظلام لا يجعلنا ندرك ونميّز بين ما هو حولنا، أما دلالة فعل رأى فهي معاينة الشيء فقط، ولهذا قال تعالى في سورة النمل40[فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ]

وهكذا يتبيّن بأن كل من أبصر شيئا فهو قد رآه، أو وعيه، أو علم بوجوده، ولهذا قال تعالى في سورة طه96[قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى] لكن كل من رأى شيئا فهو قد عاينه مباشرة، ولكن قد يعلم ما هو وقد لا يعلم، فليس كل من رأى قد أبصر، وليس كل من أبصر قد رأى.

فعندما قال تعالى[فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ39وَمَا لَا تُبْصِرُونَ] يعني أن الله تعالى لا يقسم بما هو موجود وندركه، وما هو موجود ولا ندركه، لكن لماذا قال تعالى[فَلَآ أُقْسِمُ] ولم يقل – أقسم -؟ وما هو القسم؟

فكلمة القسم هي مصدر لفعل قسم، فنقول قسم الشيء يعني جعله نصفين، ونحن عندما نقسم بالله فذلك لأننا نجعل وجود الله، والذي لا يمكن للمؤمن نفيه، كنصف لحقيقة ما نقول للإيمان به هو كذلك، وذلك لعدم وجود دليل لإثباته، فالقسم إذًا هو استعمال ما لا يمكن نفيه كبرهان لوجود أو وقوع ما لم يمكن إثباته بدليل ما، ولهذا قال تعالى في سورة الأعراف49[وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا] وهنا كما نرى، استعملوا الإيمان بالله كالإيمان بوعدهم، يعني وجب الإيمان بوعدهم

(فعل المستقبل) لأنه لا يمكن إثباته بدليل مادّي، كالإيمان بالله، والذي لا يمكن كذلك إثباته بدليل مادّي.

وهذا هو القسم في كتاب الله تعالى، فهو سبحانه يأتي بأشياء لا يمكن للعباد نفيها كبرهان على وجود أو وقوع أشياء لا يمكن إثباتها بدليل ما، كوجوده تعالى واليوم الآخر، ولهذا قال تعالى في سورة آل عمران114 [يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ] ولم يقل - يصدقون بالله واليوم الآخر - وذلك لأن الإيمان هو إقرار بدون دليل، ولهذا يحتاج لقسم، والتصديق هو إقرار بدليل مادّي ولا يحتاج لقسم، ولهذا قال تعالى[فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ39وَمَا لَا تُبْصِرُونَ] وذلك لأنه يتكلم سبحانه عن ما يمكن إثباته بالدليل، أي تصديقه، ولهذا تابع قوله سبحانه[40إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ] وهنا كما نرى، قال تعالى[لَقَوْلُ رَسُولٍ] يعني قول الله تعالى الذي نطق به محمد ص، وهو القرآن الذي بين أيدينا، وكل من تدبره إلاّ وعلم بأنه من قول الله تعالى وليس قول البشر، ومن نطق به إذًا هو رسول من عند الله سبحانه وليس بشاعر، ولهذا تابع قائلا [41وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُون 42وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ 43تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ] فهو هنا سبحانه بيّن بأنه لا يقسم بما لا يمكن نفيه ليثبت ما يمكن إثباته بدليل ما.

والله تعالى قال في سورة القيامة1[لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ2وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ] وهنا كما نرى، قال تعالى[لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ] وذلك لأننا لا نبصر يوم القيامة، لأن يومها لم يأت بعدُ، ولا يمكن للعلم أن يُثبتها كما أثبت قيام الساعة، ولهذا أمرنا تعالى بالإيمان بها وليس بتصديقها، ثم تابع قائلا[وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ] وذلك لأننا نعلم بأن كثيرا من الناس تلوم نفسها، فهذا مما نبصر، وهنا كذلك الله تعالى، لا يقسم بما نبصر وما لا نبصر، ولهذا تابع قائلا[3أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ4بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ5بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ6يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ] إلى أن وصل ما يمكن تصديقه، وهو قوله تعالى[7فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ8وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ9وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ] وهو قيام الساعة، والتي أثبت العلم وقوعها بالدليل، والأمثلة كثيرة في القرآن.

فالله تعالى لا يقسم بما هو موجود أي حقّ، وقد نبصره أو لا نبصره، ولهذا قال تعالى [فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ39وَمَا لَا تُبْصِرُونَ] ليثبت ما يمكن إثباته بالدليل أي تصديقه، ولهذا تابع تعالى قائلا[40إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ] ولكن يقسم سبحانه بما هو موجود أي حقّ، وقد ندرك وجوده أو وقوعه، وذلك حسب العصور والآليات المتوفرة، لكي يثبت وجود أو وقوع ما لا يمكن تصديقه في الحياة الدنيا، وإنما وجب الإيمان به.

ولهذا سنأتي ببعض الأمثلة من أنواع القسم الذي جاء به القرآن لكي نعلم سبب وجوده في كتاب الله تعالى.

القسم (الحفظة)

قال الله تعالى في سورة الطارق 1[**وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ2وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ3ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ4إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظ**] كما تبيّن بأن الله تعالى عندما يقسم، فهو يأتي بما لا يمكن نفيه كدليل على حقيقة ما لا يمكن للإنسان تصديقه، وبالتالي وجب عليه الإيمان به فقط، ولهذا قال تعالى[**وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ2وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ3ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ**] وهو ما يصدّق به الإنسان، ثم تابع قائلا[**إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظ**] وهو ما وجب على الإنسان الإيمان به.

فالله تعالى قال[**وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ**] وهنا كما نرى، قال تعالى[**وَٱلسَّمَآءِ**] ولم يقل والأرض، ثم تابع قائلا[**وَٱلطَّارِقِ**] وكلمة الطارق جذرها اللغوي هو فعل طرق، فنقول طرقت الإبل الماء يعني دخلته، والكل يعلم أن من يحيا في البرّ لا يمكن أن يحيا داخل الماء، ولهذا نقول طرقت الإبل الماء وليس دخلت الماء، لأن منظومة الماء ليس هي منظومة البرّ، ولهذا قال تعالى[**وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ**] يعني أن هناك من يحيا في السماء ثم يدخل إلى منظومة أخرى تخالف منظومة السماء، ثم تابع قائلا[**وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ**] وهنا الله تعالى يريد أن يبيّن ما هو هذا الطارق، ولهذا تابع قائلا [**ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ**] وهنا كما نرى، قال تعالى[**ٱلنَّجۡمُ**] وكما نعلم النجم هو كل كوكب يحيا في السماء، ثم تابع قائلا[**ٱلثَّاقِبُ**] وكلمة الثاقب جذرها اللغوي هو فعل ثقب، فنقول ثقبت النار يعني اشتعلت، ولهذا نقول عود الثقاب، أي العود الذي توقد به النار.

فعندما قال تعالى[**ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ**] فهذا يعني الكوكب المشتعل، والكل يعلم بأن الكواكب الصغيرة عندما تدخل الجوّ الأرضي فهي تشتعل، وذلك لوجود مادة الأوكسجين، والتي ليست موجودة في جوّ السماء، ولهذا قال تعالى[**وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ2وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ**] ليبيّن أنه يتكلم سبحانه عن شيء يتلاءم مع منظومة السماء التي لا تحتوي مادة الأوكسجين، ليدخل إلى منظومة أخرى تحتوي تلك المادة، وهي منظومة الأرض، ولهذا تابع قائلا [**ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ**] وهذا أثبته العلم وعلمه الناس، ولهذا مازالت الحياة مستمرة على وجه الأرض، وذلك لأن الكواكب عندما تدخل الجوّ الأرضي تحترق بسبب وجود الأوكسجين فيسلم الحرث والنسل من الهلاك.

فالله تعالى جاء بما نعلم وهو قوله[وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ2وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ3ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ] والذي جعله سبحانه سببا لكي يحفظ الأرض من الدمار حتى بلوغ الأجل المسمى، وهو قيام الساعة، وذلك ليثبت لنا وجود ما لا نعلم، ولكن وجب الإيمان به وهو قوله[إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ] والذي جعله سبحانه سببا لحفظ بعض البشر من الهلاك قبل الأجل المسمى، وهو الموت، يعني وجب أن نؤمن بأن كل نفس عليها حافظ يأتي من السماء ليطرق الأرض دون أن يحترق، ليحفظ بعض العباد من الهلاك لسبب ما، كاستجابة دعاء، أو نذر نذروا به، أو صدقة تصدقوا بها، ولهذا قال تعالى في سورة النجم26[وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ] يعني أن الله تعالى يرسل ملكا من السماء ليحفظنا بإذنه سبحانه ومشيئته من الهلاك قبل الأجل المسمى، ولهذا عندما قال تعالى في سورة الأنعام61[وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً] تابع سبحانه قائلا[حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ] وهي النهاية الحتمية والطبيعية لحياة الإنسان، ولا ينفع عندها حفظ الحافظين، ولهذا قال تعالى في سورة المنافقون11 [وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ] وهذا بيّناه في فقرة <أجل وأجل مسمى>

فهنا الله تعالى جاء بما نعلم، وهو احتراق الكواكب عند نزولها من السماء بسبب الأوكسجين، ليحفظ سبحانه الأرض ومن فيها من الدمار حتى حين الأجل المسمى، كدليل على ما لا نعلم وإنما وجب الإيمان به، وهو نزول ملائكة من السماء، دون أن تحترق، ليحفظ سبحانه العباد من الهلاك حتى حين الأجل المسمى للبعض منهم.

فكما جعل الله تعالى للأرض من يحفظها من الطوارق، جعل كذلك للإنسان من يحفظه من الحوادث، فهو سبحانه يحفظ العام أي الأرض، ويحفظ كذلك الخاص أي البعض من الناس.

القسم (يوم الحساب)

قال الله تعالى في سورة الذاريات1[وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا2فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا3فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا 4فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا5إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ6وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ] وهنا كما نرى، جاء تعالى بما نعلم ولا يمكننا نفيه، وهو قوله[وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا2فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا3فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا 4فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا] كدليل على حقيقة ما لا نعلم لنؤمن به، وهو قوله[5إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ6وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ]

فالله تعالى قال[وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا] وكلمة الذاريات جذرها اللغوي هو فعل ذرى، فنقول ذرى القمح يعني نقّاه، وذلك لتذهب الريح بما هو خفيف كقشرة الحبة مثلا، فالذاريات إذًا هي كل ما يجعل خفيف الوزن يتحرك من مكانه، ولهذا قال تعالى في سورة الكهف45[وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ] فعندما قال تعالى[وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا] فهذا يعني أن كل ما هو خفيف الوزن يُذرى ولا يستقر في مكانه. وهذا هو المنطق الذي نعلمه، ولا يمكن لأحد أن ينكره.

ثم تابع تعالى قوله[فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا] وكلمة الحاملات جذرها اللغوي هو فعل حمل، فنقول حمل زيد شيئا، يعني رفع وزنا زيادة، فهو وزنه قد زاد، وكلمة وقرا جذرها اللغوي هو فعل وقر يعني ثبت، ولهذا عندما خاطب تعالى نساء النبي، وأمرهن بعدم الإكثار من الظهور، قال تعالى في سورة الأحزاب33[وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ] فعندما قال تعالى[فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا] فهذا يعني أن كل ما ثقل وزن شيء ما إلاّ واستقر في مكانه ولا يُذرى، وهذا كذلك من المنطق، ولا يمكن لأحد نفيه.

ثم تابع تعالى قوله[فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا] وكلمة الجاريات هي من فعل جرى، يعني تحرّك وانتقل باللسان العربي الذي جاء به القرآن، ولهذا قال تعالى في سورة إبراهيم32 [وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ] يعني أنها تتحرك بآلية ما على سطح البحر وليس على سطح البر، وكلمة يسرا هي مصدر لفعل يسّر، يعني جعل الشيء سهل المنال، ولهذا قال تعالى في سورة الشرح5[فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا] فعندما قال تعالى[فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا] فهذا يعني أن كل شيء ليس براسٍ وثابت يسهل تحريكه ونقله، وهذا كذلك من المنطق، ولا يمكن لأحد أن ينكره.

ثم تابع تعالى قوله[فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا] وكلمة المقسّمات هي كل ما أقسم عليه الإنسان، وعندما يقسم أحد على شيء، فهذا يعني بأن ما أقسم عليه أصبح من الواجب عليه القيام به، ولهذا عندما قال تعالى في سورة الأنعام109[وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ] تابع سبحانه قائلا[لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَا] يعني أن ما أقسموا بالله عليه صار من الواجب عليهم فعله، أي أصبح أمرا، فعندما قال تعالى[فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا] فهذا يعني أن كل من أقسم على شيء فذلك ليوجب على نفسه القيام به، وهذا كذلك من المنطق، ولا يمكننا نكرانه.

فالله تعالى جاء هنا بما هو منطقي وقوعه، ولا يمكن لأحد نفيه، وذلك لنؤمن بمنطقية وقوع يوم الحساب، ولهذا تابع قائلا[إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ] يعني أن وعده لنا ببعثنا يوم القيامة هو حقّ، ثم تابع قائلا[وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ] يعني أن يوم الحساب سيقع لا ريب فيه، لكنه تعالى قال هنا[ٱلدِّينَ] ولم يقل مثلا - يوم الحساب - وذلك لأنه يتكلم سبحانه عن المنطق الذي نعلمه، وهو أن لكل عمل أجره، وقد بيّنا في فقرة <الربا> بأن يوم الحساب ليس هناك بيع، ولكن هناك تجارة، وبما أن العمل مقابل أجر هو من التجارة، فلهذا استعمل سبحانه كلمة[ٱلدِّينَ] وذلك دلالة على الأجر الذي سيناله كل واحد حسب ما كسبت أيديه في الحياة الدنيا كما جاء في سورة النور25[يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ]

فالله تعالى جاء هنا بما هو منطقي، ولا يمكن لأحد نفيه، كدليل على حقيقة ومنطقية ما لا يمكن إثباته، لأن وقوعه سيكون بعد الحياة الدنيا، وبالتالي وجب الإيمان به.

القسم (التين والزيتون)

قال الله تعالى في سورة التين1[وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ2وَطُورِ سِينِينَ3وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ4لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ5ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ6إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ7فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ8أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ] وهنا كما نرى أيضا، جاء تعالى بما يعلمه الناس، وهو قوله [وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ2وَطُورِ سِينِينَ3وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ4لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ5ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ 6إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ] كدليل على أن الدين الذي جاء به محمد ص قد شرعه الله تعالى كذلك بحكمته، وبالتالي من أقامه فله أجر يوم القيامة، ولهذا عندما قال تعالى[فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ] تابع سبحانه قائلا[أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ]

فالله تعالى قال[وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ] وقد جاء القرطبي رحمه الله في تفسيره عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وإبراهيم النخعي، وعطاء بن رباح، وجابر بن زيد، ومقاتل والكلبيّ، أن التين هو الذي يؤكل، والزيتون هو الذي يعصر، ونحن يجب أن نتساءل، لماذا أقسم تعالى بالتين، وهو من الفواكه الموسمية، والزيتون، الذي ليس من الضروريات، وهناك كثير من العباد لا يعلمون بوجودهما، وخصوصا الذين يعيشون في القارة الأفريقية، وهل فاكهة التين دلالة على عظمة حكمة الله تعالى؟ أولا يستطيع الإنسان في عصرنا هذا أن يخترع أنواعا جديدة من الفواكه؟ وهذا ما

ذكره تعالى في سورة يس34[وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ 35لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ]؟ وما علاقة التين والزيتون بسياق ومضمون سورة التين؟

وحسب ما جاء به القرطبي في تفسيره أيضا، عن ابن عباس كذلك قال: التين هو مسجد نوح عليه السلام الذي بُني على الجودي، والزيتون مسجد بيت المقدس. وهنا أيضا يجب أن نتساءل، أولم يقل الله تعالى في سورة الزخرف3[إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ]؟ فهل اللغة العربية تقول بأن التين هو المسجد، والزيتون كذلك؟ فضلا عن ما جاء به القرآن، والذي يدلّ على أن نوحا لم يكن يعلم ما هي إقامة الصلاة، وأن أول رسول ونبي أقام الصلاة هو إبراهيم عليه السلام كما جاء في سورة البقرة124[وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ]! ولهذا أمر الله تعالى محمدا ص باتباع ملة إبراهيم عليه السلام كما جاء في سورة النحل123[ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ] وليس ملة نوح، لأن في عهد نوح، وهود، وصالح، وشعيب، لم تكن فُرِضت بعدُ إقامة الصلاة والحج، وبالتالي لم يكن هناك أيّ بيت يُذكر فيه اسم الله تعالى.

ودائما حسب ما جاء به القرطبي، عن الضحاك قال: التين هو المسجد الحرام والزيتون المسجد الأقصى، وعن ابن زيد التين هو مسجد دمشق، والزيتون بيت المقدس، وعن قتادة التين هو الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس، واللائحة طويلة.

ونحن يجب أن نقول بأن هذا الاختلاف هو أمر طبيعي، لأن آباءنا كانوا يعبرون كلمات القرآن كما تُعبر الرؤيا، وهذا كان من آليات تدبر القرآن، لأنهم لم يكونوا ليعلموا بالقواعد التي أنزلها تعالى في كتابه، نظرا للحقبة التي كانوا يعيشون فيها والآليات المتوفرة لديهم آنذاك، وهذا ما يقوله المنطق، والأولون هم كذلك يخضعون لمنطق تطور الفكر الإنساني حسب تطور العصور، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة 170 [وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ]

فلهذا وجب أن نتدبر كلمتي التين والزيتون باللغة العربية، ولا يحقّ لنا أن نعبرهما، فكلمة التين هي مصدر لفعل تان كما نقول، قال والقيل، وحان والحين، فنقول تان

بين شخصين أو شيئين، يعني قابل بينهما للنظر لاختلافهما، وبما أن الله تعالى يتكلم عن الإنسان في سورة التين حيث قال[لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ] فهذا دليل على أن كلمة التين هي دلالة على النظر إلى وجود الاختلاف بين شخصين، وهما ما ذكر تعالى في سورة النجم45[وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ] فعندما قال تعالى [وَٱلتِّينِ] فهذا دليل على الاختلاف الذي جعله سبحانه بين الذكر والأنثى، والذي بواسطته يعلم العباد كلهم كيف أحكم الله تعالى خلق الإنسان، ولا يستطيع لأحد أن يخلق مثله.

ثم تابع تعالى قوله[وَٱلزَّيْتُونِ] وهذا قد بيّناه في فقرة <الزيتون والرمان> وهو أن الزيتون دلالة على كل شيء جميل المنظر، فعندما قال تعالى[وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ] فهذا يعني النظر إلى الاختلاف الذي جعله تعالى بين الذكر والأنثى، وإلى جمال منظرهما والذي لا يمكن لأحد من الإنس والجان أن يحكم جمال مظهر خلق ما، كما أحكم تعالى جمال مظهر خلق الإنسان.

ثم تابع تعالى قوله[وَطُورِ سِينِينَ] وكلمة طور كما بيّنا، هي مصدر لفعل طار يعني ارتفع، ولهذا نقول التطور الاقتصادي، يعني ارتفاع نمو الاقتصاد، فكلمة طور هنا هي تطور بلسان العرب، وكلمة سنين هي كجمع لكلمة السِنّ، يعني اللّدة والتِّرب فنقول زيد سِنّ عمر، يعني لدته وتِربه، أي أن زيدا وعمرا ازدادا في نفس الوقت فهما إذًا من نفس الجيل، فكلمة سِنّ هي الجيل أو العصر بلسان العرب، فعندما قال تعالى[وَطُورِ سِينِينَ] فهذا يعني تطور أجيال أو عصور، وهكذا يتبيّن سياق الآيتين، فعندما قال تعالى[وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ2وَطُورِ سِينِينَ] يعني أن الله تعالى يقسم بحكمته لكيفية خلق الإنسان وتطوّره، فذكر كيف جعل منه نوعين مختلفين، وهما الذكر والأنثى، وأحسن منظرهما كما جاء في سورة المؤمنون14[ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ] وعلّمه بالقلم، أي حباه بعقل يميّز بين الأشياء ليخالفه عن الحيوان، ممّا جعل هذا الإنسان يتطور حسب تطور العصور، حيث كان بدائيا لا يعلم شيئا كالحيوان، فكان يقتل القوّي الضعيف إلى أن أصبح متحضرا، فصار هناك أمن بين الناس، ولهذا تابع قوله تعالى[وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ] وهي مكّة كما جاء في سورة إبراهيم35[وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ]

لكن لماذا ذكر تعالى الأمن الذي صار في مكة عندما تكلم عن تطور الإنسان حسب تطور العصور، ولم يذكر مثلا الأمن الذي صار في العالم بأسره؟

الكل يعلم بأن القضاء على حياة الإنسان بغير حقّ هو من الكبائر، لكن الله تعالى قال في سورة الصافات102 [**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ**] ثم تابع سبحانه قائلا [**قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ**] وهنا كما نرى، قال تعالى[**ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ**] يعني أن ابن إبراهيم ظن بأن الله تعالى أمر أباه بذبحه، لكن الله تعالى لا يأمر بذبح البشر، وإنما بذبح بهيمة الأنعام! فلماذا أراد إبراهيم إذًا ذبح ابنه؟

فالله تعالى قال في سورة آل عمران96 [**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ**] وهنا كما نرى، قال تعالى[**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ**] يعني البيت الحرام، وهذا دليل على أن مكّة لم يكن فيها بيت يُذكر فيه اسم الله تعالى من قبل أن يُبعث إبراهيم، ثم تابع قائلا[**لَلَّذِى بِبَكَّةَ**] وهنا كما نرى، قال[**بِبَكَّةَ**] ولم يقل – مكّة - وكلمة بكّة جذرها اللغوي هو فعل بكّ، فنقول بكّ الشيء يعني فرّقه.

فعندما قال تعالى[**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ**] فهذا دليل على أن مكّة لم يكن الناس يقيمون فيها، وإنما كانت مكانا تُنصب فيه الأصنام، ويحجّ إليه الناس ليقرّبوا قرابينهم لآلهتهم، وكان من أعظم هذه القرابين، هو ذبح البشر، فكان القوّي يخطف الضعيف ليذبحه كقربان لآلهته، ولهذا كان كثير من الناس يتركون مكّة مباشرة بعد تقديم قرابينهم، خوفا من أن يُخطفوا ليذبحوا كقربان هم كذلك كما جاء في سورة العنكبوت67 [**أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ**] ولهذا نعت تعالى مكّة على ما كانت عليه آنذاك أي بكّة.

وعندما آمن إبراهيم بربه، ظن بأن الله تعالى هو كذلك يتقبّل ذبح البشر كقربان، فأصبح يفكر في قربان أعظم ممّا يقرب قومه لآلهتهم، ولهذا أصبح يرى في منامه أنه يذبح ابنه، فظن أنه وحي من عند الله تعالى كما جاء في سورة الصافات102 [**قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ**] فرضي ابنه بذلك، ولهذا تابع قائلا [**قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ**] وبما أن الله تعالى لم يجعل ذبح البشر من شعائره، وإنما هو من شعائر الشيطان، فهو عندما قال تعالى في سورة الصافات103 [**فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ**] تابع قائلا[**104وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ 105قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ106إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ**] فهذا يعني أن الرؤيا كانت ابتلاء وليست بأمر من الله سبحانه، ولهذا تابع قائلا107 [**وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ**] يعني أن الله تعالى وضع حدّا لذبح البشر، والذي كان من شعائر الجاهلية، ليُقرّ شريعته، وهي ذبح بهيمة الأنعام باسمه تعالى كما جاء في سورة الحج36 [**وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا**

لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ] وهذا ما أدّى إلى بداية الحضارة الإنسانية، أي بداية ظهور الفطرة الإنسانية.

وهكذا أصبح مكان البيت آمنا، ولم يعد المرء يخاف أن يُخطف ليُذبح قربانا للأصنام التي كانت تُعبد في مكة، ولهذا قال تعالى في سورة البقرة105[وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا] ثم أمر سبحانه إبراهيم واسماعيل بتطهير البيت كما جاء في سورة البقرة125[وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ] وليس ببنائه، وذلك بإزالة القواعد التي كانت تُنصب عليها الأصنام كما جاء في سورة البقرة127[وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ] وهذا ممّا يدلّ على أن البيت الحرام هو أول قبلة للمسلمين، ولهذا عندما قال تعالى في سورة البقرة125[وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا] تابع سبحانه قائلا[وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى] وهذا بيّناه أيضا في فقرة <الناسخ والمنسوخ>

فعندما قال تعالى[وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ2وَطُورِ سِينِينَ] تابع سبحانه قائلا[وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ] وذلك لأنه يتكلم عز وجل عن تطور الإنسان من مرحلة بدائية، والتي كان يعمّها الجهل، وبالتالي كان الشيطان كثيرا ما يضلّ الناس، إلى مرحل التطور بسبب تطور عقل الإنسان حسب تطور الأجيال، ولذلك بدأ سبحانه بإرسال الرسل ليأمروا الناس بالإيمان بالربّ الذي خلقهم، والكفر بالشيطان الذي يضلّهم، فأمر تعالى إبراهيم واسماعيل بتطهير المكان الذي كان يُعبد فيه الشيطان، ويذبح القوّي الضعيف كقربان للأصنام، لتُذبح الأنعام بدل البشر، ويُذكر عليها اسمه تعالى، وهكذا اصبح مكانا آمنا يقيم فيه الناس، ويُرغب في المجيء إليه بدل الفرار منه كما جاء في سورة إبراهيم37 [رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ]

ففي سورة التين، جاء تعالى بما قضى أن يكون على وجه الأرض، والذي يعلمه الناس ولا يمكن لأحد نفيه، و هو حكمته لكيفية خلق الإنسان، فجعله ذكرا وأنثى، وزيّن منظره، وجعل عقله قادرا على التطور حسب تطور الأجيال، وليس كالحيوان كما جاء في سورة العلق4[ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ5عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ] حيث كان بدائيا يتبع غريزته، إلى أن صار تدريجيا إنسانا عاقلا يميّز بين ما هو إنساني وغير إنساني، ولهذا قال تعالى[وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ2وَطُورِ سِينِينَ3وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ] ثم جاء تعالى بما قضى أن يكون منذ ولادة الإنسان، والذي يولد على الدين كفطرة كما جاء في سورة الروم30[فَأَقِمْ

وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ] ولهذا تابع قائلا[لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ]

لكن هناك من يصرّ على ذلك الدّين (فطرة) ولا يقبل دين الإسلام، وبالتالي ليس له من أجر في الآخرة، كما جاء في سورة النور39[وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ] ولهذا تابع قائلا[ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ] وهناك من يؤمن ويتبع دين الله تعالى الذي جاء به الرسل كما جاء في سورة النساء125[وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا] ولهذا تابع قائلا[إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ] ليجعل كل هذا دليل على التصديق بأن الدين الذي جاء به محمد ص، هو كذلك ممّا قضى سبحانه أن يكون، ولهذا تابع قائلا[فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ] وأحكمه كما أحكم خلق الإنسان وطريقة تطوره، ولهذا تابع قائلا[أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ]

القسم (ذي حجر)

قال الله تعالى في سورة الفجر1[وَٱلْفَجْرِ2وَلَيَالٍ عَشْرٍ3وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ4وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ5هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ] كما يعلم الجميع، قد اختلف آباؤنا في تعريف الليالي العشر التي ذكر تعالى في هذه السورة، وكذلك الشفع والوتر، فمنهم من قال حسب كتب التفاسير، بأن الليال العشر هي الأول من رمضان، ومن قال بأن هي ليالي العشر من ذي الحجة، ومن قال بأن هي التي وعد الله تعالى موسى عليه السلام، والشفع هو يوم النحر، والوتر هو يوم عرفة، ومن قال بأن الشفع صلاة الغداة، والوتر صلاة المغرب، ومن قال بأن الشفع هو الزوج، والوتر هو الله، واللائحة طويلة.

لكن الله تعالى قال في سورة النساء82[أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا] ولكي نزيل كل هذه الاختلافات، وجب أن نتدبر القرآن بقواعده لكي نعلم عن أيّ ليال عشر يتكلم سبحانه.

فالله تعالى قال[وَٱلْفَجْرِ2وَلَيَالٍ عَشْرٍ3وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ4وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ] ثم تابع قائلا[هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ] يعني أن ما استدلّ به سبحانه، ليس ليثبت ما لا نعلمه، ولكن ليبيّن خصوصيته لفئة ما، ولهذا عندما قال تعالى[هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ] بيّن من هي تلك

الفئة، فقال[لِّذِى حِجْرٍ] ولهذا وجب أن نبيّن من هم ذي الحجر لنعلم عن أيّ ليال عشر يتكلم سبحانه.

فكلمة حجر جذرها اللغوي هو فعل حجر، فنقول حجر زيد على مال اليتيم، يعني منع اليتيم من حقه في الإرث لحين بلوغه سن الرشد، فدلالة فعل حجر في كتاب الله تعالى هي منع شخص ممّا هو حلّ له، أو ممّا هو حقّ له لسبب ما، ولهذا قال تعالى في سورة الحجرات4[إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[ٱلْحُجُرَٰتِ] يعني المكان الخاص الذي يُمنع على العامة دخوله لوقت ما أو لسبب ما. وقال تعالى في سورة الأنعام138[قَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ] يعني جعلوا من الأنعام والحرث ما هو ممنوع على فئة ما.

وقال تعالى في سورة الحجر80[وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ] يعني الذين يحجرون أي يمنعون، ولم يقل - ذي حجر - أي يُمنع عليهم، وهم قوم صالح، وذلك لأن الله تعالى خصّص للناقة وقتا لشربها ووقتا لشربهم كما جاء في سورة القمر27[إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ 28وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ] ولهذا قال تعالى في سورة الشعراء155[قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ] لكنهم منعوها من ذلك كما جاء في الآية157[فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ] ومنعوا كذلك مرور الماء كما جاء في سورة الفجر9[وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ] وذلك بتغيير مجراه، ولهذا نعتهم تعالى بأصحاب الحجر.

فالكل يعلم بأن الله تعالى أحلّ لعباده الرفث إلى نسائهم، وأحلّ صيد البحر والبرّ، لكن هناك من الأوقات ما يُمنع فيه هذا الحلال، كوقت الحج كما جاء في سورة البقرة197 [ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ] وكذلك في سورة المائدة95[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ]

فعندما قال تعالى[هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ] فهذا يعني أن ما أقسم به تعالى أي استدلّ به، هو خاصّ بالذين يقومون بفريضة الحج وليس بالناس عامة، ولهذا قال تعالى[وَٱلْفَجْرِ] وذلك ليقول تعالى بأن بداية المنع، أي بداية الأيام الحرم، تكون مع أول فجر الشهر الحرام، كما يبدأ الصيام مع أول فجر شهر رمضان.

ثم تابع تعالى قوله[وَلَيَالٍ عَشْرٍ] وهنا كما نرى، ذكر تعالى الليالي ولم يذكر الأيام، وذلك ليبيّن استمرارية المنع ليلا ونهارا، وليس كالصيام الذي يتوقف عند حلول الليل إلى طلوع فجر اليوم التالي.

ثم تابع قوله تعالى[وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ] وكلمة شفع جذرها اللغوي هو فعل شفع، فنقول شفع الشيء، يعني ضمّ مثله إليه فأصبح عددهما مزدوجا، وعندما يضاف إليهما مثله يصير وترا، أي يصير عددهما مفردا، وبما أن الله تعالى يتكلم عن أيام الحج، فهو فصّل هذا في سورة البقرة203[وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ] وهذه هي أيام الذكر التي تكون بعد قضاء مناسك الحج كما جاء في سورة البقرة200[فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ] وهي التي ننعتها بأيام التشريق.

فالله تعالى أجاز يومين لمن أراد أن يتعجّل، وهو الشفع، وثلاثة أيام لمن أراد أن يتمّ أيام الذكر، وهو الوتر، ولهذا عندما قال تعالى[وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ] تابع قائلا[وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ] يعني أن وقت الذكر يضلّ مستمرا إلى أن يحلّ الليل، أي غروب شمس اليوم الثالث عشر.

فالله تعالى هنا جاء بالقسم ليس ليستدلّ بما نعلم لكي نؤمن أو نصدق ما لا نعلم، ولكن جعله دليلا ليعلم الحجّاج مدة الأيام الحرم، وهي الأيام الثلاثة عشر الأولى للشهر الحرام لمن أراد أن يتمّها، عشرة منها لقضاء مناسك الحج، وثلاثة ليذكر الحاجّ الله تعالى، ومن تعجل في يومين فلا إثم عليه كما جاء في سورة البقرة203[وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ]

والله هو العليم الحكيم الخبير.

كتاب الوحي

قال الله تعالى في سورة العلق1[ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ] والكل يعلم بأن المخاطب هنا هو محمد ص، والقراءة هي معرِفة ما هو مخطوط، ولهذا نعت تعالى الكتاب الذي أنزله على محمد ص بالقرآن، لأن الطريقة التي أوحى بها تعالى إلى رسوله كانت عبر القراءة، وهذا بيّناه في فقرة <الكتاب القرآن والذكر>

فإن قال تعالى[ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ] فذلك لأن الآيات كانت مخطوطة على صحف، ولا يُقرأ إلاّ ما هو مخطوط، ولهذا عندما قال تعالى في سورة المزمل20[إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ] تابع سبحانه قائلا[عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ] أي أن الله تعالى علم بعدم استطاعتهم تبليغ الناس كل ما أنزل سبحانه حينذاك، وذلك لأن القرآن كان مخطوطا على صحف، وكانت موزعة بين أصحاب محمد ص، وكان منهم من يتعذر عليه الخروج مع رسول الله ليلا لسبب ما، ولهذا تابع قائلا[فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ] وهذا بيّناه كذلك في فقرة < سورة المزمل>

وقال تعالى في سورة العنكبوت48[وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ] وهنا كما نرى، قال تعالى[وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ] يعني أن محمدا ص لم يكن يعرف أيّ شيء عن الكتاب، أي القرآن من قبل، ولهذا نعته تعالى وقومه بالأميين، لأنه لم يكن قبل القرآن أيّ كتاب بلسانهم، أي اللسان العربي، ثم تابع قائلا[وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ] ولم يكن يخطّه كذلك، أي القرآن بيمينه، يعني بيده بلسان العرب، وذلك لأن القرآن كان ينزل مخطوطا من عند الله سبحانه، ولهذا تابع قائلا[إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ]

فالقرآن لم يخطّه الإنسان ولا يستطيع، وهذا ما سنبيّنه، وإنما نزل مخطوطا، ولهذا نقول بأن القرآن نزل بدون طمس، وهذا صحيح، لأن الرسم هو الذي يكون بدون طمس وليس القول، وهذا الذي أدّى إلى الاختلاف في القراءات، فغدونا نقول بأن القرآن نزل على سبعة أحرف، وهذا غير صحيح، لأن القرآن نزل مخطوطا مرة واحدة، في صحف مطهّرة كما جاء في سورة البينة2[رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً3فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ] بدون

نقط ولا شكل، وكذلك مدّ لبعض الحروف، لكن اختلاف طريقة قراءته وبالتالي تشكيل حروفه بين أهل المدينة، وأهل مكة، وأهل الكوفة، واهل البصرة، وأهل الشام، حسب اختلاف القواعد النحوية بينهم، هو الذي جعل القرآن على سبعة أحرف وأكثر. ونحن أخذنا هذا الاختلاف كجزء من الوحي وليس كفعل بشري، ولم نتجرأ على إعادة النظر في قراءة القرآن، لكي نزيل ذلك الاختلاف الذي هو من فعل آبائنا حسب ما عقلوه آنذاك، وبالتالي نجعل قراءته على حرف واحد كما وجب أن يكون.

قال الله تعالى في سورة هود1[**الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**] وكما بيّنا من قبل بأن كتاب الله هو من علمه، ولكل علم قواعده، كما هو علم الرياضيات والفيزياء، وغيرهما من العلوم، وقد بيّنا هذه القواعد التي بواسطتها أحكم سبحانه آياته حتى لا يكون أيّ اختلاف في فهمها، أو تحريف لقوله تعالى، فيكون للناس حجة عليه سبحانه يوم القيامة. ولهذا عندما كان يقرأ محمد القرآن لأول مرة كان الشيطان يلقي في قراءته كما فعله مع الرسل من قبله، لكي يحرّف كلام الله سبحانه، وبالتالي يتغير معنى الآيات، فكان تعالى يعلم بهذا، فيزيل ما ألقى الشيطان ليحكم آياته كما جاء في سورة الحج52[**وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**]

ومن هذه القواعد التي أحكم بها تعالى آياته، الطريقة التي كُتبت بها بعض كلمات القرآن، والتي تخالف قواعد اللغة العربية التي وضعها الإنسان، ليكون لها دلالة معينة مما يُثبت أن القرآن نزل مخطوطا من عند الله سبحانه، ثم استُنسِخ من بعد ذلك، ولهذا سنأتي ببعض من تلك الكلمات كدليل على عدم قدرة الإنسان خطّ القرآن.

- فالله تعالى قال في سورة البقرة124[**وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**] وهنا كما نرى، كلمة إبراهيم كُتبت بدون ياء المدّ، وهذا في سائر سورة البقرة، وهو ما يخالف اللغة العربية، لكن في باقي السور كُتبت بياء المدّ حسب قواعد اللغة العربية، وكما بيّنا من قبل، بأن كلمة النخل دلالة على الشجر بصفة عامة، وخصوصا الذي لا يُثمر، والنخيل دلالة على الشجر الذي هو أصل الثمار، فعندما أضاف تعالى حرف الياء لكلمة [إِبۡرَٰهِـۧمَ] فذلك دلالة على أن إبراهيم أصبح إماما للناس، وبالتالي هو أصل الملة، وهذا ما جاء في سفر التكوين صحاح17/4 أما أنا فهو ذا عهدي معك وتكون أبا الجمهور من الأمم/ 5 فلا يدعى اسمك بعد أبرام بل يكون اسمك إبراهيم. لأني أجعلك أبا الجمهور من الأمم/6 وأثمرك كثيرا جدّا وأجعلك أمما، وملوك منك يخرجون.

ولهذا أمر سبحانه جميع الأنبياء باتباع ملة إبراهيم، وهي إقامة الصلاة والحج، كما جاء في سورة النساء125[وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا] ولهذا لم تكتب قطّ كلمة النبيين بياء المدّ في القرآن كما جاء مثلا في سورة آل عمران21[إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ] لأنهم اتبعوا كلهم ملة إبراهيم عليه السلام، الذي كان هو الأصل في الملة، وهم قاموا باستمراريتها مدى العصور، ولهذا أمر الله تعالى محمدا ص هو كذلك باتباعها كما جاء في سورة النحل123[ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ] ولهذا قال تعالى في سورة الأحزاب 40[مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا] وهنا كما نرى، جاءت كذلك كلمة النبيين بدون ياء المدّ، والذي يخالف قواعد اللغة العربية التي وضعها البشر، وبالتالي لا يمكن أن يكتب الإنسان بدون علمه كلمات تخالف ما وضعه هو من قواعد لغوية، ليكون لها دلالة حسب ما وضع تعالى من قواعد قرآنية، وهذا دليل على أن القرآن نزل مخطوطا من عند الله عز وجل.

- قال تعالى في سورة آل عمران35[إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ]وفي سورة يوسف30[وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ] وكذلك في سورة القصص9[وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ] وفي سورة التحريم10[ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ] وكذلك الآية11[وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ] وكما نرى، في كل هذه الآيات جاءت كلمة امرأة بالتاء مبسوطة، وهذا يخالف قواعد اللغة العربية، لكن في سورة النساء12[وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَـٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ] جاءت بالتاء مربوطة طبقا لقواعد اللغة العربية، فلماذا كُتبت إذا كلمة امرأة بطريقتين مختلفتين؟

فعندما تحدث سبحانه عن امرأة عمران، كُتبت كلمة امرأة بالتاء مبسوطة، وذلك دلالة على الزوج التي ليس لها ولد بعدُ مع زوجها، أي بعلها، ولهذا عندما قال تعالى في سورة آل عمران35 [إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ] تابع قائلا[رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ] وقال تعالى في سورة هود72[قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ

وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ] وهنا كما نرى، قال تعالى [وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا] ولم يقل – زوجي – وذلك دلالة على أن إبراهيم لم يلد مع امرأته بعدُ، وهذا بيّناه في عدة فقرات.

وهكذا يتبيّن بأن كلمة امرأة عندما تأتي في القرآن بالتاء مبسوطة، فذلك دلالة على أن الزوج ليس لها ولد من زوجها الذي ذُكِر اسمه، ولهذا عندما قال تعالى في سورة يوسف30[وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ] جاءت كلمة المرأة بالتاء مبسوطة دلالة على أنها لم تنجب من العزيز ولدا، ونفس الشيء في سورة القصص9[وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ]

وبهذه الدلالة نستطيع أن نعلم لماذا عندما قال تعالى في سورة التحريم10[ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ] جاءت كلمة امرأة بالتاء مبسوطة! وذلك لأن امرأة نوح لم تُنجب منه ولدا، وانما خانته فأنجبت من شخص آخر، وظن نوح أن ابنه هو ولده من صلبه، ولهذا عندما قال تعالى في سورة هود46[قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ] تابع سبحانه قائلا[فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ] وكذلك امرأة لوط لم تُنجب من لوط ، وإنما خانته هي الأخرى مع شخص آخر فأنجبت منه إناثا، وظنّ لوط أنهن من صلبه، ولهذا أهلكها تعالى كما جاء في سورة الأعراف83[فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ] ولهذا عندما قال تعالى [ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ] تابع سبحانه قائلا[فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ] ثم تابع في الآية التالية[وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ] وهنا كما نرى، جاءت كذلك كلمة امرأة بالتاء مبسوطة لأن فرعون لم يُرزق بولد من زوجه.

وعندما تأتي كلمة امرأة بالتاء مربوطة، فذلك دلالة على المرأة بصفة عامة، وقد تكون غير متزوجة، ولهذا عندما قال تعالى في سورة النساء12[وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ] جاءت كلمة امرأة بالتاء مربوطة، وذلك ليبيّن سبحانه بانه يتكلم عن امرأة ليس لها من زوج يرثها، وعندما قال تعالى في سورة النساء128[وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا] جاءت هنا كذلك كلمة امرأة بالتاء مربوطة، وذلك دلالة على المرأة التي ليس لها زوج وإنما بعل، إما أنه يستمتع بشيء منها، أو أنه طليقها.

وهنا كذلك يتبيّن بأن كتابة كلمة امرأة في القرآن جاءت بطريقتين مختلفتين، عندما تكون بالمفهوم العام، تأتي بالتاء مربوطة، وهذا ما يوافق قواعد اللغة العربية، وعندما تأتي بالتاء مبسوطة مقرونة مع اسم شخص، فذلك دلالة على أنها زوج ذلك الشخص ولكن لم تنجب منه أولادا بعد، وهذا يخالف قواعد اللغة العربية، ولكن هو من القواعد التي وضعها تعالى في كتابه ليحكم آياته، وهذا دليل آخر على أن القرآن نزل مخطوطا من عند الله تعالى ولم يخطّه البشر، ولن يستطيع.

- قال الله تعالى في سورة الحجر11[**وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ 12 كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ 13لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ**] وهنا كما نرى، كلمة سنّة جاءت بالتاء مربوطة، كما تنصّ عليه قواعد اللغة العربية، وذلك لأن الآية تتكلم عن ما هو طبيعي وقوعه في الحياة الدنيا، ونفس الشيء في سورة الإسراء76[**وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا 77سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا**] وهنا كذلك كلمة سنّة جاءت بالتاء مربوطة، لأن الآية تتكلم عن ما يقع في الحياة الدنيا، وكذلك في سورة الكهف55[**وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا**] وهنا نفس الشيء، الآية تتكلم عن سنّة الحياة الدنيا، ولهذا جاءت كلمة سنّة بالتاء مربوطة، وعندما تكلم سبحانه عن نكاح مطلقات الأدعياء، والذي هو طبيعي في الحياة الدنيا في سورة الأحزاب38[**مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا**] جاءت كذلك كلمة سنّة طبقا لقواعد اللغة العربية لأنها سنّة دنيوية وليست خالدة.

لكن عندما قال تعالى في سورة الأنفال38[**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ**] جاءت كلمة سنّة بالتاء مبسوطة، وذلك لأن الآية تتكلم عن عذاب الكافرين في الحياة الآخرة، والذي لا نهاية له، ونفس الشيء عندما قال تعالى في سورة غافر85[**فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ**] جاءت كلمة سنّة بالتاء مبسوطة، وذلك لأن الآية تتكلم عن عذاب يوم الآخرة، والذي هو حكم طبيعي بالنسبة للكافرين، ونفس الشيء كذلك في سورة فاطر43[**ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا**]

وهكذا يتبيّن بأن كلمة سنّة عندما تأتي بالتاء مربوطة كما هي قواعد اللغة العربية، فذلك دلالة على سنّة دنيوية، والتي لها نهاية، وعندما تأتي بالتاء مبسوطة والذي يخالف قواعد اللغة العربية، فذلك دلالة على ما سيلقاه الكافرون في الحياة الآخرة، والذي ليس له نهاية، وهذا دليل آخر على أن القرآن نزل مخطوطا من عند الله تعالى ولم يخطّه البشر.

- قال الله تعالى في سورة النحل17[**أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ 18|وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**] وهنا كما نرى، جاءت كلمة نعمة بالتاء مربوطة كما تنصّ عليه قواعد اللغة العربية، لكن عندما قال تعالى في سورة إبراهيم34[**وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**] جاءت كلمة نعمة بالتاء مبسوطة لجمع المؤنث السالم، وذلك لأن الآية تتكلم عن نعمة الله تعالى بصفة مطلقة، ولهذا قال تعالى[**وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ**] أما عندما تأتي كلمة نعمة بالتاء مربوطة، فذلك دلالة على المفرد، ولهذا عندما تكلم تعالى عن نوع واحد من النعم في سورة النحل17[**أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**] وهي نعمة الخلق، تابع قائلا[**وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**]

وهكذا يتبيّن بأن كلمة نعمة عندما تأتي في الآية بالتاء مربوطة، فهي دلالة على نوع واحد من النعم، وهذا يوافق قواعد اللغة العربية، وعندما تأتي بالتاء مبسوطة، فذلك دلالة على نعمة الله تعالى على عباده بصفة مطلقة، والتي ليست كنعمة الإنسان على أخيه الإنسان، ونفس الشيء بالنسبة لكلمة رحمة عندما تأتي بالتاء مربوطة، فذلك دلالة على رحمة معيّنة، ولهذا قال تعالى في سورة التوبة20[**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ 21 يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ**] وكذلك في سورة هود9[**وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ**] لكن عندما يتكلم سبحانه عن رحمته المطلقة، تأتي الكلمة بالتاء مبسوطة لجمع المؤنث السالم كما جاء في سورة مريم1[**كٓهيعٓصٓ2ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ**] وكذلك في سورة البقرة218[**إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**]

وهذا كذلك دليل على أن القرآن نزل مخطوطا من عند الله عز وجل، ولم يخطّه البشر.

- قال الله تعالى في سورة المائدة85[**فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ**] وهنا كما نرى، الآية تتكلم عن المحسنين فجاءت

كلمة جزاء بالهمزة على السطر، وفي سورة التوبة26[ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ] الآية تتكلم عن الكافرين، فجاءت كلمة الجزاء هنا كذلك بالهمزة على السطر، لكن عندما قال تعالى في سورة المائدة29[إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ] جاءت كلمة جزاء بالهمزة على الواو، وذلك لأن الآية تتكلم عن الظالمين، فالواو هنا دلالة على اللباس، لأن الله تعالى قال في سورة الأنعام82[ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ] وكما بيّنا في عدة فقرات، بأن الظلم ينقسم إلى نوعين: هناك ظلم الإنسان لنفسه، وظلم الإنسان لأخيه الإنسان، فقد يُلبس المؤمن إيمانه بظلمه لنفسه، فهو إذًا مؤمن مشرك، وقد يُلبس إيمانه بظلمه لأخيه الإنسان، فهو مؤمن ظالم، وبهذه الدلالة أي واو اللباس، يمكننا أن نتدبر بعض الأمثلة التي جاءت في القرآن وتخالف قواعد اللغة العربية خطًّا.

فالله تعالى قال في سورة المائدة33 [إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ] وهنا كما نرى، كلمة جزاء جاءت بالهمزة على الواو، وذلك لأن الآية تتكلم عن الظالمين، أي المؤمنين الذين ألبسوا إيمانهم بظلمهم الناس.

وقال تعالى في سورةالبقرة266[أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ] وهنا كما نرى، جاءت كلمة ضعفاء بالهمزة على السطر كما تنصّ عليه قواعد اللغة العربية، وذلك لأن الآية تتكلم عن ضعفاء القدرة في الحياة الدنيا.

لكن عندما قال تعالى في سورة إبراهيم21[وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ] جاءت كلمة ضعفاء بالهمزة على الواو، والذي يخالف قواعد اللغة العربية، وذلك لأن الآية تتكلم عن ضعفاء الأجر في الحياة الآخرة، لأنهم ألبسوا إيمانهم بظلمهم أنفسهم، وهذا شرك، يعني اتخذوا البشر أربابا من دون الله تعالى فأطاعوهم في ما لم ينزل الله به من سلطان كما جاء في سورة الشورى21[أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] ولهذا قال تعالى في سورة الزمر3[أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ

ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّار]

وقال تعالى في سورة النبأ40[إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا] وهنا كما نرى، جاءت كلمة المرء بالهمزة على السطر كما تنصّ عليه قواعد اللغة العربية، والتي هي دلالة على الإنسان العاقل بصفة عامة.

لكن عندما قال تعالى في سورة النساء176[يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ] جاءت كلمة المرء بالهمزة على الواو، كما هي كلمة [ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ] يعني أن الرجل له لباس، وبما أن الله تعالى قال في سورة البقرة187 [أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ] فهذا يعني أن الله تعالى يتكلم عن الكلالة إذا ما كان الرجل متزوجا، ولهذا عندما قال تعالى [يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ] تابع سبحانه قائلا[لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ] وهذا لا يكون إلا في حالة الزواج، وليس كما جاء في سورة النساء12[وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ] وهنا كما نرى، قال تعالى[رَجُلٌ] يعني ليس له زوج، وجاءت كلمة امرأة بالتاء مربوطة، وهذا دليل على أن المرأة ليس لها زوج، ولهذا لم يقل تعالى في هذه الآية - ليس له ولد - أو - ليس لها ولد -

وهذا كذلك دليل على أن القرآن نزل مخطوطا ولم يخطّه البشر، وأن الخطّ هو كذلك قاعدة من القواعد التي أحكم بها تعالى آياته، والتي بواسطتها نستطيع تدبر القرآن ولا نحتاج لأيّ كتاب آخر، وصدق الله تعالى عندما قال في سورة النحل89[وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ] وكذلك في سورة يوسف 111[مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ] ولهذا قال تعالى في سورة الأنعام155[وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ] وكذلك في سورة الجاثية6[تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ]

أما ما جاءت به الروايات التي تتحدث عن كتابة القرآن من طرف الإنسان، فهذا غير صحيح، وخصوصا روايتي كتابة الوحي من طرف عبد الله بن أبي السرح، والتي تقول إحداهما:

في أحد المرات أثناء كتابة عبد الله بن أبي السرح للوحي، أملى النبي عليه - السميع العليم - فكتبها - العليم الحكيم - ولمّا فعل ذلك قال النبي: (كذلك أو ذلك الله) أي

أن الله تعالى هو فعلا السميع العليم، وهو أيضا العليم الحكيم. فهذه الرواية غير صحيحة وتسيء إلى كتاب الله تعالى ولرسوله، وذلك لأسباب عدة، ومنها.

1- ما بيّناه في هذه الفقرة، حسب الدلائل التي جاء بها كتاب الله تعالى من آيات مبيّنات، والتي صرّفها تعالى في القرآن، وطريقة كتابة عديد من الكلمات، والتي تخالف قواعد اللغة العربية.

2- رواية عبد الله بن أبي السرح كانت في المدينة، والكل يعلم بطريقة إسلام عمر بن الخطاب، والتي كانت في القرن الخامس الهجري في مكة، عن طريقة قراءته لصحيفة كُتب عليها سورة طه، وهذا يُثبت ما جاء به القرآن، وخصوصا سورة المزمل، حين أمر الله تعالى رسوله بقراءة القرآن على الناس في أول الرسالة، وليس تلاوته، وهذا بيّناه في فقرته.

3- كتاب الله تعالى هو من علمه، ولكل علم قواعده، ولهذا أحكم تعالى آياته، ومن الطرق التي أحكمها بها عز وجل، هو أن الأسماء الحسنى هي كلّها له، كما جاء في الرواية (ذلك الله) أي أن الله تعالى هو السميع العليم وهو كذلك العليم الحكيم، لكن الله سبحانه عندما يأتي بأسمائه الحسنى في آخر الآية، فهي تكون مطابقة لمضمون الآية نفسها، ودلالة السميع ليس هي دلالة الحكيم، وهذا قد بيّناه كذلك في فقرته، وسنأتي بمثالين من كتاب الله تعالى لنبيّن خطأ ما جاءت به الرواية.

- فالله تعالى قال في سورة البقرة127 [**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ**] وهنا لا يمكن أن يأتي الله تعالى باسمه الحكيم، وإلاّ فسيعلم الذين يتدبرون القرآن بقواعده بأن هناك تحريف في الآية، لأنها تتكلم عن دعاء إبراهيم لربه وإسماعيل، وهذا له علاقة بالكلام، ولهذا جاء تعالى بكلمة سميع، وتتكلم كذلك عن العمل الذي يقومان به، والله تعالى يعلم بما يقوم به البشر، ولهذا جاء سبحانه بكلمة عليم. وهكذا يتبيّن بأن أسماء الله تعالى تأتي حسب مضمون الآية، وليس بطريقة عشوائية.

- وقال الله تعالى في سورة هود1 [**الٓر كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**] وهنا كما نرى، جاء تعالى بكلمة حكيم، دلالة على حكمته لصياغ كلمات آياته، وسياقها لغويا، وطريقة كتابتها لكي لا يزيغ الناس عن فهم قوله سبحانه، ثم جاء تعالى بكلمة خبير، دلالة على خبرته لطريقة تفصيل كل شيء حتى لا يحتاج الإنسان لأيّ

كتاب آخر، أو فتوى من عند البشر كما جاء في سورة يوسف111 [مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ]

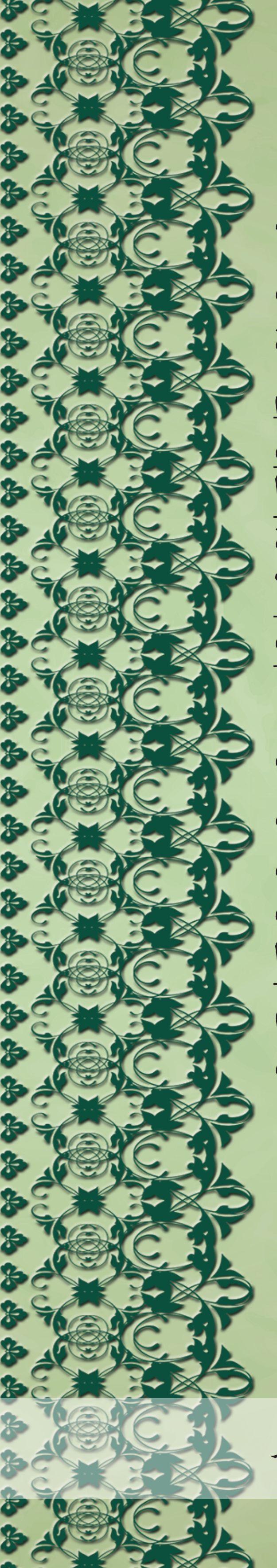
أما بالنسبة للرواية الثانية، والتي تتحدث عن مقاطعة عبد الله بن أبي السرح النبي عند تلاوته القرآن بقوله تعالى في سورة المؤمنون14 [ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا آخَراً] قائلا: فتبارك الله أحسن الخالقين، فردّ عليه النبي ص:< وهكذا أنزلت علي> فأيّ إنسان يتجرّد من تقديس الروايات وروّاتها، فسوف يتساءل، كيف تكون سورة المؤمنون مكية، ويكتبها عبد الله بن أبي السرح في المدينة، ثم يفرّ إلى مكة مرتدّا! فكيف كان يقرأها المسلمون من قبل؟

فالكتاب الذي أُنزل على محمد ص، نزل مخطوطا من عند الله سبحانه، ولهذا نعته تعالى بالقرآن، لأن الرسول علم بمحتوى الرسالة عن طريق القراءة، ولهذا قال تعالى في سورة العلق1 [ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ] ولا يُقرأ إلاّ المخطوط، وهو الذي يكون بطمس أو بدون طمس، وليس القول، ولهذا عندما قام الإنسان بتشكيل حروفه، وقع الاختلاف في القراءات بسبب الاختلاف في قواعد النحو التي وضعها هو بنفسه، وخصوصا بين أهل البصرة وأهل الكوفة، ولهذا غدونا نقول بأن القرآن نزل بسبعة أحرف، وهذا خطأ، والأصح أن الإنسان هو الذي جعله كذلك عندما وضع القواعد اللغوية، وخصوصا النحوية منها، وكان ذلك في أول الأمر على يد أبي الأسود الدؤلي حسب ما وصلنا من معلومات، فلهذا لا يمكن أن نقول بأن هناك من البشر من كتب الوحي لأول مرة، ولكن هناك من البشر من استنسخ القرآن لأول مرة.

والله هو العليم الحكيم الخبير.

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا الفرقان30

الفهـــرس



كل إنسان اعتمد على القواعد التي وضعها الله تعالى في كتابه، إلا واستطاع تدبر القرآن حسب ذكائه والآليات التي يتوفر عليها, لأن الله سبحانه لا يحمّل الإنسان ما لا يستطيع كما جاء في سورة المؤمنون 26 [وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ] ويعفو عن الخطأ كما جاء في سورة الأحزاب 5 [وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا] لكنه لا يتجاوز عن الجهل واتباع الظن كما جاء في سورة البقرة87 [وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ] ولهذا قال تعالى في سورة النجم82 [وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا]

وكلما اتبع المرء القواعد التي وضعها تعالى لتدبر القرآن, إلا وعلم بأن الله عز وجل بريء ورسوله من كل نقطة دم باسمه سفكت, ومن كل نفس في دينها أكرهت أو من ديارها أخرجت, ومن كل صغيرة عند طفولتها أنكحت, ومن كل أنثى من حريتها سلبت وفي البيوت سجنت وفي الأسواق بيعت, كما جاء في سورة التكوير8 [وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ9 بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ] وتيقن بأن الله تعالى هو أرحم الراحمين, وأن رسوله على خلق عظيم, وأن كتابه لا يحث على الإكراه والكره والانتقام, وإنما على الحرية والمودة والغفران.

ISBN : 978-9954-648-54-4 المغرب: 100 درهما خارج المغرب: 10 دولار